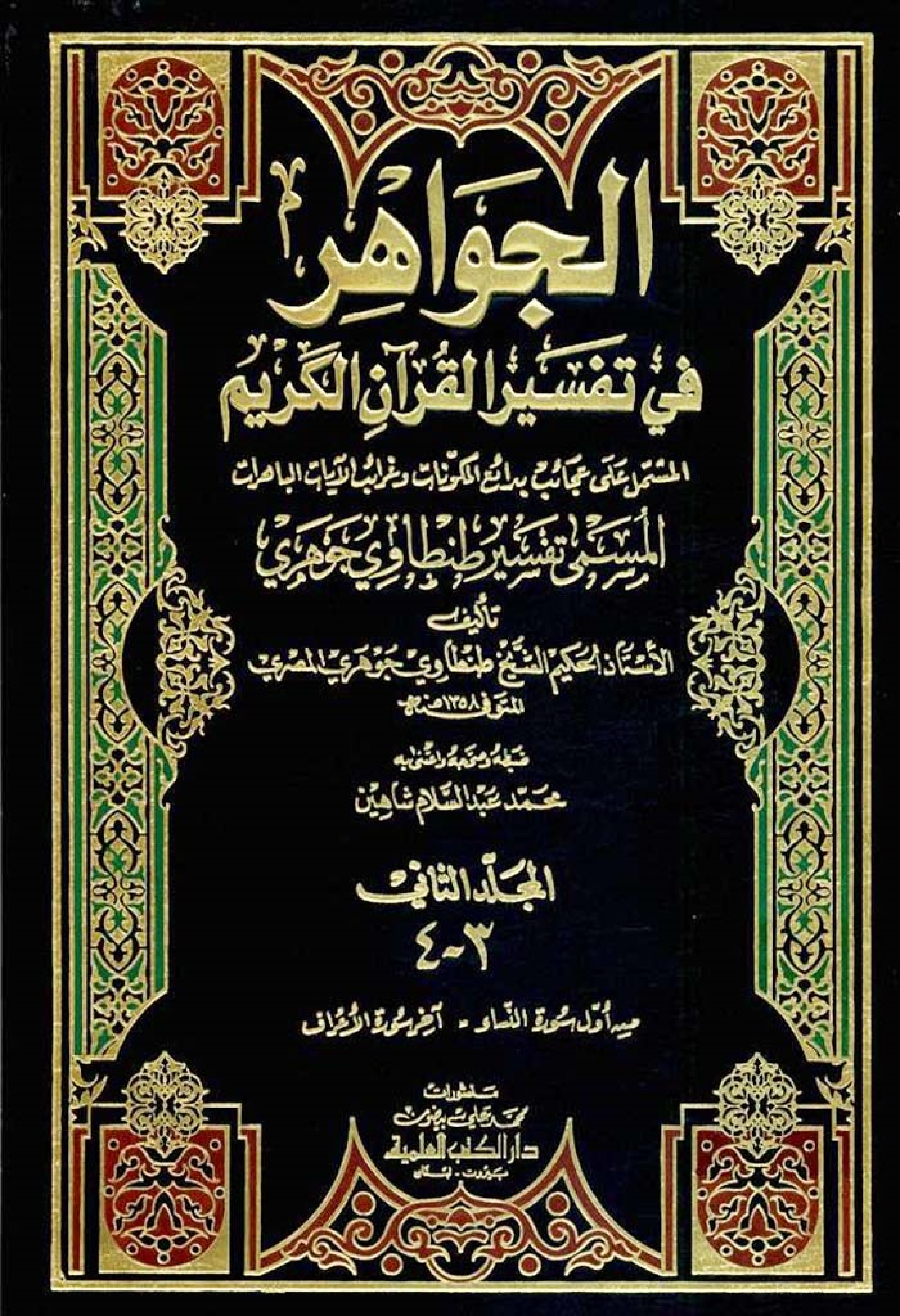

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الثاني
٣-٤
من أول سورة النساء - آخر سورة الأعراف
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

الجزء الرابع

المحتوى:

سورة الأنعام وسورة الأعراف

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[ق: ٣٧]

سورة الأنعام وهي مكية

إلاَّ ست آيات من قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾[الآية: ١٥١] إلى آخر ثلاث آيات، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[الآية: ٩١] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[الآية: ٢١] إلى آخر الآيتين، ويقال: إنها نزلت جملة واحدة ليلاً وكتبوها من ليلتهم غير الآيات الست المستثنيات.

ولهذه السورة ستة مقاصد

المقصد الأول: في إثبات الله بالعلوم الطبيعية، وإثبات الرسالة، ومحاورات شتى مع المعاندين، من أول السورة إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الآية: ٧٣].

المقصد الثاني: في نظرات الخليل عليه الصلاة والسلام في عوالم السماوات، وفي الأنبياء من ذريته، وما يتبع ذلك من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾[الآية: ٧٤] إلى قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[الآية: ٩٤].

المقصد الثالث: العجائب الطبيعية العلوية والسفلية من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾[الآية: ٩٥] إلى قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الآية: ٩٩].

المقصد الرابع: بعض صفات الله ومحاجة الجاحدين والرد عليهم من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾[الآية: ١٠٠] إلى قوله تعالى: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الآية: ١٣٥].

المقصد الخامس: الحلال والحرام في الأنعام من قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾[الآية: ١٣٦] إلى قوله: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الآية: ١٥٠].

المقصد السادس: بعض المحرمات والعدل والهدى والتوبة المقبولة ومضاعفة الحسنات وأنواع من الفضائل وأضدادها من قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[الآية: ١٥١] إلى آخر السورة.

المقصد الأول من هذه السورة قسمان

القسم الأول: من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[الآية: ٣].

القسم الثاني: من قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[الآية: ٤] إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الآية: ٧٣].

القسم الأول

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣ ﴾

التفسير اللفظي لهذا القسم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ تقدم معنى الحمد في سورة «الفاتحة» ويقول أهل المعاني: لفظه خبر، ومعناه الأمر، أي: احمدوا الله، وصيغة الخبر هذه المتضمنة معنى الأمر أبلغ في البيان من «احمدوا»، ثم بيّن المحمود عليه فذكر خلقه للسماوات والأرض وجعله للظلمات والنور والجعل بمعنى الخلق، أي: وخلق الظلمات والنور، فالظلمات كظلمات الليل والكفر والجهل، والنور نور الكواكب والشموس والعلم والإيمان ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بعد هذا البيان وأن الله مستحق للحمد لهذه النعم العظيمة حمده الحامدون أم لم يحمدوه ﴿ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي يعدلون بالله غيره، ويجعلون له عديلاً من خلقه، فيعبدون الحجارة مع إقرارهم بأن الله خلق السماوات والأرض، والجملة عطف على جملة «الحمد لله»، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ أي ابتدأ خلق أبيكم آدم منه، وهكذا أنتم ترجع أكثر الموادّ التي تتغذون بها إلى عناصر مبثوثة من الطين، ولا جرم أن خلق الإنسان أشرف من خلق الطير المذكور في السورة السابقة أنه نفخ فيه عيسى فصار طيراً بإذن الله، فخالق الإنسان من الطين أحق بالعبادة ممن نفخ في صورة الطير من الطين فحيي بإذن ربه، وهذا فيه تقريع للعقول الإنسانية الصغيرة المقلدة التي تعبد المسيح جهالة وغفلة، وقوله: ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ أي أجل الموت، وقوله: ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ أي أجل القيامة ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ أي تشكون أو تجادلون، من المرية أو المراء ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي هو المعبود فيهما ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ الجملة خبر ثان، والأول لفظ الجلالة ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ من خير أو شر. انتهى التفسير اللفظي لهذا القسم.

اعلم أن هذا المقام يستدعي أن تتصل هذه السورة بما قبلها، ولما أخذت أكتب حضر صاحبي الذي كان يسألني في آخر المائدة وقال: إن هذه السورة لا بد أولاً من معرفة ربطها بما قبلها. وثانياً: قد كنت أنت كتبت تفسيراً لأول هذه السورة، وهو هذا القسم الذي نحن بصدده من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ في مجلة الملاجئ العباسية، وذكرت فيه عجائب النور المشتقة من الظلمات الدخانية والفحم، وكيف يكون الدخان المزدرى بين الناس منبعاً للكهرباء تشتق منه، فأرجو إثباته هنا لأنه يفيدنا عجائب من هذه الآية التي جمع فيها بين الظلمات والنور، كما جمعهما في أعمالنا المشاهدة. ثالثاً: لا بد من معرفة سبب ترتيب هذه الأربعة، وهي: السماوات والأرض والظلمات والنور. وهل للكشف الحديث أثر في هذا الترتيب.

وإذا كنا نرى الأئمة رضي الله عنهم في سورة المائدة قد أطنبوا في ترتيب أعضاء الوضوء، حتى إن الشافعي أوجب الترتيب فيها غسلاً، لترتيبها في القرآن ذكراً، فمن الجهالة أن لا يفكر علماء الإسلام

في هذا الزمان في هذه المذكورات الأربعة، ومعلوم أن العلم مقدّم على العمل، وإذا كانت عناية القدماء بالأعمال فلتكن عناية علماء المستقبل بالعلوم أي العلوم الطبيعية، ويقولون: لم ذكرت السماوات فالأرض فالظلمة فالنور، كما ذكر الوجه فاليدان فالرأس فالرجلان، ما السبب في ذلك؟ فقلت: أما مناسبة هذه السورة لما قبلها فذلك أمور:

الأول: أن المائدة قد كثر فيها ذكر ما يحل من الطعام وما يحرم في أول السورة وفي خلالها وفي آخرها، وسورة «الأنعام» فيها ذلك كما سيأتي، حتى إنها سميت باسم الأنعام، وهي داخلة في باب الحلال والحرام.

الثاني: أن السورة المتقدمة مختومة بقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة:١٢٠] والأنعام مستفتحة بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

الثالث: أن سؤال الله لعيسى ابن مريم في أواخر السورة تضمن توبيخ أهل الكتاب على طلب البراهين التي تكون من قبيل خوارق العادات، كالمائدة التي تنزل من السماء، وذكر أيضاً أن عيسى كان يحيي الموتى وينفخ في الطين فيكون طيراً بإذن الله، وكأنه قيل له: إذا لم يكن طلب إنزال المائدة من السماء من الأمور المحمودة، وقد أنذر الله الحواريين لما طلبوها، وذكرت هذه لما سأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خوارق للعادات منه، وقيل لهم: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١] فإذا لم يكن ذلك ممدوحاً فما العمل لمعرفة الحقائق؟ قال الله بعد ذلك: اقرؤوا هذه الكائنات، وأخذ يذكر الحمد على خلق السماوات وخلق الأرض وجعل الظلمات والنور، وكأنه يقول: إذا كنت أنعمت على المسيح أن يخلق طيراً من الطين وينفخ فيه فيكون طيراً بإذني، فأنا خلقتكم أنتم من طين، والتفكير في الطبيعة أهم من التفكر فيما أنعمت به على عبد من عبادي، وهو عيسى، فكيف تتركون أيها الناس هذه السماوات وهذه الأرض وهذه الظلمات وهذا النور، ثم تقولون لأنبيائكم: أرونا آيات وعجائب، مثل طلبكم مائدة من عيسى، ومثل أسئلتكم لمحمد، ونحو ذلك، فيقول له الرجل: من أبي، ويلحف آخر في السؤال. وكيف تغمضون عيونكم وتصمون آذانكم عن هذه المناظر العجيبة، وتطلبون البرهان من المخلوق مع أن الخالق أراكم الآيات فأعرضتم عنها.

أيها الناس، إن العقول القاصرة والنفوس النائمة والأمم الكاسلة هي التي تذر الآيات الباهرات في الطبيعة، وتتلمس ما هو أقل منها بما لا يتناهى من الأنبياء، والأنبياء يشيرون إلى الطبيعة وهم مرسلون من عند خالقها ليعرّفوكم صنعه، ويعلموكم قدره من فعله وبديع خلقه، وكيف تكتفون بمائدة تنزل على عيسى، أو طير من طين أمرته أن ينفخ فيه، ومائدتي أوسع مساحة وأبهى نظاماً وأجمل إحكاماً وأرقى مأكلاً، وأنا من الطين خلقت آلافاً من الطير والحيوان والإنسان، فمائدتي السماوات والأرض لا أرغفة وسمكة وخل وزيتون، بل في هذه الأرض ما تشتهيه كل النفوس، وما يملأ العيون بهجة والقلوب حكمة. ولست أقول لكم آمنوا فحسب، بل أقول لكم قولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي فلتحمدوا الله فضلاً عن الاعتراف بقدرته، والإيمان بوجوده، فإن الإيمان في هذا المقام ليس يكفي ذكره، بل نطلب منكم أن تحمدوا الله على النعم التي شملتكم، والأنوار التي غمرتكم، والجمال الذي غشاكم، والفضل الذي عمكم.

ولما كان هذا المقام عظيماً، ومبدأ سورة الأنعام في مقام سام، لأن هذه المسألة من أهم المسائل، وهي مسألة المعجزات وخوارق العادات، والعلوم الطبيعيات، والانتقال من دور الأطفال إلى دور الرجال، وخلق أمة تكون أرقى من الأمم البائدة، ناسب أن يؤتى هنا بالحمد لله.

واعلم أنه لم يذكر في القرآن من أوله إلى هنا: الحمد لله، إلاّ في الفاتحة وفي هذا المقام. أما الفاتحة فإنها أول القرآن، وبالحمد ابتدئت، لأن الحمد شأنه عظيم، وقد وضحت معناه هناك إيضاحاً تاماً، ولم يعد الحمد بعده إلاّ هنا إيقاظاً للنفوس، وتحريكاً للهمم، وترقية للنفوس، وتنبيهاً لها أن تخرج من دور التقليد إلى دور النظر، ومن مقام الجهلاء إلى مصاف العلماء، ومن دركات الضعفاء إلى درجات الأقوياء، ومن صف العلماء إلى مقام الحكماء، فالحمد هنا لهذه الحكمة مذكور. ألا ترى إلى ما سيأتي في هذه السورة من ذكر نظرات الخليل في النجم والقمر والشمس. ألا ترى إلى ما بعد ذلك من ذكر فلق الحب والنوى، وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، وفلق الإصباح، والاهتداء بالنجوم، وإنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات المتشابهات وغير المتشابهات. أفلا ترى أيها الذكي الفطن أن هذا هو بعينه الآيات البينات الطبيعية الإلهية التي أشار إليها بقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾، فإذا كان الحمد في الفاتحة على تربية العالمين فهو إجمالي.

ولما استأنس العاقل بذلك أخذ هنا يفصل العالم، فذكر السماوات التي هي محل الإشراق، ومنها اشتقت الأرضون، ثم كانت تلك الأرضون تأخذ في الجمود شيئاً فشيئاً حتى تصير مظلمة، ثم يكون الإنسان من الطين، ويأخذ في النور والعلم شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى مبدأ الجمال والبهاء وعالم النور والصفاء، ثم تعرج روحه نيّرة إلى عالم النور، ولا تزال ترقى من نور إلى ما هو أنور منه ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢] كما سيأتي إيضاحه في الجواب على السؤال الثالث. فالله هنا يقول: هذه الآيات والنعم هي التي يجب أن تعقلوها، ومتى عقلتموها عرفتم محمداً ثم الله، لأنه خلق السماوات والأرض. هذا ما أردت ذكره في الجواب الأول.

أما الجواب على السؤال الثاني وهو أن أذكر ما كتبته في مجلة الملاجئ العباسية في هذا المقام، فأقول: قلت هناك بعد إيراد الآيات من قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾: يقول الله: إن الله يستحق الحمد على نعمه الجسيمة وآلائه العظيمة ومنحه الكبيرة، حمده الحامدون أم لم يحمدوا، كفر به الناس أم عبدوه، ثم عدد من صنوف نعمه أربع نعم: خلق السماوات والأرض، وإنشاء الظلمات وإنشاء النور؛ فالسماء ذات الكواكب والشمس والقمر، والظلمات كثيرة كظلمة الصخر والبحر والكهف والليل، كما أن الضلال متنوّع الصور متكثر الأشياء بخلاف الهداية، فهي الصراط المستقيم والنور كله هاد للناس لا ضلال فيه ولا غرور. وكأنه عزّ وجلّ يقول: الله محمود على هذه العجائب البديعة، أي مستحق الحمد، لأنه خلقها نعمة على العباد ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ عن الحمد، بل يكفرون بنعم الله عزّ وجلّ أو يسوّون بربهم غيره كالأوثان. وكيف يسوّون به غيره مما لا يقدر على شيء، وهو الذي خلق هذه العجائب.

س ــ اذكر لي مثلين اثنين بحيث يكون المثل شاملاً لعجائب السماوات والأرض وبدائع الظلمات والنور.

ج ـ تصوّر أعظم قصر منيف لملك عظيم، مرقش السقوف مزيّن الجوانب والأركان والحيطان والسقف، بما لا يرى إلاّ في خزائن الملوك، وفيه سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابيّ مبثوثة، وترى الطنافس «نحو السجاجيد» طويلة الوبر خالية الشعر خلابة النظر. وفي وسط ذلك القصر حجرة بهية جميلة مزخرفة، معلق على بابها ثمان ستائر، فأما السبع الأولى فإنها ذوات ألوان مختلفة، فمنها الأحمر ومنها الأصفر، ومنها الأزرق، ومنها النيلي، ومنها البرتقالي، ومنها الأخضر، ومنها البنفسجي، فهذه الستائر السبع المختلفة الألوان فإنها تتضام وتتداخل وتتحد وتصير ستارة واحدة ذات لون أبيض تسرّ الناظرين. وأما الستارة الثامنة فهي سوداء، فيرجع عدد الستائر اثنتين بيضاء وسوداء. هذان الساتران يتعاقبان على تلك الحجرة التي في وسط القصر، وفي داخلها رجال كثير ونساء. فإذا أسدل الستار الأسود ظهر ما في القصر من الحجرات والأركان ونقوش السقف والجواهر المرصعة في أكتافه، فاتضح بالظلمات ما في القصر من الفرش المرفوعة والأكواب الموضوعة والجواهر المرصعة والدراريّ اللامعة واليواقيت البهجة. فإذا أسدل الستار الأبيض حجب القصر وما فيه، وحجب البياض عن سكان الحجرة كل جمال وبهاء، ولم يروا إلاّ النقوش المبدعة واختلاف الألوان في أشعار الطنافس المفروشة تحت الأرجل من أحمر قان وأخضر ناضر وأزرق زاهر وأصفر فاقع وأبيض ناصع، فالساتر الأبيض يحجب القصر عن سكان الحجرة ويضيء داخلها، والساتر الأسود يظلم داخلها ويضيء خارجها.

س ـ هذا التمثيل غير معقول، وكيف يكون الظلام معطياً الإبصار، وكيف يكون الضياء حاجباً عن العيون بدائع القصر وغرائب النقش؟.

ج ـ أما القصر فهو العالم من السماوات والأرض، وأما الساتر الأسود فهو الليل، وأما الأبيض المشكل من سبعة ألوان، فهو ضوء النهار، وأما منقش السقف ومزوق الجدران والحيطان فهي النجوم، وأما الحجرة التي فيها السكان فهي الأرض عليها نوع الإنسان، والليل إذا أرسل سدوله ونشر مطارفه السود فإنه يحجب عنا ما أقلت الأرض من الأشياء العجيبة والنقوش البديعة، ويرينا النجوم وضياءها من السيارات الصغيرة والثوابت الكبيرة والمنازل العالية والبروج المشيدة، ومن دائري النجمة القطبية، أو بنات نعش، أو الفرقدين الساهرين، أو الثريا، أو السماك الرامح إلاّ، إذا حجب الظلام زينة الأرض عن الأنام، وطمس نقوشها، فأبرز جمال العالم في سمائه وزينته وبهائه، ولا جرم أن الأرض المعبر عنها هنا بالحجرة أصغر من كل نجمة من نجوم السماء، والنجوم لا نهاية لعددها ولا إحصاء لأجرامها، فهذه الكواكب السماوية هي العالم كله، ولسنا نراها إلاّ في الظلام، فأما الضياء النهاري فإنه يحجب عنا العالم كله، ولا يرينا إلاّ ما تحت أرجلنا، وهي الأرض ونقوشها وزينتها من النبات والحيوان والإنسان والبر والبحر والطير، فقد وضح أن الظلمة أضوأ من النور، وأن النور حجاب الأبصار عن رؤية كل ثابت وسيار.

س ـ لقد فهمت ما وصفت، ولكني لم أفهم كيف صارت الألوان السبعة لوناً واحداً.

ج ـ إن ما تراه من الضوء المنبسط على الأرض الذي يشعّ من الشمس إنّما هو الألوان السبعة كما وصفنا، فالضياء مركب من سبعة ألوان، والظلمة واحد بسيط، قال: كيف تفسر القرآن وتقول

بلا برهان؟ قلت : ألم تر إلى قوس قزح الذي يظهر في السماء حين المطر، وتراه ذا سبعة ألوان يقابل الشمس أينما كانت، فإن كانت في الأفق الشرقي قابلها في الأفق الغربي، وإن تبدّت في الأفق الغربي بدا ظاهراً في الأفق الشرقي، فإن ارتفعت ارتفع، وإن انحطت فهو بحذائها تابع لها. أليست تلك الألوان لون الشمس تحلل ألواناً وتظهر للناس عياناً.

س ـ فاضرب لي مثلاً أقرب، وائت ببرهان أوضح.

ج ـ ألم تر البلور المضلع الذي تراه في النجفات المتقدات. ألم تر كيف حلل النور في زواياه وصار الضياء الأبيض ألواناً، وقد تراه في قطرات الماء المنتثرات في الرشاش، ذلك بيان ما عنه سألت، وإيضاح ما له طلبت. ألا وإن هذه لمحة من لمحات قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾.

س ـ اضرب لي مثلاً يمثل حالنا على الأرض وحال الكواكب الجارية.

ج ـ إن مثلنا على الغبراء كمثل سمك يجري في بحر لجيّ تجري من فوقه السفن الجاريات في البحر كالجبال فوق سطح الغبراء، وما أجهل السمكات بالسفن الجاريات، فهكذا حالنا مع الكواكب، إنهنّ ليجرين في السماء ولا علم لنا بها إلاّ كما يعلم السمك من حال المسافرين في السفن الجاريات في البحار.

س ـ كيف تعرف أن الألوان السبعة ترجع إلى لون واحد، ومن أيّ علم نقف على ذلك؟.

ج ـ على المسلمين في أقطار الأرض أن يتعلموا العلوم الطبيعية، عليهم أن يفهموا ما ذرأ الله في الأرض والسماء، عليهم أن يفهموا الحيوان، ويدرسوا النبات، ويفقهوا ما ذرأ الله لهم في العالم من الجمال والبهجة والبهاء. ألم تر كيف كان معنى الآية التي نحن بصددها. هكذا الله مستحق الحمد على النعم التي أنعمها على العباد من السماوات والأرض والظلمات والنور، ومع أنه مستحق للحمد والشكر، ترى الذين كفروا بربهم الذي رباهم بهذه النعم يعدلون عن الحمد، فيكفرون بنعمه ولا يشكرونه عليها، وكيف يشكر المسلمون نعم ربهم إذا جهلوها، فالشكر لا يكون على المجهول. ألا فلتعلم هذه العلوم في مدارس الإسلام وإلاّ حقّت علينا كلمة العذاب.

س ـ إذن تريد أن نقرأ كل علم مما يقرؤه الغربيون، وكأن ديننا يطلبها كلها.

ج ـ نعم، إني أقول بأعلى صوتي: ما دام المسلمون يجهلون هذه العلوم فإنهم عن شكر الله غافلون، ولذلك ضرب عليهم الذل خيامه، وأوردهم الجهل موارد الهلكة، وسلط عليهم جيرانهم فأحاطوا بهم من كل فج عميق، فمن نفر الناس عن هذه العلوم فإنه ضالّ مضلّ جاهل حقود. هذا كلام الله وهذه شريعة نبيه. وهذا حجة الإسلام الغزالي لما شرح باب الشكر في الجزء الرابع من الإحياء ذكر السماء ونجومها، والأرض وجمالها، والسحب وبرقها، والرعد وصوته، والبرق وضوءه، وقال: من عرف الله بهذه المخلوقات، وتأمّل هذه الكائنات، ودرس هذه النظامات، فهو الشكور. ومثله القطب الشيرازي والفخر الرازي. فهل هؤلاء الأعلام ضالّون، وأضدادهم ممن يصدّون عن هذه العلوم مهتدون؟ وإذا كان القرآن ونصوص العلماء لا تقنع الجاهلين، فهل الجاهلون هم المحقّون؟ اللهم ألهم أمة الإسلام وعلّم طلاّب الدين جمالك وجلالك، وأرهم محاسن صنعك، حتى يقولوا: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

س ـ لقد قرر الإمام البيضاوي في هذه الآية تفسيرين، فهل توضحهما وتأتي بمثل آخر عليهما.

ج ـ التفسيران اللذان ذكرهما الإمام البيضاوي يرجعان إلى تقدير الإعراب، فإن جعلنا التقدير أن نعطف الجملة الثانية على جملة الحمد، كان المعنى هكذا: الله مستحق المحامد على نعمه المذكورة، ثم الذين كفروا بالله الذي رباهم بتلك النعم يعدلون عن حمده ولا يشكرونه، وإن عطف على جملة «خلق» صار المعنى هكذا: الحمد لله الذي خلق ما ذكر ثم الذين كفروا يسوّون بربهم الذي خلق ذلك غيره من الأوثان التي لا تخلق، ويكون أول التفسيرين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾[يونس: ٦٠]، وعلى التأويل الثاني كقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[النحل: ١٧].

س ـ فقرِّب لي مثل نعمة الله التي نجهلها، وكيف يكون الجهل مانعاً من الشكر، وكيف تكون العلوم التي يدرسها التلاميذ في أوروبا شكراً لله عزَّ وجلَّ، فبيّن هذا بمثال محسوس مشاهد في المنازل، ودع السماء ونجومها، والشمس وقمرها، والليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس، فقد تكرر على أسماعنا وتوالى على عقولنا.

ج ـ هل تعرف الفحم الحجري والفحم البلدي، وهل شاهدت الدخان المتصاعد منهما المدنس للثياب المسوّد للفرش، الذي يظلم المكان وتدمع منه العينان. أخير هو أم شرّ؟ فقال: بل شر. قلت: إن ذلك الدخان المنبعث عن الفحم الحجري نعمة من الله كبرى على العلماء، ومصيبة على الجهلاء، فإن هذه الظلمة المغشية للمنازل، المدنسة للثياب، ذات الرائحة الكريهة، والمنظر القبيح، تعطي للناس نوراً وتصبغ الثياب بأجمل الألوان، وتولد الكهرباء، وتدير الدولاب، وتسوق القطار كما يسوقه البخار، وتسير السفن في البحار وقطارات الترام في شوارع الإسكندرية والقاهرة. فتعجب كيف أبدع الله النور والظلمة وسوّاهما وأحكمهما بحيث اتخذ النور من الظلمة، والحركة من السكون، والجمال من القبح. إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر المسلمين نائمون.

س ـ هذا خارج عن المعقول، وكيف صار الدخان نوراً؟ أوضح لي هذا المثل.

ج ـ اعلم أن الله عزَّ وجلَّ أدهش العقول بعجائب حكمه وبدائع صنعه، وجعل هذا الفحم الذي نراه في بيوتنا على أربعة أنواع: الحجري والعظمي والنباتي والطبيعي المسمى فحم الجرافت. وهذه الأنواع الفحمية كلها من نوع الظلمات. وهناك فحم آخر يسمى فحم المعوجات، وهو الذي يتخذ مما يتراكم من الدخان المستطير من الفحم الحجري حين احتراقه المتصاعد إلى أعلى، فيتخذ ويحصر ويضغط عليه ويجعل أشكالاً مستطيلات، وهذه هي المسماة فحم المعوجات. فإذا أخذت قطعة من تلك وألبست من أعلاها بقطعة نحاس سميت العمود النحاسي، فإذا وضع ذلك العمود النحاسي في إناء من الفخار الذي كثرت مسامه، ووضع ذلك في بطارية، ثم أتي بعمود من الزنك الذي يسميه علماء الكيمياء بالخارصين ويسميه العامة بالتوتياء، وهو الذي يتخذ منه الأدلاء «جمع دلو» التي يستقى بها المسماة «جرادل» فيحصل عندنا الآن العمود النحاسي وعمود التوتياء الموضوعان في البطارية، ثم يؤتى بملح النوشادر الذي يبيض به المبيضون ويذاب في الماء، ثم يوضع ذلك الماء المذاب فيه ملح النوشادر في البطارية. فتحلل أجزاء من التوتياء، ويحلل الماء كذلك إلى أوكسجين وأودروجين

ويحصل تفاعل ما بين الفحم وما أحاط به من المركبات الجديدة، فيتولد تيار كهربائي ما بين الموجب وهو عمود النحاس أو فحم المعوجات، وبين السالب وهو الزنك. فالخلاصة أن دخان الفحم الحجري المضغوط الذي سمي فحم المعوجات إذا وضع في بطارية وقرن بقطعة من الزنك، وجيء معهما بماء مذاب فيه ملح النوشادر فإن الله عزّ وجلّ يولّد بين تلك الأشياء الآنفة كهرباء. فتعجب كيف كان دخان الفحم المظلم مشرق الأنوار ومولد الأضواء، ومجري العربات ومسير السفن والقطرات وسائق الترام، وموقد البيوت، وشارح الصدور، وضارب أجراس المسرّة «التليفون».

س ـ ما معنى قولك كهرباء؟.

ج ـ إنها مثل ما يحصل للفلاح حين يعثر على سمك يسمى «أبا الرعاش» فهذا السمك يحدث حالة في جسم الذي يصطاده، فهذه كالكهرباء.

س ـ كيف يحدث الدخان ضوءاً وهو ظلمة؟.

ج ـ إن الفحم الحجري إذا أحرق بالنار في إناء عظيم تطاير دخاناً فيستقبلونه في ماء كما يمرّ دخان مدخن الحشيشة في ذلك الذي يسمونه «الجوزة»، فإذا مرّ من ذلك الماء رسب فيه القطران ومرّ خالص الدخان إلى ماء آخر ثم آخر حتى يصير دخاناً صافياً تاماً، وما تخلف في تلك المياه فإنه يعطي أصباغاً من أحمر وأصفر وغيرها حتى أوصلها بعض الألمانيين إلى ألفي لون، وأما الدخان الصافي فإنه يمرّ في الأنابيب متجهاً إلى الشوارع والمنازل وتجعل له منافذ في الأمكنة المراد إيقادها، فمتى لمست النار اشتعلت، وذلك المسمى «غاز الاستصباح» الذي نستضيء به في شوارع القاهرة والإسكندرية، وذلك غير ضوء الكهرباء التي شرحناها فإنها تولد النار والضوء والحرارة والحركة.

س ـ عرفت فحم المعوجات والفحم الحجري وكيف ولدت الكهرباء منهما، وكيف كانا مصدرين للأضواء والألوان، فما فائدة الفحم العظمي والنباتي والجرافت؟.

ج ـ الفحم العظمي هو المتخذ من العظام المحرقة، ومن خواصه سلب ألوان السوائل المارة به، حتى إن الخل الأحمر إذا تخلله سلب لونه. والفحم النباتي المتخذ من الأشجار يذهب بالعفونة وله منافع أخرى ليس كلامنا فيها، فإن الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، وهكذا ليس لنا أن نشرح فحم الجرافت الذي خلقه الله عزّ وجلّ في الجبال كهيئة صفائح، وجعله نافعاً للكتابة وهو الذي يسمى بعد وضعه في خشب الدردار «أقلام الرصاص» على أن الفحم العظمي والفحم النباتي يصلحان لما يصلح له الفحم الحجري من إحداث الأضواء ولكنه هو المستعمل النافع. ومن عجب أن الماس من الفحم، حتى إن العالم «داڤي» ضغط على الكربون الخالص فصار ماساً، وحلل الماس فرجع إلى كربون. أليس من العجب أن يكون الفحم منبع الكهرباء والنور والحركة، وأن يصير ماساً تحلى به الغانيات، ويجعل ذخيرة في الخزانات. فما أجمل العلم وما أعجب الحكمة. فمن ذا الذي يعلم هذا ولا يأخذه العجب كل مأخذ من الجهل الفاضح الذي حلّ بنا معشر المسلمين، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ يقول: إنه أهل للحمد على هذه النعم، والذين كفروا يعدلون عن الحمد على أحد التفسيرين، ونحن غافلون عن حكمه في عجائب صنعه، فإذا جهلنا نعمة الدخان فكيف نشكره تعالى عليه. اللهم علّم أمتنا وألهمنا

الحكمة . اللهم إني بريء ممن يصدّون عن العلوم . اللهم إني أعجب لهذه الأنوار الناجمة من تلك الظلمات . أتعجب كيف جعلت النور من الدخان . كيف أدرت الدولاب بالكهرباء الناجمة من الدخان وهو فحم المعوجات . أتعجب كيف خلقت الماس من الفحم . اللهم إنك أعززت قوماً بالعلم وأذللت قوماً بالجهل . اللهم ألهمنا العلم والحكمة إنك أنت السميع العليم . فهذه جوهرة من جواهر بحور أنوار أسرار قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ وهبة من نسماتها ، ونفحة من نفحاتها ، وسرّ من أسرارها . اللهم ألهمنا العلم والحكمة ، وأذق أمتنا الإسلامية حلاوة العلم كما أذقتها مرارة الجهل ، وأنلها درجات العز كما نزلت لسوء طالعها في دركات الجهل إنك سميع عليم .

الآية الثانية والثالثة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) ﴾ .

أثبت الله عزّ وجلّ فيما تقدم وحدانيته بما أبان من خلق السماوات والأرض ، وما أوقد من النور المنبلج ، وما أرخى على الكون من ستائر الظلمات في جنح الظلام ؛ فأورد في هذه الآية دلائل البعث بما صدع من الحق ، وما أزاح من الشك وأبان من السلطان والحجة والبرهان ، إذ يقول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ فإن أصلكم وهو آدم منه ، وأنتم يا بني آدم من التراب خلقتم . ألا ترون إلى أجسامكم كيف كانت من العناصر الأرضية مركبة ، وكيف لا وأنتم تغتذون بما أنبتت الأرض مما حملت على ظهرها من كل نابتة ، أنفذت عروقها في بطنها فاخضرّت واستوت على ساقها وازيّنت . النبات إنّما ترعرع ونما بما سبق إليه من الهواء ، وما أوتي من الماء ، وأتيح من العناصر الأرضية ، وليس للحيوان إلاّ النبات والمخلوقات العامة من الهواء الخ ، فليس جسم الإنسان غريباً عن هذا العالم فهو من ذلك كله ركب ونظم على أعجب نظام وأبدع إتقان . ومن ذا الذي يذكر عناصر الجسم الإنساني ونظامه وتركيبه ثم لا يتعجب كيف ضم عنصراً إلى عنصر ، وهواء إلى ماء ، وفسفوراً إلى حديد ، ورملاً إلى جير ، فجمعهنّ عزّ وجلّ بمقدار وسوّاهنّ بحسبان ووزنهنّ بميزان . الإنسان طين يمشي وجماد يتحرّك وموات يعقل . جسمك مركب مما تدوسه بقدمك وتأكله بفمك وتستنشقه بأنفك من الأرض والغذاء والهواء . أنت تعقل وتفكر وتصوّر العالم في عقلك ، تزن الدنيا والآخرة بفطنتك وذكائك . ثم إذا حللت جسمك ألفيته مما تعافه الأنفس ولا تلذّ به الأعين ، ففي العظم فسفور وجير ، وفي العين رمل مصنوع مع موادّ أخرى تكوّن الجسم الزجاجي فيها كما يفعل الزجاجيون ، ولولا الحديد ما صلح الدم الحيواني ، لا ينطق الرمل كلا ، ولا الجير ولا الحديد ، ولما اجتمعت وانتظمت هي وغيرها وتآلفت واتحدت ، أحدث الله فيها سرّه المصون وعلمه المكنون ، ونفخ الروح وأنزل العلم ، وقال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة : ٣٠] . ومن ذا الذي جعل مقرّ الشهوة في المعدة وما تحتها ، ثم أحلّ آثار الغضب في القلب إذ يهتاج ساكنه ، ويغلي مرجله ، ويحمى وطيسه إذا ما أغضب الإنسان ، وكيف جعل العقل مستقراً في الدماغ . تراب وماء وهواء وعناصر شتى اتحدت معاً فكان أعلاها للملك ودولته وأعوانه من سمع وبصر وذوق وشم ، فالعقل هو الملك الأعلى وله المكان الأعلى «وهي الرأس» ، فأما القلب فمستوى الغضب ومثار الدم ومصدره ومورده . ولقد تجلى للعلماء والحكماء فضل العقل على القوة الغضبية ، وهي أعلى من قوة الشهوة .

فتعجب كيف كان الأعلى لأعلاها والأوسط لأوسطها، فأما الأدنى فهو أجدر بالشهوات وتعاطي الماديات المغذيات من المواد الأرضية، فمستقرها المعدة والأمعاء، ثم كيف نظمت الأعضاء وكوّنت العضلات. أليس هذا كله من العجائب وكيف يكون طول كل إنسان ثمانية أشبار بشبره، وإذا مدّ يديه إلى أعلى كان طوله عشرة أشبار، وتكون سرته إذ ذاك في وسطه بحيث لو قست من أسفل القدم إلى السرة ومنها إلى أصابع يديك الممدودتين لكان كل جزء خمسة أشبار، وإذا مدّ يديه إلى الجانبين على طول الباع كان طوله كعرضه وكلٌّ ثمانية أشبار. ذلك كله من الطين المركب، ذلك العجب في صميم الإنسان، وجسم الإنسان مركب من عناصر الأرض والماء والهواء والمعادن، وهي لا تعقل ولا تحسّ ولا تبصر، فلما اجتمعت نظمت بأبدع نظام، وقسمت ورتبت وهندست وجعلت بمقياس، بحيث صار طول الوجه كطول القدم شبر وربع بشبر الإنسان، إذا اعتدلت خلقته واستقامت في سائر ما تقدّم ثم تحركت ونطقت وعقلت ودبرت النفس والمنزل والمدينة، وربما أدارت إدارة الكرة الأرضية، وهي كما تعلم عناصر مبثوثة وأجزاء ملقاة، فمن ذا الذي كوّنها ونظمها وهندسها وأنطقها وسوّاها وعلمها وألهمها فجورها وتقواها؟ نعم هو الله، فهذا كله داخل في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾، ومعنى قوله: ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ قدّر لكل امرئ وقتاً يموت فيه، ويطلق الأجل على مدة الحياة ما بين نفخ الروح والموت، قوله: ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ هو أجل القيامة أو المدّة ما بين الموت والبعث، وعلى ذلك يصير المعنى هكذا استدلالاً على البعث هو الذي جمع العناصر المفرّقة من الطين وما في معناه، فنظمها وهندسها فصوّركم منها، ونفخ فيها الروح وقضى لكم أجلاً تنتهون إليه وغاية تصلونها وهو الموت، وارتضى لكم مدّة تعيشون فيها، وهي ما بين نفخ الروح في الجسم وقبضها بالموت، وعنده أجل آخر قضاء لكم وهو القيامة أو المدّة التي ما بين موتكم وقيام الساعة، فإذا كان الله عزَّ وجلَّ قادراً على جمعكم من شتات العناصر المفرقة والأجزاء المبدّدة، وعلى ضرب أجل لبقائكم، فكيف تمترون وتشكون في البعث، وقد شاهدتم أوّل الخلقين وأوّل الأجلين، ومن قدر على ما سمعتم من المدهشات في خلقكم وترتيب أبدانكم، فهو أقدر على إعادتكم، فالعطف بـ «ثم» هنا استبعاد لامترائهم وشكهم من بعد أن علموا أنه خالقهم وخالق أصولهم ومنظمها، ومحييهم إلى آجالهم، فإن من قدر على خلق العناصر وترتيبها وتنظيمها وتصويرها ونفخ الروح فيها، وإبقائه إلى ما يشاء كان أقدر على جمع تلك الموادّ وإحيائها ثانياً، فظهر بهذا أن الآية السابقة توحيد، واللاحقة استدلال على البعث.

ولما كان الناس كثيراً ما يخدعون أنفسهم فيقولون: نعم، آمنّا بالله وباليوم الآخر، ولكنّا إنّما نفعل المعاصي بحيل نبتغيها نقلناها عن السابقين كأن نحتال على عدم الزكاة ببيع المال لولد أو قريب أو زوج قبل أن يحول الحول، فيتجدد الزمن وتسقط الزكاة ويظنّ الفقيه أنه بذلك نجا من الإثم وتخلص من العقاب، أو يأكل الرجل ويشرب في رمضان في كسر بيت ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ ﴾ [البقرة: ٩]، أو يصلي ساهياً، قال الله بعد ذلك: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ كأنه عزَّ وجلَّ فيهما لكمال علمه وإحاطته بالكليات والجزئيات، وقوله: ﴿ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ ﴾ في بيان وتقرير، يقول بعد أن قرّر التوحيد والبعث: إن الله أحاط بالسماوات والأرض علماً لا تخفى

عليه فيهما خافية فكأنه فيهما، فهو يعلم سركم وجهركم، ما يخفى وما يظهر من أعمال أنفسكم، فإنها من العالم، ويعلم مكتسبكم من أعمال الجوارح والأعضاء، فخافوا عقابه، فهذه الآيات الثلاث منظمة هكذا: أولاها توحيد، والثانية للبعث، والثالثة إثبات علم الله بما في الآفاق والأنفس ليخاف الناس يوم الحساب ويستقيم أمر المعاش ليفوزوا يوم القيامة بالثواب وينجوا من العقاب. تَمَّ الكلام على السؤال الثاني.

الجواب على السؤال الثالث، وهو ما كشفه العلم في ترتيب هذه الأربعة وهي السماوات والأرض والظلمات والنور.

عجائب القرآن في العلوم الحديثة

وإنه حرام على أهل العلم في أقطار الإسلام أن يختموا على قلوب الشبان، فلا يلفتوهم لهذا الجمال، لنبتدئ الآن في شرح السؤال الثالث. الكلام على خلق السماوات ولماذا قدّم؟ فقلت لصاحبي: اعلم أن ترتيب هذه الأربعة هو الذي جاء به العلم الطبيعي والفلكي وعلم طبقات الأرض. قال: حدثني كيف كان ذلك. قلت: تصوّر أنك في مكان خال ليلاً في فضاء متسع وقد رأيت حولك ظلاماً حالكاً، وهناك نجوم مبصرات في أقطار السماوات. قال: تصوّرت ذلك. قلت: والنسمات تهبّ عليك وحفيف الأشجار وصرير الماء وأصوات الحشرات في الحدائق الغنّاء والأحراش والزروع، وليس في المكان إلاَّ أنت تسمع هذه النغمات المختلفات، وقد صفت نفسك وانشرح صدرك ورأيت جمالاً يحيط بك. قال: تصوّرت ذلك. قلت: وأنت تعلم أن النجوم الجميلات التي أحاطت بك تبلغ مئات الملايين. قال: نعم. قلت: وكل واحدة منها غالباً أكبر من شمسنا بآلاف الآلاف، ولكل كوكب من هذه الكواكب سيارات مثل أرضنا. قال: نعم. قلت: إن لم تكن قرأته في المدارس فقد مرَّ في هذا التفسير. قال: قرأت هذا وذاك. قلت: فهل تدري أيّ شيء من هذه خلق أوّلاً؟ قال: اعلم أن العالم كان أصله مادة لطيفة لا تؤثر فيها المؤثرات، فلا الحرّ ولا البرد يؤثران فيها، وهذه هي المسماة بالأثير، ثم هذا الأثير يكوّن منه ضوء وحرارة وحركة وكهرباء ومغناطيس، وهذه المذكورات ينقلب بعضها إلى بعض، فالحرارة تكون حركة وبالعكس. قلت له: لأفصل لك هذا المقام بعض التفصيل، فأقول: إن الجرم يشاهد على ثلاثة أحوال، إما أن يكون جامداً فتكون فيه الصلابة واللدونة والتبلور مثلاً والأشكال المختلفة، وإما أن يكون سائلاً كالماء، وهو يفقدها كلها، فلا صلابة ولا لدونة ولا تبلور ولا شكلاً ثابتاً، بل هو سائل لا لون له بل هو شفاف، ولا كثافة بل هو لطيف، وإما أن يكون غازاً، أي جسماً دخانياً، والماء إذا صار غازاً بالبخر مثلاً زاد تمدداً وانبساطاً، فيزيد حجمه ١٧٠٠ مرة عن حاله وهو سائل، وتصبح الأجسام الغازية كلها شفافة متحدة لا أثر فيها للصلابة ولا للدونة ولا للون ولا للشكل ولا لغيرها، وتتبرأ من كل ما تتنوّع به السوائل والجوامد، ولا تختلف الغازات عن بعضها إلاَّ في عوارض قليلة كالوزن، وبعض أعراض أخرى.

وقد أثبت العلاّمة «كروكس» حالاً رابعة بتجارب خاصة تصير فيها المادة ألطف من الغازية، فيسرع التهابها وتضيء، ويكون بها شعاع كهربائي تقوم به أشعة رتنجن، وتسمى الحالة المشعة، وهي تبعد في اللطافة عن الغازية أكثر من ابتعاد الغازية عن الحالة المائية. وهناك حال خامسة وهي الأثيرية،

أي أن تكون المادة أثيراً وهي لا تقبل الوزن، وتكون منتشرة مالئة الكون بأسره، وباختلاف اهتزازها تولد الحرارة الكهربائية والأشعة المرئية والتي لا ترى. وهناك حال سادسة لم يقل بها إلاّ علماء الأرواح إن للروح جسماً سيالاً لا يفعل فيه أقسى الحرّ ولا أشدّ البرد وأيّ فعل، فهذه الأحوال الست هي آخر ما وصل إليه العلم الحديث في المادة، فألطفها الشفاف الذي هو أقرب إلى الأرواح ثم الأثير ثم المشعّ ثم الغاز ثم السائل ثم الصلب. فترى الزرع والحيوان والأشكال الكثيرة في حال الصلابة، فيكون هناك الاختلاف أكثر، ويكون الاختلاف في الماء أقلّ، فالاختلاف في حال الغلظ، وكلما صفا الجسم كان أقرب إلى الوحدة، فالوحدة في اللطافة والكثرة في الكثافة. وأصل هذه العوالم من مبتدأ أمرها كانت لطيفة بالحالة الأثيرية وما يقرب منها، ثم حصل تجاذب وتدافع، فتكوّنت شموس كثيرة لما تقدّم، وتلك الشموس هي التي نراها. وهذه الشموس دارت مئات الملايين حول نفسها وهي في حالها النورية الشفافية، ثم أخذت تتقلص شيئاً فشيئاً وأخذ بعضها ينفصل عنها من عند خط الاستواء فيها بسبب سرعة الدوران، فتكون السيّارات كالأرض والمرّيخ والمشتري الخ، فالأرض إذا تكوّنت بعد الشمس. وعلى هذا تكون السماوات وهي الأجرام الأثيرية والشموس التي تجري فيها مخلوقة قبل الأرضين، لأن الأرضين ما هي إلاّ تلك الكرات المنفصلات بعد تكوّن الشموس التي خلقت من الأثير أو فيه، فثبت بهذا ثبوتاً علمياً لا يشكّ فيه أحد من أهل الأرض أن السماوات خلقت قبل الأرض، فهذا هو السبب في ذكر الأرض بعد السماوات. فقال: ولماذا أفرد الأرض؟ قلت له: أذكرك بأني قلت لك: اجلس في أرض قفراء والسماء حولك، فهل رأيت إلاّ أرضاً واحدة وهي التي أنت عليها، أما الأرضون الأخرى فلم نرها. قال: نعم. قلت: هو ذاك. قال: حدثني إذن عن الأرض وعن الظلمات وعن النور كما وعدت بالكلام على خلق الأرض. فقلت: أما الأرض فإنها لما انفصلت عن الشمس كانت حارّة حرارة شديدة. قال: إذن هي كالشمس. قلت: كلا، إن الشمس ربما كانت تقدّر بمئات الآلاف من الدرجات ونحن لا ندريها، ولكنّ الأرض أمكننا معرفتها. قال: وكيف ذلك؟ قلت: بعلم طبقات الأرض. قال: حدّثني عنه وأوجز. قلت له: إن وجه الأرض كانت حرارته إذ ذاك نحو ٣٣٠٠ ثلاثة آلاف وثلاثمائة درجة من الحرارة. قال: أنا أعرف معنى درجة الحرارة، ولكن أرجو إيضاحها لمن يقرأ علم الطبيعة. قلت: أنت تعلم أن الماء يكون ثلجاً. قال: نعم. قلت: فإذا كان مقطراً فإنه في حال سيلانه تسمى درجته صفراً، فإذا سلطنا عليه النار وغلا وفار فهذه تسمى مائة، فالأحوال التي طرأت على الماء حتى أوصلته للغليان قسموها مائة درجة، وجعلوا هذه الدرجات مقياساً. قال: فهمت، ولكن قل لي من أين جاء لنا أن الأرض كانت حرارتها ٣٣٠٠ درجة عند انفصالها عن الشمس؟ ومن أين جاء لنا أن الشمس كانت أكثر منها حرارة. قلت: لأن قشرة الأرض تبلغ مائة كيلومتر عند علماء طبقات الأرض، وكل ثلاثين متراً تنزلها في باطن الأرض ترتفع الحرارة درجة، ففي عمق ٣٠٠ متر عشر درجات، وفي عمق ثلاثة آلاف متر مائة درجة وفيها يغلي الماء، فإذا ضعفنا هذا المقدار ٣٣ مرة وثلثاً بأن تعمقنا إلى مائة كيلومتر صار عندنا ٣٣٣٣ درجة، أي تكون درجة الحرارة بعد قشرة الأرض مقدار ما يغلي الماء نحو ٣٣ مرة وثلثاً، أي حرارتها أعلى ٣٣ مرة وثلثاً من حرارة غليان الماء، وهذه الحرارة أقلّ من حرارة الشمس، لأن الأرض لم تنفصل إلاّ لأنها كانت بالنسبة للشمس قشرة ظاهرة

فانفصلت فهي أبرد منها، والشموس التي تراها يذوب فيها كل شيء، فتكون العناصر فيها إما معدومة وإما قليلة، فإن النجوم البيضاء التي هي أشدّ حرارة من الشمس لا تحوي من العناصر إلاّ الأدروجين والفسفور ولم تظهر عناصر أخرى فيها؛ أما الشمس فلما كانت أقدم عهداً كانت عناصرها كثيرة لتولدها وطول عمرها، والحديد فيها بحسب ما ظهر من ألوان الطيف عنصر مركب من عناصر مجهولة عندنا لكونه هناك أكثر حرارة فاتضح أمره فيها، أما في الأرض فهو معتبر بسيطاً. قال: ثم ماذا حصل لما انفصلت الأرض؟ قلت: إن الأرض كانت كروية تدور حول الشمس وأخذت حرارتها تتناقص بالنسبة لصغر حجمها. قال: حسن، ثم ماذا؟ قلت: أخذت الأرض تبرد وتربي لها قشرة في ملايين السنين، فتكوّنت ٢٦ طبقة كل طبقة متميزة عن الأخرى، وهذه الطبقات في ستة عصور تقدّم ذكرها، وهي: العصر الأصلي والانتقالي والثانوي والثالثي والطوفاني واللاحق للطوفاني وهو الحالي، فالقشرة الأولى حجر صوّاني شديد الصلابة. والقشرة الثانية في العصر الثاني كان فيها طبقات راسبة وبعض الحيوانات والحشائش. وفي الثالثة ظهرت الأشجار. وفي الرابعة ارتفعت الجبال الشوامخ وارتفع ما في جوف الأرض من الأصداف وظهرت الطيور والحيوانات البرية. وفي الخامسة حصل طوفان عام وبرد القطبان فجأة وكانا حارّين كخطّ الاستواء. والسادسة هي التي نحن فيها الآن.

فلما كان العصر الأول أيام الطبقة الصوّانية كانت جميع المعادن من الذهب والفضة والنحاس والقصدير تكوّن جوًّا حول الأرض وتمطر سحباً كما يمطر السحاب الآن. فقال: ولماذا؟ قلت له: لأن البلاتين يصهر على ١٧٧٥ من الحرارة، والذهب يحتاج إلى ١٠٧٥، والنحاس إلى ١٠٥٤، والفضة إلى ٩٥٤، والألمنيوم إلى ٦٢٥، والخارصين إلى ٤١٥، والرصاص إلى ٣٢٦، والقصدير إلى ٢١٠، والكبريت إلى ١١٤,٥، والفسفور إلى ٤٤,٢، وهكذا والماء إلى صفر.

السحب التي كانت تمطر ذهباً وفضة وبقية المعادن

فأنت ترى أن حرارة الأرض في الأزمان الغابرة لما كانت مرتفعة بحيث تبلغ نحو نصف ما ذكرناه بأن كانت ألفاً وخمسمائة أو ألفي درجة في العصور السابقة أو أكثر من ذلك كانت المعادن في تلك الأيام وقبلها تزجي سحاباً، ثم تؤلف بينه، ثم تجعله ركاماً، ثم تنزل في خلجان في باطن الأرض وهي تجري على اليابسة، فكان هناك أنهار من ذهب ومن فضة ونحاس وقصدير وخارصين وأمثالها. وأول ما جمد من المعادن التي ذكرناها البلاتين فالذهب فالنحاس فالفضة فالألمنيوم فالخارصين فالرصاص فالكبريت فالفسفور. وبينما كنت ترى الخارصين أصبح جامداً إذا بالكبريت لا يزال بخاراً في الجوّ والفسفور كذلك، فإن الخارصين يعوزه حرارة أشدّ من الكبريت، والكبريت يعوزه حرارة أشدّ من الفسفور، وهكذا على هذا الترتيب.

فهذه الأمطار التي صارت أنهراً من المعادن لا تزال باقية للآن لأنها جمدت بالبرودة ومرّت عليها أجيال في تلك الطبقات الصخرية، ثم حصلت زلازل وعوامل هامة فارتفع ما كان باطناً ووصل إلى أعلى بتلك العوامل، ورفع ما كان فيه من المعادن، وذلك هو الجبال التي تراها اليوم، فإن الأرض قد رفعها كما ترتفع أسنان الطفل في فمه. فقال صاحبي: ما معنى كما ترتفع أسنان الطفل. فقلت: لأن الجبال لما كانت صلبة وفيها منافع اقتضت الحكمة أن ترتفع إلى أعلى لا أن تبقى في أسفل الطبقات،

وأسنان الطفل كانت موادّ في الجسم فاجتمعت وتجمدت وظهرت في الفم فنفعت في هضم الطعام، هكذا جبال الأرض فيها ذهب للمنافع وللزينة وحديد ونحاس وقصدير إلى آخره، وهذه الآن تفعل فعل الأسنان فهي زينة وطاحنة للأحجار كالحديد، ومهلكة للحيوان وللإنسان، فالحيوان يذبح بالحديد وكذا الإنسان يموت بالمدافع وهكذا. فالجبال أسنان الأرض، والعظام التي في أفواهنا خلقت لمنافعنا.

ألست بهذا تفهم قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾[الحديد: ٢٥]، وهذا كقوله: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾[النحل: ١٠] فكلاهما إنزال وكلاهما من السماء، وهذا مطر وهذا مطر، وهذا نهر وهذا نهر، وهذا ثلج وهذا معدن ظهر في جبالنا، فإذا استخرج الناس المعادن اليوم من الأرض فتلك أمطار أنزلها الله في قديم الأزمان لتبقى لنا مخزونة إلى وقتنا الحاضر. إن المسلمين لنائمون، إن المسلمين لا يقرؤون، ولكنهم سيقرؤون بعد انتشار هذا الكتاب وأمثاله، وقد ظهرت بوادره بانتشاره في الأقطار، كما ألهمت من المبدع الحكيم بل كما بشرت بعموم ارتقاء المسلمين في المستقبل القريب.

قشرة الكرة الأرضية والكرة النارية فيها

قد قلنا إن قشرة الأرض طبقات ٢٦، ولها عصور ستة، وأنها مائة كيلومتر، ونقول إن قطر الأرض نحو ١٣ ألف كيلومتر، فيكون نصف القطر فوق سبعة آلاف كيلو، وهذا المقدار أكبر من القشرة المذكورة نحو سبعين مرة، والقطر كله أكبر من القشرة ١٤٠ مرة، أفليس ذلك كقشرة التفاحة والبيضة والبطيخة، فقشرة الأرض قشرة تفاحة وقشرة بيضة، والأرض الحقيقية هي النار.

الأراضي التي خلقها الله كلها كأرضنا

ولقد علمت أن هناك شموساً تعدّ بمئات الملايين، وكل شمس حولها أرضون، وبعبارة أخرى حولها سيارات كسيارات شمسنا، ومن السيارات ما أصبح له قشرة كقشرة أرضنا، ومنها ما لا يزال دخاناً وناراً منتشرة جداً.

ولقد قال علماء العصر الحاضر: إن أقلّ ما يكون حول كل شمس من الشموس المعروفة من الأرضين لا يقلّ عن ثلاث، فإذا تصوّرنا ذلك وقلنا إن بقية السيارات حولهنّ لا يزال متقداً، فإننا على الأقل نتصورّ أن هناك ثلاثمائة مليون أرض باعتبار أن الشموس مائة مليون، والتحقيق أنها مئات الملايين كما تقدّم في هذا التفسير، فلنقف في العدّ للأرضين عند ثلاثمائة مليون، ولنقل إن فيها سكاناً لأنه ليس يعقل أن تكون خالية ويكون لها قشرة كقشرة أرضنا، وهذه القشرة قد تكون رقيقة وقد تكون سميكة، فإذا كانت رقيقة كأرضنا أيام أن كانت حرارتها مرتفعة فإن اضطرابها وغليانها يمنع سعادة سكانها ويقلل راحتهم، وإذا كانت سميكة كانوا أقرب إلى الراحة والطمأنينة والسعادة.

هل كشف العلم عالم جهنّم ويكون ذلك معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم وللقرآن؟ أفلا نقول إن الأرض التي تعدّ بالمئات كلها نار، وإن سكانها إذا كانوا على حال فيه نيران تلظى يكونون أشقياء، وإذا كانوا في حال أصلح يكونون سعداء، وإن الشقاوة والسعادة نسبية، وإن العوالم التي تكون نورية جميلة غير هذه الأرضين مشرقة حقيقة تكون هي الجنة وتلك التي امتلأت ناراً هي جهنّم.

أوَليس هذا عينه ما تقدّم في سورة آل عمران أن النار في الأرض كما نقل عن سيدنا عليّ وغيره، وقد ذكرنا هناك أنا لا نقول إن هذه نفس النار ولكن تشبهها، وعلى المسلمين الجدّ في البحث، فالعلم يعوزه الجدّ.

قد عرفت فيما تقدّم أن حرارة الشمس لا يعرف منتهى درجاتها، وعرفت درجات حرارة الأرض وأن البرودة هي التي بها الثلج والمعادن كلها. وأقول الآن: إن أقصى درجات البرودة ٢٧٣ تحت الصفر، فالبرودة هذه درجاتها والحرارة لا منتهى لدرجاتها، فالحرارة والبرودة بالمدّ والجزر فيهما نرى شموساً وأرضين ومعادن وأنهاراً وجنات وأعناباً وإنساناً وحيواناً، هذا أول العالم وهذا آخره.

وقد تبين لك أن العوالم كلما كانت أقرب إلى الجمود كانت ممتازة متفرقة متناقضة، وكلما كانت أقرب إلى البساطة كانت أقرب إلى الوحدة، وأن قشرة الأرض هي المظلمة، فطبقاتها مظلمات وأصل هذه الطبقات أيضاً نور، فأصل كل شيء النور أو النار، بل أصل كل شيء هو هذه الوحدة الصرفة التي لا تنعدم. وكلما كان الجسم ألطف وأقلّ تركيباً كان أدوم بقاء، وكلما كان أكثر تركيباً كان أقلّ بقاء. ولقد قال العلاّمة «بلغور ستيوار»: إن جسم الإنسان والحيوان والنبات أشبه بالبارود السريع الانفجار الذي يلتهب لأقل احتكاك، فالعوامل الحيوية تحلل التركيب الكيماوي دائماً فيه، والدم يصلح ما تلف من الأجسام بفعله المستمر. أما التركيب المعدني فإن حياته تطول إلى أمد طويل جداً. ألا ترى أن قطعة من الكربون تتركب بسهولة مع الأكسوجين فيصدر عنها حامض الكربونيك، وإذا أردت أن نفرق هذين العنصرين احتجنا إلى ١٢٠٠ ألف ومائتي درجة من الحرارة أي مقدار ما يغلي الماء مضاعفاً ١٢ مرة. فأما العناصر البسيطة فليس هناك حرارة في أرضنا تفرقها، والمادة الأصلية التي منها العناصر لا يمكن تحليلها.

ولعلك بهذا فهمت قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ فهو أولاً خلق السماوات أي خلق هذا العالم المضيء المشرق، ثم جعل الظلمات والجعل فيه معنى التحويل، فكأنه يقول: حوّل النور إلى ظلمات، والظلمات هي الطبقات المتقدمة وهي حقيقة ظلمات بعضها فوق بعض، فأما النور فهو في أصله واحد، فجمع الظلمات جاء من هذا القبيل، فهذا سرّ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.

ارتقاء الأرواح في عالم النور وسرّ قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وكيف كان الإنسان يسعى ليخرج من الظلمات إلى النور وكيف أظهر الكشف الحديث هذا كله؟

أفلا ترى أن هذا سرّ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٣٥] فإنه ظهر لك أن العالم كله نور في نور، ولا ظلمة إلاّ قشور الأراضي التي تعدّ بمئات الملايين، وأن هذه الظلمات طارئة، وأنها لا بدّ راجعة لحالها الأولى؛ ويقال في الكشف الحديث الروحي: إن الأرض مغموسة مغمورة في ذلك الأثير العام المالئ لسائر الفضاء، وإن الأرواح لها غلاف كما تقدم لطيف ألطف من الأثير، وإن هذا الغلاف بما اعتراه من أدران المادة التي في الأرضين كأرضنا هذه يجب على الروح أن

تسعى لتنقى من تلك الأدران لترتقي في العوالم الجميلة وتخرج من ظلماتها، وكأن المادة نجستها، فهي تتخلص منها لترجع لصفائها الروحي وحالتها الجميلة.

ولقد تقدم لك فيما ذكرته في جواب سؤالك الثاني أن الدخان تتج منه نور وكهرباء، وذلك بالتفاعل ما بين فحم المعوجات والنحاس والزنك والسوائل المحيطات بها، فجاء نور عظيم من ظلام دامس، هذا ما ذكرته هناك، وأقول هنا: إن قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ فتح لهذا الباب، وكأنه يقول: كما جعلت من الظلمات ناراً في الكهرباء المضيئة المشرقة هكذا جعلت في أجسامكم المظلمة عملية وتحليلاً وتركيباً يخرج منه نور لا ترونه أو ترونه، كما أن الكهرباء فيها نور ترونه ونور لا ترونه، فإذا قال الله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ في الدنيا لهذا الجسم، وأجل مسمى عنده بعد الموت، فمعناه أنه يصفيه من هذا الظلام ليجعله خالصاً، كما قال في آية أخرى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢] فالله نور وهو المنوّر للشموس والعوالم، ثم جعل الظلام وخلقنا فيه لنجدّ حتى نرجع إلى النور كرّة أخرى بحال أجمل وأبهى.

وكما أن السمك لا يقدر أن يعيش في البر، والحيوان البري لا يعيش في البحر، وعالم الطير لا يعيش في التراب، وعالم التراب لا يعيش في الهواء ولا في الماء، وذلك لطبعه وغريزته، هكذا نحن في الدنيا يألف كل منا ما كان على شاكلته صلاحاً وفساداً، وهكذا بعد موتنا نكون في عوالم على مقتضى جعلتنا، فإذا كان الإنسان متعلقاً بالعوالم المظلمة لم يجد له قوة يدخل بها عالم النور، وإذا دخل عالم نور قليل لم يقدر أن يدخل ما هو أضوأ وأنور، بل لا يقدر أن يصل إليه ولا يستطيع ذلك كما لا يستطيع في الدنيا أن يطير في الجو، وكما لا يستطيع السمك أن يعيش في البر إنّما هنا يموت السمك في البر. فأما هناك فلن تموت الروح بل تجد جاذبية تجذبها لمركزها كما يجذب الحجر إلى أسفل، فإذن عالم الآخرة مبني على الاستعداد لا غير، وهذا سرّ قوله صلى الله عليه وسلم: «إنك مع من أحببت»، وإذن يكون الإنسان من الآن عالماً بموضعه في العوالم المقبلة. فقال صاحبي: هل لك أن تذكر شيئاً من العلم الحديث في هذا ثم تتبعه بما قاله القدماء حتى نعتقد ما تقول. قلت: أما في الحديث فاسمع.

الإنسان مضيء وهو في هذا الجسد

لقد جاء في صحيفة الماتان الفرنسية سنة ١٩٢٤، ونقلتها الجرائد المصرية في شهر مارس من السنة المذكورة، أن معهد العلوم الروحية في باريس منذ شهر يواصل العمل مع الكتم الشديد في تجارب مع الوسيط الإيطالي المشهور «ايرتو»، وقد شهد هذه التجارب الدكتور «جيلي»، وقد قال الدكتور «ستيفان نشوفيه» وهو من المعاونين المخلصين للدكتور «جيلي»: إن هنا عجائب خارقة للعادة فإن من الوسطاء المنوَّمين بفتح الواو من يشعّ النور منهم شعاعاً ظاهراً، ولكن الوسيط الإيطالي «ايرتو» ظهرت منه أنوار أجلى، فقد جرّد السنيور «ايرتو» من ملابسه تجريداً تاماً وفحصت جميع تجاويفه الطبيعية فحصاً دقيقاً، وبعد ذلك ألبس غلالة من النسيج صنعت له، وهي ضيقة جداً بحيث تلتصق بجلده، فلما نوّم تنويماً مغناطيسياً ظهرت منه أنوار ما كان ليصدّقها العقل فكانت تنبعث منه كرات نورية في كل مكان من الحجرة غير متصلة بشيء بتاتاً في سماء تلك الحجرة، فلم يكن هناك قوس ضوئي منير بينها وبين الوسيط، وتارة ينبعث شرر كل شرارة أربعة أمتار، وطوراً يرى برق مختلف

الأبعاد، وأحياناً ضوء عظيم ينتشر بين الوسيط والجدار، والضوء غالباً يكون أحمر أو أخضر أو فيه بعض غلس قليل، وهذه الأضواء لا يمكن افتعالها بالكهرباء ولا بمواد مضيئة، وهذه بشهادة أشهر علماء الطبيعة، فقد بحث السنيور «ايرتو» فحصاً دقيقاً بأشعة «اكس» في نهاية جلسة عقدت يوم ١٤ فبراير سنة ١٩٢٤ فلم يعثر على أيّ أثر غير عادي في جسمه، وبهذا تأيد نهائياً وجود ظاهرات منيرة كفيلة بأن تثير انقلاباً تاماً في جميع معلوماتنا الفزيولوجية «وظائف الأعضاء» والبيولوجية «علم الحياة» وفي نظرياتنا في المادّة والقوّة «وقد حدث انقلاب من هاتين المادّتين الأخيرتين منذ بضع سنوات» ومن الممكن أن تؤدي دراسة هذه الظاهرات في أيام قليلة إلى كشف الضوء البارد. اهـ.

فانظر كيف كشف الناس نوراً في الروح الإنسانية بالتنويم المغناطيسي، كما أن الأجسام تضيء بالكهرباء وبغيرها، ولكن هذا سرّ جديد ليس مما عرف قديماً إلاّ على سبيل السماع من الأنبياء والقدّيسين، وقد امتلأت به كتب الديانات من أن الصالحين لهم إشراق ونور جسمي وضياء مشرق يظهر على وجوههم أحياناً، فكأنهم بجهادهم أخذوا يخرجون من الظلمات إلى النور كقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[إبراهيم: ١]، فأنفسنا مضيئة ووضعت في الأجسام المظلمات لتجاهد وترجع إلى النور مرة أخرى، فهي باستمرارها في الترقي في الأنوار تصل إلى الله، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢]، وقال: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾[الحديد: ١٢]، فإذن مآل الإنسان النور والجمال. ولا تظنّ أنّي أعتبر النور الظاهري المذكور إلاّ مقدّمة، فليس النور الذي شهده أهل باريس في السنيور «ايرتو» هو المقصود من النور في القرآن، وإنّما هو مقدّمة له، ومعنى هذا أن النفس الإنسانية كافرة أو مؤمنة أو مشركة مستعدّة للإشراق بالنور متى جاءت أسبابه بشرط الإيمان، فأما النور الظاهري فممكن بالتنويم المغناطيسي، وأما الباطني فلا يمكن إلاّ باجتهاد الإنسان، وهذا هو الذي أذكره من القرآن ومن كلام المتقدّمين.

ارتقاء الإنسان بعد الموت في درجات الكمال إلى أن يكون مع الملائكة النوريّين من نفس القرآن

قال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾[النازعات: ١] ما ملخصه:

الوجه الثالث: في تفسير هذه الكلمات الخمس: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا (١) وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا (٢) وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا (٣) فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا (٤) فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا (٥) ﴾[سورة النازعات]. يقول الله تعالى: أقسم بالأرواح التي تنزع نزعاً شديداً؛ فمعنى «غرقاً»: نزعاً شديداً؛ ومعلوم أن نزع الروح من الجسم يحتاج إلى شدّة حتى تخلص الروح، ومتى نزعت نشطت للخروج من الجسم فهي الناشطات نشطاً بسهولة، ومتى خرجت الروح وكانت قويّة لا تتعلق بالعالم المادي وقلّ اتصالها به واشتاقت إلى عالم أعلى من هذا، وهي تريد أن تتخلص من عالم الأجساد فإنها تذهب إلى عالم الملائكة ومنازل القدس أسرع ما يكون، فعبّر عن ذهابها على هذه الحال بالسباحة فقال: ﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾.

ثم قال بالحرف الواحد: إن مراتب الأرواح في النفرة عن الدنيا ومحبة الاتصال بالعالم العلوي مختلفة، فكلما كانت أتمّ في هذه الأحوال كان سيرها إلى هناك أسبق، وكلما كانت أضعف كان سيرها إلى هناك أثقل، ولا شك أن الأرواح السابقة إلى هذه الأحوال أشرف فلا جرم وقع القسم بها؛ ثم إن

هذه الأرواح الشريفة العالية لا يبعد أن يظهر منها آثار في أحوال هذا العالم فهي المدبرات أمراً.

ثم قال: أليس إن الإنسان قد يرى أستاذه في المنام ويسأله عن مشكلة فيرشده إليها. أليس إن الابن قد يرى أباه في المنام فيهديه إلى كنز مدفون. أليس جالينوس قال: كنت مريضاً فعجزت عن علاج نفسي فرأيت في المنام واحداً أرشدني إلى كيفية العلاج. أليس إن الغزالي قال: إن الأرواح الشريفة إذا فارقت أبدانها ثم اتفق إنسان مشابه للإنسان الأول في الروح والبدن، فإنه لا يبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن، حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير، فتسمى تلك المعاونة إلهاماً، ونظيره في جانب النفوس الشريرة وسوسة، وهذه المعاني وإن لم تكن منقولة عن المفسرين إلاّ أن اللفظ محتمل جداً. انتهى كلام الرازي.

فصار معنى الآية: إن الله يقول: أقسم بالنفوس الشريفة التي تنزع من أجسامها ناشطة إلى مقرها سابقة لفرحها بالعالم الجديد الجميل مدبرة للعوالم كما تدبر الملائكة لقربها من جلالنا وعظمتنا، هذا الذي قرّره الرازي هو بعينه ما نقل في العلم الحديث عند محادثة الأرواح في الجمعيات النفسية.

مراتب الأرواح في العلم الحديث

قالوا: لا تستطيع الأرواح ذات الأميال البهيمية الانتقال إلى مركز أعلى، إلاّ إذا سعت في تغيير أخلاقها بتجردها من الأميال البهيمية، وإصلاح ما بها من الرذائل والشوائب، وتطهرها من الأوزار، فبهذه تتدرج شيئاً فشيئاً إلى المراكز العلوية كما يتدرج رويداً رويداً. انظر من عاش كثيراً في الظلام الدامس إلى ضوء النهار ثم إلى نور الشمس. قالوا أيضاً: وكلما اكتسب الروح رقياً في عالم انتقلت إلى ما هو أعلى منه، وليست الأجسام بغليظة إلاّ في العوالم السفلية، ثم بعد ذلك تكون ألطف وأقلّ مادّة شيئاً فشيئاً حتى تشابه الجسم الروحاني في لطافتها، وهي في كل عالم من العوالم السفلية التي تحلّ فيها تعطى قوة لترتقي بها إلى ما هو أعلى، ولا يزال كذلك حتى يصبح من عداد الملائكة الذين يديرون حركات العوالم اهـ.

هذا ما جاء في علم الأرواح وهو في مجموعه أشبه بما جاء في الرازي وهي أن آخر درجات الأرواح أن تكون من المدبرات أمراً، ولا يكون هذا الرقي إلاّ بكمال الفضائل والعلوم والبصر والعزيمة ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾[النبأ: ٣٨] فجعل الروح والملك في صف واحد، وهذا ظاهر من أن الأرواح تكون مدبرات أمراً. وأما ما قاله الفخر الرازي من العلاج بالرؤى فهذا كثير، ومعلوم أن الرؤى فيها الغثّ والسمين وأكثرها كاذب ولكن قد يصح بعضها.

رؤيا مؤلف هذا الكتاب ورؤياه للنبي صلى الله عليه وسلم

أقول أنا نفسي وأنا مجاور بالجامع الأزهر: لما توجهت إلى بلاد الريف مرضت بعينيّ أياماً كثيرة، رأيت كأني واقف بعد الفجر في هواء طلق، وقائل يقول لي: إني فتحت عيني في الهواء الذي مثل هذا فشفيت، فأصبحت وفعلت كذلك يومين أو ثلاثاً فشفيت، وكان الوقوف في ذلك الوقت بحيث لا يكون هناك غبار؛ ورأيت رؤى كثيرة مثل ذلك لا محلّ لذكرها الآن. وأصل تأليفي لهذا التفسير من رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم مراراً؛ فلقد رأيته وأنا لا أزال تلميذاً بالأزهر، وقد كنت نائماً في منزلنا بكفر عوض الله حجازي، والمرحوم والدي نائم بجانبي وكأني في المكتب الذي كنت

أتعلم فيه ببلدة تسمى الغار بجوارنا، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم جالس وأنا واقف أمامه، وكأنه أخذ يعلمني تفسير القرآن فأسمعني كلاماً، ثم قلت: زدني، فزادني وأنا أقول في نفسي إن هذا هو النبي فيلزم الأدب أمامه، هذا هو النبي، ثم خرجت من عنده وقابلت والدي في المنام أيضاً، وأنا خارج من المكتب، فقال: أين كنت؟ قلت: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: وماذا فعلت: قلت: علمني التفسير وسأكون كالصحابة أقول على القليل من الآيات معاني كثيرة، فاستيقظت حالاً وأيقظت والدي وأخبرته، فسرَّ وقال: خيراً إن شاء الله، وأنا أقول هذه أول رؤيا رأيتها لأجل القرآن والعلوم. ولقد تركت ما هو أجمل منها وأشرف وأوضح وأنور وأجلى حتى تكون فرصة أخرى أذكرها، وسأقص إذ ذاك ما أخبرني به رب العرش جلَّ جلاله في المنام، وكيف أخبرني بأن العالم الإسلامي سيرقى وكأنه يشير إلى أن الرقي بنموّ هذه العلوم التي تقرؤها في هذا التفسير ونحوها، ولولا هذه المنبهات ما سطرت حرفاً واحداً، ولكن ذكرت هذه الرؤى الآن لمناسبة كلام الرازي ولأنه قد تحقق أن تفسير القرآن على النمط الذي فسر به المنام في نفس المنام، وإني أقول ولا أخشى لومة لائم.

بشرى المسلمين

أقول ولا أخشى لومة لائم: إنني يا معاشر المسلمين بشرت من الحق سبحانه وتعالى بارتقاء الإسلام، وأن ما أكتبه لكم الآن سيكون من المبادئ التي يرتقي بها المسلمون. أقول هذا بعد ما شاهدت بنفسي مصداق تلك الرؤيا الإلهية التي ربما أذكرها، ولم أقل هذا إلاَّ بعد ما أيقنت أن المسلمين في أقطار الأرض قد أقبلوا على هذا التفسير، فعلمت أن الله يريد ذلك، وأن تلك الرؤيا التي كنت أراها وأنا تلميذ تارة وبعد ذلك أخرى لم تكن أضغاث أحلام، بل تحققت فعلاً بالإقبال على هذا التفسير الذي أمرني به النبي صلى الله عليه وسلم مراراً، وأنا لست ممن يصدّقون الأحلام أو يخدعون بالأوهام، ولكني ذكرتها لعلاقتها بارتقاء الأمة وارتقاء الأرواح، فليبشر المسلمون فقد آن لهم النجاح ولا بدّ لهم من الفلاح، والعلوم قد فتحت لهم أبوابها وسيردون على زمن السعادة والهناء ولتعلمنّ نبأه قريباً وبعد حين.

عجائب القرآن التي ظهرت في هذا المقام ملخص ما تقدم

(١) جمع الظلمات. لأجل أن طبقات الأرض ٢٦ وصورها ست.

(٢) إفراد النور. لأن أصل العالم مادّة واحدة نورية كما اتضح حديثاً.

(٣) تقديم السماوات. لأن عالم السماوات أقدم من الأرضين التي أرضنا واحدة منها، لأنها مشتقات من الشموس المقدّمة عليها.

(٤) كون جهنم في الأرض. لأن جميع الأرضين التي تعدّ بالملايين أو مئات الملايين كرات نارية؛ فمنها حديثة العهد فهي مضطربة، ومنها قديمة العهد فهي ثابتة.

(٥) ورد ما يدلّ على أن نار الدنيا أقلّ من نار جهنم نحو ٧٠ مرة. وهذا هو الذي جاء في العلم الحديث، لأن النار في جوف الأرض وقد بردت مراراً، فإذا كانت تحت القشرة الأرضية ٣٣٣٣ درجة، فهذه الدرجات تعادل ما يغلي الماء ٣٣ مرة تقريباً، وكل واحدة منها إذا انقسمت إلى قسمين صارت ٧٠ تقريباً، فتصبح نار جهنم أقوى من نارنا نحو ٧٠ مرة؛ ومعلوم أن الحرارة الجوية إذا كانت مساوية

لجسم الإنسان لم تؤذه، فإن ارتفعت إلى ٥٠ أحسّ بالحرارة فيقول هذه نار وهذه بتكرارها وتضاعفها تبلغ حول السبعين تقريباً، وليس المقام للتحديد وإنما هو للتقريب.

(٦) يقول الله: ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ ﴾[التحريم: ٨] فقد ظهر أن جسم الإنسان في الدنيا فيه نور ويسعى للارتقاء في النور، كما في الرازي وكما في علم الأرواح.

(٧) تقديم الظلمات على النور. لأن الإنسان يخلق في ظلمات الأرض ثم يرتقي.

(٨) نزول الحديد وجميع المعادن من السماء أيام أن كانت الأرض تكوّن الطبقة الصلبة.

(٩) الجبال التي على الأرض التي برزت في العصر الرابع المسمى بالثالثي، لولاها لمالت الأرض بالزلازل، لأن هذه الجبال ثابتة من الطبقة الصوّانية التي حول النار، وهذه الطبقة الصوّانية حافظة للكرة النارية التي نحن عليها، ومن هذه الطبقة الصوّانية برزت الجبال إلى الطبقة السادسة وسماها رواسي، لأنها ترسو على الطبقة الصوّانية وتثبت عليها، ومنها نبتت ولم يظهر من الطبقة الصوّانية إلاّ هذه الجبال، والطبقة الصوّانية هي التي حفظت الأرض من طغيان النار على ظاهرها فتضطرب. فافهم وتعجب واعلم أنه كما خلقت الجبال من الطبقة الصوّانية خلق الفحم من الطبقة الثانية المسماة انتقالية ثم ارتفع بعد ذلك بالعوامل الطبيعية وفيها المعادن التي كانت تمطرها سحب الذهب والحديد والقصدير الخ، وهذا قوله تعالى: ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾[النحل: ١٥].

(١٠) ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾[فصلت: ١١] وقد علمت أن الحالة الدخانية هي الحالة العامة للمادّة كما تقدّم.

(١١) ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت: ١١] فالسماوات والأرض جرتا في الدوائر طائعة، أي: بالتجاذب العام لا مكرهة كما يجري الحجر إلى أعلى بالحركة القسرية. انتهى الكلام على العجائب.

اعتراض على المؤلف وجوابه

فقال صاحبي: لقد أعجبني ما قلت، ولكن هناك ما يهدمه من أساسه ويقوضه.

فقلت: وما هو ذاك؟

قال: قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾[فصلت: ٩-١١]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾[البقرة: ٢٩].

قلت: هذا برهان لي ومؤيد لقولي. قال: وكيف ذلك؟ قلت: لأنه يقول: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ فإذن السماء موجودة قبل خلق الأرض، وغاية الأمر أنه عمد إليها واستوى، وهو دائماً عامد لها ومستو ليقول لها وللأرض أطيعا إطاعة تامة، أي يجريهما جرياً بالجاذبية. وفي الثانية يقول: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ ﴾ فإذن السماء كانت موجودة ثم عمد لها كما هو عامد لها دائماً وذلك ليسوّيها، فهو دائماً يسوّي، أي ينظم السماء، وهو دائماً يديرها. فأما خلقها فقد تقدّم وإلاّ فكيف يقصد إليها، فافهم.

تفصيل الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ بذكر سلسلة المخلوقات الأرضية من ابتداء كون كرة الأرض نارية إلى أن يصل الخلق إلى أعلى علاه

(١) عصر الطبقة الصوّانية: التي تكاملت فوق الكرة النارية الأرضية بعد انفصالها من الشمس وفيها خلقت المعادن، ويقدّرون مدّتها بنحو ٣٠٠ مليون سنة كما قال العلاّمة «ليل».

(٢) عصر الطبقة الثانية الانتقالية: ظهرت فيها الحشائش والحيوانات البحرية والسمك والغابات العظيمة المتلاصقة المتكاثرة فكان منها الفحم الحجري.

(٣) العصر الثانوي: وفيه كوّنت الطبقة الثالثة. كانت حيواناته أرقى وكانت تماسيحه تتجاوز عشرين وثلاثين ذراعاً.

(٤) العصر الثالثي: فيه تكوّنت الطبقة الرابعة. ارتجّت الأرض بعنف وزلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها فظهرت الجبال الشوامخ والطبقات الصدفية وبعض أماكن من الطبقات الصوّانية الأولى. ظهرت كما تبرز أسنان الصبي، ولذلك تجد المعادن في جبالنا وهي إنّما تكوّنت هناك من أمطار الذهب والحديد الخ. وفي هذا العصر ظهرت الوحوش البرية الهائلة كالفيل والكركدن والماموث الخ.

(٥) العصر الطوفاني: في هذا العصر حصلت نكبة في الأرض قلبت كل شيء، حتى إن القطبين كانا بلاداً حارّة فانقلبا فجأة أرضاً مكسوّة بالثلج، وترى الفيلة الآن لا تزال مطمورة لما فاجأها الزلزال فدفنت، وهي إلى الآن باقية قد عثر عليها الكاشفون. وكأنها كانت خط استواء فانقلبت حالاً قطبين.

(٦) العصر الحالي: وفيه زاد الهواء نقاوة، وقد عثر الناس في هذا العصر على عظام عديدة من الوحوش والكواسر عاشت قبل حصول تلك الفاجعة، فوجدوها مطمورة في المغاور في أعالي الجبال، فهلكت هناك جوعاً أو افترس بعضها بعضاً أو خنقاً في وسط المياه المتدفقة عليها، ونسبوا ذلك كله إلى زمان العصر الطوفاني. وليس هذا هو الطوفان الذي جاء في الكتب السماوية لأنه قبل مئات الملايين من السنين، ولكن طوفان الكتب السماوية في هذا العصر كان يمتد من البحر الأسود إلى الأوقيانوس الشمالي، وأن بحر الخزر والأوندون والبحيرات العديدة المالحة في التتر وروسيا إنّما هي من بقايا بحر عظيم كان هناك، فلما ارتفعت جبال القوقاس اندفع قسم عظيم من المياه إلى الأوقيانوس الشمالي وقسم آخر إلى الأوقيانوس الهندي فغرقت بلاد ما بين النهرين وجميع البلاد التي يسكنها أسلاف العبرانيين.

جدول الحياة على الأرض

(٧) أوّلها مادّة هلاميّة تسمّى «بروتوبلاسما» في قعر البحار، وهي مادّة رخوة لزجة تشكل بسائر الأشكال، وباجتماع مقادير منها تكوّن ما يسمونه في الاصطلاح «الخلية»، وباجتماع الخلايا تكوّن الأعضاء، وتفرّع هذه الخلايا يكون بالتكاثر، وهذا التكاثر يكون منظماً بطريق الانقسام ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ وهكذا إلى ما لا نهاية له، وهذا به يكون النموّ مع النظام في الأعضاء طولاً وعرضاً.

(٨) باجتماع هذه الخلايا ظهر النبات في البحر والبر، فأوّلاً كان النبات.

(٩) نباتاً حيوانياً كأنواع الذوفيت، فهي حيوانات على شكل النبات، وكأنواع الأخطبوط وهي هلامية الجسم، ولا تمتاز عن النبات إلاّ بأحكام التنقل، وفيها معدة وبعض ظواهر الأعصاب، وليس لها نظر ولا شمّ ولا سمع.

(١٠) الدود، هو أكمل أعضاء وأشدّ نشاطاً وأكمل من الأخطبوط.

(١١) الحلزون وذوات الأصداف التي ليس لها فقرات.

(١٢) سرطان البحر.

(١٣) عقرب البرّ له سمع وبصر وحركة غذاء ودورة الدم.

(١٤) ذوات الفقرات كالسمك له نخاع شوكي.

(١٥) الدبابات الأرضية.

(١٦) الطيور وهي تبيض.

(١٧) حيوان بأستراليا الآن له كيس يحمل فيه صغاره، ودماغه بسيط جداً.

(١٨) ثم ذوات الأربع الباقية وأعلاها القرد فالإنسان.

(١٩) جنين الإنسان في بطن أمه يكون أولاً خلية بسيطة كالتي في البحر.

(٢٠) ثم دودة. (٢١) فحلزونة. (٢٢) فسمكة. (٢٣) فذبابة. (٢٤) فقرداً.

(٢٥) ويتوارى ذنبه بعد ذلك في بطن أمه.

(٢٦) ومنه متوحشون. (٢٧) وعقلاء. (٢٨) وعلماء. (٢٩) وأنبياء.

(٣٠) ثم يتنقلون في العوالم النورية طبقاً عن طبق ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[النجم: ٤٢].

هذه السلسلة ذكرتها لتكون مطلعاً في كلمات قليلة على النظام واشتقاق الحياة من الجماد وأنها سلسلة واحدة، أي أنها منظمة بحيث لا تترك درجة إلاّ خلق فيها نوع. وليس معنى ذلك أن كل نوع خلق مما قبله، كلا بل هو النظام السائد. فانظر كيف كانت طبقات الأرض في عصورها الست وكيف تولد النبات والحيوان وكانت هذه السلاسل منتظمة.

ألا ترى سرّ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[الأنبياء: ٣٠]. أفلست ترى أن حياة الخلية ابتدئت في البحر، وعلماء العصر الحاضر يقولون: إن كل حيوان أصله من البحر.

أولست ترى هذا سرّ قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾[النازعات: ٢٧-٣٢]. فقوله: «والأرض بعد ذلك دحاها» هو عين ما جاء في العلم الحديث أن طبقات الأرض بعد السماوات وانفصال الأرض من الشمس. وقوله: «أخرج منها ماءها ومرعاها» إشارة للعصر الثاني. وقوله: «والجبال أرساها» إشارة للعصور التي تلته، فإن بروز الجبال إلى أعلى لم يكن إلاّ بعد العصر الثاني كما تقدّم. أليس القرآن اليوم أصبح يفسر فعلاً بالعلم الحديث تفسيراً لفظياً. وإذا كان قوله تعالى هنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يدلّ على أنّ خلق السماوات قبل الأرض بطريق الإشارة كما قدّمنا، ففي هذه الآية صارت الإشارة فيها عبارة والكناية صريحاً والقوة فعلاً، فجلّ العلم.

وأيضاً هذه السلسلة التي ظهرت في الحيوانات وفي الجنين في بطن الأم هي التي يشير لها قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] فهو لا يخلق الأعلى إلَّا بعد خلق الأدنى، فلم يخلق الحيوان إلاَّ بعد النبات، ولم يخلق الإنسان إلاَّ بعد الحيوان، ولم يخلق الجنين الإنساني في بطن أمه إلاَّ بعد ما يمرّ على الطبقات الدنيئة، لأن الطفرة محال فلا بد أن يمر على حال الأحياء في أول أمرها وهي في البحر، ثم ينتقل إلى أعلى وأعلى كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤] وقال: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]. ولقد أطلت في هذا المقام في أول سورة آل عمران وذكرت هذه الطبقات. واعلم أن ما نكتبه هنا وهناك ليس يمر على سائر الطبقات، بل فيه الاكتفاء بالبعض تقريباً للأذهان. فأما السلسلة التي هنا فليست كلها واحدة. ألا ترى أن أول نبات بحري وحيوان بحري لم يكن بعد العصور الستة الأرضية بل ابتدئت الحياة في العصر الانتقالي الذي كان فيه الفحم الحجري، ولكن ذكرناها مسلسلة لتسهيل النظر على القارئ، فتأمل في عجائب العلم والحكمة.

فأنت ترى أن الأرض ظلمات والحيوان خلق في ظلماتها والإنسان كذلك. والعلم والعقل والدين أنارت الأبصار فيرجعون للنور كرّة أخرى، فهذا قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.

أقول: الحمد لله على التوفيق لهذا المقال. انتهى تفسير الآيات من قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

القسم الثاني

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن

يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا
كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ
وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ
إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ
أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ
كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ
أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا
مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾
وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟
كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾
وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾
وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ
أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا
وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ
وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ
فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ
فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن
نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى
ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾
وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى
ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ

مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ
أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ
إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ
وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ
لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ
شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ
قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلۡ
أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرۡسِلُ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٤٨﴾
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ
ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ
وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ
وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ
مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ
بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ
كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ
فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلۡ إِنِّي
نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ
ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ
ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ
وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ
وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ
يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ
ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا

يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

التفسير اللفظي لهذا القسم

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ «من» الأولى زائدة، و«من» الثانية للبيان، والإعراض: ترك النظر ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ وهو القرآن ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: يظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم في الدنيا؛ كانهزامهم في الحرب وكظهور الإسلام؛ وفي الآخرة بعذاب جهنم ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ القرن: الأمّة من الناس، وأهل كل زمان قرن، وليس له عدد معلوم، فإذا جعل مائة أو أكثر أو أقل فذلك ليس حاصراً له ولا المعنى قاصراً عليه، ﴿ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ جعلنا لهم فيها مكاناً وأعطيناهم من القوى وسعة الرزق والتصرف في الأرض ما لم نعطكم ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ ﴾ المطر ﴿ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا ﴾ مغزاراً ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ ﴾ فعاشوا في الخصب والريف بين الأنهار ﴿ وَأَنشَأْنَا ﴾ وأحدثنا ﴿ مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ ﴾ مكتوباً في ورق ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ فمسوه بالأيدي ﴿ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ منهم ﴿ إِنْ

﴿هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ تعنتاً وعناداً ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ هلا أنزل عليه ملك يكلمنا أنه نبي ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ وهذه سنة الله في الكفار؛ أنهم متى اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا استوجبوا العذاب واستؤصلوا به ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ لا يمهلون ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ أي؛ ولو جعلنا قريناً لك ملكاً يعاينونه لمثلناه رجلاً؛ فإن القوة البشرية لم تتأهل لرؤية الملائكة في الصور الأصلية؛ ويراهم الأنبياء بقوة أخرى قدسية، ولو جعلناه رجلاً لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم، فيقولون ما هذا إلا بشر مثلكم، وسيأتي إيضاح هذا من العلم الحديث بعد تمام التفسير اللفظي لهذا المقصد. فهو يقول: إن المانع من إرسال الملك أمران: الأول: أن الملك ينزل بالعذاب لمن يقترحون الآيات، والثاني: أن الملك لن يراه الناس بصورته الأصلية، فإذن يكون رجلاً وإذن يختلط الأمر عليكم فتقولون هذا رجل ونحن نريد ملكاً.

ثم أخذ يسلي النبي صلى الله عليه وسلم بذكر الأنبياء السابقين وأممهم فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ﴾ أحاط ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: وبال استهزائهم ثم أخذ يذكرهم بالأمم السالفة ويأمرهم بالسير في الأرض ليروا الأمم الهالكة بالتكذيب فقال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ سيروا في الأرض على سبيل السفر تارة؛ وعلى سبيل الفكر والاعتبار تارة أخرى؛ بحيث يكون النظر العقلي تابعاً للسير الجسمي. فانظروا كيف أهلك الله الأمم بعذاب الاستئصال لما كذبت ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ خلقاً وملكاً، وهو سؤال تبكيت ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾ وهو المتعين للجواب ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ التزمها تفضلاً وإحساناً منه، والرحمة في الدارين ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ اللام: للقسم؛ والجملة: بدل من الجملة قبلها بدل بعض؛ لأن جمع الناس يوم القيامة بعد موتهم من الرحمة ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ لا شك فيه ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بتضييع الفطرة الإنسانية وهي رأس مالهم، والذين: مبتدأ؛ خبره ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ عطف على ﴿لِّلَّهِۚ﴾ أي: لله ما في السماوات والأرض، و﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ من السكنى أو من السكون؛ أي: ما سكن فيهما، أو تحرك، فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر وعلى الأول يكون بمعنى: ما اشتملا عليه ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل مسموع ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بكل معلوم.

وههنا فصول:

الفصل الأول: في الرد على دعوى الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ وليًا أي ربًا ومعبودًا وناصرًا ومعينًا من معبودات العرب

قال: وإذا كان الله له ما في السماوات وما في الأرض المتحرك والساكن فكيف أتخذ ولياً غيره؟ وهذا قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ إنكار لاتخاذ غير الله ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مبدعهما. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما عرفت معنى الفاطر حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها أي ابتدأتها. ولما كان أمر الطعام به بقاء الأجسام خصصه بعد التعميم فقال: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ﴾ يرزق الحيوان والإنسان ﴿وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ لأنه ليس من جنس المخلوقات.

ثم ارتقى إلى ما هو أخص وأبدع وهو الاختصاص في العلم والحكمة والنفع العام فقال: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾ أول من انقاد لله وأخلص له من أمتي فكيف إذن أتخذ

ولياً غيره؟ أأتخذ غير المبدع المطعم وهو لا يطعم، الذي خصني بالحكمة والعلم وهداية الناس، وفي هذه معنى أقرب إلى الأخلاق الإلهية كما في الحديث: «تخلقوا بأخلاق الله»، ولذلك قال: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ لما لك من ذلك الاختصاص الرفيع والعلم العظيم، ولو أنك بعد هذه المعرفة أشركت لعظم عذابك لأن من يعلم ليس كمن لا يعلم، والعالم عذابه أكثر من الجاهل، والغني القادر والقوي الجسم يعذبان على إهمال النفع بهما للناس، وهذا ما يشير إليه قوله: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، فكيف تطمعون بعد هذا كله أن أعبد غيره إطاعة لدعوتكم. ثم وصف العذاب بقوله: ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ﴾ بأن أنجاه من العذاب ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ أي صرف العذاب وحصول الرحمة ﴿ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

ولما كان في العادة أن المرء يخاف من قويّ قادر وهذا القويّ قد يكون له نظراء، فهو إن عصاه فربما صرف العذاب عنه غيره من القادرين بجاههم أو شفاعتهم، وإن أطاعه وأنعم عليه فربما منع هذا الإنعام غيره من القادرين، فقال: كلا، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو الجالب للخير الدافع للضرّ فاتخذه وكيلاً لك ونصيراً. ثم ختم تلك الصفات الإلهية بأعمها وأشملها فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ القاهر لهم وهم المقهورون، وهذه صفة عامة دخل فيها النفع والضرّ وإيصال الخير والشرّ؛ ولما كان القاهر قد يكون ظالماً باطشاً جباراً عنيداً يفعل ما لا تقتضيه الحكمة، قال: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في تدبيره ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ بشؤون عباده.

وإذا كان الله هو القاهر فوق عباده فهو الحكم بيني وبينكم ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ﴾؟ يقال: إن أهل مكة قالوا: سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ أكبر شهادة وهذا جواب الاستفهام، فلا علماء اليهود ولا النصارى، ثم ابتدأ فقال هو ﴿ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ هو الذي يخص من يشاء بما شاء، ويكون هذا التخصيص آية بينة وشهادة ناطقة أبلغ من شهادة اللسان الإنساني الذي قد يعتاد الحكم الكاذب والقول المخطئ؛ فإذا أعطى الله الأم قوة الإرضاع، والعالم قوة الإفصاح، والجاهل المتواضع حبّ الاستماع، فتلك الفطر الظاهرة في هؤلاء شهادات من المبدع الحكيم أنهم يقومون بما خلقوا له، وإذا خلقت العين للنظر والأذن للسمع والعقل للفكر، فهي أيضاً شهادات ناطقة أنها أهل لما خلقت له من سمع وبصر وفكر، فهكذا شهد الله لي بالرسالة بأن أنزل عليّ هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة، ومن بلغه من الأسود والأحمر، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾، وإذا ثبت لكم أن هذه شهادة من الله لي أن أنذركم أيها الموجودون ومن بلغهم بعدكم، فلأبلغ رسالتي بعد أن رفضت دعوتكم لي بالشرك، وتخلصت من إثمها، وأقمت الحجة على عدم قبولها، فأقول لكم: هل أنتم تشهدون أن مع الله آلهة أخرى، فهذا قوله: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ﴾ وهو استفهام تقريري مع الإنكار والاستبعاد ﴿ قُل لَّآ أَشْهَدُ ﴾ بما تشهدون ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أي بل أشهد أنه إله واحد ﴿ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ يعني الأصنام، وبهذا تمّ الكلام على شهادة الله له.

ثم أخذ يذكر شهادة الخلق له أيضاً بعد شهادة الله سبحانه وتعالى، إذ ادّعت قريش أن علماء اليهود والنصارى زعموا أنه لم يذكر في كتابهم كما تقدّم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ من علماء

اليهود والنصارى ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ كما قال عبد الله بن سلام لعمر بن الخطاب لما أسلم: يا عمر، لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني، ولأنا أشدّ معرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم مني بابني، قال: وكيف ذلك؟ قال: أشهد أنه رسول الله حقاً، ولا أدري ما يصنع النساء. فإذا شهد الله برسالتي وشهد علماء النصارى واليهود كذلك فلم يبق إلاَّ الخسران على من لم يؤمن، وليس خسران ذهب ولا فضة، بل خسران النفس بحرمانها من كمالها الخاص بها وهو قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، ثم وصفهم بعد الوصف بالخسران بأنهم ظالمون بل أظلم من غيرهم فقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ كهؤلاء الذين قالوا إن الملائكة بنات الله افتراء عليه وكذبوا بالقرآن والمعجزات وسموها سحراً ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ ضمير الشأن ﴿ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

ولما فرغ من إثبات ظلمهم أخذ يذكر نتائجه يوم القيامة فقال: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ «يوم» منصوب بمحذوف ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ﴾ أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء ﴿ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي تزعمونهم شركاء، فيكون جوابهم أن يجيبوا كعادتهم في الأرض عند القضاة، فيحلفون أنهم ما كانوا مشركين، وهذا قوله: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ والفتنة هنا المعذرة التي يتخلصون بها، تقول: فتنت الذهب، إذا خلصته، ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ بنفي الشرك ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ غاب وذهب عنهم ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي ما كانوا يكذبون وهو قولهم إن الأصنام تشفع لهم وتنصرهم فبطل ذلك في ذلك اليوم. ثم أخذ يصف فريقاً منهم فقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ حين تتلو القرآن كأبي سفيان ومن معه، فقالوا للنضر: ما يقول؟ فقال: والذي جعلها بيته، ما أدري ما يقول، إلاَّ أنه يحرك لسانه ويقول: أساطير الأولين فقال أبو سفيان: إني لأرى حقاً. فقال أبو جهل: لا، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أغطية، جمع كنان، وهو ما يستر الشيء كراهة ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ صمماً وثقلاً يمنع من استعماله ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾ أي إلى، و«حتى» هذه هي التي تقع بعد الجمل ولا عمل لها؛ والمعنى: بلغ تكذيبهم إلى أنهم جاؤوك حال كونهم يجادلونك ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ والأساطير الأباطيل جمع أسطورة أو إسطارة أو أسطار جمع سطر والسطر الخط ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ ﴾ الناس ﴿ عَنْهُ ﴾ أي عن النبي والإيمان به وبالقرآن ﴿ وَيَنْـَٔوْنَ ﴾ بأنفسهم ﴿ عَنْهُ ﴾ فلا يؤمنون به كأبي طالب ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي ما يهلكون إلاَّ أنفسهم ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أن ضرره لا يتعدّاهم، وجاء في تفسيرها وجه آخر: أن أبا طالب كان ينهى قريشاً عن إضرار النبي صلى الله عليه وسلم، وهو كان ينأى عن الدين، حتى إن قريشاً قالوا له: خذ شاباً من أصبحنا وجهاً وادفع إلينا محمداً، فقال: ما أنصفتموني، أربي ابنكم وأدفع ابني لتقتلوه. ولما دعاه صلى الله عليه وسلم للإيمان قال: لولا أن تعيرني قريش لأقررت عينك، ولكن أذبّ عنك ما حييت، ومن أبيات منسوبة له:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	أبشر بذاك وقرّ منك عيونا
ودعوتني وعرفت أنك ناصحي	ولقد صدقت وكنت ثمّ أمينا

وعرضت ديناً قد علمت بأنه من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولو تراهم حين يوقفون على النار حتى يعاينوها، فيقولون: يا ليتنا نردّ إلى الدنيا، الخ، وجواب «لو» محذوف، أي لرأيت أمراً عجيباً وموقفاً شنيعاً. ثم أضرب عن تمنيهم الرد وعدم التكذيب والإيمان فقال: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي ظهر لهم ما كانوا يخفون من قبائح الأعمال، فتمنوا ذلك للضجر لا للعزيمة ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ من الكفر والمعاصي لأنها صارت سجية فيهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما وعدوا أنفسهم ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ عطف على: «عادوا» ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ وضمير «هي» للحياة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٢٩ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ عرضوا على ربهم ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي يقول يوم القيامة: أليس هذا البعث والنشر بعد الموت الذي كنتم تنكرونه في الدنيا ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفركم ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ إذ فاتهم النعيم وكمال أنفسهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ غاية لكذبوا، وبغتة فجأة ﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا﴾ أي تعالى فهذا أوانك ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾ قصرنا ﴿فِيهَا﴾ في الحياة الدنيا ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ هذا تمثيل لاستحقاقهم الآثام ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس شيئاً يزرونه وزرهم ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي وما أعمالها إلاّ لعب ولهو تلهي الناس وتشغلهم عما يعقب منفعة دائمة، وهذا الجواب لقولهم: إن هي إلاّ حياتنا الدنيا ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ لدوامها ولأنه لا لغو فيها ولا تأثيم ولا تكليف ولا غمّ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أيّ الأمرين خير ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ «قد» هنا لزيادة الفعل وكثرته، كما قال الشاعر:

قد يهلك المال نائله

﴿إِنَّهُ﴾ أي الحال والشأن ﴿لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ فقد قال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس أحد هنا يسمع كلامك غيري. قال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش، وهذا تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم، فإن قومه لا يكذبونه وإنما هم يريدون أن لا يعلو عليهم أحد، أي فإنهم لا يكذبونك في السر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ في العلانية، وقال في حق غيرهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ثم أخذ يسليه تسلية أخرى فقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ وهكذا جميع الصابرين على الحق وأنت منهم ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لمواعيده، ومنها وعده للصابرين فلا يبدل وعده معك. ومعلوم أن هذه السورة نزلت بمكة ولم يكن هناك نصر، بل كانوا في حال ضعف، فنصر بعد ذلك، وهذا في الحقيقة معجزة نبوية. ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي من قصصهم وما كابدوا من قومهم، و«من» هنا صلة كما قال الأخفش كقولهم: أصابنا من مطر، أي: مطر، وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وأن

الأنبياء بعد تكذيبهم قد نصروا، على أنك يا محمد على كل حال مأمور بالصبر على إعراضهم، والوقوف عند حدّ ما أمرناك به، واقتضت حكمتنا أن نفعله معك، ولم يكن في حكمتنا أن ننزل الآيات التي يطلبها قومك، لأن تلك الآيات ما كنا نرسلها إلاّ تخويفاً، فإنزال الملك يقضي عليهم بالعذاب، فلم يبق إلاّ أن تنتظر الفرج. انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني: في طلب الكفار الآيات عناداً

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أي إعراض قريش لما طلبوا آية خارقة للعادة كما كان للأنبياء السابقين آيات، فطمعت في ذلك وأحببته، ونحن لم نر ذلك حكمة ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ ﴾ تطلب ﴿ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ سرباً، والنفق سرب في الأرض تخلص منه إلى مكان آخر ﴿ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ يعني أو تتخذ مصعداً إلى السماء، والسلم مشتق من السلامة ﴿ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ أي إن كان كبر وعظم عليك إعراض قومك عن الإيمان بك، فإن قدرت أن تذهب في الأرض أو تصعد إلى السماء فتأتيهم بآية تدل على صدقك فافعل، فأنا الذي حكمت بأن قوماً يؤمنون وقوماً لا يؤمنون ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ فإن الناس مختلفون استعداداً كما اختلف كل حيّ وجماد، فكيف أشاء اتّحادهم وأنا الذي رتبت الدرجات كدرجات السلم، ولا يرى اتّحاد الناس في كل شيء مرضاً وصحة وغنى وفقراً، وعلماً وجهلاً، وطولاً وقصراً، إلاّ الذين تبرؤوا من الحكمة وابتعدوا عن العلم، وحاشا أن تكون منهم ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾، وإذا كان الناس فريقين فهل يؤمن إلاّ المستعدون للإيمان كما لا يعقل إلاّ من استعدّ للعقل في سنّ معلوم ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تعقل وتدبر، وأما هؤلاء فكالموتى فكيف يسمعون ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي الكفار الذين هم كالموتى في أنهم لا يسمعون ﴿ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ يوم القيامة فيسمعهم فيؤمنون حيث لا ينفعهم الإيمان ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء؛ ولما أعلم النبي صلى الله عليه وسلم أنه لن ينزل عليه ما يطلبون من الآيات كالأمم السابقة أخذ يعلمه كيف يردّ عليهم حين طلبهم، فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أي مما اقترحوه أو آية أخرى سوى ما رأوه من الآيات الكثيرة ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً ﴾ مما اقترحوه ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة إنزالها، فإنه سبب البلاء والهلاك والاستئصال. وكيف ننزل آية من خوارق العادات التي تخرق النواميس الطبيعية المعروفة، وأنا رتبت العوالم ونظمت الكائنات وأقمت الأمم والطوائف كلاً بنظامه، ولو أني خرقت النواميس لاختلّ نظام مخلوقاتي وبدّلت كلماتي، ولا مبدّل لكلمات الله، فأنا الذي أقمت الطير في الهواء، والدواب على اليابسة، والهوامّ في التراب، والسمك في الماء، وأعطيت كل حيوان خلقه وهديته لمعاشه، ونظمت طوائفها وأحكمت ألفتها وجعلت بينها تفاهماً بلغاتها الخاصة بها، وعلمت ذكرانها وإناثها أن تعيش جماعات منظمات، ولم أذر مخلوقاتي يتخبطون في دياجير الحياة، وأنا لو لم أحافظ على تلك القوانين لاسودّ وجه الحياة، ولمات معظم الجماعات، ولم تكن لها حياة، بل كل ذلك مسطور. إنكم يا معشر بني آدم أمة تسكنون مع أمم أخرى من هذه الطوائف الحيوانية، وأنا الذي رزقتها وعرفت مستقرّها ومستودعها وكل قوانينها وأنظمتها وأحوالها في كتاب مبين أي اللوح المحفوظ، فهل ترون فارقاً بين الإنسان والحيوان إلاّ في قوة الإدراك، فأما ما عدا ذلك فهم والحيوان سواء، فلها جماعات

منظمات وذكران وإناث وقوانين وآداب على قدر طاقتها، ولها سياسات كجماعات الطيور في الجو، والحمر الوحشية والفيلة والبقر الوحشي والسمك وكل ما دبّ ودرج، وما أنتم أيها الناس إلاّ من الحيوانات ذات الفقرات، فلئن ارتفعتم عن الطير ذي البيض وكانت صغاركم ترضع اللبن من أمهاتها فجميع الدواب من ذوات الأربع تشارككم في هذه المزية، ولئن كنتم تسوسون مدنكم فإن النحل يسوس خليته، والنمل يحفظ مدنه، وإن كنتم تحفظون أولادكم فأكثر الحيوان لأولاده حفيظ، ولئن كنتم تذبحون الحيوان وتأكلون لحمه وكذلك تنحرونه وتشربون لبنه، فما ذلك فضيلة فيكم، فكم من آكل لحم أضرّه الطعام، وشارب لبن أورثه السقام، على أن الآساد شاركتكم في أكل اللحوم. وبالجملة فهذه الحيوانات أمم أمثالكم، ولست غافلاً عن مخلوقاتي أينما كانوا ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر: ٢١] فأنا أعطي كل طائفة من هذه الطوائف ما هي أهل له ولا أتعدى الحكمة، كما أني يا محمد أردت أن قوماً ممن تدعوهم للإسلام لا يؤمنون وذلك على حسب نظامي العام، وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مِن شَيْءٍ﴾ وكما أنكم تحشرون إلى ربكم فهم كذلك يحشرون فهذا العالم نظام واحد وله مقصد واحد متجه إلى حال يجهلها الناس. والعلماء وأفاضل القوم من أمم الأرض يبحثون وهم مجدّون، فهذه الأمم سائرة على نظام تام جميل في الحياة ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ لا فرق بين الإنسان والحيوان.

روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «يؤخذ للجماء من القرناء». وفي رواية مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لتؤدين الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء».

واعلم أن العلوم الحديثة قد أيّدت ذلك وإن لم تكن بلغت مبلغ التحقيق، أي أن الحيوان باق بعد الموت كالإنسان سائر لغرض نجهله ونحن هنا على الأرض التي حبسنا فيها لمعرفة ما في هذا العالم ثم نكون في عالم آخر، فلعلنا نطلع على ما هو أدق وألطف وأجمل.

ثم أخذ يتم الكلام على موضوع هؤلاء الذين لا يسمعون وهم قد جعلوا في منزلتهم فلم يعقلوا كلام ربهم وكذا نبيه على مقتضى نقص نفوسهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ فهم لا يزالون في الظلمة الأرضية التي تقدم ذكرها في أول السورة، ولم ينفذ نور الهداية الإلهية إلى قلوبهم إذ لم يستعدوا لها لعنادهم ونقصهم بحسب درجتهم، ولو أنهم كان لهم استعداد لأدركوا ما أحاط بهم من عجائب الحيوان وغرائب الطير وبدائع الحيوان البري والبحري، وما أودع فيها من فطر وفهم وذكاء وتقدير وتدبير، فيعرفون خالقها ولكنهم لم يصلوا إلى درجة الفهم ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦] فهم صمّ لا يسمعون، وبكم لا ينطقون بالحق، ثم بيّنه فقال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ﴾ إضلاله ﴿يُضْلِلْهُ﴾ لأنه وضعه في موضعه اللائق به، كما وضع كل طائفة من الأمم في مركزها حفظاً للنظام ﴿وَمَن يَشَأْ﴾ هدايته ﴿يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومستحيل أن يكون ذلك إلاّ عند الاستعداد ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر: ٢١]، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ فنحن لا نصنع إلاّ بحكمة.

ولما كان الكلام في خوارق العادات وفي إنزال آية كالأمم السابقة قد انتهى القول فيه، كان الأجدر أن ينظر في أمر نافع للإيمان، ولا شيء أفضل من البحث في أمر النفس، والبحث في الأحوال العارضة لها، فأما الأحوال العارضة للعوالم في الآفاق بالخوارق فلا فائدة منها، وأن النفس إذا نزل بها ملمّ أو حدث لها حادث عظيم كأن ينزل أمر عظيم من السماء كصاعقة، أو من الأرض كزلزلة، أو تقوم الساعة، فبالله ماذا يحسّ الإنسان في نفسه؟ لا جرم أنه يحس باضطرار والتجاء إلى قوة فوقه يلتجئ إليها فيدعوها، وما هي هذه القوة؟ هي الحضرة العلية، فإن الناس عند عظائم البلايا يلتجئون إلى ربهم بفطرهم، ولا يحسون بأصنام ولا شيوخ ولا عظماء، فهذا هو البرهان على وجود الله تعالى. فأنتم يا أهل مكة ليس ينبغي أن تعرفوا الله بطريق الأمور المزعجة في العوالم العلوية والسفلية، أو بأن جبال مكة تصبح قاعاً صفصفاً، ويحلّ محلها الجنات، أو تكون أنهاراً أو يأتي لكم بكتاب من السماء فهذا كله لا يفيد اليقين، وإنّما اليقين يأتي لكم من طريق أنفسكم، فأنفسكم إذا حلّ بها كرب تلجأ إلى الله، فهذا هو البرهان على وجوده من هذا القبيل، فأنتم نظرتم إلى العرض وتركتم الجوهر، وهذا هو قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ ﴾ استفهام وتعجب، ومعناه أخبروني، تقول: أرأيتك زيداً ما شأنه، أي أرأيت زيداً ما شأنه، فالكاف حرف خطاب لا محل لها من الإعراب وهي لمجرد تأكيد الخطاب، وأصله أرأيتم، وتقول العرب: أرأيتك بمعنى أخبرنا بحالك ﴿ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ ﴾ بالصواعق أو الخسف في الدنيا كما حصل في الأمم السابقة ﴿ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ القيامة ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ ﴾ في كشف العذاب ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أن الأصنام آلهة ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي ما تدعونه إلى كشفه ﴿ إِن شَآءَ ﴾ أن يتفضل عليكم ﴿ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت لما ركز في الفطر من توجه النفوس إلى من فطرها. فمن هذا فلتؤخذ البراهين والدلائل على وجود الله. ولقد جعل لنا الله الفقر وشدته، والمرض ووقعه، والبلايا وكثرتها، باباً من أبواب هدايتنا، ونعمة من نعمه علينا، فهي في الظاهر عذاب وفي الحقيقة نعمة عظيمة، فهي باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب نسلطه على من نشاء من عبادنا كي يتفطنوا لما نزل بهم، ويفكروا في أمور نفوسهم، فإما أن يعرفوا فيتضرّعوا، وإما ألا تلين قلوبهم، فحينئذ نهلكهم، فالعذاب يكون أشبه بامتحان فمن آمن أبقيناه ومن لم يؤمن أهلكناه، لأن النفوس الجامدة التي لا تعرف زمانها ولا تسير في طريق الصلاح هالكة حقاً، وهذا قوله ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ «من» زائدة، فكفروا ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ ﴾ الشدة والفقر ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ الضر والآفات ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ يتذللون ويتوبون ويرجعون عن ذنوبهم ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ «لولا» هنا للتنديم لدخولها على الماضي، وهي للحضّ إذا دخلت على المضارع، ويدخل في معناه أنهم لم يتضرّعوا ﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فلا مانع لهم إلاّ قساوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التي زيّنها الشيطان لهم.

والأمم التي إذا لم توقظها الحوادث ولم تنبهها النوائب، وبقيت معجبة بأنفسها مبتهجة بما زيّنه لهم شياطين الإنس والجن من الأعمال، يلحقها البطر ويملؤها الأشر وتمتلئ إعجاباً، فتتمادى في غيها ولا تسمع نصح الناصحين ولا تذكير المذكرين، وتكون أشبه بالذين يمتلئون من المآكل الدسمة من اللحم واللبن والبيض، ولا يصيبهم مرض في أجسامهم، بل تزداد وجوههم نضرة وجسومهم قوة،

وغيرهم مهزولون مرضى يعتريهم ما يستخرج من أجسامهم كثيراً من المواد، فهؤلاء كما قال أطباء العصر الحاضر بأوروبا لا سيما في النمسا وألمانيا، يأتيهم الموت فجأة ويموتون ولا هم يذّكرون، وعللوا ذلك بأن أجسامهم القوية إنّما نشأت من تلك المآكل التي هي كثيرة التغذية، فإذا دخلت في خلايا الأجسام دخلت بكثرة، فملأتها بلا توان بخلاف الأطعمة الخفيفة فإنها تدخل بالتدريج في الخلايا، حتى إذا جاء أجلها خرّت صريعة لليدين وللفم في يوم أو بعض يوم. فأما أولئك المرضى فإن أجسامهم قويت أن تطرد عن أجسامها تلك الأمراض، أي الخارجة بالبثور والقروح مثلاً والأمراض المتنوعة، فمن يظنّه أكثر الناس صحيحاً هو المريض، ومن يظنونه مريضاً هو الصحيح، لأن الجسم الضعيف ظاهراً أصبح قادراً على طرد البقايا المتخللة فيه. فأما ذلك الذي ملأ جوفه من المطاعم الدسمة فقد قتل نفسه وملأ الجسم باروداً وحشاه ناراً، فتفتك به بعد حين، وقالوا: إن الامتلاء من الأطعمة الدسمة هذا فعله، وأمروا أن يقلل الإنسان منه، وأن يكثر من الفواكه والأطعمة الخفيفة والحبوب والخضر. هذا ما جاء في الطب الحديث، وهو عينه ما يحصل في الأمم التي أنذرها المنذرون وحذرها المحذرون، وهي لا تسمع ما يقولون ولا تعي ما يذكرون، وسارت على طريقها المرسوم ولم ترجع عن غيها المعلوم، وهذا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من النعم لتكمل الحجة، فيكونون قد ذاقوا العسر واليسر والنفع والضر والخير والشر ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ ﴾ أعجبوا ﴿ بِمَآ أُوتُوٓاْ ﴾ من النعم كالصحة في الأبدان والسعة في المعيشة والأمن في الأوطان ﴿ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ كما حصل في أجسام الناس الذين لا يتقون المآكل الدسمة ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ آيسون متحسرون ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ﴾ آخر، يقال: دبره دبراً ودبوراً إذا اتبعه ﴿ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ على قيام الحجة وظهور الحقيقة وذهاب دولة الجاهلين وانتصار الحق على الباطل.

فالحمد حمدان: حمد في أول السورة على نعم النور والأرض والسماوات والارتقاء. وحمد هنا على إبادة الجهل وإحلال العلم محله، وغلبة الحق على الباطل فهو رب العالمين.

ولما كان العذاب إما من خارج وإما من داخل، وقد قدّم العذاب الخارج بخسف أو زلزلة، أخذ يذكر هنا ما في داخل الأجسام فيقول: لو أن الله سلبكم موهبة السمع والبصر فلا تسمعون ولا تبصرون، وموهبة العقل فلا تعقلون، فهل غير الله يأتيكم بأمثال ما فقدتم؟.

ولما كان العذاب ربما يتوهم أنه ينصرف لغير الظالمين، قال: إن العذاب مهما جاء سواء أكان بغتة أو جاء بعد مقدمات فهل يهلك إلاّ القوم الظالمون، وهذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾ فلا تسمعون ولا تبصرون ولا تعقلون ﴿ مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ بما أخذ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ كيف نبيّن لهم العلامات الدالة على توحيد الله بأنواع مختلفة، فمرّة بأحوال الأمم، ومرة بالتخويف، ومرة بالنظر في أنفسهم، فإنهم لو فكروا فيها لعلموا أن السمع والبصر والقلب وما يشعر به كل واحد من نفسه لا يخلقه سوى الله تعالى، وكذلك إذا وقع في غرق أو مرض عظيم فإنه لا يرى في نفسه مدعوًّا سوى الله، فنحن نصرف لهم ذلك ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ يعرضون عنها ويطلبون غيرها، كالآيات التي كانت تنزل على الأنبياء السابقين وفيها هلاك أممهم هلاكاً معنوياً لأنها لا تورث اليقين، فأما الأمور العقلية فإنها أنفع للقضية ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ

إن أتىٰكم عذابُ الله بغتةً ﴾ من غير مقدمة ﴿ أو جهرةً ﴾ يتقدمه أمارة تؤذن بحلوله، وقيل ليلاً أو نهاراً ﴿ هل يهلك إلا القوم الظٰلمون ﴾.

وبعد أن استوفى الكلام على المرسل إليهم، أخذ يصف حال المرسلين، فقال: ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ﴾ المؤمن بالجنة ﴿ ومنذرين ﴾ الكافرين بالنار، ولم نرسلهم ليقترح عليهم ما ليس لهم أن يصنعوه فيتلهى بهم أناس ﴿ فمن ءامن وأصلح ﴾ ما يجب إصلاحه على حسب الشريعة ﴿ فلا خوفٌ عليهم ﴾ من العذاب ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ بفوات الثواب ﴿ والذين كذبوا بئايٰتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون ﴾ أي بسبب ما كانوا يكفرون ويخرجون عن الطاعة. ثم أخذ يصف حاله صلى الله عليه وسلم:

الفصل الثالث: في أقواله صلى الله عليه وسلم مع المتواضعين

يقول صلى الله عليه وسلم: ليس عندي خزائن رزق الله، ولا علم لي بالغيب، ولا أنا من جنس الملائكة فأقدر على ما يقدرون عليه، ولست أتبع إلاّ ما يوحى إليّ. وهذا الوحي إنّما يعرفه المستعدّون له المبصرون فأما عُميُ القلوب فهم لا يفهمونه، وهذا قوله تعالى: ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ فأوسع عليكم وأمنع فقركم وأجعل ما حول مكة جنات بدل من هذه الجبال الجرداء ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ وهو من جملة المقول فأخبركم بما مضى وما سيقع، كما تقترحون عليّ أن أطلب لكم من الله سعة الرزق في الأول، وإخباركم بمصالحكم ومضاركم في المستقبل ﴿ ولا أقول لكم إني ملكٌ ﴾ حتى لا آكل الطعام ولا أمشي في الأسواق، ولا أتزوج النساء، كما قلتم: ﴿ وقالوا مال هٰذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾[الفرقان: ٧] وحينئذ أقدر على ما لا يقدر عليه غيري من الإخبار بالمستقبل، فأنا لست كذلك ﴿ إن أتبع إلا ما يوحىٰ إليّ ﴾ وإنما الأمر يرجع لاستعداد النفوس، فمن تكبّر وأعجب بنفسه قتله الإعجاب وباء بالنكال ولم يجب الدعوة، وهم الأغنياء والمتكبرون ﴿ قل هل يستوي الأعمىٰ والبصير أفلا تتفكرون ﴾ فتهتدوا ﴿ وأنذر به ﴾ أي القرآن ﴿ الذين يخافون أن يحشروا إلىٰ ربهم ﴾ وهم المؤمنون المفرطون في العمل؛ وهكذا كل من يجوّز الحشر من المؤمنين والكافرين، فالإنذار نافع لكل كافر مجوّز للحشر، ولكل متردد ولكل مؤمن مذنب، فأما أولئك الجاحدون المكذبون فكيف ينجع فيهم الإنذار، ولا إنذار إلاّ حيث تجوّز النفوس ما أنذرت به، وهي نفوس الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم حال كونهم ﴿ ليس لهم من دونه وليٌّ ﴾ قريب ينفعهم ﴿ ولا شفيعٌ ﴾ يعني يشفع لهم، وليست الشفاعة التي تكون من الأنبياء والعلماء والشهداء، وأعمها شفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التي بيناها أيّما تبيان في سورة البقرة، وحققنا هذا المقام تحقيقاً مستفيضاً هناك، ليست هذه الشفاعة للمؤمن إلاّ بإذن الله، فأصبح الشفعاء شافعين بأمر الله، فهي إذن ليست من دون الله فلا إشكال.

واعلم أن الشفاعة التي ذكرناها في البقرة لا تدع شكاً لمرتاب، إنها غير ما يفهمه كثير من الناس بلا تحقيق، فهي مذكورة على التعليم وعلى الاقتباس والقدوة، فلم يجعل الله الدين إلاّ للهداية، ولا الأنبياء والشهداء والعلماء إلاّ لتعليم الناس بالعلم وبالقدوة، لا أن يتكل الناس عليهم، فاقرأ هذا الموضوع هناك، فإن المعنى هناك جمع جميع الأقوال وأصبحت الشفاعة مناسبة للتربية العالية الإسلامية في المستقبل، والله هو الهادي.

الفصل الرابع: في معاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم للفقراء من المؤمنين وأمر الله له بإكرامهم، وهو إتمام للفصل الثالث

أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم بإنذار غير المتقين، فلما فرغ من الكلام عليهم أخذ يذكر حكم المتقين، فالأولون غالباً كانوا من ذوي الجاه والغنى والثروة الطائلة، فهم متكبرون، فهم أشبه بذوي الأجسام القوية الممتلئة بالمآكل الدسمة كما تقدم، فهم في الظاهر أقوياء وفي الباطن ضعفاء، فأما الفقراء فإنهم أشبه بالأجسام الضعيفة التي وصفها الأطباء في العصر الحاضر أنها كثيراً ما تكون أقوى، كما حصل للضعفاء الآتي ذكرهم، فإنهم لصفاء نفوسهم وسلامتها من الأعباء الدنيوية والغرور بالمال والولد والصيت والقوة والجاه قبلت نفوسهم الدين، فهم عند الناس ضعفاء وعند الله أقوياء. فيا ليت شعري، أيّ فرق بين هؤلاء وبين أمثالهم في المرضى والأصحّاء، فالمشابهة بينهما صحيحة تامة.

والنبوّة لا تهتم بالمظاهر، وإذا كان الطب الذي لا يهمه إلاّ الأجسام لم يرعه قوة الأجسام، بل قال: القوي عندي قد يكون ضعيفاً، والضعيف قد يكون قوياً، هكذا هنا:

(١) قال ابن مسعود: مرّ ملأ من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، رضيت بهؤلاء بدلاً من قومك؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا، أنحن نكون تبعاً لهؤلاء، اطردهم، فلعلّك إن طردتهم أن نتبعك، فنزلت هذه الآية.

(٢) قال عكرمة: جاء عقبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحارث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا أبا طالب، لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا، فإنهم عبيدنا وعسفاؤنا، كان أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له، فأتى أبو طالب النبي صلى الله عليه وسلم فحدّثه بالذي كلموه به، فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون وإلى ماذا يصيرون؟ فأنزل الله النهي بالآية، فاعتذر سيدنا عمر من مقالته.

(٣) وروي نحوه عن سلمان وخباب بن الأرتّ، فقد قالا: إن الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن حقرا أن يجلسا مع صهيب وبلال وعمار وخباب في نفر من ضعفاء المؤمنين، وطلبا أن يجلس النبي صلى الله عليه وسلم في صدر المجلس، ويبعد هؤلاء لرائحتهم، فقال: ﴿ مَآ أَنَاْ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾[هود: ٢٩] فطلبوا أن يكون لهم مجلس ليس معهم فيه هؤلاء الفقراء، فلما دعا علياً ليكتب نزلت الآية، فألقى صلى الله عليه وسلم الصحيفة من يده ثم دعا هؤلاء الفقراء فأتوه وهو يقول: ﴿ فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ فكنا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾[الكهف: ٢٨] الآية. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا بعد ذلك وندنو منه حتى كانت ركبنا تمس ركبته، فإذا بلغ الساعة التي يريد أن يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم.

(٤) هكذا روي عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة نفر، فطلب المشركون طرد هؤلاء الخ، وهذا أخرجه مسلم.

(٥) وقال الكلبي: قال أشراف قريش: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً. فأبى. قالوا: فولِّ ظهرك إليهم وأقبل علينا، فأبى.

(٦) وقال مجاهد: قالت قريش: لولا بلال وابن أم عبد ـ يعني ابن مسعود ـ لبايعناك.

هذه الروايات التي ذكرتها مختصرة لأحضر لك أيها الذكي ما ورد في هذا المقام، ففي كل رواية يقال: فنزلت هذه الآية، وكل هذا محتمل، ولكن النزول لا يكون إلاَّ في واحدة، فإذا كان سلمان الفارسي وهو بالمدينة يقول: فينا نزلت، وسورة الأنعام مكية، فإن النزول إنَّما يكون بمكة كما في رواية عكرمة وابن مسعود والكلبي، فعلى هذا لا تنافي بين الروايات إلاَّ في إثبات الإنزال، وذلك من تصرّف الرواة الذين فسروا الآية برواياتهم، والخطب سهل في ذلك.

والمقصود من الآية مكارم الأخلاق؛ فإياك أيها الذكي أن تضيع وقتك في جمع الروايات والترجيح بينها، فالمقصود من هذا كله الأخلاق والفضيلة لنقتدي بالأنبياء في أخلاقهم، ونعمل لإصلاح المجتمع الذي خلقنا فيه، ولنكون أئمة نقتدي بمتبوعنا العظيم. فلتقرأ الآية ولتفسرها وإياك وضياع الوقت، بل سر في الآية وهي: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الصبح والعصر والمراد الدوام، حال كونهم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي مخلصين في الدعاء ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي ما عليك حساب رزقهم وإيمانهم، فالله يرزقهم، وإيمانهم ربما كان أعظم من إيمان من تطردهم بسؤالهم طمعاً في إيمانهم لو آمنوا، وليس عليك اعتبار البواطن فإذا كان باطنهم ليس فيه إخلاص فحسابهم لا يتعداهم إليك، كما أن حسابك لا يتعداك إليهم ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ فتبعدهم، وهذا جواب النفي: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الكلام على الفريقين الكافرين والمؤمنين

هنا يذكر الله عادته في خلقه وأنه يبتليهم ويختبرهم. فاعلم أن الله عزَّ وجلَّ جعل التربية عامة في خلقه، فكل ما يمسنا في حياتنا الدنيا إنَّما يكون نتيجة لتربيتنا شئنا أم أبينا، وليس في الأرض من الكمال إلاَّ النادر، والناس إذا قلّ علمهم ونقص اختبارهم وساءت نفوسهم، كانت النعم العامة مصيبة عليهم فيصبحون وهمومهم محصورة في الموازنات والمشابهات والمناظرات وكلّ يقول في نفسه: لم فضّل فلان بالعلم أو بالمال أو بالصحة أو بقبول الناس أو بالجمال وما أشبه ذلك. وما من امرئ في الأرض إلاَّ واجد من هو أحسن منه في صفة أو صفات، فإما أن يصبر ويرجع ويدرس الحياة درساً نافعاً حتى يعقل، وإما أن تتحير نفسه وتذلّ ويصبح حاسداً لنعم يجب أن يتّصف بها الناس ليساعدوه في حياته، ولكن لغباوة أكثر الناس لا يبالون بهذه القضايا ويحزنون، ولذلك قال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الفتن، وهو اختلاف الناس في أحوالهم في الدنيا سعة وضيقاً، فجعل أمثال عيينة بن حصن الفزاري أغنى من مثل سلمان الفارسي مثلاً ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ في أحوالهم العقلية وأمورهم النفسية، فجعلنا أمثال سلمان الفارسي أرقى عقلاً وأحلم نفساً لإيمانه بالله تعالى ﴿لِّيَقُولُوٓا۟﴾ أي الذين ارتقوا في المال وانحطوا في العقائد ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الفقراء والضعفاء ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ بالعلم والإيمان والاهتداء، وكيف يكون ذلك ولو كان خيراً ما سبقونا إليه، فنحن أولى بالعلم وأهدى سبيلاً، فالقوة سائدة عندنا علماً ومالاً، فأجابهم الله قائلاً: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي الذين

هم مستعدون للعلم والإيمان، وليس في هذا العالم عطاء إلاّ على مقدار الاستعداد، وهؤلاء لما هذبت نفوسهم وارتاضت بالفقر تارة والضعف وقلة الصيت أخرى، خفّ حمل الحياة عليهم، ولم يؤثر في نفوسهم الشره والطمع والرياسة والحرص والحسد والكبرياء وأمثالها مما يغطي على العقول فتصدأ، فيكون الران عليها فلا تعي ما يقال لها كبرياء وحسداً.

فهؤلاء لما سلموا من ذلك استعدّت نفوسهم لسماع الوحي، وأخذت تقترب من الفضائل والسعادة النفسية، فكلما خفّ الدين سهل الوفاء، والمال والجاه والكبرياء والبطنة كل ذلك مبعد عن العلم والحكمة، والله هو الذي جعل الدرجات متفاوتة كما تتفاوت المعادن، كما في الحديث: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام»، فمن كان أصدق قولاً وأصحّ رأياً وأقبل للحق في الجاهلية بما أودع في فطرته، فإنه في الإسلام كذلك يقبل الحق، فالأمر يرجع إلى الفطرة الإنسانية والقابلية النفسية. والشمس تشرق على البر والبحر فينمو بها النبات، ولا ينمو بها الحجر ولا التراب ولا الطين ولا المعادن، وليست الشمس بمحجوبة لأجل أن الأحجار لا تنمو بها، بل هي طالعة لتعطي القابلين الحياة بإذن الله. هكذا الأنبياء يعلمون الناس ولا يهمهم أن يتعلم إلاّ الشاكرون.

كما أن المؤلفين يضعون كتبهم والمدرسون يلقون دروسهم ويقصدون بذلك المستعدّين، فأما غيرهم إذا لم يعبأ بكتبهم ولم يسمع لدروسهم فليس ذلك بضارّهم كما لا يضرّ الشمس أن ضوءها لم يؤثر في الحجارة، وإنّما يحيا بضوئها النبات كما يحيي القرآن والعلم والتأليف الشاكرين المستعدّين لقبول النعمة، فالمغرم بالشيء الحريص عليه هو القابل له والقابل باستعداده هو الشاكر لأن الشكر صرف العبد نعم الله عليه فيما خلقت له، وهذا صرف نعمة الله وهو الاستعداد فيما خلقت له وهو الفهم، وهكذا متى تعلم أفاد الناس فيصرف العلم في المنفعة العامة كما فعلت الشمس في إرسالها ضوئها.

هذا هو الشكر وهؤلاء هم الشاكرون، ولذلك وصى الله عليهم فقال: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ﴾ يا محمد ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ ولا تكتف بعدم طردهم من مجلسك وبقائهم مع الأغنياء، بل حيّهم بالسلام وبشّرهم بأني كتبت على نفسي الرحمة، فأنا أغفر ذنب من أذنب إذا تاب، فأنا لست أعبأ إلاّ بالقلوب ولا أنظر إلاّ إلى النفوس، فأما مظاهر الأجسام والنعم الظاهرة من المال والولد فلم أجعلها مقياساً للكمال ولا دليلاً على الارتقاء والعزة القعساء، وإنّما هي آلات تصلح للخير والشر والنفع والضر، فهي إما أن ترفعهم إلى العلياء وإما أن تنزل بهم إلى الدركات، ويؤخذ بعض هذا من قوله: ﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ﴾ بفتح «أن» على البدل من «الرحمة»، أو بكسرها على الاستئناف، وقوله: «بجهالة» في موضع الحال، وذلك كما كان من عمر رضي الله عنه لما اعتذر من مقالته التي قالها فيما تقدّم في هذا المقام، فلما نزلت الآية اعتذر. فعمر وغيره إذا عمل سوءاً بجهالة ﴿ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ ﴾ بالتدارك والعزم على أن لا يعود ﴿ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن تاب من ذنوبه، بفتح «أن»، وهو إما خبر لمبتدأ مضمر أي فأمره غفرانه وإما مبتدأ خبره محذوف، أي فله غفرانه.

الفصل الخامس: في ذكر نتيجة ما تقدّم في الفصول السابقة على سبيل اللف والنشر المرتب

ولما أكمل الكلام على الجاحدين والمؤمنين أخذ يلقي درساً عاماً يرجع لأصل المقال من دعوتهم له إلى الشرك وعبادة غير الله، ومن اقتراحهم عليه آية من السماء، فلما قتل هذا الموضوع درساً وتحقيقاً وقال: لا أتبع دينكم، وأما الآيات المقترحة فإن الله لا يأذن لي فيها، ولست ملكاً وليس عندي خزائن الله الخ، وأرجع الأمر كله إلى الاستعداد وأن النفوس المستعدّة للإيمان تؤمن، فأما القلوب المتكبرة فهي لا تؤمن.

رجع إلى أصل الموضوع ليجعل له نتيجة، فهو هناك كقضية يراد البرهنة عليها، فلما أتى بالبراهين على هذه الأمور أخذ يذكر النتيجة فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك التفصيل الواضح ﴿ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ ﴾ آيات القرآن في صفة المطيعين والمجرمين وإنزال الآيات، وكيف كان المقترح منهم ليس ينفع في الحياة ولا الإيمان ليظهر الحق ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي ولتبيّن سبيلهم على قراءة رفع «سبيل»، أو لتستبين أي تستوضح يا محمد سبيلهم على قراءة النصب، فتعامل كلاً بما يلائمه. واعلم أن أمثال هذه الجملة تقال في المواضع العظيمة من القرآن، وهذا الموضع فيه أسرار تقدّم بعضها، وسيأتي كثير منها فيما سيأتي بعد آخر هذا المقصد. والحق أن هذه السورة منبع حكمة وستراها قريباً.

ثم شرع في نفس النتيجة بعد التمهيد لها بالإجمال فقال: ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ ﴾ صرفت بما نصب لي من الأدلة وأنزل عليّ من الآيات في أمر التوحيد عن ﴿ أَنْ أَعْبُدَ ﴾ أي عن عبادة ﴿ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ﴾ وهذه الجملة تأكيد لقطع أطماعهم ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا ﴾ أي إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ وما أنا في شيء من الهدى، وفي هذا تعريض أنهم هم غير مهتدين، وإذا كنت لا أتبع أهواءكم فإني أتبع ما يوحى إليّ ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ على بيان وبصيرة في عبادة ربي ﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ﴾ الضمير لـ«ربي»، فإنكم أشركتم به غيره، وهذا نتيجة لدحض اتباعهم في الشرك بالله كما طلبوا فيما تقدّم. ثم أعقبه بالنتيجة الثانية وهي أن لا حق لهم في اقتراح الآيات فقال: ﴿ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ﴾ من الآيات المقترحات كما تقدّم تقريره ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ كما تقدّم، فهو الذي جعل العالم درجات، وكما رتّب الحيوان ورتّب الإنسان في الدنيا والأخرى، وفتن بعض الناس ببعض ليقول الغني: كيف أصبح الفقير عالماً، ويقول الفقير: كيف صار هذا الكافر غنياً، وبهذا يتمّ ما أريد منهم كما سبق توضيحه ﴿ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ﴾ أي يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به على مقتضى ترتيب الدرجات التي رتبها إذ نظم العالم من أعلاه إلى أسفله ثم من أسفله إلى أعلاه، أي من عالم العقل إلى عوالم الضياء والنور، وهي الأجسام الأثيرية فالشموس فالأرضون فما يحيط بها من الطبقات فالمخلوقات التي فوقها مرتبة درجات بعضها فوق بعض، فالله يتبع الحق الواضح في هذه الدرجات التي رتبها ونظمها، يقال: قصّ أثره، إذا تبعه، هكذا يتبع الله الحكمة فيما يعمل وليس يضرّ الله شيئاً أن الناس يجهلونها، وإنّما ينزلها في القرآن لتتلى حتى إذا جاء جيل رشيد أخذ يقصّ الحقّ الذي قصّه الله فيقف على شيء منه في الدنيا، ثم إذا مات أخذ النور الذي أشرق على النفس في الدنيا وهو العلم والحكمة يسعى بين أيديهم ليهديهم إلى ما هو أنور وأشرق،

هذا هو المقصود من قوله: ﴿ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ﴾ أي فليس الله يتبع أهواءكم في إنزال الآيات فيخرم النظام المتبع في الطبيعة، ويجعل العالم مضطرباً، لأن عالم الطبيعة إذا اختلّ نظامه لم يبق له وجود، واقتراحكم يضادّ هذا، وأنا لا أتبع إلاّ الحكمة في عملي، فعلى الناس أن ينهجوا نهجي، ويقرؤوا نظامي، ويدرسوا حكمتي في دوابّ الأرض ونظامها، وأنها أمم أمثالكم فادرسوها، لتكونوا حقيقة أرقى من في الأرض، فأما إذا عشتم كما تعيش العامة والبهائم، فلكم منزلة في الآخرة على قدر عقولكم ونفوسكم، وأنتم محرومون من العالم الأعلى الذي هو في جوار الملائكة والأرواح العالية، وإذا اتبع الله الحكمة في عمله فهو قاض يفصل بالعدل على مقتضى القوانين التي سنّها ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ القاضين ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ ﴾ من إنزال العذاب ﴿ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي لو ثبت أن في قدرتي وإمكاني ما تستعجلون به من العذاب لأهلكتكم عاجلاً لغضب ربي واقتصاصاً منكم لتكذيبكم ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي أنه أعلم بما يستحقون من العذاب والوقت الذي يستحقونه فيه.

الفصل السادس: في شرح عام لما تقدّم كله

(١) وهو يرجع إلى أنه يعلم الغيب كما تقدّم من أنه جعل الحيوانات أمماً أمثالنا، فهنا يقول: هو محيط علماً بالعوالم كلها في البر والبحر والورق والحبة في ظلمات الأرض والرطب واليابس، كل هذا في كتاب مبين.

(٢) وإلى أنه يتوفى الناس ليلاً ويبعثهم نهاراً.

(٣) وإلى أنه قاهر فوق العباد بدليل إنامتهم تارة وإيقاظهم تارة أخرى، فهكذا بعد موتهم الذي هو كالنوم يحييهم بعد الموت كما أيقظهم بعد النوم.

(٤) وإلى أنه كما قهر الأجسام فألجأها للنوم واليقظة يسلط عليهم شدائد البر والبحر، فيستغيثون وهو الذي ينجيهم.

(٥) وإلى أنه كما قهر الأجسام وأرواحها بالنوم واليقظة وبالظلمات في البر والبحر، سلط عليهم صواعق من السماء أو زلازل من الأرض، وقذف في قلوب بعضهم كراهة بعض إما حسداً وإما تديناً.

(٦) فكل هذه الأمور الخمسة الملخصة للفصول السابقة تلخيصاً أكمل تدعو العقل الإنساني أن يفكر هل هذه الحياة تستحق أن تكون نهاية. كلا، بل هي مقدمة، وإلا فلماذا هذا الاضطراب والقهر والزلازل والحروب والنوم واليقظة، كلا، إن هذا أمر له ما بعده، فلذلك أتى آخراً بما يفيد أن قومك يا محمد كذبوا به وهو الحق فأعرض عنهم إذا خاضوا في القرآن والوحي مكذبين، ولا تجالسهم وكيف تجالس من اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، وتركوا العلم والحكمة والجد، ولم ينظروا إلى ما يحيط بهم من العوالم والمحن، هؤلاء قوم لا يعقلون فنفوسهم ستسلم إلى الهلاك لا شفيع لها ولا تقبل منها فدية وليس لهم إلاّ شراب من ماء مغلي في بطونهم، وعذاب أليم في أجسامهم، وقل لهم أندعو من الله ما لا ينفعنا ولا يضرّنا، ونكون كالذي أضلته الشياطين في الأرض متحيراً ومعه رفقة يقولون ائتنا، قل لهم لا نفعل ذلك فلا هدى إلاّ هدى الله، ونحن مأمورون أن نخلص له، وأن نقيم الصلاة لأنا سنحشر إليه، وهو الذي خلق السماوات والأرض الخ.

هذا إجمال هذا الفصل السادس، وهو ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾ جمع مفتح ـ بكسر الميم ـ كالمفاتيح جمع مفتاح، وهو ما يفتح به المغاليق، وإن جعل مفاتح جمع مفتح ـ بفتح الميم ـ فهو المخزن وسواء كان الأول أو الثاني فالمعنى أن الله عنده الغيب كله، فمن عنده المفاتيح للشيء فعنده ذلك الشيء. ألا ترى أن من عنده مفاتيح الخزائن فإنه يتوصل بها إلى ما في تلك الخزائن، وإن جعل بالمعنى الثاني كان المعنى: وعنده خزائن الغيب ﴿ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾، قال ابن مسعود: أوتي نبيكم كل شيء إلاّ مفاتح الغيب، ومفاتح الغيب المذكورة أعمّ مما جاء في الحديث المروي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلاّ الله تعالى: لا يعلم أحد ما يكون في غد إلاّ الله، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلاّ الله، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً، ولا تدري نفس بأيّ أرض تموت، ولا يدري متى يجيء المطر أحد إلاّ الله»؛ وفي رواية أخرى: «لا يعلم أحد ما تغيض الأرحام إلاّ الله، ولا يعلم ما في غد إلاّ الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلاّ الله، ولا تدري نفس بأيّ أرض تموت إلاّ الله، ولا يعلم متى الساعة إلاّ الله» أخرجه البخاري. وأعم أيضاً مما روي عن مقاتل والضحاك أنها خزائن الأرض، وعلم نزول العذاب؛ ومما قاله عطاء وهو ما غاب من الثواب والعقاب، ومما قاله غيرهم كانقضاء الآجال وعلم أحوال العباد من سعادة وشقاء وخواتيم الأعمال وعلم ما لم يكن بعد وعلم خزائن غيب السماوات والأرض من الأقدار والأرزاق وغيرهما بل فوق ذلك علم كل ممكن وجد وكل ممكن لم يوجد. فمفاتح الغيب شاملة لذلك كله، وكل هذه الأقوال داخلة فيها، وإنما يقال في كل مقام بحسبه على حسب قبول المخاطبين.

ثم أخذ يشرح عموم علمه بالمشاهدات ليعرف الناس كيف يعلم الغائبات، فيقول: إن المغيبات في علمه منظمة على مقتضى ما ترون في هذا العالم المشاهد، ولذلك قال: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ فليدرسها الناس ليظهر لهم كيف كانت خزائن علمه مقفلة على الناس قبل أن تبرز هذه العجائب في البر والبحر. إن الذي برز في البر والبحر من عجائب الخلقة وبدائع الصنعة من أنواع الجماد والنبات والحيوان والإنسان يدلنا على كيفية ترتيبها في علمي القديم، وهو بعض ما كان معلوماً لله ولا يزال معلوماً، فسائر العجائب التي لا تحصى وهي عنده مخبوءة من العوالم التي قدّرها وستكون في المستقبل لها نظام يشبه ما تشاهدون، ومتى درستموه دلكم على حسن الإتقان، وأدركتم طرفاً من الجمال يسوقكم إلى استكناه الحقائق وفهم الدقائق، وعلى مقدارها تقتربون من خالقها، مع علمكم أنكم لا تصلون إلى نهاية علمه، ومهما درستم وصفت نفوسكم فإنكم لا تدركون منتهاه، وهذا ما يديم لكم الشوق والجد لتسيروا في أنوار العارف مجدّين. إن جميع الأرض إما بحر أو برّ، فكأنه قال: جميع ما في الأرض ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ أي فهو عالم بالجزئيات ما عظم منها وما دقّ وما هو أدقّ من ذلك ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ ﴾ معطوفات على «ورقة» ﴿ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ مقدارها ووقتها، والكتاب المبين إما علم الله أو اللوح المحفوظ. ومعلوم أن جميع الأشياء إما رطبة أو يابسة، فعمم تارة بالبرّ وتارة بالبحر، وأخرى بالرطب واليابس، وذكر الدقائق في الورقة والحبة، فملخصه أنه يعلم الكل وهو البر والبحر والرطب واليابس، والأعمّ منه هي مفاتح الغيب والجزئيات الدقيقة كالورق والحبة في باطن الأرض، وهي الحبة قبل أن تنبت فإذا نبتت لم تكن حبة،

وقوله : ﴿ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ بدل من قوله : ﴿ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ ﴾ بدل الكل على أن الكتاب علم الله ، ويدل اشتمال على أنه اللوح المحفوظ . إلى هنا انتهى ما في المقام الأول من هذا الفصل .

المقام الثاني

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ ﴾ ينيمكم فيه ، ولا ريب أن النوم أخو الموت فكل منهما إزالة للإحساس ، ولكنّ الموت أشدّ استئصالاً له ، فاستعير له ﴿ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ كسبتم فيه ، كما هو العادة أن الليل للنوم والكسب للنهار ﴿ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ ﴾ يوقظكم ، وهذا ترشيح للاستعارة المتقدمة ، فإن البعث من ملائمات المشبه به وهو الموت ﴿ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ﴾ ليبلغ المتيقظ آخر أجله الذي قدّر له في الدنيا ﴿ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ﴾ بالموت ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ يوم القيامة بالمجازاة ؛ وهذا القول خطاب للكفار ولكل عاقل ، فهو يقول : أيها الناس ، إنكم في الليل كالجيف الملقاة وفي النهار تكسبون الآثام ، والليل والنهار يدوران عليكم لا يفتران ، فأما أنتم فإنكم لم تستيقظوا من غفلاتكم ، بل المؤمن منكم والكافر جميعاً لا يفكرون في أكثر الأحوال كيف كان نظام الليل والنهار واليقظة والنوم ، وهما دائبان ، فأما أنتم فساهون لاهون ، أو ما علمتم أيها الناس أن هذه الحوادث المتكررة التي لا مفرّ منها ، تشعر بطريق البرهان الإقناعي والقياس الظاهري أن هذا النوم وهذه اليقظة قد ضربا مثلاً للنوم الأكبر واليقظة الكبرى ، وإن ذلك إلاّ تمرين على الموت والحياة ، فإن متم فلا تجزعوا من انقطاع الحياة لأنها لا مقطوعة ولا ممنوعة ، ولكن اجزعوا من غفلاتكم فأنتم لا بدّ مبعوثون بدليل استيقاظكم من نومكم ، وهذا من إحدى الأدلة التي ذكرها سقراط لتلاميذه وأفهمهم أنه برهان إقناعي يورث الظن لا اليقين ، فقال : ألم تروا أن الفقر يتبعه الغنى ، والغنى يتبعه الفقر ، والمرض بعده صحة ، والصحة بعدها مرض ، وهذه قاعدة أن الضدّ يتبعه ضدّه ، فالأضداد متاليات ، والليل يتبعه النهار . هكذا فلتكن الحياة يتبعها الموت والموت يتبعه الحياة . هذا كلام سقراط وقد تقدّم في سورة البقرة .

فانظر كيف ذكر الله النوم واليقظة والليل والنهار ثم أتبعهما بقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ﴾ .

يا ليت شعري أين جزيرة العرب ، وأين سقراط ، وأنا موقن أن المسلمين ليس فيهم إلاّ قليل قد اطلعوا على هذا البرهان من كلام سقراط وفيها هذا البرهان . وكيف يذكر النوم واليقظة ، وبنو آدم جميعاً لا يفكرون فيهما إلاّ الأطباء لأجل الصحة والمرض ، وإلاّ العشاق للاجتماع بمن يحبون ، وإلاّ المرضى للتألم مما أصابهم ، وهكذا وأهل الأرض جميعاً إلاّ حكماءهم لا يفكرون في اليقظة والنوم ، من حيث إن الحياة الأخرى تعرف بالقياس لهما . فإذا كان الناس اليوم يقرؤون اللغات ، وهذه القصة في كلام سقراط مع تلاميذه ، ولا يطلع عليها بلغة الإنجليز والفرنسيين وغيرهم إلاّ قليل من المسلمين ، فما بالك بالعرب في جزيرتهم أيام النبوة ، فلعمرك لم يسمعوا بحديثه هذا ولا كانوا يحسنون الكتابة العربية إلاّ قليلاً منهم ، فكيف باللغات الأخرى وكيف بفلسفتهم ، إن إيراد مثل هذا البرهان في هذه السورة من عجائب الحكمة التي تأتي في الديانات ، والناس عنها لاهون ساهون . بمثل هذا تكون المعجزات ، وبمثل هذا تكون البينات على صدق النبوّة ، وبمثل هذا يجب على المسلمين أن يكونوا أول حكماء الأرض وفلاسفتهم .

أيها المسلمون، هانحن أولاء بينا لكم ما يجب عليكم، فاقتفوا أثر القرآن، وادرسوا هذه الدنيا ونظامها، فلا اتباع للقرآن ما لم تدرسوا البرّ والبحر والسماوات والأرض.

المقام الثالث من هذا الفصل

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ ملائكة تحفظ أعمالكم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ ملك الموت وأعوانه وهم لا يفرّطون بالتواني أو التأخير ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ إلى حكمه وجزائه ﴿ مَوْلَىٰهُمُ ﴾ الذي يتولى أمرهم ﴿ ٱلْحَقِّ ﴾ العدل، وإذا كان كذلك فهو يحكم بالعدل ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ وحده ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ يحاسب الخلائق في مقدار حلب شاة لا يشغله حساب عن حساب.

إن قهر الله لعباده غلبته لهم، والقهر تجده فوق كل شيء، وبهذا القهر ثبتت هذه الكائنات، فقهر الليل بالنهار والنهار بالليل والحرّ بالبرد والبرد بالحرّ، ووضع الحار والبارد والرطب واليابس في النبات والشجر، وكسر هذا بهذا فحصل التفاعل كما هو ظاهر في علم الكيمياء، فلا مركب من المركبات إلاّ والقهر هو الذي حفظ تركيبه وأبقى هيئته وشكله، وترى الأجزاء الداخلة في تركيب النبات من الأكسوجين والأودروجين والأوزوت والكربون والأملاح المختلفة وكذلك الحيوان، كل هذه العناصر تتفاعل في الأجسام العضوية، فكل لكل قاهر فيتزن الجسم، ولولا قهرها وتذليلها ما عاش حيوان ولا نما نبات ولبقيت العناصر ملقاة كهيئتها يوم خلقها الله، بل الماء نفسه لولا القهر الطارئ على جزأيه الأكسوجين والأودروجين ما كان سائلاً جارياً ولا ثلجاً ثابتاً، بل كان جسماً غازياً منتشراً في الكون، هوائياً لا يصلح للأحياء.

فالقهر لهذين العنصرين أبرز هذا الماء من العدم حول الكرة الأرضية؛ ومستحيل أن يكون ماء أو نبات أو حيوان إلاّ بحساب متقن على مقتضاه، يكون دخول هذه الأجزاء في التركيب، وعلم الكيمياء الآن أشهر من نار على علم، يفهم منه هذا الحساب بسهولة. إذا فهمت هذا فتعجب كيف يذكر بعدها قوله: ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ فهو يقول: قهرت العناصر فتفاعلت بالحساب، فإذا كان القهر عمّ كل شيء فالناس مقهورون والعناصر الداخلة في أجسامهم بحساب لأنها مقهورة أيضاً، ومن قهرها أن المواد الزجاجية الشفافة لا تكون إلاّ في الأعين بحيث تقابل الضوء الداخل إليها، ولولا هذا القهر ما رأيتم شبحاً. هكذا فلتكن أعمالكم فأنا أحفظها في سجلّ مكنون عندي، فهناك ملائكة يحفظون أعمالكم بل أنتم ترسم في نفوسكم كل ما عملتموه من خير أو شرّ. فإذا عرفه الحفظة فأنتم كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾[القيامة: ١٤] فكل أعماله مرسومة في نفسه، وتبرز يوم القيامة واضحة له فيندم ويحزن على القبيح الذي يشاهده من نفسه ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾[الكهف: ٤٩] فإذا كان المرء يشهد على نفسه ويقال له: ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء: ١٤] فبالأولى تشهد عليه الملائكة فهذا قوله: ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ الخ، وأما قوله: ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ فذلك ظاهر في علم الكيمياء وتراكيبها وعلم الفلك، فإن النبات والحيوان وكذلك حركات الفلك كلها تعرفك كيف كان سريع الحساب. وقد ذكرنا هذا مفصلاً في سورة البقرة وغيرها بأمثلة علمية مفيدة في السماوات والأرض.

المقام الرابع من هذا الفصل

إن الناس من عاداتهم جميعاً أنهم إذا نزل بهم مكروه من غمّ أو همّ، تمنّوا زواله، واستغاثوا بربهم وفزعوا، ونذروا أنهم إن خرجوا من ذلك المكروه أقلعوا عن الذنوب، وأخلصوا في أعمالهم ونفعوا الناس، وهذه قاعدة مطردة في الناس، حتى إذا ذهب غمّهم وزال بأسهم، رجعوا إلى عاداتهم ونسوا عهودهم وساروا على طرقهم الأولى، اعتبر ذلك في الذين يديمون الخمر والميسر وشرب الدخان وسائر الذين يعتادون شهوة من الشهوات، فإنهم حينما يضيقون ذرعاً من الشهوات يقلعون عنها، ثم لا يلبثون أن ينغمسوا فيها انغماساً، وهكذا الفقراء فإنهم يقولون: إن أغنانا الله كنا أرحم بالفقراء، فإذا صاروا أغنياء كانوا أشدّ حرصاً على المال منهم في أيام فقرهم. وهكذا المرضى يقولون: لو كنا أصحّاء لفعلنا كيت وكيت، ثم إذا صحّوا رجعوا لعاداتهم ونقضوا عهودهم مع ربهم، فعبّر الله عن ذلك كله قائلاً: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ أي من الأهوال والشدائد المعبّر عنها بالظلمات على سبيل الاستعارة، يقال لليوم الشديد: يوم مظلم، فظلمات البر والبحر: جميع المصائب الواقعة على الإنسان ﴿ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ معلنين ومسرّين ﴿ لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ الذين يعطون الحقوق لأهلها، ويجعلون النعم في مواضعها التي خلقت لها، ولا يضنّون بجاه ولا مال ولا علم ولا قوّة، أي يقولون: لئن أنجيتنا الخ، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾ غمّ سواها ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ تعودون للشرك ولا توفون بالعهد، وكان مقتضى النظم أن يقال: ثم أنتم لا تشكرون، فعبّر بالشرك عن رأس الخطيئة، لأن انحراف القلب عن الحقائق هو الذي يحرّف الجسم عن العمل النافع.

المقام الخامس

إن الله عزَّ وجلَّ كثيراً ما يأمر السماء أن تنزل صواعق، ويأمر الأرض بالزلزلة، ويضع في قلوب الناس الطمع والشره والحسد والحرص، فيكون الحرب للمال وللدين ولاحتلال الأرض كما هو الحاصل في كل زمان؛ فالزلازل في الأرض كثيرة وأهمها زلزلة بلاد اليابان في هذه السنة، وهكذا قد تنزل الصواعق وترى هذه الحرب الكبرى فيها قتل الناس في الشرق والغرب بعضهم بعضاً، وزالت عروش وقامت أمم وانقسمت دول ووضع العزيز ورفع الذليل، وهذا قوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ ﴾ يخلطكم ﴿ شِيَعًا ﴾ فرقاً متحزبين على أهواء شتى، فينشب القتال بينكم ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ بأن يقتل بعضكم بعضاً. روى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعوذ بوجهك: ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال: هذا أهون أو هذا أيسر». وفي حديث مسلم ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم سأل الله ثلاثة أشياء، فأجيب إلى اثنين وهما: ألاّ يهلك أمته بالغرق وبالجدب، ومنع الثالثة وهي ألاّ يجعل بأس أمته بينهم شديداً. وفي رواية الترمذي: بدل الغرق «ألاّ يسلط عليهم عدواً من غيرهم». واعلم أن الآية عامة لسائر الناس، وهي بيان لما عليه هذه الدنيا والحياة، وأنها مضطربة، فعلى الناس أن يفكروا في أمرها قبل الخروج منها. وما هذه

المذكرات إلاّ ليتيقّظ الناس ويتفكروا، على أن كل امرئ متى ضعف أو كبر أو دنا أجله فمات فهذا قد قامت قيامته، والدنيا في حقه قد ذهبت، فلا سماء ولا أرض لديه مما عندنا، فهذه المحن للتذكير بما نحن عليه من تقلب الأحوال، فنحن على كل حال راحلون من الأرض، فإن لم يكن بصواعق ولا بزلزال الأرض ولا بالحرب فيما بيننا، فإن أجسامنا فيها من التبدّل والتغيّر والتفاعل ما يجعل أعلاها أسفلها، فنذهب من الوجود، فعلينا أن نتفكر في هذه العوالم عسى أن نهتدي للحقائق، فإن لم يكن موتنا باضطراب الجسم العام وهو العالم كله، فليكن ذلك باضطراب أجسامنا لا فرق بين الاضطرابين ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ بالوعد والوعيد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾.

المقام السادس

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ الواقع لا محالة ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ بحفيظ وكل إليّ أمركم، فكيف أمنعكم من التعذيب أو أجازيكم ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ أي لكل خبر يخبر به الله في القرآن وقت ومكان يقع فيه ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عند وقوعه في الدنيا والآخرة، وهذه السورة نزلت بمكة، وقد تمّ وعد الله وفتحت مكة وانتشر الإسلام وظهر صدق القرآن، فإنه لما قرأ هذا بمكة لم يكن هناك غزوات ولا فتوح ولا أمم دخلت في دين الله أفواجاً، ولم يكن هناك هلاك لقريش كالتي في وقعة بدر وأحد ولا غيرهما، وإنّما حصل هذا كله بعد هذه السورة وأمثالها بزمان طويل وهذا هو الإعجاز الحقيقي ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ بالتكذيب والاستهزاء والطعن فيها ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ فلا تجالسهم ﴿ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ غير القرآن لأن الآيات منه ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ بأن يشغلك بوسوسته حتى تنسى النهي ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ بعد أن تذكره ﴿ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي معهم، وضع الظاهر موضع المضمر لأنهم ظلموا حيث استهزؤوا بما يجب أن يؤمنوا به ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ أي ليس على المتقين المجالسين لهم شيء مما يحاسبون عليه ﴿ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ ﴾ ولكن عليهم أن يذكروهم ليمتنعوا عن الخوض ويظهروا كراهة فعلهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ يجتنبون ذلك حياء أو كراهة لمساءتهم.

واعلم أن الكفار في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كان دينهم عبارة عن لعب ولهو، كاتخاذ الأصنام والاستهزاء بالقرآن، لأنهم يستهزئون به معتقدين أنهم يحافظون على دينهم الفاسد، بل يلعبون ويلهون عند سماع القرآن، ولكل أمة عيد في دينها شرقاً وغرباً، فتلك الأعياد اتخذتها الأمم لهواً ولعباً بخلاف عيد المسلمين، فهو صلاة وتكبير وإحسان، ولذلك قال: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ يشمل هؤلاء كلهم ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ حتى أنكروا البعث ﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ ﴾ بالقرآن مخافة ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ ﴾ تسلم إلى الهلاك وترهن وتحبس وتحرم من الثواب ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ من الإثم، وأصل البسل في اللغة: التحريم، تقول: هذا عليك بسل، أي: حرام ممنوع، فالقرآن تذكير للنفوس حتى لا تمنع من الثواب وتحبس في جهنم ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ ﴾ أي قريب يلي أمرها ﴿ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ يشفع في الآخرة ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ ﴾ وإن تفد كل فداء، والعدل الفدية لأنها تعادل المفدّى ﴿ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ أي ذلك العدل والفدية ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ أسلموا إلى العذاب بسبب سوء أعمالهم وانحراف عقولهم ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا

كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ فيشربون ماء مغلياً في بطونهم وتحرق أجسامهم في جهنم بالنار ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ ﴾ أنعبد ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا ﴾ ونرجع إلى الشرك ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ إلى الإسلام ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ كالذي ذهبت به مردة الجنّ إلى المهامه؛ والاستهواء: استفعال من هوى يهوي هوياً إذا ذهب ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ متحيراً ضالاً عن الطريق ﴿ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ ﴾ لهذا المستهوى رفقة ﴿ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ﴾ أي يهدونه إلى الطريق المستقيم يقولون له: ﴿ ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ الذي هو الإسلام ﴿ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ وحده وما عداه ضلال ﴿ وَأُمِرْنَا ﴾ بذلك ﴿ لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي للإسلام ولإقامة الصلاة ﴿ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ يوم القيامة.

ثم أفاد أن خلق السماوات والأرض إنّما يكون لحكمة، وهكذا قول الله الحق حين يقول للشيء: كن، فيكون ذلك الشيء، فخلقه الخلق لحكمة، وقوله حقّ يوم يقول للشيء كن فيكون ذلك الشيء، وتكون نتيجة ذلك أنه يخلق بالحكمة، ومتى قال قولاً يقتضي الإيجاد تَمّ وتحقّق، وهذا قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ والحكمة، فكيف يترك هؤلاء الضالين وشأنهم، فالحكمة تقتضي أن يهذبوا ويؤدبوا، وكل من فعل بالحكمة من المخلوقين كالمهندسين والنجّارين والمصوّرين يصعب عليهم العمل، ولا يطاوعهم المصنوع من حديد أو ذهب أو حجارة، فيحتالون ويجدّون، فأما هو فإن قوله: الحق كائن حين يقول للشيء كن فيكون ذلك الشيء بلا نصب ولا تعب ولا آلات هندسية ولا حفر ولا تنقيب ولا مدارس ولا معلمين، وهذا قوله: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فـ«يوم» واقع خبراً لقوله: «قوله الحق» أي وقوله الحق كائن يوم يقول للشيء كن فيكون ذلك الشيء، فهو نافذ في الكائنات بخلاف الناس ﴿ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ جمع صورة، والنفخ فيها إحياؤها بنفخ الروح، ولقد قالوا يا رسول الله: كيف نفعل؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا.

وأجمع أهل السنة أن المراد بالصور القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل نفختين، نفخة الصعق ونفخة البعث للحساب، والقول الأول لأبي عبيدة ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ يعلم ما غاب عن عباده وما يشاهدونه، فلا يغيب عن علمه شيء ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ هذه الجملة ملخص الآية، فذلكة لها. انتهى المقصد الأول من السورة تفسيراً لفظياً.

وفي هذا المقصد لطائف:

اللطيفة الأولى: في قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[الآية: ١]، وكيف كان أول فكر المؤلف فيهما إذ قرأ أول كتاب في علم الفلك.

اللطيفة الثانية: سؤال أحد الفلاحين له في نهاية العالم من حيث المكان.

اللطيفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾، وكيف كان العلم الحديث قد بيّن هذه بياناً شافياً، وبه فهمنا معنى: ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[الآية: ٩].

اللطيفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[الآية:١٢] وكيف كانت القيامة رحمة لا نقمة لأنها إحياء، وبيان المعجزة في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ ﴾ [الآية:١٣] الخ.

اللطيفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الآية: ١٨]، وكيف كان القهر في علم الكيمياء وغيره مصحوباً بالحكمة.

اللطيفة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾[الآية: ٣٨] الخ، وبيان ما كان من اختلاء المؤلف في المزارع ليلاً، وتفكره في أمر الحيوان، وذكر الغرائز الحيوانية العجيبة التي تدلّ على نوع إدراك الحيوان، ومحادثة المؤلف مع فلاّح في أمر الضفادع، وإجابة امرأة مع عجز الرجل، وتبيان أن هذه المسألة من أمهات المسائل التي عجزت عنها أهل الأديان، وأن المسلمين قد قصروا لتركهم هذه المباحث العالية المرقية للأمم.

اللطيفة السابعة: قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾[الآية: ٥٩]، وبيان أقوال علماء الهند في علم الله للغيب، وقول علماء الأمم في ذلك وعلماء العصر الحاضر، ثمّ إظهار أنّ ذلك كله تقريب.

اللطيفة الأولى

أقصّ عليك أيّها الذكي نبأ ما كنت أزاوله في أول حياتي وأنا مجاور بالجامع الأزهر. كنت في الجامع الأزهر حوالي أول القرن الرابع عشر الهجري، ولم أكن إذ ذاك أعرف شيئاً عن المدارس المصرية التي كانت حافلة بالطلاّب؛ والتلاميذ فيها يقرؤون علم الفلك والعلوم الرياضية، ولكن هو التقليد يعمي ويصمّ، فلم أكن لأعلم أنّ في الأرض من يقرأ علم الفلك إلاّ القدماء، وهذا يدلك أنّ الإنسان يحجب عما حوله وأمامه وخلفه ما دام الأستاذ لا يعلمه، وكأنّ الناس في هذه الأرض مسجونون لا في سجن جسمي، بل سجن عقلي وبينهم حجب قد أسدلت، فكم من علم يعرفه صاحبك وأنت تنكره بما أسدل من الحجب العقلية على الأنفس فتوارت بالحجاب. أقول: فكرت ليلة في هذه السماء ونجومها وصار فكري هائماً، واشتعل القلب ناراً، وصرت أسأل فلا أجاب، حتى إذا قابلني أحد العلماء فقال: عندي كتاب، فأخذته وكان ذلك وقت العطلة، فأخذته وسافرت مع المجاورين في المراكب الشراعية، والكتاب هو «الجغمين» فقرأته في يومين وأنا لا أتركه ساعة حتى اطلعت على البروج والمنازل والأفلاك وسير الشمس مع أني إذ ذاك لم أقرأ علم الهندسة والحساب، فعرفت ذلك معرفة تامة وهو يحيل في البراهين على إقليدس. الكتاب على طريقة القدماء، وهو يصوّر الأفلاك التسعة وكواكبها، وأنها طبقات بعضها فوق بعض الخ. وأنت تعلم أن هذه الطريقة جاء بعدها غيرها كما قدّمناه في هذا التفسير. والمقصود أني بعد ما اطلعت على ملخص الكتاب فرحت فرحاً كأني أعطيت ملك سليمان، وصرت أشدّ الناس اغتباطاً، ولما توجّه المجاورون إلى أهليهم، بقيت خارج القرية قبيل الغروب، وجلست في أرض قرية «بردين» بين الحشائش الخضرة والأشجار النضرة والنسمات تهبّ والأوراق ترقّ، والأرض قد اكتست جلابيب صفراء وهي تسرّ الناظرين، وبجانبي نهر فيه لجين، وقد وشّاه ذهب الأصيل.

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

فأخذت أصلي العصر، وأنظر للشمس وقد دنت من الغروب، وأرفع طرفي إلى السماء، وأحمد الله أن أراني ما كنت إليه مشتاقاً، وبقيت كذلك فرحاً مستبشراً حامداً شاكراً، حتى إذا أقبل الظلام، توجهت إلى البلدة قرير العين، وكانت العطلة لا تزيد على أسبوعين، فصرفتها في نقل هذا الكتاب، ولكن بعد مدة دخلت مدرسة دار العلوم، فتعلمته بعد علم الحساب والجبر والهندسة، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾[التوبة: ٣٢].

ولعمري ما أوردت هذه القصة إلاّ لأبشر المشتاقين للعلم، المغرمين بالحكمة، أن الله حاضر عندهم سيهديهم رشدهم ويعطيهم طلبتهم. ولقد تعلمت بعد يأسي من العلم، ولكم كنت في ظلمات الليالي أرقب النجوم ويعجبني جمالها، وأسرّ لمرآها، وأقول ماذا وراءها. وما كنت أعلم أن في الأمم من يرقبون وينظرون، فلما دخلت المدارس وقرأت عن أهل الغرب، ألفيت الغرام بالعلم عاماً ولا يعشق العلم إلاّ الأكابر.

ففز بعلم تعش حيًّا به أبداً الناس موتى وأهل العلم أحياء

اللطيفة الثانية

كنت مرة في قريتنا ببلاد الشرقية، فقال أحد أقاربي: يا ابن أخي، انظر هذه الأرض أليس لها آخر عندكم في العلم؟ قلت: بلى. قال: ووراء الأرض السماء. قلت: نعم. قال: وهكذا سماء وراء سماء، وماذا بعد السماوات؟ هل يعلم أحد شيئاً؟ وهل أحد في الأزهر عندكم يعرف ذلك؟ وكان هذا السؤال من أسباب البحث في هذه العلوم. ولقد كنت أيام مجاورتي بالجامع الأزهر كثير الشغف بجمال النجوم، وكم ليلة بتّها ساهراً أحسّ في القلب بحزن عميق لجهلي بهذه العوالم، وكنت أقول في نفسي: ليت شعري، ماذا يقول الناس في هذه العوالم. ولقد بتّ ليلة ونساء قريتنا يندبن على ميت من سراة القرية، وهنّ يرتّلن أصواتاً منتظمات نادبات هذا السريّ، والقوم جالسون في خيمة في الخلاء، والنجوم باهرة في السماء تتلألأ، فكان لأصواتهن رنة حزن. ودام ذلك الحزن ليالي ذوات عدد، فكانت رنة الأصوات تحدث في النفس رقة محزنة، وكأنّ الباكيات يندبنني لأني جاهل بما في العالم من الجمال.

اللطيفة الثالثة

يقول الله: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾ ومعنى هذا أن الملائكة لا يظهرون للناس إلاّ بصورة بشرية. ولقد ظهر في العلم الحديث وذلك أنهم قد بحثوا في علم الأرواح، كيف تظهر الروح، فوجدوا أن أرواح الأموات التي تتجلى للأحياء تستعير من جسم الوسيط «أي الشخص المنوَّم» بالفتح، الموادّ التي تتشكل بها، وجسم الوسيط إذ ذاك ينقص وزنه على مقدار ما أخذ منه. وهذا الأمر حقّقه العلاّمة «اكناكوف» والمسيو «أرمسترويخ» والمعلم «أولكوت» الإنكليزي، وخلافهم من المجربين الذين أجمعوا على أن جسم الوسيط ينقص وزنه عند انتقال مادّته إلى جسم الروح، ويقولون: إن للأرواح جسماً لطيفاً يدوم لها أمداً طويلاً كأنه غلاف للروح، وهذا الجسم اللطيف كأنه قالب للجسم المشاهد لنا، وفناء الجسد المشاهد لا يغير هيئة الروح مع غلافها، وإذا كان ذلك في الأرواح فهو في الملائكة أولى، لأن الملائكة ألطف من الأرواح. يقول الله: لو جعلت الملك مرسلاً إليكم لجعلته رجلاً فترونه، ويرجع اللبس، وإذن لا بدّ من مادّة حقيقية لا مجرّد وهم أو خيال، فبهذا وافق الكشف الحديث القرآن، وهو أن عالم الأرواح لا يشاهد إلاّ بشكل مادّي، فما دمنا في الحياة فلا نرى ذلك العالم إلاّ على أشكال حسية عنصرية. قالت مدام «ماريات» الإنجليزية في تأليف لها في الحادث الروحاني: أوقفني العلاّمة «ويليام كروكسي» وقت الجلسة لمراقبة وزن الآنسة «فلورنس كوك» بعد أن وضعها على آلة للوزن اخترعها بنفسه، فوجدت ثقل الوسيطة قبل تجلي «كاتي» ١١٢ ليبرة، ولما تجلت الروح تناقص وزنها إلى ٥٦ ليبرة أي زهاء النصف. انتهى.

اللطيفة الرابعة

قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ هذه الآية تعرّف الناس رحمة الله، فهو يقول: خلقتكم في الأرض مفترقين متحاسدين متعادين، وإني وإن كنت شملتكم برحمتي فيها فهناك رحمة أوسع ومجال أبهج وكمال أبدع، وهو اجتماعكم في عالم السماوات وأكناف العوالم اللطيفة المزدانة بالجمال المفرغة في قالب الكمال، وأنتم هناك مجتمعون بعد التفرق، وأيّ رحمة أعظم من إطالة الحياة، وأنها ليست منتهية بالموت، بل دائمة البقاء. وقوله: ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ الخ، في هذه الآية عجب عجاب من دلائل النبوة، وعجائب الحكمة، فكيف جمع الله بالتعبير بـ«سكن» بين لطائف العوالم التي نشاهدها. فانظر رعاك الله كيف ترى أن الأرض والكواكب والشموس والأقمار جميعها متحركات لا سكون لها، فلا أرض ولا شمس ولا قمر بل لا ذرّة في هذا الوجود ساكنة، فالتعبير بالسكون مناقض لهذا الحال المشاهد، ولكن إذا وقفت ليلاً تنظر النجوم وتلاحظ الأرض حولك لا تجد حركة، فالكواكب والأرض والعوالم حولك تراها ساكنة ثابتة، وأنت مطمئن قرير العين بسكون هذه العوالم. هذه هي الحكمة بل المعجزة. كون متحرّك ولكنه ساكن مطمئن للنفوس. هذا هو سرّ قوله: ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ ﴾، كأنه يقول: إن الإبداع في العالم جعله ساكناً مع أنه متحرّك. انتهى.

اللطيفة الخامسة

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾، القهر فوق العباد مصحوب بالحكمة والعلم، واعتبر ذلك في كل ما هو ضروري للبقاء ونعمة الحياة. وتأمّل كيف ترى أن كل حي من إنسان وحيوان مقهور على الغذاء مفطور على طلبه، فهناك في داخل جسمه داع حثيث يقهره على طلب الغذاء وألم باطني يسمى بالجوع، وداع آخر يسمى الشبع وهو كراهة الأكل، ولولا سائق الجوع وقائد اللذة في الطعام، وسائق العطش وقائد اللذة في الشراب، وسائق الشبق وقائد اللذة في الوقاع، ما أكل الناس ولا شربوا ولا ولدوا، فالأولان بهما بقاء الأشخاص، والأخير به بقاء الأنواع في كل حيوان.

ومعلوم أن حياة الأشخاص وحياة الأنواع هي المقصود الأعظم من هذه الدنيا ومن عليها، فكيف كان قهر الحيوان على الحياة. ومن عجب أنه لم يوكل إلينا أمر البقاء ولا التناسل، بل قهرنا عليهما قهراً، ولم نكن فيهما إلاّ مضطرين، بخلاف بناء المنازل وزرع الأرض وحرثها والتجارة، فإننا نهندس ونحفر الترع وليس هناك إلاّ قائد وسائق عقليان.

فأما حياتنا فقد وجدنا أن نفوسنا فيها لكل شيء سائق بسوطه ليقهرنا ويلجئنا أن نأكل ونشرب ونواقع، وقائد مشوق لذلك، كما يكون للحيوان في الأمكنة المخيفة رجل يقود وآخر يسوق حتى يسلم من العطب مبالغة في المحافظة عليه، وكما يجعل للدابة سائق بالعصا وآخر معه حشائش تنظرها لتتبعه، فيكون ذلك أعون على سرعة سيرها. فهذا هو القهر والغلبة ولكن لا مع الظلم ووضع الشيء في غير موضعه، بل هو القاهر وهو الحكيم الذي يضع الشيء في موضعه وهو الخبير بما يصنع.

واعتبر ذلك في المرأة ترضع ولدها، والناقة ترضع فصيلها، والدجاجة والحمامة والنعامة تحضن بيضها، فإنهن جميعاً مقهورات على ذلك العطف قهراً لا مفرّ منه، بل اعتبر ذلك أيضاً في المخترعين

والمؤلفين الذين يجدّون في أعمالهم وهم لا يعلمون شيئاً في مستقبل أمرهم، ويجدّون ليلاً ونهاراً وربما ضاعت أموالهم في سبيل أعمالهم وصحتهم وحياتهم، وليس يجني الثمرة إلاّ أممهم كما لم يجن ثمرة الحياة إلاّ فصيل الناقة وولد الظبية، وكل لكل مسخرون وهم لا يعلمون، بل العالم هو الحكيم الذي سخّر الآباء والأمّهات بالعطف والحنان.

ومن عجب أن الناس مسخرون ولا يعلمون أنهم مسخرون ومقهورون وهم لا يشعرون. والناس يضربون المثل في الظلم بجامع الرفاعي بمصر قديماً، وهو قريب من قلعة الجبل بمصر، ويقولون إن الوالي كان إذا أمر رجلاً أن يعمل فيه وأبى أن يطاوعه، يقول له الوالي: لا بالله، ويقهره على العمل فيه، حتى سمي المسجد إذ ذاك بـ«مسجد لا بالله»، وقيل فيه:

بنى مسجداً لله من غير حله فكان بحمد الله غير موفق

فهذا القهر ضرب به المثل، ولكن نحن مقهورون في دائم الأوقات قهراً بحكمة وعلم، فلم نحس بأننا مقهورون.

وترى القهر في السماوات فوقنا، فالكواكب تسير بالقهر والشمس والقمر، وهذا القهر منظم لأنها أطوع منا، فلذلك قال: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فلم يسمّ هذه العوالم ظالمة لأنها لا مخالفة منها، فترى مواعيد الكواكب لا تغيير فيها، وكذا الحيوان لا يقرب أنثاه أيام حملها، ولا يأكل إلاّ ما يصلح جسده، أما الإنسان فكثيراً ما يخطئ في تقدير الأكل والشرب والوقاع، فيقع في الضرّ، فقلّ مرض الحيوان وكثر مرض الإنسان وخطؤه وذنوبه لاسيما في المدن والقرى بجهله وخطئه.

فهاهنا حمل الإنسان الأمانة والتكليف ووجب عليه أن يتجافى عن أشياء ضارّة به كالادخار، وكلف ببذل المال والعبادات وما أشبه ذلك، وحتم عليه تربية القضاة لفصل قضاياه، والأطباء لمداواة مرضاه في المدن، وقلّ ذلك في الأعراب بالبوادي. فأما الحيوان فهو غير محتاج إلى الأطباء ما دام بعيداً عن الناس، لصفاء عيشه وحسن تقديره لطعامه، فتكون الحيوانات الوحشية في الأحراش والغابات والفلوات وطيور السماوات سليمة، لأنها سائرة في القهر مع حكمة الحكيم، كما سارت الكواكب والشمس والقمر فلم تكلف بما يصلح خللها كما كلف الإنسان.

ولما جرت الكواكب والشمس والقمر بحساب أرسلت الحرارة على الأرض، فقهرت الثلج فذاب فصار ماء، والماء أقرب إلى البساطة لأنه مركب تركيباً قليل العناصر فأصبح وهو جامد ثلجي منظماً نظاماً بديعاً، فإن قطرات الماء إذا ضربها البرد في درجة أقل من الصفر وقعت ثلجاً في البيوت بالبلاد الشديدة البرد، فإذا اجتمع خلق كثير في قاعة صغيرة هناك وفتحت نافذة من نوافذ القاعة والبرد شديد، جمد البخار في هوائها ووقع ثلجاً، والثلج مركب من بلورات من الجليد إبرية الشكل يصل بعضها ببعض على أشكال تدهش الناظر وتبهر النواظر، وقد رسم بعضها بالأشكال الستة المسدسة في سورة آل عمران. فانظر كيف كانت مسدسة الشكل وليس في الأشكال مسدس منها يشابه المسدس الآخر، فتجد وحدة في التسديس واختلافاً في الأشكال، كما ترى نظام بيوت النحل فهو مسدس الشكل، لكن شكله واحد.

أما هنا فالتسديس واحد والنظم مختلف، لأن مسدسات النحل في بيوتها من صنع حيوان ضعيف، أما هنا فإنه صنع الحكيم الخبير، فهنا العمل واسع، وهناك ضيق، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾.

اعلم أن الأكسوجين لم يوجد حراً في الطبيعة خالصاً من الشوائب، وهو داخل في التراب ومع الكربون أي الفحم في حامض الكربونيك، وهو داخل في تركيب المواد التي حولت لمثل الصخور والرمل والتراب، وكذا المعادن إذا حصل لها الصدأ وكل ما صدئ وزاد وزنه فزيادة الوزن ناجمة من الأكسوجين الذي هو داخل في الهواء وفي الماء، وهو المصلح لدمنا بالتنفس. فانظر لقهر الله وحكمته. انظر كيف ترى أن المعدنين المتشابهين كالرصاص والقصدير إذا تركبا كان المركب قريباً منهما. أما العنصران اللذان لا تشابه بينهما كالأكسوجين والأودروجين فإنهما غازان، فالأول ضروري للاشتعال والثاني قابل للاشتعال، ويكون منهما سائل ليس من طبع أحدهما وهو الماء، فهو يطفئ النار ويمنع الاشتعال. فتعجب من قهر الله فوق عباده حيث قهر الغازين فصارا سائلاً، وهذا السائل أطفأ ما أشعلاه ومنع ما قبلاه. انتهى.

اللطيفة السادسة

قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ لقد كنت أيام مجاورتي بالجامع الأزهر أرجع إلى بلاد الريف أيام العطلة، فإذا غابت الشمس وأخذ الليل يرخي سدوله وأقبل الظلام من المشرق، خرجت من البيوت طالباً الحقول والخلوات، فأجلس حتى لا يهوّش على عقلي المهوّشون، وكنت أنشد قول مجنون ليلى:

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدّث عنك النفس بالليل خاليا

وكانت النظرات في تلك الخلوات للنجوم وجمالها، والحقول، وسماع النغمات باجتماع الحشرات فيها، بتلك الظلمات والنجم مشرق والقلب مستيقظ والنفس توّاقة.

وتارة أحضر القرون الخالية والأيام الماضية، وتمر الجيوش تلو الجيوش والملوك تلو الملوك على الأرض التي أنا عليها من الفراعنة العظام والملوك الفخام، وكان يخيّل إليّ أنها دول يتبعها دول قد مرّت في مكاني الذي أنا جالس فيه، والزمان مقبل، والمواكب حافلة، والجنود مصطفّة، وكلّ مطيعون ولساداتهم خاضعون. وتارة أنظر في ذلك الجو البعيد المدى الكثير الجدا الواسع الأكناف البعيد الأطراف، وأرى كيف خيّم على الحقول والأحراش والغياض والغابات، وأتأمّل كيف جلس قبلي أناس فسمعوا ما سمعت من نغمات الحشرات في دياجي الظلمات، وهم لا يعون ما تقول، ولا يسمعون إلاّ أصواتاً. وكم جلس جالس قبلي وهو دهش من حيث يرى ولا يرى، ويعجب قائلاً: كيف تجلى الليل بالأنوار والنغمات، وقد هبت النسمات وتمايلت الأغصان، وأخذ الفكر يجري مجراه، وهو لا يعلم إلاّ قليلاً، والنظام الليلي في أصواته وهوائه وحقوله واحد لا يتغيّر؛ فالهواء يهبّ والريح تلعب بالغصون، والحشرات المغنيات الفرحات بالخصب والريف لم تنقص نغمتها ولم تتغير بهجتها، فمن سمعها منذ ألف سنة وسمعها الآن يظنّ أنها هي بعينها، وذلك لشدّة النظام وحسن الإتقان كما تقوم الدولة أثر الدولة، والولد أثر أبيه بعد موته، والآخر يتبع الأول، والمتأخر يتبع المتقدم.

حكاية الإنسان والحيوان

بينما أنا جالس ذات ليلة إذ مرّ ذئب أو ثعلب سريعاً ، فقلت في نفسي : يا للعجب ، ألهذا عقل ، وكيف رأينا الذئاب والثعالب وسائر الحيوانات البرية كلها لديها ذكاء كأنه عقل ، وكيف كان علماؤنا لا يقولون لنا إلاّ أن هذه غرّيزة ، فأخذت أشكّ فيما قرأت ، وقلت في نفسي : يقولون إن الإنسان حيوان ناطق ، فالنطق الفكري خاصّ بالإنسان ، ومع ذلك نرى هذه الحيوانات عندها من الذكاء ما لا ينكر ، ومن ذلك الوقت أخذت أفكر في أنواع الحيوان ، وواليت الدرس والتنقيب ورأيت بعض رجال الدين يقولون : إن الحيوان لا يحشر لأنه ليس كالإنسان ، وإن حشر لا يدوم ، وهكذا ، فكانت هذه الأقوال عندي مربكة للفهم مزعجة للنفس ، فهل كانت هذه الحيوانات كلها مخلوقة لا لغاية ، ثم نظرت فوجدت الأمم الحالية قد مرّ كثير من المتعلمين منها من الديانات بشكوك ، ومنها هذه المسألة : قالوا كيف يكون الإنسان والحيوان مخلوقين معاً في درجات الرقي منتظمة من أدنى حيوان إلى أعلى إنسان ثم لا يحظى بارتقاء بعد الموت إلاّ الإنسان ، ولم هذا الاختصاص ، وكيف كان أدنى الإنسان يحيا بعد الموت وهو قريب من الحيوان ، والحيوان لا يحيا ، وهكذا . والقرآن يقول : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ ، فالآية صريحة واضحة ، والناس لا يبالون بالدين ولا بالعقل ، وإنما همّ المتعلمين في ديار الإسلام محصور في أمرين : العلوم الفقهية للمسائل القضائية والكلمات الفلسفية في الكتب الورائية ، فأما غير ذلك فالعقول في غطاء والناس نيام ، وهذا القرآن جاء ليفكّ العقول من عقلها ، وينشط الناس إلى العمل والفكر ، فعكس الناس الأمر وأزاحوا على العقول حجبها وحبسوا النفوس في أقفاصها ، ومات قوم شهداء الجهالة ، قتلى التقليد ، صرعى الأوهام ، فلم ينبغ نابغون إلاّ فيما سطره المؤلفون من المعتقدات ، وأورثه المتقدّمون من المجادلات ، مع أن العقول مصنوعة صنعاً إبداعياً ، مفطورة فطرة قوية ، فكان حقها أن يطلق سراحها ، وأن لا يكبح جماحها ، وأن يطلق لها العنان فتنظر في كل شيء نظراً يرضيها ، وتسرّح الطرق فيما يرقيها . فيا أسفا على أمم درست ، وعقول غفلت ، ونفوس هلكت ، وهم مسجونون ، اللهمّ إلاّ قليلاً ممن شرّفهم الله وأنعم عليهم برضاه ، فكتموا العلم خوفاً من السيف والسنان وجور السلطان وتقوّل الجهلة الطغام ، فأولئك هم السادة الأخيار . وكان حق المسلمين أن يكونوا أول العالمين مفكرين ناظرين لا مقلدين جامدين .

القرآن هنا صرّح أن الحيوان له حياة تماثل حياتنا ، فله مستقرّ ومستودع وله علم بحياته ، وهكذا سيحشر كما نحشر . هذا هو الحق الصراح ، فأما مستقبله فمجهول كمستقبلنا ، لأننا لا نعرف ماذا يكون إلاّ مما سمعنا أو فكّرنا .

الحدأة تخاطبني قائلة : قد سخّر لي ما في السماوات وما في الأرض ورأي المرحوم أستاذي الشيخ حسن الطويل

بينما أنا يوماً واقف بقريتنا أمام منزلنا ، إذ لمحت لي حدأة ترفرف بجناحيها كي تبحث بحدّة نظرها عن حيوان حيّ صغير تختطفه ، أو ميت تلتقطه ، فخيّل لي وهي في الجوّ ترفرف أنها تقول لي : لقد سخرت لي الممالك والملوك والزارع والزروع والحيوان والنبات وعالم الأفلاك . ألم يكن عيشي

على فراخ دجاجكم التي ربيت في أحضانكم وتحت إشرافكم، واقتاتت من حبكم الذي زرعتموه، ومن حقلكم الذي رويتموه، ومن أنهاركم الجارية ونيلكم العظيم. وهل يتمّ هذا النظام أو يقوم هذا العمل إلاّ بمهندسين ومنظمين ومدارس ومدرسين وحاكمين ومحكومين وقضاة ومتقاضين وجيوش وعليها مهيمنون. أنتم المربون للدجاج وأنا الخاطفة لها، ولا يتمّ لكم شيء من هذا إلاّ بنظام تامّ وحكومة صادقة، ولا يتمّ شيء على أرضكم إلاّ بحرارة جوية وإشراقات شمسية ودوران الكواكب الدرية. فالعالم مسخّر لي، فأين دعواك إذ تقول: سخّرت لي الأفلاك وأنا شريكتك في دعواك. فأنتم الزارعون المربون للحيوان وأنا قاطفة الثمرات، فإذا ادّعيت أنك سخرت لك الأرضون والسماوات، فهذه دعوى الكاذبين، فلئن سخّر لك الحيوان فقد سخرت أنت وهو لي، كلّ لكلّ مسخّر، فما هذا الضلال والإفك والبهتان. ومن عجب أن الحدأة ظلت ترفرف بجناحيها حتى انتهى الفكر إلى هذا كأنها تعطيني هذا الدرس، ثم طارت إلى حيث تريد، ورجعت حائراً في أمري، حتى إذا رجعنا إلى المدرسة حدّثت أستاذي الشيخ حسن الطويل، وكان طويل الباع رحمه الله في هذه الآراء، فقال: نعم هذا حق، ولكن الإنسان أوسع مجالاً وأكثر نوالاً وأبعد إرقالاً وأغزر أملاً وأعز نفراً، لأنه لا نهاية لكمالاته ولا غاية لسعاداته. وهذه أقوال إقناعية على الطريقة المعروفة والآراء الموروثة تقنع السامع إقناعاً وقتياً وترضيه ملياً. ثم يرجع له الفكر كرّتين، ويؤتى طالب اليقين ولا يقين إلاّ قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾.

يا حسرة على الأمة التي داسها الفرنجة وهم نائمون، وسخر منها الغرب وهم ساهون لاهون ماتوا وهم أحياء وكانوا أعزّاء، شقوا وكانوا سعداء. ذلك البلاء النازل على العقول والكسل المخيم على النفوس والنوم الذي أحاط بالناس، فلا الحوادث بصرتهم ولا الكتاب أيقظهم ولا العقل بصرهم. فلتكن الأجيال المقبلة والعقول الجديدة بعدنا أصفى وأنقى وأرقى، وليرجعوا مجداً ضاع وعزاً ذهب، وليوقدوا ناراً خبت، وليكونوا خير أمة أخرجت للناس.

نظري في الحقول ومحادثة مع فلاّح وإجابة امرأة عنه

كنت يوماً ماراً في حقول قريتنا، وما كنت في الحقول إلاّ دارساً، ولا أمرّ فيها إلاّ قارئاً، فالقراءة إنّما تكون في الحقول وفي نظر النجوم، فأما القراءة اللفظية فما أبعدها عن الأمور العقلية، وكان الخاطر في أول أمري هكذا: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩]، وتارة يكون هذا الخاطر: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحج: ٦٣]، وتارة: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ الخ [الآية: ١٦٤] في سورة البقرة، وكنت أجد ذلك ملازماً لفكري لا يفارق عقلي.

ولقد حدّث أحد الفلاحين مرة عن العسل الذي يشتاره الناس من الجبال، وأنه يكون هناك بكثرة وقد يجمد في الجبل، وفي حلاوته ميل إلى طعم الملح لأنها تشرب من الماء المعين، وكان الحديث ليلاً والهواء صافياً، فكنت أشعر بميل شديد وشوق إلى معرفة عجائب النحل، وكان المحدّث والسامعون

يتذكرون القطع العسلية التي يحملها المسافرون من ذلك العسل، فأما أنا فقد كنت مشغول الفؤاد مهتمّ القلب بعجائب النحل وفوائده.

محادثة

ومرة مررت بجانب نهر فيه ماء قليل من بقايا نهر النيل، وفيه حيوانات صغيرة تسمى «أبا ذنيبة» ترى ذاهبة جائية في المستنقعات، وكنت في تلك السنة قد قرأت في مدرسة دار العلوم أن هذه الحيوانات أصل الضفادع، ولم أكن لأعلم ذلك إلاّ من المدرسة، فقلت لرجل من الفلاحين: يا إبراهيم أتدري ما هذا؟ فقال: ومن أين أعرف، وكانت امرأة تحمل جرّة على رأسها قد ملأتها ماء قد سمعت هذا القول فقالت: أيها الرجل كيف تجهل هذا وأنت شائب؟ ألم تعلم بأن هذا هو أصل الضفادع قد ولدتهنّ الضفدعة؟ فعجبت من قولها غاية العجب، وقلت: إن في القرى والفلاحين من هم أهل للحكمة والعلم رجالاً ونساء، ولكن قلة التعليم منعت الناس من السعادة والارتقاء. وهاك عجائب مما جاء في العلوم عن الحيوان.

عجائب الحيوان

العجيبة الأولى: قد شاهد العلماء قروداً في الممالك المتحدة تبني قنطرة من أغرب ما سمعه البشر، وذلك أنها إذا أرادت عبور نهر انتخبت أفراداً منها، وأمسك واحد بغصن الشجرة على شاطئ النهر، وأمسك بيديه ورجليه، ثم أمسك آخر فآخر حتى تنتظم سلسلة من القرود، ثم يصنع أسفلهن اهتزازاً في السلسلة فلا تزال في ارتفاع وانخفاض حتى يمسك القرد الذي في طرف السلسلة شجرة على الشاطئ الآخر، وتتكوّن قنطرة محدّبة من القرود، ثم تمر عليها مئات منهن عبوراً اعتيادياً بلا خوف، حتى إن الصغار ليتغامزن فوق تلك القنطرة، فإذا انتظم عقد جمعها في الشاطئ ونجوا جميعاً سالمين، أنزل الذي أمسك بالشجرة في الشاطئ الأول يديه، ومعلوم أن الآخر مثبت يديه في الشاطئ الثاني فتنتقل السلسلة للشاطئ الآخر، ويصبح أول القردة إمساكاً بالشاطئ الأول أدناها في الشاطئ الثاني وقد خرج بالسلامة فيه، ثم تتبعه بقية السلسلة مع باقي القرود. وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقوله هنا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ﴾ الخ. انتهى من كتابي جمال العالم نقلاً عن الكتب الإفرنجية.

الكلب وفضائله وذكاؤه

العجيبة الثانية: حكي أن امرأة كانت في سفينة بخارية معها ظئر تحمل ولدها، فوقفت الظئر في نافذة مشرفة على البحر، وأطلت على الماء والصبي في يدها فمدّ رأسه فسقط في البحر، فصرخت الظئر واهتاج أهل السفينة، وأما أمه فأغشي عليها، وكان في أخريات الناس شاب في يده كتاب، وبجانبه كلب من بلاد الأرض الجديدة، فأسرع إلى الظئر وقال لها: هل معك شيء من أثر الصبي؟ فقالت: لا إلاّ خرقاً من ثيابه بقيت في يدي حين سقط في البحر، فأخذها منها وأشار إلى الكلب بها متجهاً إلى الموضع الذي سقط فيه الصبي، فما كان إلاّ كلمح البصر حتى وثب الكلب إلى تلك النقطة، وغاب تحت الماء، وكان هناك سفن شراعية تحاول أن تقف للصبي على أثر فلم يمكنها، فبينما هم كذلك

والناس منتظرون، إذا بالكلب قد أقبل يضارب الأمواج وفي فمه شيء ثقل عليه، فأسرعوا إليه من كل صوب حتى انتشلوه والصبي في فمه حياً سليماً، فلما رأت أمه ذلك خرّت مغشياً عليها، ثم دنت من الكلب وأخذت تمسحه وتقبله وتمشط رأسه، ثم قالت لمالكه: إنني غنية ذات ثروة واسعة، فهل تعطيه لي بكل ما تطلب من ثروتي ولو كانت كلها؟ فتبسم ضاحكاً وقال: الحمد لله إذ أدّى لك الكلب هذه الخدمة، ولكن لا أبيعه ولو بملء الأرض ذهباً. فرؤي الكلب إذ ذاك يتمسّح برجلي سيده كأنه فهم ما يقولان. انتهى من كتابي جمال العالم.

كلب البحر

العجيبة الثالثة: من كتابي جمال العالم أيضاً هذا الحيوان في جهات كندا وفي أمريكا الشمالية، وهو يكون جماعات تتحد على الأعمال وتفعل فعل الأمم الراقية في الصناعات وفنون العمارات، ولها مغارات وسراديب تحت الأرض لتسكن فيها زمن الحر، ولا تزال فيها حتى إذا أقبل الشتاء وهجم بخيله ورجله، عرفت تلك الحيوانات بوادره، فاجتمعن زرافات وجماعات ما بين المائتين وثلاث المائة فأخذن يردن الأماكن وينظرن أصلحها وأحسنها على شريطة أن يكون على شاطئ نهر جار ليبنين مساكنهن فيه ليكون الماء حصناً حصيناً من هجمات الأعداء كما سترى، ومخزناً نفيساً يقيها من الثلج القارص القابض.

وعلى ذلك تأتي هذه الكلاب ليلاً إلى الأشجار المقطعة على ضفتي النهر، وتقطع غصونها وكتلها الكبيرة حتى تسقط على سطح الماء الجاري، فيأخذها في تياره ويسير بها حتى إذا حاذت المكان المنتخب للبناء أوقف أولئك الكلاب سير الأخشاب، ثم أخذن يكسرنها قطعاً قطعاً حسبما يقتضيه بناء السدّ، ثم أخذن يغرسنها في أسفل النهر بهيئة تكون سداً منتظماً بين الشاطئين معارضاً جري الماء، كسدّ العرم لبلقيس وخزان أسوان، وملأن ما بين تلك الأخشاب بالأحجار والطين ولو رأيت ثم رأيتهن غاديات رائحات والطين والأحجار بين أفواههن وأيديهن، وبعد الفراغ من ذلك يجتمعن كل عشر أو اثنتي عشرة منهن ويبنين بيتاً ذا غرفتين، عليا للسكنى وسفلى لخزان الأقوات من قشور خشب الأشجار كالحور، ويتكوّن من تلك البيوت هيئة قرية. ومن العجيب أن الأبواب لا تفتح إلاّ تحت الماء بنحو ثلاثة أقدام أو أربعة، حتى لا يصل إليها أحد بسوء، وليس لها أبواب سواها، فإذا اشتهت الأكل وهي في الغرف العليا تدلت إلى السفلى المملوءة بالماء الداخل من الباب، فتناولت تلك القشور الآمنة من الثلج المتراكم على سطح البسيطة والماء، إذ عادة الماء من أسفل أن يوقى من الثلج، ولما علم أهل تلك الجهالات ذلك وأن هذا الحيوان حريص على سده أخذوا يحتالون على صيده بفتح سدّه، فتخرج تلك الحيوانات سراعاً سراعاً إلى سدّه في أسرع من لمح البصر فيصطاد منها الصيادون أثناء محاولة إصلاح السد.

فتأمل كيف اتحد هذا الحيوان على المصلحة وكيف عرف ما درسه الإنسان في قضايا أرشميدس التي بها تجري السفن في البحار، وكيف اتحد على الأعمال وفعل فعل أعظم الأمم المتمدنية، وكيف عجز أهل الشرق عن تقليده في اتحاده، وكيف وضعت له أسنان حادة بها يقطع تلك الأشجار أغنته عن الآلات والأدوات، وكيف عرف ذلك كله بلا تعلم ولا تعليم، فسبحان الخلاق العظيم.

الكلب الذي هو نوع يسمى الدرواس

العجيبة الرابعة: روى المعلم «بال» في المجلة العلمية حادثاً شهده عياناً، قال: سار كلب من نوع الدرواس على ماء مجمد وإذا بالجليد انقضّ تحته وتكسّر وكاد يغرق، فحاول التشبث بطرف غصن مدلّى لينجو به من الغرق، فلم يتوصّل إليه، وإذا بكلب آخر من نوع «الترنوف» كان مراقباً للحادثة فأسرع إلى نجاته وسار على الجليد بما أمكن من التحفّظ إلى أن دنا من الثقب الذي سقط فيه الدرواس وعضّ على طرف الغصن وأدناه من رفيقه فتشبّث هذا به ونجا من الغرق. قال المعلم: إن التعقل والحزم والشهامة التي بدت من هذا الكلب في عمل لم يكن له فيه محرّك آخر إلاّ وجدانه الداخلي، تدلّ على وجود عقل فيه قريب من العقل البشري. انتهى.

القرد وتعقله

العجيبة الخامسة: إن أغرب رواية دلت على تعقّل الحيوان ذكرها المعلم «جراتيوله» في تأليف له، قال: حدّثني «تورّبيانكا» أنه كان جالساً مع أسرته في غرفة والخادم مشتغل بشيّ كميّة من «الكستنا» أي «أبي فروة»، وكان هناك قرد داجن ينظر إليها بنهم، وإذ خرج الخادم لقضاء حاجة، نظر القرد إلى ما حوله، وإذ لم يجد شيئاً يستعين به على انتشال الكستنا من وسط الرماد، وثب على قطّ راقد هناك وأمسك يده بعنف، وجعل يحرث بها النار ويخرج الكستنا، وإذ سمع أهل البيت ولولة الهر أسرعوا إلى المطبخ فوجدوا القط يعج ألماً، والقرد يأكل ما غنم. اهـ.

العجيبة السادسة: إن القردة المعروفة بـ«الاورنجوتان» و«الشانبانزاه» تكتشف من نفسها بسهولة كيفية فتح الأقفال، وقد ذكروا عن القرد المدعو «مافوكا» في حديقة الحيوانات في مدينة «دريسد» أنه سرق مرة مفتاح قفصه ليتيسر له الخروج منه متى شاء. وكثير من الكلاب والقطط والمواعز تتعلم من نفسها فتح الأبواب. وقد روي ذلك أيضاً عن البقر والخيل والحمير والبغال. أخبر المعلم «هرمان فول» أنه في إحدى زرائب مدينة «لانسي» اضطر صاحب الزريبة بعد بناء الحوض بمدة إلى أن يستبدل لولب الماء البسيط بلولب آخر ذي مفتاح، لأن البقر كانت تعلمت من نفسها فتحه، ومثل ذلك حدث في مدينة أخرى بناها «أنري بوريت» في مدينة «تورينو» ولقد نرى القرود تتسنم ظهور الكلاب تسير بها محمولة أسوة بالخيالة. اهـ من الكتاب المذكور.

القرد والفيل والكلب يخفن من الاستهزاء

العجيبة السابعة: قال في الكتاب المذكور: إن القرد والفيل والكلب يخشين الهزؤ ويحرنّ على من يمكر بهنّ. روى المعلم «رومانس» عن كلب له طفق يوماً يقتنص ذباباً من فوق زجاج شباك، ولما رآه المسيو «رومانس» يخطئ الغرض أخذ يستهزئ به ويضحك بقهقهة لكل إخفاق يصيبه، فحنق الكلب غيظاً وسوّلت له نفسه أن يتظاهر بقنص ذبابة وسحقها على الأرض، فلحظ صاحبه الحيلة وأبانها له فتضاعف عندها خجل الكلاب وهرول مستتراً تحت الأثاث.

القرد والقردة وشفقتهما

العجيبة الثامنة: روى العلاّمة «لوره» عن قرد ماتت أنثاه، فأخذ يعتني بجروها الرضيع أشدّ من اعتناء الأمّ بواحدها، فكان يحمله كل ليلة على ذراعيه ويتمشى به لينيمه، وفي النهار لا يغفل عنه

لحظة واحدة. وذكر أيضاً عن قردة نادرة الإشفاق، كانت لا تقتصر على تربية صغار القردة التي من غير نوعها، بل كانت تسرق أيضاً أجراء الكلاب جرواً جرواً، وهكذا صغار القطط لترضعها وتربيها، فاتفق مرة أن قطيطاً صغيراً خمشتها، فاعتراها مزيد الاندهاش، وشرعت تبحث في يديه إلى أن أحست بأظافره فقرضتها بأسنانها بلطف. اهـ.

حكاية عن الذئب

العجيبة التاسعة: من كتابي «جمال العالم» نقلاً عن الكتب الإفرنجية: حكي أن رجلاً رأى ذئبين كأنهما يتشاوران في أمر، ثم أسرع أحدهما إلى حفرة في عرض الوادي، وأسرع الآخر إلى الناحية الأخرى منه فيها قطيع من الظباء يرعين، فأزعجهن حتى جرين إلى تلك الحفرة التي فيها صاحبه، فانقضّ ذلك المختفي على واحدة فأخذها، وأتى الثاني معه فقتلاها وأكلاها. فتأمل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠]. اهـ.

الثعلب وتعقّله والدّبّ وتحيّله

العجيبة العاشرة: روى المعلم «رومانوس» في أحد أعداد المجلة العلمية سنة ١٨٧٩ أن ثعلباً غنم بطة داخل حقل، ولما تعذّر عليه بعد أن حاول ثلاثاً أن يقفز من فوق الحائط وفريسته في فمه، فمكث قليلاً يتأمّل في الحاجز القائم أمامه، ثم وثب بعد قليل، وأخذ البطة برأسها وارتفع بيديه ما أمكنه على الحائط، وأنشب منقار البطة في شقّ هناك، ثم وثب على رأس الحائط وتدلى إلى أن بلغ فريسته فأخذها ورمى بها إلى الناحية الأخرى، وبعدها انحدر من مكانه وأخذها بفمه ومضى. وأخبر المعلم «فلوران» أنه لما تكاثرت الدببة في حديقة النباتات، عزم أولياء الأمر على قتل اثنين منها، فألقوا إليهما أقراصاً مشربة بحامض البروسيك، وهو سمّ زعاف، فما كادا يشمّان الأقراص حتى أجفلا وهربا، ولكن الشره تغلب عليهما فأخذاها بأيديهما وجعلا ينفضان منها السمّ في حوض الماء وأكلاها بعد تطاير السمّ منها، فعجبوا لذكائهما وفطانتهما وكفوا عن قتلهما.

شفقة الغربان والخيل

العجيبة الحادية عشرة منه أيضاً: أخبر المسيو «بليت» عن غربان رآها تطعم ثلاثاً من رفقائها فاقدي البصر. وهكذا المسيو «بورتون» شهد ببغاء له كانت تعتني بطائر تلفت رجلاه من غير جنسها فتنظف ريشه وتطعمه وتدفع عنه صدمات الجوارح.

وأغرب رواية من هذا القبيل ذكرها المسيو «بوسانيل» قائد فرقة «البوفيليه»، قال: في سنة ١٧٥٧ طعن في السنّ جواد أصيل من حصن فرقتنا، وتلفت أسنانه إلى حدّ أنه لم يعد في وسعه مضغ علفه، فجعل الحصانان اللذان كانا يرافقانه في الجري يمنة ويسرة يأخذان كل ليلة علفه، وبعد أن يمضغاه جيداً يلقيانه في المعلف ليأكله، واستقامت الحال هكذا إلى أن فطس الجواد بعد شهرين، وشهد هذا الحادث كثير من القوّاد والجنود.

طائر هندي يبني بزخرف قصوراً تسرّ الناظرين

العجيبة الثانية عشرة: إن الطائر الهندي المعروف بطير الفردوس لا يكتفي ببناء عشّ بسيط، بل يشيد أيضاً أوكاراً للنزهة في غاية الإتقان والجمال والإبداع، وتكون هذه المساكن أحياناً فسيحة

الأرجاء، وداخلها أروقة مسقوفة، وأكثرها موشاة بالصدف والحجارة اللامعة وريش البغاء وقطع النسيج، وكل ما يصلح للزخرف والتزويق. وأما النوع المعروف بـ«الامبليورنيس» فيحوط مسكنه بحديقة صناعية يصوغها من تراب مكسو بالخضر، ويزينها بثمار وزهور يجددها كل يوم. وكم للطيور من بنايات هندسية ضربنا عنها صفحاً اجتزاء بالقليل. وعسى أن ترى في ثنايا التفسير عجائب من هذا النوع في غير هذا المقام.

هل للحيوان لغات؟

العجيبة الثالثة عشرة: قال في الكتاب المذكور: إن النطق اللفظي خص به الإنسان وحده، ولكن الحيوانات التي من نوع تستطيع أن تظهر مقاصدها كل منها لأخيه. فالكلب الداجن يملك من النطق ما لم ينله أسلافه في وحشيتها، فله عواء مخصوص دال على الغضب، وآخر على الجزع، وآخر على اليأس، وآخر على الفرح، وآخر على الالتماس، هكذا الدلالة بالإشارة يبلغ أمده في الحيوانات التي تعيش بالألفة، كالخيل الوحشية والفيلة وكلاب الماء والنمل والنحل الخ، وأسراب الخطاطيف تتفاوض وتتشاور قبل الرحيل إلى أقطار بعيدة. وبالإجمال إن أفكار البهائم بسيطة محدودة ومقصورة على حاجاتها الطبيعية، فلا تحتاج للتعبير عنها إلا إلى حركات وأصوات بسيطة. اهـ.

الزنبور وذكاؤه

العجيبة الرابعة عشرة: روى العلامة «داروين» أن زنبوراً حمل ذبابة وطار بها، ولما ارتبك من مصادمات الرياح في طيرانه لتلاعبها بجناحي الذبابة هبط بها إلى الأرض وجز جناحيها وعاد فطار بها.

التنويم المغناطيسي وإثبات وجود الأرواح الحيوانية بعد موتها

العجيبة الخامسة عشرة: قال في الكتاب المذكور: روى «داسيه» ما تعريبه: كنت مقيماً بمدينة «نوردو» في أواخر سنة ١٨٦٩، إذا بصديق لي في إحدى الليالي دعاني إلى حضور جلسة مغناطيسية فلبيت الدعوة، ولم أشهد في هذا الاجتماع شيئا جديدا يختلف عما يجري في اجتماعات كهذه، إنما حصل في هذه الجلسة أمر ذو بال أذهلني، وهو أن أحد الحضور رأى في الأرض رتيلاء «عنكبوت»، فداسها برجله، وإذا بالنائمة هتفت قائلة: أرى روح رتيلاء يرتفع من الأرض، فسألتها: ما شكل هذه الروح؟ قالت: شكل الرتيلاء بعينها. وذكر «داسيه» في هذا الصدد شواهد أخرى عديدة تؤيد وجود الشكل السيال في الحيوان، حتى إنه يمكن انطلاقه من الجسد في مدة الحياة. وأخبرت المجلة الروحانية الإفرنسية في أحد أعدادها سنة ١٨٩٤ عن وسيطة ناظرة رأت حول الكونت «دي ليفوف» شبح كلب له مات منذ بضع سنين، وكان الشبح على قول الوسيطة يقفز فرحا ويهز ذنبه كالحي عند تذكر صاحبه له. اهـ.

يقول مؤلف هذا الكتاب: إن هذه الحكايات كلها وأمثالها هي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ الخ، وبهذا وأمثاله يظهر سر القرآن وعجائبه وحكمه البليغة البديعة. اهـ.

ثم إنه أثناء طبع هذا الكتاب جاء في إحدى جرائدنا المصرية في تاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٥ ما يأتي، فأحببت أن أثبته هنا تفسيراً للآية تحت هذا العنوان:

بحث تاريخي طبيعي في عجائب ذكاء الجرذان ونظامها

اطلعنا في إحدى الصحف الإنجليزية على نبذة غريبة في بابها عما أسفرت عنه أبحاث تاريخية طبيعية قام بها بعض علماء التاريخ الطبيعي فيما يختصّ بشؤون الجرذان، وهاك ملخص هذه النبذة:

يرى الكثيرون من الأوروبيين والأمريكيين في هذه الأيام أن الجرذان السمر الألوان هي أشدّ الحيوانات غير الأليفة خطراً وأكثرها ضرراً، فمنذ وضعت الحرب الأوروبية أوزارها أبان بعض البحاث أن هذا النوع من الجرذان يتفوّق في ذكائه وفي قدرته على تنظيم شؤون معيشته حتى على النمل والنحل، وما كشفه فيهما السير «جون لبوك» من عجائب الصفات.

وقد قضت الضرورة بعد الحرب على أهل مدينة نيويورك الأمريكية أن يدققوا البحث في حياة الجرذان، لكي يكشفوا نظمها الحكومية المختلفة «كذا» ويعرفوا، وهل هذه النظامات كاملة؛ ففي أثناء الحرب تكدّست مقادير عظيمة من المؤن هناك حتى يأتي الوقت المناسب الذي تقضي فيه الضرورة بنقلها إلى أوروبا، فتجمعت الجرذان في المكان الذي وجدت فيه تلك الأكداس تجمعاً عظيماً حتى يقدّر ما تجمّع منها الآن في جزيرة مانهاتان بثلاثين مليون فأر.

ومعلوم أن قسماً من مدينة نيويورك قائم على تلك الجزيرة بحيث لم تنجح مجهودات كثيرة بذلت للقضاء على هذا الجيش من الجرذان أو لطرده من تلك الناحية، فبدلاً من أن تعنى تلك الجرذان بالانصراف إلى ناحية أخرى تكون فيها المعيشة أسهل، تبينت أنها محصورة في بقعة تحيط بها المياه من كل جهة، فلمّت تلك الجرذان شعثها ونظمت شؤونها وصفوفها وازدادت مكراً ودهاء، وأظهرت من المهارة والحنكة في مقاومة تلك المجهودات مما اضطر أولياء الشأن إلى استنباط وسائل جديدة لمحاربتها.

وقد كشفوا الآن أنها لا توجد هناك بصفة فرادى أو وحدات أو أزواج أو عائلات، بل بصفة هيئات اجتماعية منظمة كالهيئات الاجتماعية الإنسانية التي توجد في المستعمرات، وكل عضو في هيئة جرذان اجتماعية خاضع لنظام أدبيّ معيّن، وهاك مثالاً للنظام الذي تعمل به تلك الهيئات.

توجد ناحية واقعة تحت مراقبة أولياء الشأن ويوجد فيها خمسة وسبعون مخزناً أو أكثر تخزن فيه المؤن، والجرذان متفشية في جميع تلك الأبنية ما عدا بناء واحداً يخزن فيه القمح والدقيق، ولم يدخله جرذ واحد من هذا النوع الأسمر الكبير. وإنّما اكتظّ بفيران صغيرة من النوع المسمّى بـ«السيسي» الذي يفترسه هذا النوع من الجرذان السمر، فكان من العجيب أن لا يدخل هذا الأخير في ذلك المخزن.

ولقد عني الرجال بمراقبة ذلك المخزن المنعزل شديد المراقبة، ووجد الحرّاس أن الجرذان الكبيرة بدلاً من أن تتدخل في شؤون ذلك المخزن، وبعبارة أخرى ذلك المكان الذي اتخذته الفيران كمستعمرة لها، عنيت باستحضار أغذية إضافية لجعل تلك الفيران الصغيرة ذات سمن وصحة وعافية، إذ كانت الجرذان تجلب إلى تلك الفيران خضراوات ولحوماً وقشور الفاكهة مع جواهرها وألبابها، أي كانت تلك الجرذان تصلح غذاء الفيران بما كانت تضيف إليه من أنواع الأدم. فلا عجب إذا سمنت هذه الأخيرة وصحّت أجسامها.

ثم أتى على الذين كانوا يلاحظون تلك التدابير وقت لاحظوا فيه أن عدداً من الجرذان الكبيرة يتقدّم إلى بلدة أو مستعمرة الفيران الصغيرة، وسرعان ما عمدت تلك الجرذان إلى فتحات موجودة في جدران ذلك البناء، وكانت الفيران الصغيرة تتخذها كمداخل ومخارج لها، فوسعت الجرذان تلك الفتحات لكي تتمكن أجسامها الكبيرة من الدخول والخروج منها، ثم دخل فيها أكبر الجرذان وأكثرها وحشية، وما هي إلاّ لحظات حتى خرج الغزاة يحمل كل منها فأراً سميناً، ثم يضعه ويعود إلى داخل البناء ويخرج بفأر آخر. وهكذا استمرّت هذه العملية حتى تجمّعت في خارج البناء أكداس من الفيران وعادت الجرذان فحملتها إلى مستعمراتها ليتفكه بها صغارها، فظهر من هذا أن الجرذان ما كانت تمدّ الفيران بالطريف من الأغذية لتسمنها إلاّ لأن مثل مخزن الفيران لديها لم يكن إلاّ كمثل الأحراش التي يربي فيها الأثرياء من بني الإنسان مختلف الحيوانات ليصيدوها متى نمت وترعرعت.

فلما أتممت هذا المقال قال صاحب لي: أمصدّق أنت ما تقوله الأرواح؟ قلت له: أمصدّق ما يقوله القرآن، نصّ القرآن على بقاء الحيوانات وجعلها أمماً أمثالنا، فإذن قلنا إن العدل يقتضي بقاءها لحكم لا نعلمها، وإلاّ كان خلقها أشبه بالعبث، والله يقول: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾[ص: ٢٧] وأيّ باطل أضلّ من خلق حيوانات لا تتناهى، ثم تذروها الرياح فلا يكون لها وجود، وما المانع أن تكون أمثال أرضنا محل زرع لأوائل الحيوانية، ثم ترتقي في عوالم أخرى على مقدار درجاتها في النموّ الروحاني. وإذا كنا في شك من كلام الروحانيين وجب علينا أن نبحث في علومهم، فالجهل هو العائق عن السعادة، ومن جهل شيئاً لم ينله، كما أن من جهل التجارة والزراعة والصناعة مثلاً لم ينل الغنى، هكذا الجهّال بالعوالم لا يحظون بالرقي فيها والدنيا دار التجربة والعلم والعمل.

اللطيفة السابعة

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ الخ

لقد يعلم الناس الحوادث المستقبلة ببعض القواعد، فإنك لا تشك أن الليل والنهار والشهور والسنين والخسوف والكسوف لها أوقات محددة وساعات معينة ودقائق ثابتة، فترى الناس يعرفون الخسوف والكسوف والأيام والشهور بعد آلاف السنين، فيحكمون على المستقبل القريب والبعيد من حيث ظهور الكواكب والخسوف والكسوف وغيرهما، حتى إن الشيخ محمود الشهرزوري ذكر في كتابه الشجرة الإلهية كثيراً من آراء الأمم في الأدوار والأكوار، فقال ما ملخصه: إن العقول التي هي أرقى من عقل الإنسان تقدر أن تعرف المستقبل الذي لا نهاية له، وذلك بمعرفة الأدوار الفلكية، فكل دور من أدوار الفلك يكون ما بعده مماثلاً له سنة فسنة وقرناً فقرناً، فإذا كان ذلك العقل مطلعاً لسعته على حوادث ذلك القرن، فإن كل قرن بعده إلى ما لا نهاية له مثله، وتكون الحوادث واحدة فيها، ويقال حينئذ إنه عرف ما لا نهاية له. أقول: وقد تقدّم في هذا التفسير من المسائل الفلكية الحسابية المطردة التي تقرب أمثال هذا القول.

وإذا كانت حوادث العوالم الأرضية تتبع السماوية فإذن يتمّ العلم بالمستقبل، وترى علماء العصر الحاضر يرصدون حوادث المطر يوماً فيوماً، عسى أن يجدوا سبيلاً لعلم ما يكون في السنين

المقبلة من أدوارها الحاضرة، وفي هذا اليوم وأنا أكتب في هذا التفسير نقلت بعض جرائدنا المصرية يوم الجمعة ٢٨ مارس سنة ١٩٢٤ سير العلم في شهر مارس من هذه السنة، وقد كثرت السيول والعواصف في إيطاليا، وإن عالماً إيطالياً يسمى الأب «غبريال» قدّم تقريراً إلى أكاديمية العلوم الفرنسية في ١٧ مارس الحالي عن العواصف والسيول وإمكان التنبؤ بها قبل وقوعها بأشهر وسنوات، فقد أعلن أن تجاربه التي قام بها في حياته أثبتت أن العواصف والسيول لها أدوار كأدوار الفلك، وقال: إن الأربعين سنة التي تبتدئ من سنة ١٨٨٣ وتنتهي سنة ١٩٢٣ تضمنت ثلاثة أدوار بالنظر إلى السيول والعواصف وشرحها شرحاً وافياً، ولكل دور عواصفه. ثم قال: ونحن الآن في الدور الأول الخ.

وقد أثنى عليه رجال الأكاديمية ثناء عاطراً، لأنه سينفع الناس بهذا الكشف، وسجل أيضاً كشف آخر قدّمه الأستاذ «بريتون» لأكاديمية العلوم، وهو ما توصّل إليه العالمان «لومان وكوماندون» اللذان صوّرا حركات القلب والرئتين والمعدة وسائر أعضاء الجسم الداخلية بالسينماتوغرافيا بمساعدة أشعة رتنجن. وقد أصبح من الممكن رؤية كل ما يحدث في داخل الجسم من الحركات الغريبة على ألواح الصور المتحركة في دور السينما، قالوا: وهذا الكشف سيحدث انقلاباً كبيراً في أساليب التعليم، ويسهل على الأطباء معرفة كثير من الأمراض الداخلية.

وكذلك اخترع الدكتور «بازسكي» من مدينة «كييف» من أعمال روسيا، آلة حجمها كحجم آلة التصوير الشمسي، وقال: إنه عرف بها الأمراض الإنسانية من بدنية وأدبية وعقلية، وقال: إنه امتحنها في مئات من المجرمين المسجونين بسجون مدينتي «كييف ووارسو» فكان في بضع ثوان يقرر أن المجرم نمرة (١) قاتل عمداً، وأن السجين نمرة (٢) متهم بالقتل ظلماً، وأن فلاناً نمرة (٣) لصّ شكس، ونمرة (٤) مهيج سياسي عنيف، ونمرة (٥) بريء. ولما وقف على ذلك رجال الشرطة الروسيون اعترفوا بصحة جميع النتائج.

ويقول: إن للمخّ ٧٨ خلية رئيسية هي مدار كل أعمال الإنسان، فإذا أريد معرفة ما يستعدّ له الطالب من العلوم، فليرسم رأس صناعي من الجبس ولترسم هذه الدوائر عليه، وليصنع بواسطة الكهرباء أعمال تبيّن مقدار استعداد الطالب في علم الطب أو الأدب وما أشبه ذلك بهيئات مخصوصة بحيث إن الكهرباء المسلطة على خلية من خليات المخ الصناعي المماثل للمخ الإنساني صورة تؤثر في نفس ذلك المتحَن ـ بفتح الحاء ـ متى اتصلت تلك الكهرباء به إذا أمسكها بيده تأثيراً يختلف باختلاف تلك الخلايا المسلطة عليها الكهرباء في الرأس الصناعي، وعلى مقدار التأثير يحكم باستعداده وعدمه.

وليس من المطلوب لنا أن نعرف الطريقة بتمامها، وإنّما المراد معرفة ما وصل إليه الناس في أيامنا. ولقد أوقفتك على جلّ ما يجول في عقول الناس قديماً وحديثاً من علم الغيب، وأن القدماء يلجؤون إلى الفلك وأدواره، حتى إن بعضهم كان يجعل حساب حروف الجمّل ذا تأثير في علم المغيبات، وهكذا المحدّثون يبحثون في باطن الأعضاء ويعرفون الخواطر وكذلك الأمطار والعواصف المستقبلة. هذا ما وصل إليه البشر، كما يعرفون الإنسان بخطوط إبهامه إذا ختم بها على الورق وعملت به الحكومات.

هل هذا علم غيب؟

أقول: إن هذا كله أشبه بما يفعله الأطباء من الاستدلال بالبول وبالحرارة على نوع المرض، فإذا صحّ بعض ما تقدّم أو أكثره فلم يخرج عن استدلال على أمور عامّة أو خاصّة، كاستدلال الطبيب بحمرة الخدّ أحياناً على مرض في الرئة. فهذا وأمثاله لا يعدّ علماً بالغيب إذا صحّ، ولكن علم الغيب ومفاتيحه فوق طاقة البشر، ولو أن البشر علموا الغيب لكانت حياتهم وبالاً عليهم لأنهم لا يرتقون، فالارتقاء يكون بالجدّ والتشمير والعمل والإقدام، فإذا عرف المستقبل ساءت الأحوال ونام الناس. فأما بعض الرؤى التي يراها الناس وقد تصيب نادراً، فذلك لمساعدة المرء مساعدة قليلة في النادر. هذا ما أردت ذكره وفيه الكفاية.

مفاتح العلوم في هذه السورة

اعلم أن الله عزّ وجلّ لما ذكر في هذه السورة أن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو، لم يخل هذه السورة من مفاتح للعلوم، فذكر مفتاحين منها، مفتاح تفتح به علوم السماوات وهو ما قصّه من نبأ إبراهيم ونظره في الكوكب والقمر والشمس حتى انتهى إلى الله، هذا هو المفتاح الأول من العلوم.

المفتاح الثاني: ما قصّه الله من فلقه الحبّ والنوى وهكذا حتى انتهى إلى قوله: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ ﴾، ولا جرم أن الثمر لا يكون إلاّ بعد الزهر، والزهرة سترى رسمها هناك إن شاء الله في هذه السورة، وستعجب من كونها مع بساطة حجمها كانت مفتاحاً لعلوم النبات، وعبرت بنظامها واختلاف أعدادها عن مئات الألوف من النبات. هذان مفتاحان ستراهما في هذه السورة، مفتاح للسماوات في قصة إبراهيم، وسترى الصور السماوية التي هي مفتاح العلوم هناك، وكيف اجتهد العلماء اليوم في هذا، ومفتاح للعلوم النباتية الأرضية في الزهرة المرموز لها بالثمر. فهذان المفتاحان المذكوران بعد قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ يفتح بهما الله على الناس علم السماوات وعلم الأرض إيضاحاً لقوله تعالى في أول السورة: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ الخ.

ولما كانت السماوات والأرض لا يعلمان إلاّ بتعليم جعل لهما مفتاحين على سبيل اللفّ والنشر المرتب المنظم. فتعجب من القرآن ونظامه، وسيسرّك ما ترى من الصور السماوية والعجائب النباتية، وليست كمفتاح العلوم للعلاّمة «السكاكي»، وفرق بين مفتاح الله ومفتاح «السكاكي» فمفتاح «السكاكي» يفتح علوم اللسان العربي أي بعض القواعد التي تعرف بها البلاغة، والبلاغة مقدمة لاعتقاد أن القرآن معجز.

فأما مفاتح الله هنا فليست لتعليم اللغة التي هي مقدمة للعلوم، لا أنها هي العلوم المقصودة، بل هي لتعليم الحقائق التي لأجلها نزل القرآن، ولأجلها أرسل الله الرسل، وما الرسل إلاّ مبلغون ولا يبلغون إلاّ بلسان، فهذه علوم اللسان وليست مقصودة إلاّ للمعاني، فهذه هي المعاني، وهذه هي العلوم التي ارتقت بها أوروبا، والمسلمون نائمون ساهون لاهون، يفتح الله لهم باب العلوم فيقفلونها على أنفسهم، وقد آن أوان رقيّ الأمم الإسلامية ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[النور: ٤٦].

هذا ما أردت ذكره في علم الغيب ومفاتح العلوم، والله علاّم الغيوب. انتهى تفسير المقصد الأول من سورة الأنعام.

المقصد الثاني

وفيه المفتاح السماوي من المفتاحين المذكورين، قال الله تعالى:

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ

ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

التفسير اللفظي لهذا المقصد

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾ هو اسم أبي إبراهيم ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾ تعبدها من دون الله ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ظاهر الضلال ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي ومثل هذا التبصير نبصره عجائب السماوات والأرض وبدائعهما، و«الملكوت» أعظم الملك، والتاء فيه للمبالغة، ليستدل ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ الذين تزول شبهاتهم بسبب التأمل والتفكر، والإيقان أعظم من الإيمان؛ لأن الإيمان بالتسليم، والإيقان بالاستدلال والتعقل والتأمل، وهو الغاية العظمى للإنسان في هذه الحياة ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ ستره بظلامه ﴿ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ هو الزهرة أو المشتري ﴿ قَالَ ﴾ مجاراة لقومه ليبيّن لهم فساد عقائدهم ﴿ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ غاب ﴿ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴾ فضلاً عن عبادتهم، وكيف ينتقل ويحتجب ويتغيّر وصف من هو إله العالمين ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ مبتدئاً في الطلوع ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ أظهر العجز ووكل الأمر إلى الله لتعاقب الظواهر المحيرة للعقول في الألوهية ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾ كما يشعر به قومه ليقيم الحجة عليهم ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ من الأجرام المحدثة التي تحتاج إلى موجد ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، وقوله: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾ جادلوه وخاصموه في التوحيد ﴿ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ إلى توحيده، ولما خوفه قومه آلهتهم أن تضره قال: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ ﴾ أي لا أخاف معبوداتكم لأنها لا تضر ولا تنفع ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ﴾ أي لكن إن يشاء ربي شيئاً كان ما يشاؤه لأنه قادر على النفع والضرر، هذا استثناء منقطع، وإنما استثنيت ما يشاء الله فأقررت بأنه يقع لأنه ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ أي أحاط به علماً، فلا مانع أن يكون في علمه إصابتي بمكروه ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي أفلا تعتبرون أن هذه الأصنام جمادات لا تضر ولا تنفع، ثم قلب الموضوع عليهم فقال: وكيف أخاف أصنامكم وهي لا قوة لها؛ وأنتم لا تخافون من الله وقد أشركتم به؛ فأينا أحق بالأمن؟ من يعصي القادر أم من يطيعه وينبذ الأباطيل التي أنتم عليها، أنا أحق بالأمن وأنتم أحق بالخوف، وهذا قوله: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ أي معبوداتكم وهي مأمونة الخوف ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ ﴾ بإشراكه ﴿ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ حجة، إذ الإشراك ليس يكون عليه حجة، أي: وما لكم تنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ ﴾ أي فريق الموحدين والمشركين ﴿ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ﴾ من العقاب ﴿ إِن كُنتُمْ

﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ ما يحق أن يخاف منه، إن الذين يستحقون الأمن يوم القيامة هم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ معصية ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي إلى سبيل الرشاد، فهؤلاء يأمنون العذاب في أودية جهنم لأن نفوسهم خلصت من هذه الأرض ومن المادة وظلامها، فأما الذين ارتكبوا الآثام أو مالت نفوسهم إلى الحياة الدنيا وظنوا أنها هي كل مقصود من الوجود فأولئك يعذبون وينتهي أمرهم بالنجاة، وعلى هذا ما روي في البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: لما نزلت ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ شقّ ذلك على المسلمين وقالوا: أيّنا لا يظلم نفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس ذلك إنما هو الشرك؛ ألم تسمعوا قول لقمان عليه السلام لابنه ﴿ يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان: ١٣] وفي رواية: «ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه» وذكره. فانظر قوله صلى الله عليه وسلم: ألم تسمعوا قول لقمان لابنه وذكر ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وهذا من أدق الأجوبة، كأنه صلى الله عليه وسلم يقول لهم: الظلم المؤثر أثراً باقياً إنما هو الشرك، فأما الظلم الذي يزول أثره بعذاب مؤقت فهو الذنوب، وأكثر الناس إنّما يخافون من العذاب الدائم، ولو نظر إلى الخلّص الذين لا يعذبون فإنهم قليل. فالأمن العظيم لمن لم يذنب أو تاب توبة نصوحاً وردّ الحقوق إلى أهلها، فأما المذنبون فإنهم أقل درجة من أولئك فأمنهم أقل. هذا هو المفهوم من جوابه صلى الله عليه وسلم، فالمقصد من ذكر الظلم العظيم أنه لا يؤبد العذاب إلا به، والمؤمنون لا يؤبد لهم العذاب، هذا هو المقصد.

قوله: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ﴾ أي ما جرى بين إبراهيم وقومه ﴿ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أرشدناه إليها وعلمناه حجة ﴿ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ «حجتنا» بدل من «تلك» و«آتيناها إبراهيم على قومه» خبر، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ في العلم والحكمة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ في رفعه وخفضه، لأنه يعطي حسب الاستعداد ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بحال كلّ واستعداده ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا ﴾ منهما ﴿ هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ من قبل إبراهيم ﴿ وَ ﴾ هدينا ﴿ مِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ ذريّة نوح ﴿ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ ﴾ وهو من ذريّة إسحاق بن إبراهيم ﴿ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ ﴾ الجزاء ﴿ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي: نجزي المحسنين كجزاء إبراهيم إذ رفعنا درجاته وباركنا في ذريّته كثرة ونبوة، ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ﴾ وهو من نسل هارون النبي ابن عمران ﴿ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ الكاملين في الصلاح، وهو الإتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ ﴾ هو اليسع بن أخطوب ابن العجوز ﴿ وَيُونُسَ ﴾ ابن متى ﴿ وَلُوطًا ﴾ هو ابن أخي إبراهيم وأبوه يسمى هاران وهو أخو إبراهيم ﴿ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ أي: فضلنا كلاً من هؤلاء بالنبوة والإسلام على عالمي زمانهم، يقول: فضلنا كلاً من هؤلاء على العالمين وبعض آبائهم، أي: آباء الذين سميناهم وذريّاتهم وإخوانهم، ثم عطف على «فضلنا» قوله: ﴿ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ ﴾ اصطفيناهم ﴿ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: ثبتناهم على طريق مستقيم، فأما آباؤهم فمثل شيث، وأما الذريّة فمثل أولاد يعقوب، وأما الإخوة فمثل إخوة يوسف، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الصراط المستقيم ﴿ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ دين الله ﴿ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ لأن الله هو المتفضل على الناس لأنه هو أصل الوجود، والخلق منه وإليه ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ ﴾ أي: ولو أشرك هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع عظيم قدرهم ﴿ لَحَبِطَ

عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فهم كغيرهم في سقوط الثواب بالشرك، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي جنسه ﴿ وَٱلْحُكْمَ ﴾ أي الحكمة، أو الفصل في الأمور على ما يقتضيه الحق ﴿ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ الرسالة ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا ﴾ بهذه الثلاثة ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي قريش ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا ﴾ بمراعاتها ﴿ قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ من الأمم الأخرى كالفرس والتتار والترك وأهل جزائر الهند الشرقية وأهل الصين وقوم من السودان وأمم أخرى لا يعلمها إلا الله سيلدها الزمان المقبل لأني لا أنزل علماً ولا أخلق نباتاً ولا شجراً إلا فيه مصلحة مستقبلة، وهذا القرآن أنزلته إلى أهل الأرض لا إلى قريش وحدهم، فإذا كفروا بها فكم من أمم ستأتي كقوم من الإنجليز في هذه الأيام وآخرين من أمريكا، وسيظهر من العجائب ما لا يخطر بالعقول قريباً.

أقول أنا: وستأتي أمم تفهم الإسلام على الحقيقة التي فسرت القرآن بها في هذا الكتاب عاجلاً أو آجلاً. بهذا أنا موقن، وتكون أمم أرقى من الأمم الماضية، وإسلام الأمم التي ذكرتها معجزة لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة وليس معه إلا قليل، وهؤلاء جاؤوا من بعد حتى الأنصار لم يكونوا أسلموا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ في أمر الدين الذين اجتمعوا عليه من توحيد الله وتنزيهه ووصفه بالصفات التي تليق به، وفي جميع الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة؛ كالصبر على أذى السفهاء والعفو عنهم؛ فلتكن كريماً ومجاهداً كإبراهيم، وصابراً كإسحاق ويعقوب وأيوب، وشاكراً كداود وسليمان، وجامعاً بين الصبر والشكر كيوسف، وصاحب معجزة باهرة وشريعة ظاهرة كموسى، وزاهداً كزكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وصاحب صدق كإسماعيل، وصاحب تضرع كيونس، فعليك يا محمد أن تجتمع فيك هذه الصفات وعلى أمتك أن تقلدك في ذلك حتى يكونوا ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]، والهاء في قوله: «اقتده» للوقف، وقد أثبتها في الوصل فأجراه مجرى الوقف ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم؛ وجعلوها ساكنة، ويحذف الهاء في الوصل حمزة والكسائي، وهناك روايات أخرى لا نطيل بها.

وقوله: ﴿ قُل ﴾ يا محمد ﴿ لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على التبليغ ﴿ أَجْرًا ﴾ جعلاً من جهتكم كما لم يسأل من قبلي النبيين، وأنا أمرت أن أقتدي بهم ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي التبليغ أو القرآن ﴿ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ إلا تذكير وموعظة لهم ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ ما عرفوه حق معرفته في الرحمة والإنعام على العباد ﴿ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ هذه السورة وإن نزلت بمكة فإن فيها آيات نزلت بالمدينة؛ كما قال ابن عباس إنها نزلت جملة واحدة ليلاً وكتبوها من ليلتهم غير ست آيات منها فإنها نزلت بالمدينة وهي: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ [الآية: ١٥١] إلى آخر ثلاث آيات، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾[الآية: ٩١] الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾[الآية: ٩٣] إلى آخر الآيتين، فالذين قالوا: ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ هم اليهود. ذلك أن مالك بن الصيف خاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟ وكان حبراً سميناً فغضب وقال: ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ فغضب عليه قومه بعد ذلك، وقالوا: أليس الله أنزل التوراة على موسى؟ فلم قلت: ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن

شَيۡءٖ ﴾ ، فقال مالك بن الصيف : أغضبني محمد فقلت ذلك ، فقالوا له : وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق . فنزعوه عن الحبرية وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف ، وفي ذلك ونحوه نزل قوله تعالى : ﴿ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾ حال كونه ﴿ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ ﴾ تكتبونه ﴿ قَرَاطِيسَ ﴾ أي في قراطيس ؛ أي في صحف مقطعة ﴿ تُبۡدُونَهَا ﴾ أي تظهرون كثيراً منها مما لا يخالف أهواءكم ﴿ وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ ﴾ مما يخالف أهواءكم كصفات النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَعُلِّمۡتُم ﴾ يا أهل الكتاب ويا مسلمين على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ ﴾ من قبل ، زيادة على ما في التوراة عندكم أيها اليهود ، وبياناً لما التبس عليكم وعلى آبائكم كما في آية أخرى ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ [النمل : ٧٦] ثم أجاب على قوله : ﴿ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ الخ فقال : ﴿ قُلِ ٱللَّهُۖ ﴾ أي أنزله الله ، أمر الله رسوله أن يجيب عنهم إشعاراً بأن الجواب متيقن ﴿ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ أي في أباطيلهم ، فإنما عليك البلاغ ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ ﴾ كثير الفائدة والنفع ﴿ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ الكتب التي قبله ، فهذا الكتاب أنزلناه للبركة ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ أي أهل أم القرى وهي مكة لأنها مجتمع القرى وأعظم القرى شأناً ﴿ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ ﴾ من أهل المشرق والمغرب ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ فإن من خاف الآخرة تدبر ، ومن تدبر آمن ، وأهم الإيمان الصلاة فإنها عماد الدين ، فيها يخاطب العبد ربه بطلب الهداية ، ويستحضر الصالحين جميعاً واعداً لهم بالسلامة والأمان برحمة الله ، بعد وصف الله بأنه هو المستحق للمحامد وله كل الطيبات والصلوات ، فهؤلاء يتكرر ذلك على ألسنتهم وهم مستحضرون بقلوبهم تتمرن نفوسهم على ذلك العالم الأعلى فيقربون من ذي الجلال والإكرام ، وكما قال اليهود : ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ ﴾ سيأتي قوم بعد ذلك يدّعون أنه يوحى إليهم كذباً وزوراً ، فالأولون بإنكارهم النبوات كالآخرين بادعائهم نبوات كاذبة ، وكلاهما في ضلال ، والذين يدعون النبوات الكاذبة مثل مسيلمة صاحب اليمامة وتبعه قومه من بني حنيفة ، وكان صاحب نيرجات فاغتر قومه بذلك ، وقتله وحشي في زمن خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، ومثل الأسود العنسي ابن عبهلة بن كعب وكان يقال له ذو الخمار ، ادّعى النبوة باليمن في آخر عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقتله فيروز الديلمي قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بيومين وأخبر أصحابه بقتله كما تقدم في غير هذا المقام .

وفي البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض فوضع في يديّ سواران من ذهب فكبرا عليّ وأهماني فأوحي إليّ أن انفخهما فنفختهما فطارا ، فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما ، صاحب صنعاء وصاحب اليمامة » وهذا قوله تعالى : ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ كأولئك الذين ابتدعوا بدعاً في الديانات ، وكاليهود المحرفين للتوراة وغيرهم ﴿ أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ ﴾ كهؤلاء الذين ادّعوا النبوة ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ ﴾ كالذين قالوا ﴿ لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ ﴾ [الأنفال : ٣١] ، ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ ﴾ الظالمين ﴿ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ شدائده وسكراته ، من غمره الماء إذا غشيه ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ أي يبسطون أيديهم يقولون : هاتوا أرواحكم مشددين في الإزهاق من غير تنفيس

وإهمال وهو قوله: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ أي وقت الإماتة ﴿ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ ﴾ أي الهوان ﴿ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ﴾ كادّعاء الولد، والشريك لله، ودعوة النبوة والوحي كذباً ﴿ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون بها ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا ﴾ للحساب ﴿ فُرَٰدَىٰ ﴾ منفردين عن الأموال والأولاد، وسائر ما آثرتموه من الدنيا، وعن الشفعاء والأصنام، وعن كل ناصر ﴿ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾. روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال: أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً» ﴿ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٤]. وفيهما أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تحشر الناس حفاة عراة غرلاً» قالت عائشة: فقلت الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك». وفي رواية الطبري: ﴿ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴾[عبس: ٣٧] لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال، قال تعالى: ﴿ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ ﴾ أعطيناكم ﴿ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡ ﴾ من الأموال والأولاد والخدم والخول، وقوله ﴿ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡ ﴾ أي في الدنيا ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ ﴾ يزعم المشركون أنهم عبدوا الأصنام لأنها تشفع لهم يوم القيامة لأنها شركاء الله، فيوبخ الله المشركين يوم القيامة، ثم قال: ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ ﴾ أي قد تقطع ما بينكم؛ عند من قرأها بفتح «بين»؛ أو تقطع الأمر بينكم، ومن رفع كان المعنى: قد تقطع وصلكم والبين: من الأضداد يكون وصلاً وهجراً، ﴿ وَضَلَّ ﴾ ذهب وبطل ﴿ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾ تكذبون في الدنيا أنها شفعاؤكم، أو لا بعث ولا جزاء.

انتهى التفسير اللفظي لهذا المقصد. وفي هذا المقصد لطائف:

اللطيفة الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾ الخ.

اللطيفة الثانية: قوله تعالى: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾.

اللطيفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ ﴾.

اللطيفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ الخ.

اللطيفة الأولى

اعلم أن هذه المباحث في هذه السورة من أدقّ المباحث العلمية والآيات الحكمية، وكيف كان إبراهيم قد ابتلي بالصابئين الذين هم كانوا مغرمين بالعوالم العلوية الروحانية من الملائكة، وأنهم كانوا يجعلونها وسائط لهم بينهم وبين الله تعالى، فهم آلهتهم بهم يتقربون إليه، وهؤلاء الآلهة لهم هياكل كهياكلنا الجسمية، وهي الكواكب السبعة، ولما طال الأمد عليهم اتخذوا في الأرض أصناماً لتمثل الهياكل الكوكبية التي هي أشباح وأشخاص للنفوس القدسية والملائكة العلوية، فبالأصنام يتقربون إلى الكواكب، وبالكواكب يتقرّبون إلى من يسيّرونها ويجرونها في السماء في أوقات معينة، فانحطت عزائمهم ونامت فطرهم، فجاء الخليل إلى أصنامهم فكسرها، وإلى عقائدهم فسفهها، وإلى عقولهم فأرشدها، وإلى تقاليدهم فخفرها، وكان أبوه آزر أعلم القوم بعمل الأشخاص والأصنام ورعاية الأصناف النجومية حق الرعاية، فأخذ يذكر له ضلال ما يفعلون ويبيّن فساد ما كانوا يفترون.

واعلم أني لا أريد من شرح هذا المقام ذكر القصص التاريخية، ولا أحوال الأمم الماضية سرداً للتاريخ ولا غراماً بالسير، ولكني أريد أن يكون المقام مقام عمل لنا نحن الذين نعيش فوق الكرة الأرضية اليوم. إذا كان إبراهيم كسر أصنام قومه وقرأ الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك على قومه، ثم فعل كما فعل فكسر أصنام قومه في مكة حذو القذة بالقذة، كما فعل أبوه إبراهيم، فمن الجهالة العمياء والنذالة الحمقاء أن يقرأ المسلمون القرآن تغنياً لا تعليماً وتعبداً لا تذكيراً، بل عليهم أن يقتدوا بمن أرسلوا إليهم اقتداء بكل ما فعل؛ فلأشرح لك أولاً مذاهب الصابئة. وثانياً فعل الخليل معهم. وثالثاً الحكاية التي يذكرها بعض المفسرين من الخليل أيام صغره. ورابعاً اقتداء الأمم وإن كانوا لا يعلمون كأفلاطون في جمهوريته. وخامساً خلوة النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء كما ورد في قصة الخليل نوعاً، وكذا الاعتكاف في المساجد وخلوات الصوفية وتوجه الهمم بحصر الفكر، وأن قصة الخليل يقصد بها نشأة عالية إسلامية.

الفصل الأول من اللطيفة الأولى، الصابئة

اعلم أن النوع البشري كان يبحث من العصور القديمة في صانع العالم، ولهم طرق في ذلك مختلفة كثيرة، وأهمها في تلك العصور جمال الأنوار والبهجة والأضواء والكواكب وإشراقها، حتى إنك لتجد الأمم الجرمانية والعائلة الآرية قد جاء في لغتها أن الله عندهم هو النور والشمس، وتجد اللفظة الأصلية للنور «ديف» ومعناها النور اللامع، ويشتق منها عند الشعوب المذكورة ألفاظ للدلالة على الله، ففي لغة السنسكريت «ديفاس» أو «ديواس» أو «ديوا» ويعبرون عن السماء بلفظة «ديوس» وعند اليونان «ذيوس» وعند اللاتينيين «دووس» و«دوفس» وتصرّفوا فيها إلى أن قالوا «جوبتر» وفي الألمانية القديمة «ذيو» وفي السلاف «ديواس» ولفظة «تير» المشتقة منها معناها إله الحرب عند أمم الشمال، والفرنساويون عن الخالق «ديو» مرخمة والإيطاليون «ديو» والإسبان والبرتغاليون «ديوس»، وكلها مشتقة من أصل واحد كما تقدّم.

فهؤلاء الأمم الذين أغرموا بهذه الأجرام السماوية وأنوارها، وصاروا لا يذكرون الله إلّا باسم النور أو بما هو مشتق من النور، كانوا عاشقين لهذا الجمال في الدنيا فأرجعوه لموجده وسموه باسمه، وترى في القرآن ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور: ٣٥]، ومن أسمائه النور، فالقرآن يسمي الله بالنور كما سمته تلك الأمم القديمة الأوروبية والجماعات الآرية والجرمانية وأمم الهند القديمة، فاتفاق الأمم قديماً وحديثاً على الاتجاه إلى النور في الإسلام وغير الإسلام كان دليلاً على أن الأمر عظيم، فلنوجه العناية لهذا المقام ولنبحث في الصابئة فإنهم من هذا المقام وجهتهم.

الصابئون قوم ينتسبون للروحيات، ويظهر أن مذهبهم في القرون الخالية والأجيال البائدة كان القدس والطهارة وجمال النفوس والعروج إلى المقام الأعلى والتشبه بالملائكة والصعود إلى الملأ الأعلى، كما هي القاعدة أن كل دين يتبعه الناس فإنه في أول أمره هداية للناس مناسب لفطرهم، نافع لمتبعيه هاد لمعتنقيه، ثم يسقط سقطة عظيمة لا يصلح بعدها للإنسانية. كانوا يعتقدون أن للعالم صانعاً مقدّساً عن صفات المخلوقين وأن له ملائكة وهؤلاء الملائكة هم المدبرون للعالم العلوي والسفلي.

فالكواكب السبعة لها ملائكة تدبرها، كل كوكب يدبره ملك، ويصل التأثير من الأعلى إلى الأدنى، فتكون الهياكل أي الكواكب آباء والعناصر أمّهات، ومن هذا يكون كل موجود من حيوان ونبات وإنسان، وهؤلاء الملائكة يشمل نظرهم كل شيء، فهم وإن كانوا متصرفين في المادة، طاهرون لا يعصون وليس لهم طعام إلا التسبيح والتقديس لربهم، وهم أنفسهم في لذة وحبور وسعادة ليس لها نظير في الأرض ومن عليها، وهذه الطائفة تقول: نحن نهذب أنفسنا ونزيل الغضب والشهوة والأحقاد، ونرقي فينا النفس الإنسانية العقلية فنقترب من هؤلاء الملائكة الذين بهم نتقرب إلى الله تعالى، وقالوا: نحن إنّما أخذنا هذا المذهب من «عازيمون وهرمس» العظيمين، وعلى ذلك أخذوا يتقربون إلى الهياكل التي هي السيارات السبع، فعرفوا منازلها ومطالعها ومغاربها واتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة مرتبة على طبائعها، وقسموا الأيام والساعات والصور والأشخاص والأقاليم، وتعلموا العزائم والدعوات وعينوا لكل يوم من أيام الأسبوع كوكباً، فجعلوا لزحل يوم السبت وجعلوا ساعته الأولى، وتختموا بخاتمة المعمول على صورته وهيئته وصفته، ولبسوا اللباس الخاص به، وبخروا ببخوره الخاص به، ودعوا بدعواته الخاصة، وسألوا حاجتهم منه، وللمشتري يوم والمريخ وهكذا كما في زحل، وقالوا: الله رب الأرباب وهؤلاء هم الأرباب. ومنهم من جعل الشمس هي إله الآلهة فيتقربون إلى الهياكل تقرّباً إلى الروحانيات، وإلى الروحانيات تقرباً إلى الله.

ولما طال الأمد وقست القلوب قالت طائفة منهم: إن الهياكل أي الكواكب السبعة قد تغيبت عنا، فاتخذوا هياكل في الأرض وهي الأصنام، وهؤلاء يسمون أصحاب الأشخاص على مثال الهياكل السبعة وهي النجوم، فكل شخص في مقابلة هيكل، فتقرّبوا وتبخّروا ولبسوا وتطهّروا وراعوا الوقت والساعة والشكل والدعوات والعزائم مثل ما كانوا يصنعون للهياكل، وقالوا: هذه الأصنام شفعاء عند الله، أي بواسطة الكواكب والكواكب للملائكة والملائكة لله. فيا عجباً لهذا الإنسان، شأنه في كل أمر أن يتنزل فيه إلى أدنى حتى يذهب من الوجود.

الفصل الثاني: مجادلات الخليل إبراهيم عليه السلام معهم

كسر إبراهيم الأصنام، وهي الأشخاص النائبة مناب الهياكل، وقال: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[الصافات: ٩٥-٩٦]، وكان أبوه آزر هو أعلم القوم بعمل الأشخاص والأصنام ورعاية النجوم، وكانوا يشترون منه الأصنام لعلمه بمواقع النجوم حتى يعمل الأصنام على طريقتها، ولذلك كان الجدال معه. ومما قاله له: ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنعام: ٧٤]، وقال: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾[مريم: ٤٢]، ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾[مريم: ٤٤] وقوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾[مريم: ٤٣].

فهؤلاء هم الصابئون وهذا هو الدين الحنيف أي المائل عن الأديان. فإذن الصابئون لا يقرّون بأنبياء، ويقولون: نتقرّب إلى الله بأنفسنا، ثم تنزّلوا إلى عبادة الأحجار والأصنام. وأما الحنفاء كأتباع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه الصلاة والسلام فإنهم يقولون نتبع هؤلاء الأنبياء. هذا ملخص ما ذكره الشهرستاني في غاية الاختصار لمناسبة المقام، لتحيط علماً بما كان في الزمان الغابر.

حكمة هذه الديانات

واعلم أن الله عزَّ وجلَّ جعل هذه الأمم مغرمة بالكواكب السبعة تدريباً لهم وتعليماً في زمن كان الفلك غير معروف منه إلاَّ هذه الكواكب السبعة، وقد علم الله أن الفلك سيتغير في الأزمان الحاضرة، فهيّأ أنبياء وأمرهم أن يكسروا الأصنام التي على منوال تلك الهياكل لأمرين: الأول أن هذا الدين أصبح أرضياً لا سماوياً معكوساً منكوساً، فوجب زواله من الوجود ونسخه. الثاني أن هذه الكواكب السبعة والشمس علم الله أن ستصبح في العلم الجديد لا قيمة لها، فما هي شمسنا وأرضنا وكواكبنا السبعة، بل كواكبنا صارت أكثر من سبعة، والشمس التي كانت إلهاً أصبحت في أخريات الكواكب الكبيرة، بل أصبحت جزءاً صغيراً جداً، وقد مهّد الله للنوع البشري لذلك من أيام إبراهيم فلهج الناس بالله، وقالوا: لا شمس ولا قمر وإنّما الله قاهر فوق عباده، حتى تأهل العقل البشري للنظر في إلغاء تلك الألوهية واتساع العقل الإنساني فلا يحجبه شمس ولا قمر ولا سيّار ولا هيكل ولا صنم ولا صورة. هكذا فعل إبراهيم وهكذا فعل موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، ولولا هذا ما تجرأ العقل البشري على تلك الآلهة في نظره أن يبحث فيها، وهذا من السر في تكسير الأصنام أيام إبراهيم ومحمد عليهما السلام.

ولما جاء الإسلام كانت الأمم لا تزال في رأيها العام على رأي الصابئة، وهو أن الهياكل السبعة هي ذات السلطان على الدنيا، فتكون الكواكب سبعاً والسماوات سبعاً والأيام سبعاً وهكذا، فلعدد السبعة كان السلطان إذ ذاك، فنزل القرآن باللهجة المعروفة بين الأمم فقيل فيه: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] وقيل: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، ومعلوم أن الأقاليم عند القدماء سبع، فالقرآن جاء في أواخر أيام العلم القديم فجاء على مقتضاه، ولكنه أشار بطرف خفي إلى أن السماوات والكواكب ليست سبعاً، فقال في آية أخرى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، فبهذه الآية يقول لنا: أنا وإن كنت أخبرتكم بأني خلقت سبع سماوات فإني أترك ذكر غيرها حتى تعلموه، لأني أخلق ما لا تعلمون، وما ذكرت لكم إلاَّ ما يمكن أن تعلموه.

الفصل الثالث: الروايات التي وضعها الناس في هذا المقام

اعلم أن كل أمة من الأمم لها أسلوب في التعليم خاص، وأعم الأساليب نفعاً الروايات، بحيث يجعل العلم على هيئة رواية، ولقد كان بنو إسرائيل أبرع الناس في الروايات المنسوبة للأنبياء، وقصة الخليل هذه كان لها شأن يذكر في الأمم السالفة بلفظها تارة ومعناها تارة أخرى.

واعلم أن كل عالم وحكيم ونبي وفيلسوف قد عثر الناس على أحوال له تخالف الناس في الانفراد والعزلة، أو التفرّغ والعبادة والخلوة والانقطاع لما خلق له، ولم يوجد في النوع الإنساني منهم من ليس كذلك. اعتبر ذلك في رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تعبّد في غار حراء، وهكذا جميع الأنبياء يعبدون ويتبتلون، ومنهم إبراهيم الخليل. ولقد وضعوا قصة يستفاد منها أنه كان في غار لم يتعرف بأهل الأرض سنين، ثم لما خرج نظر الكواكب والقمر الخ، فبهره ما رآه ودهشه ما فاجأه، فقال لقومه ما رأيته في الآيات والقرآن ليس يتعرّض إلاَّ للحقائق، فأما الروايات فهي تدلّ على روح المقصود وخلاصته عند أولي العقول وملخصها:

إن النمروذ رأى في منامه أو قرأ في كتب الأنبياء ما يفيد أن مولوداً يولد في تلك السنة في ناحيته يكون هلاكه على يديه، فأمر بعزل النساء عن الرجال، ولكنه ائتمن آزر أنه لا يقرب امرأته حين أرسله إلى القرية، فحملت بما قدّره الله، ثم إنها لما وضعته أخبرت أباه، ثم وضعوه في مغارة وصارت تختلف إليه وترضعه، وقيل إنه مكث سبع عشرة سنة، وصار يسأل أمه: من ربك، ومن رب أبي، ومن رب نمروذ؟ فضربته وخافت وعرفت أنه هو الذي تخوّف منه النمروذ؛ فلما أخرجاه من السجن بهره جمال النجوم فقال ما تقدّم. انتهت الرواية.

الفصل الرابع

جئنا إلى المقصود من هذه القصة. اعلم أن أفلاطون جاء بعد الخليل عليه السلام بقرون، لأن أفلاطون كان قبل المسيح بنحو أربع قرون، وقد ألف كتاباً يسمى «جمهورية أفلاطون»، وهذه الجمهورية عشرة أقسام، يسمى كل منها كتاباً، وقد اطلعت عليها باللغة الإنجليزية ولم تترجم إلى العربية، والناس في إنكلترا وألمانيا وفرنسا يدرّسون منها فصولاً لطلبة العلوم لتربية الأخلاق في التلاميذ، لا سيما لطلبة مدارس المعلمين. وقد جاء في أوائل هذا الكتاب مقال أشبه بقصة الخليل يوضح المقصود منها، فقال ما ملخصه: لو أن قوماً عاشوا تحت الثرى في سراديب وهم لم يروا وجه الأرض ولا شمساً ولا قمراً ولا نجوماً ولكنهم في ظلام حالك، ثم إن هناك فيما يقرب من هذا السرداب كانت نار متأججة، والناس غادون رائحون في الطريق بجانب النار، والشمس تشرق عليهم ومعهم صور حيوانات ونبات وملابس، وهذه الصور قد ارتسمت في جوانب السرداب بنوع ما، فأخذ أولئك الجالسون في السرداب يسمون الصور النباتية والحيوانية بأسماء بحسب ما يرون، ويحسبون مسافاتها وسيرها وسرعتها، ويقولون: هذا هو الوجود كله، فهذا هو النور، وهذه هي المخلوقات، ثم تنبه جماعة منهم فقالوا: يا قوم، لقد أخطأتم، إن هذا النور صناعي وهذه الأشياء ليست حقيقية، إن هي إلاّ صور وأسماء. فاختلفوا على ثلاثة أقسام؛ فقسم صدّق هؤلاء المفكرين، وقسم كذّبهم، وقسم متردد؛ فقام من هؤلاء المفكرين جماعة فقالوا: لا بدّ أن نخرج من هذا السرداب لننظر؛ فلمّا خرجوا منه لم يقدروا أن ينظروا إلاّ صور النجوم في الماء في ليالي الظلمات ثم ارتقوا إلى منظر القمر ثم ضوء الشمس، فقالوا: إن النار التي أشرقت بجانب السرداب والصور التي رسمت في أضوائها إن هي إلاّ من آثار الشمس؛ فالنار أوقدت في الحطب، والحطب نما شجره بالشمس، فالإشراق من الشمس لا من الحطب أصالة، وهذه الصور الحيوانية والنباتية ليست حيواناً ولا نباتاً على الحقيقة، وإنّما هي صورها، فلا ضوء النار المتقدة في الحطب أصل النور ولا الحيوانات والنباتات هي الطبيعية، بل نور الشمس هو أصل نور الحطب، والنبات والحيوان الناميان هما الطبيعيان.

ثم إن أولئك الذين خرجوا من السرداب وخالفوا جماعتهم نظروا فوجدوا الشمس لها سير منظم وفصول أربعة: شتاء وصيف وربيع وخريف، ومن هذا الاختلاف كانت الزروع المختلفات والزهر والثمر وعجائب الخلقة، فأخذ منهم العجب كل مأخذ ورأوا حساباً منظماً وعجباً عجاباً، فقالوا: إن هذه النظم العجيبة والهندسة والإحكام في الصنعة لها عوالم وراء هذه، وما مثل هذه الشمس إلى المبدع لها، وهذه الحيوانات والنباتات إلى العوالم التي كانت سبباً لها من العالم النفسي،

إلا كضوء النار عند السرداب وصور الحيوانات والنباتات المصنوعة المنعكسة على جوانب السرداب المظلم إلى الشمس وإلى الحيوانات والنباتات الحقيقية. هذا ملخّص مثل أفلاطون.

ومن هذا المقام وأمثاله قيل «المثل الأفلاطونية»، أي أن هذا العالم المنظور على منوال عالم غير منظور، ولهذا المقام فروع عند الصوفية، وجدال عند الفلاسفة، فاعرف هذا فهو الأصل، واعلم أنك الآن تقرأ لبّ العلوم.

ثم إن هؤلاء الذين عرفوا هذا رجعوا إلى السرداب وبثّوا الفكرة فيهم، واشتدّ بينهم الجدل والصراع، فهذه حال الحكماء مع أممهم. فإنهم يرون ما لا يراه الناس ويرجعون إلى عالم المعقولات. فأما المحسوسات فإنّما هي مظاهر، والحقائق هي العوالم الروحية. واعلم أن مذهب أفلاطون الذي كثر جدال القدماء فيه هو شبه علم الأرواح الحديث، فإذا ثبت ظهور الأرواح أو وجودها كما هو الأقرب كان هو شبه مذهب أفلاطون، لأن هذا العالم هو الباقي وهو مماثل لعالمنا هذا؛ فالحيوان والإنسان كلاهما ثابتان عند هؤلاء العلماء.

الفصل الخامس في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

اعلم أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم في غار حراء شأنه عظيم، ولو أنك قرأت ما قاله «هنري الفرنسي» في كتابه «خواطر وسوانح في الإسلام»، وكيف ذكر أنه صلى الله عليه وسلم في غار حراء وهو ينظر إلى النجوم كأن قد شغفه الجمال والبهاء والحسن في تلك القبة الزرقاء، والنجوم في ذلك القفر أكثر وضوحاً وأبهر ضوءاً وأعجب شكلاً لصفاء الجوّ وبهجته، إذ ذاك تجلى له الملك فقال له: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ الخ. وإنّما ذكرت لك كلام «هنري الفرنسي» لأن الرجل عبّر بحريّة على مقتضى ما تجري به العادة في العلم بين الأمم.

والقصد أنه صلى الله عليه وسلم كان في الخلوة وكان له نظر في النجوم. أفلا تتعجب من أن فكرة النور عند الصابئين، وكانت حقيقة باهرة، وهي عند إبراهيم الخليل، فهو وإن كسّر الأصنام لم يترك النجوم التي عبدوها بل جعلها وسيلة للاستدلال على مبدعها وفاطرها، وأنها تدلّ على أنه مديرها ومدبرها ومكملها، ثم ترى النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء ينظر في النجوم، وكان في آخر الليل وقت التهجد حين يقوم يقرأ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[البقرة: ١٦٤] الآيات، وفي القرآن: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠]، وجميع العبادات مرتبة على الأوقات التي هي مرتبة على سير النجوم. انتهت اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية: قوله تعالى: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾

يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فبهدى الأنبياء اقتدِ. ويا ليت شعري لم نقرؤها الآن؟ ولم نتلوها صباحاً ومساءً، أنتلوها لأن نبينا صلى الله عليه وسلم الذي هو في عالم الأرواح اليوم وعند ربه والملائكة مكلف باتباع الأنبياء؟ كلا، بل نتلوها لأجلنا نحن، ونحن المكلفون باتباعهم. فبماذا مكلفون باتباعهم؟ في الصبر والشكر وجميع أنواع الكمالات. يا عجباً كيف يقول الله في داود عليه السلام: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾[سبأ: ١٠-١١]، ويقول إنه سخر لسليمان الريح. فهل كان ذلك مجرد قول نسمعه لنتفكه به؟ كلا والله، ثم كلا، لقد كذب

الجاهلون. سخر الريح لسليمان والحديد لداود، ونظر إبراهيم في النجوم وعرف تدرّجها من كوكب إلى قمر إلى شمس، وانتقل من الأدنى إلى الأعلى كما في أمثال أفلاطون، حتى كان الانتقال من النار إلى الشمس، وهكذا حتى وصل إلى العوالم المجردة. وكان داود خليفة في الأرض يحكم بين الناس بالحق ولا يتبع الهوى. إن ذلك ليقتدي النبي صلى الله عليه وسلم بهم، أي: لنقتدي نحن بهم، ولا معنى لاقتداء أحد من قبلنا ولا من بعدنا، لأنهم ليسوا معنا الآن، ولسنا نقرأ القرآن لأجلهم، إنَّما نقرأ القرآن لنا، والاجتزاء بأن قراءته للرحمة ليست مطمح نظر الدين والنبوة، إنَّما هو العلم والحكمة. فماذا أعدّ المسلمون للرّيح حتّى يسخّروها. لقد سبقهم الفرنجة فسخروا الريح لا تقليداً لسليمان ولكن اتباعاً لعقولهم. الله يقول لنا: اقتدوا بهؤلاء، ومنهم داود وسليمان، وهما اللذان كانا شاكرين نعم الله، ومن نعم الله تسخير الريح، وإن كان ذلك معجزة ولكن نحن ننظر لها من جهة الشكر، فكيف نشكر نعمة لا نملكها؟ ولقد أخضع الألمان الهواء إخضاعاً عجيباً حتى إنهم جعلوا في أيام الحرب نحو ثمان معامل، كل معمل فيه نحو ٣٦٠ تليفوناً للمخاطبة، كلها يستخرج فيها نترات الفضة من نفس الهواء، وكانت نافعة في أعمال الحرب، ثم الآن استعملت في سماد الزرع. كل هذا من نفس الهواء مع أعمال أخرى.

أفليس من العجب أن الهواء يسمّد الأرض ويساعد الجند بمادّته؟ فماذا فعل المسلمون لشكر نعمة الهواء؟ ولا شكر إلاَّ بحصول النعمة، وإن صدّهم عن هذا أنه هناك معجزة، ولين الحديد لداود معجزة. قلنا: ليس الشكر على الحديد والهواء قاصراً على المعجزة، فالعمل الإنساني له فيهما مآرب ظهر كثيراً منها حديثاً، وكان على المسلمين أن يتنبهوا قبل الأمم، ولكنهم إذ تأخروا عنهم في التشبه، فلماذا لا يسعون في الانتفاع بالهواء والحديد؟ بل بكل شيء مما علم وما لم يعلم. المسلمون يا الله اليوم عالة على النوع الإنساني، والله لا يرضى بذلك، وكيف يكونون عالة وهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، والعالة لا يكونون خير أمّة. وقد آن أوان أن ترجع الأمّة كما كانت في أوّل عهدها. اهـ.

اللطيفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾

لقد وبّخ الله اليهود على أنهم قد أخفوا كثيراً من قراطيس التوراة وأظهروا كثيراً، ولقد خطر بنفسي لما ذكرت في هذا المقام: لعمري أن هناك سراً مخفياً، وعلماً يجب نشره، وحكمة يجب إظهارها، كيف يقول الله هنا هذا، ولم خصصه بهذا المقام؟ ومعلوم أن هذه الآيات لم يقصد بها أحد سوانا، نحن الذين نعيش الآن من المسلمين، لأن المسلمين الذين ماتوا والذين سيأتون بعدنا ليس الخطاب موجهاً لهم الآن، فعلى المسلمين الذين يقرؤون القرآن في أيّ زمن أي في زماننا هذا أو بعد ذهابنا من هذا العالم أن يقولوا إن هذا القول يقصد به تنبيهنا إلى خطر، فلنتلاف ذلك الخطر. أما أنا اليوم في هذا الجيل في القرن العشرين في السنة الرابعة والعشرين الميلادية، وهي السنة الثانية والأربعون الهجرية، أرفع صوتي للعالم الإسلامي وأقول لهم بكل صراحة ووضوح وجلاء لا شك فيه ولا غموض: إن هذه الآية منطبقة علينا في مصر وفي الشام وبلاد العرب وبلاد الغرب وبلاد الترك وبلاد جاوة وبلاد الهند وبلاد الصين وبلاد الروسيا وبلاد السودان وبلاد الحبشة وبلاد البربر.

أقول: أيها المسلمون جميعاً، خذوا حذركم، أحذّركم أننا فعلنا في القرآن ما فعله اليهود في التوراة، ولو أرسل لنا نبي الآن لقال لنا: أيها المسلمون إن القرآن قد جعلتموه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً، ونحن قد اتبعنا الأمم التي قبلنا حذو القذّة بالقذّة وحذو النعل بالنعل، كما في الحديث: «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، ونحن قد دخلنا جحر الضبّ الذي دخلوه قد دخلناه وأنا أرى الجحر بعيني، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون أنهم في جحر ضبّ.

فصل في محاورات بيني وبين أحد الفضلاء

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر أحد الإخوان من أهل الفضل فاطلع على هذا وأنا سائر في الكتابة، فقال: يا فلان اربع على نفسك ماذا تكتب؟ هذا والله الكفر بعينه، وأيّ عاقل يقول هذا القول فضلاً عن مؤمن، وما كان ينبغي لك أن تكتب هذا بل أقول لا تكتبه في التفسير لئلا يأخذ الناس بظاهر قولك ويحكمون عليك بحكم لا ترضاه فتضيع الثمرة من الكتابة. قلت: لم ذلك؟ قال: لأنك تزعم أن القرآن مغير وبعضه مخفي، وكأنك تزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبلغ بعضه أو بلغ الكل، والقرآن بعضه محذوف أو أن المصحف ناقص، وهذا هو الكفر بعينه. قلت: هوّن عليك يا صاح، ولو أني خطر لي هذا القول لم أجد دليلاً في العقل ولا في النقل عليه. قال: إذن ما معنى كون المسلمين أخفوا بعض الدين؟ قلت: ألست تعلم أن الفحم الحجري والحديد والنحاس كانت تستخرج من باطن الأرض من قديم الزمان؟ قال: بلى. قلت: والبخار كان يراه الناس في غدوّهم ورواحهم وفي منازلهم. قال: بلى. قلت: فكأن الفحم الذي علمه الناس والذهب وبقية المعادن منتفعاً بها، أما ما رأوه بأعينهم في مراجلهم وعلى شرابهم وطبخ طعامهم وهم لم يعلموا علمه ولم يعرفوا ثمرته فقد حرموا منه. قال: نعم. قلت: هكذا القرآن فإنك ترى آية الوضوء وآيات الحج والصلاة قد قتلها الأئمة رضوان الله عليهم بحثاً وتنقيباً حتى لم يدعوا زيادة لمستزيد، فتجد في غسل الوجه من الأقوال ما لا يدع قولاً لقائل. وترى ابن عباس يقول: تغسل العين من الداخل، وترى غيره يوجب غسل الفم والأنف أي المضمضة والاستنشاق، وغيرهم يوجب غسل مقدم الأذنين بالماء، وذلك لاختلاف الاعتبارات والنظر في العبارات والهمة في المعلومات واستيفاء العلم والحكمة في الآيات، وهكذا الفرائض والدعاوى والبينات والزكاة والصلاة والحج ومسح الخف وما أشبه ذلك، وقامت متون هذه العلوم ١٣ قرناً حتى ألف الناس ذلك وصرفت أذهانهم وعقولهم ورغباتهم عما سواها، حتى أصبح القرآن إنّما يقرأ للتبرك، وضاعت الثمرة المقصودة منه، وترى من جهة أخرى آية إبراهيم مثلاً في هذه السورة وأنه رأى القمر والشمس والكواكب طالعات، ففكر فيها وذكر الأنبياء بعده، ثم ذكر الأمر الحتم، يقول الله: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] أي يقول لنا نحن الآن: اقتدوا بهؤلاء، ونحن نسمع هذا القول فنقول جميعاً بلا استثناء في مشارق الأرض ومغاربها: الشمس والقمر والنجوم والأنبياء واقتداء النبي صلى الله عليه وسلم بهم، كل هذا مفهوم عندنا، كتب الفقه فيها جميع الأحكام ولم يبق زيادة لمستزيد، وأما النجوم فإنها لا لزوم للنظر فيها، فقد عرفنا الله، وأما الأنبياء فقد اختلف العلماء فيهم هل شرع من قبلنا شرع لنا وهكذا، ويقف الذكي عند أمثال هذا المقام، وقد أسدل على جميع العقول الإسلامية الحجاب، إلاّ الراشدين وهم الذين ميّزهم الله بنور العلم، وانزووا في زوايا الأرض لا يعلمون ولا يرشدون.

فيا ليت شعري ، أيّ فرق بين قوله تعالى : ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾[المائدة : ٦] وقوله : ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[الأنعام : ٩٠] ، وأيّ فرق بين قوله تعالى : ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾[النساء : ١١] وبين قوله في هذه السورة : ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾[الأنعام : ٧٧] الخ . ولم يفصّل الكلام في الميراث ولا يفصل في الاقتداء بالأنبياء وفي النظر في الكواكب والشمس والقمر والمعدن والنبات والحيوان والتشريح . أليس هذا كله في القرآن ؟ وكيف يقول : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾[سبأ : ١٠] ، ويقول : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ ﴾[ص : ٣٦] ، ويقول : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[الجاثية : ١٣] . وهذا يشمل الريح والحديد والنحاس وغيرها ، فإذا كان الأنبياء قد أعطوا بعضاً ، فقد سخر الكل لعباده . يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : اقتد بالأنبياء ، والأنبياء كان منهم من شكر الله على نعمة الهواء ، ومنهم من شكره على نعمة المعادن ، ومنهم من بحث في النجم والشموس وهكذا . أفلا نتقبّل نعمة الله ونبحث في كل ما على الأرض وما في السماء اقتداءً بالأنبياء وإجلالاً لقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] . وقبولاً لعطيته ، ومن أعرض عن عطية الكريم الحكيم عاقبه بالحرمان ، ولا معنى لشكر النعمة إلاّ صرفها فيما خلقت له ، وقد أمرنا أن نشكر نعمه ، فقد قال : ﴿ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[البقرة : ١٥٢] ، وقد عرفنا معنى الشكر . أفليس من نكران النعمة ومن العصيان أن ندع ما يمكن الانتفاع به من المخلوقات فلا نستعمله ، وبذلك نصبح غير شاكرين وهل يليق بالمسلمين أن يكونوا غير شاكرين ؟ فأين العقول وأين الحكمة وأين الاستنباط وأين العقول الكبيرة التي خلقها الله ؟ .

إن تلك العقول قد وضعت في أغلال وحكم عليها بالإرهاق ، فإن العقول الكبيرة التي خلقت في البلاد الإسلامية قد حكم عليها أن تضيع الذكاء المفرط في علم الكلام من الردّ على المشاغبين الذين ماتوا ، فكتب التوحيد أول مصيبة حلت بالأمم الإسلامية ، وقد استعيض بها عن النظر في السماوات والأرض كنظرات إبراهيم الخليل ، فهذه الكتب لا هي بمعطية اليقين ولا هي بمرقية للعلوم ، فأما نظرات الخليل عليه السلام في الفلك وبقية آي القرآن في الطبيعة والعلوم الأخرى ، فإنها ترقي العقول الإنسانية وتعطي المعلومات اليقينية ، وترقي الجامعة الإنسانية . فيا ليت شعري ، أيّ فرق إذن بين قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾[الأنعام : ٧٨] وبين ظهور البحار قبل معرفة منافعه . لعمرك إنه لا فرق بين خفاء الشيء وبين ظهوره مع الغفلة عنه ، وإذا وضعنا أمام الأعمى أجمل صورة في الوجود فإننا لا ندّعي أنه عرف جمالها أو أدرك محاسنها .

قال صاحبي : وهل يقال إن المسلمين أخفوا صحفاً من القرآن؟ قلت : النتيجة واحدة ، بل المخفيّ يمكن الاطلاع عليه بعد البحث ، أما الظاهر المكشوف الذي يراه كل إنسان وقد صرفت عنه الأذهان فإنه لا ينتفع به اعتبر ذلك في الديانات وفي المخلوقات ، فإن دين المسيح لا يعرفه إلاّ المسيحي مع أنه يكون في بلاد الإسلام ، ودين الإسلام لا يعرفه إلاّ المسلم وهو في ديار النصارى مثلاً ، وذلك لانصراف النفوس عن كل ما لا تشوق إليه ، فالمسألة مسألة تشويق ورغبات . ونرى الصناعات والسياسات والتجارات في أوروبا قائمة للسوق رائجة ، والشرق نائم ، وهو يرى بعينيه صليل السيوف

ودويّ المدافع، وحصد النفوس في الشرق، واستنزاف الثروة بالتجارة، وهو ساكت غافل، ولماذا هذا؟ لأن العقلاء لم يحركوا النفوس المصروفة ولم يشوّقوها للأمور النافعة المفيدة فتكون لها معشوقة. قال صاحبي: فماذا تريد إذن؟ قلت: إذا قالوا في الكتب الدينية كتاب الصلاة والزكاة والحج والبيوع والفرائض والدعاوى والعتق، فلم لا يقال كتاب في نظام الطبيعة، وكتاب في نظام الفلك، وكتاب في عجائب الحيوان، وفي النبات، وفي الحشرات، فيطلع أكثر أهل العلم على مجمل هذه العلوم، وكما يخصص قوم بالقضاء يخصص قوم بالفلك، وآخرون بالطبيعة التي هي علم التوحيد حقاً وصدقاً، وآخرون بعلم الحشرات، وآخرون بعجائب غيرها. فقال ذلك الفاضل: أوَيكون هذا دين الإسلام؟ قلت: نعم، ولا إسلام غيره، فهذا هو الإسلام الحقيقي. قال: عجباً لك، أفلست ترى أن المسلمين السابقين قد ألفوا في هذه العلوم كلها؟ قلت: نعم، ألفوا باعتبار أنها علوم إما كفرية وإما مستحسنة، وكان ذلك عملاً فردياً أو دنيوياً، ولكني أقول بأعلى صوتي: هذه العلوم دينية كالوضوء والصلاة والحج، ولماذا يعتني المسلمون بشروط البيع ولا يعتنون بعلوم المعادن، ولماذا خصصوا للقضاء طائفة ولم يخصصوا نظيرها لعلم الحشرات أو لعلم النبات أو لنظام الحدائق الغناء مع المشاركة في سائر علوم الدين؟ أقول هذا وأنا موقن أن هذا هو الدين حقاً، فعلى المسلمين أن يحيوه، وإلاّ فأنت تعلم أن الله قاهر فوق عباده، فقد نقل الإسلام من قوم إلى قوم، ولما ناموا جميعاً أنزل عقابه على الجميع وأذلهم للفرنجة، فسادوا عليهم أجمعين. هذا هو الحق الصراح، إن هذه الآية:

برزخ بين بحرين

وهي: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾[الأنعام: ٩١] إلى قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾[الأنعام: ٩٢] الخ. يعجب المتأمل لهذه الآيات ويدهش من نظامها، كيف لا وإنها لم تذكر إلاّ في برزخ بين البحرين من العلم.

البحر الأول: علم السماوات المفهوم من نبأ إبراهيم ونظره في السماوات.

البحر الثاني: العلوم الأرضية في النبات والحيوان. الخ.

أيها الذكي، انظر وتأمل وتعجب، هذان بحران من العلم. أولهما في الفلك ولا يتمّ إلاّ بجميع العلوم الرياضية من الهندسة والجبر الخ. ثانيهما علم النبات والحيوان. ولا جرم أن العلوم الحكمية لا تخرج عن هذين، فهي علوم للعالم العلوي وعلوم للعالم السفلي، والأخيرة هي العلوم الطبيعية، والنظر العام فيهما معاً هي العلوم الإلهية. إذن هذه السورة جمعت علوم الحكمة كلها، وقدّمت الرياضيات كما هو منهج التعاليم في العالم كله، وأخّرت الطبيعيات، هذا واضح ظاهر، ولكنني أريد أن أحدّثك حديثاً عجباً وهو المقصود.

أحدّثك عن وضع هذه الآية في البرزخ بين البحرين وما حكمتها ولم لم توضع قبل البحر الأول أو بعد البحر الثاني، إنّما جعلها الله هنا لحكمة شريفة ظهرت في هذا الزمان وأبرزها العلم والتاريخ.

ذلك أن اليهود المذكورين في الآية قد خبؤوا كثيراً من علوم التوراة وأظهروا بعضها على حسب أهوائهم، والمسلمون اليوم وإن لم يخفوا القرآن وأظهروه، ولكن العلوم التي يحث عليها قاموا بعضها

وتركوا أكثرها، أما البعض فهي العلوم الفقهية، وأما الأكثر المتروك فهي العلوم المذكورة في هذه السورة، وهما البحران المحيطان بهذه الآية، فكأن وضعها هنا إشارة إلى أن هذه العلوم ستختفي زمناً ما في الأمة الإسلامية، والقرآن يطلبها، ومتى عرف ذلك رجعت الأمّة إلى قراءة تلك العلوم، وأنت أيها الذكي لا تتصور ما قلته لك الآن مما تضمنه هذا الوضع إلاّ إذا قصصت عليك قصص الأمم الإسلامية، فأقول:

لقد دوّنت الأمم الإسلامية العلوم عن الأمم السابقة الذين لم يعلم الناس عنها شيئاً، إلاّ أن المصريين هم الذين نبغوا في العلوم وقفّى على آثارهم السريانيون والكلدانيون ثم الفرس واليونان. وأجلّ هؤلاء سقراط وأفلاطون وأرسطو، ثم انتقلت الحكمة والملك إلى الرومان، وكان منهم «شيشرون وسنبكا».

ثم لما كان آخر القرن الثاني حدثت شيعة الإسكندريين الذين كانوا يوفقون بين العلم والدين. ولما تنصّر الفرنجة هجروا أكثر تلك العلوم، ثم ظهرت الأمة العربية ودانت لها الأمم، فأرسل أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يرسل له كتب التعاليم مترجمة، فبعث إليه بكتاب «إقليدس» وبعض كتب الطبيعيات، فقرأها المسلمون واشتاقوا إلى العلم، لا سيما أنهم خالطوا الروم والفرس والصابئين، فأثار ذلك شوقهم إلى العلوم، ولما جاء المأمون سعى جدّ السعي في استخراج تلك العلوم، وهناك ظهر المترجمون من اليونانية إلى العربية، وكان ابتداء ذلك من سنة ١٣٦، وانتهى في نصف القرن الرابع الهجري، ومن التراجمة في تلك العصور: يحيى بن البطريق، وجورجيس بن جبرئيل، ويوحنا ابن ماسويه، وسلام الأبرش، ويوحنا بن البطريق، وحنين بن إسحاق، وإسحاق بن حنين، ويحيى بن عدي، وغيرهم، وهذه الترجمة كان فيها اختلاف كبير، فلخصها الفارابي ومحصها ابن سينا.

انحطاط التعاليم فيما بعد ذلك

ثم أخذت ريح العلوم تركد، والأمّة ترجع القهقرى، فأخذ صغار العلماء يحرّمون هذه العلوم، وأصيب العلماء بهذه العلوم بمصائب الحسد والعداوة والضنك والحبس، كما حصل لعبد السلام الجيلي المعروف بالركن الذي اشتهر بهذه العلوم في القرن السادس من الدولة الإمامية الناصرية، وحصل له تقدم عند رجال الدولة، فأخذ أطفال العلماء يذمّونه ويوقعون به حتى برزت الأوامر الناصرية بإخراج كتبه إلى موضع ببغداد يسمى بـ«الرحبة»، وخطب الرجل المسمى بـ«ابن المارستانية» فوق منبر، وصار يلعن علم الفلك وعلم الحيوان وغيرهما، ويلقي كتبها في النار، وحبس ذلك العالم في السجن، ولم يخرج إلاّ بعد مدّة في سنة ٥٨٩ هجرية.

هذا ما كان في بلاد الشرق. ثم انظر ما حصل في بلاد الغرب، فإن القوم أحرقوا كتب الغزالي في الأندلس والمغرب الأقصى، ولقد وصل الأمر إلى ما حكاه أبو حيان في تفسيره البحر، أن أهل المنطق بجزيرة الأندلس كانوا يعبرون عن المنطق بالفعل تحرّزاً عن صولة الفقهاء، حتى إن بعض الوزراء أراد أن يشتري لابنه كتاباً في المنطق فاشتراه خفية خوفاً منهم، مع أنه أصل كل علم وتقويم كل فنّ.

ثم إن القوم اضطهدوا ابن رشد، فتحول العلم بهذه الأسباب من الشرق والإسلام إلى أوروبا من طريق تلاميذ ابن رشد النصارى واليهود، فدار الزمان دورته.

هذا ما كان من أخلاق الأمم الإسلامية بعد القرون الأولى، فانظر ماذا فعل الله حالاً؟ سلط عليهم المغول والتتار المعبر عنهما في علم الجغرافيا قديماً كما سيأتي في سورة الكهف بلفظ «يأجوج ومأجوج»، جمعهم جنكيز خان وتوجه بهم إلى بلاد الإسلام لما وجد من قطب أرسلان ظلماً لتجاره ونكثاً بعهوده، كما سيأتي إيضاحه في تفسير سورة الكهف، فخرّب البلاد وقتل الشيوخ والصبيان والنساء، وقد يقتل البهائم ويدمر كل شيء تدميراً.

وأحرقوا كتب الخزائن العلمية في بخارى وسمرقند وحلب، فقد مزقوا ما فيها من الكتب لما دخلوها، وهكذا ضاعت ومزقت كتب المكاتب الإسلامية، ومما زاد في الطين بلة الحروب الصليبية. إذن الأمم الإسلامية أولاً غيّروا ما بأنفسهم من العلوم وحبها، فغيّر الله حالهم فأغارت عليهم الأمم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١]، ثم جاءت دولة الترك وفتحوا القسطنطينية وكان فيها فحول في العلوم الحكمية والدينية، كالعلاّمة شمس الدين الفناري والفاضل قاضي زادة الرومي والعلاّمة خواجة زادة والعلاّمة علي قوشجي والفاضل ابن المؤيد وميرجلبي والعلاّمة ابن الكمال. قال العلاّمة التركي منلا كاتب جلبي مؤلف كتاب «كشف الظنون» المتوفى في القرن الحادي عشر الهجري:

ولما حلّ أوان الانحطاط ركدت ريح العلوم وتناقضت بسبب منع المفتين من تدريس الفلسفة وسوقه إلى درس الهداية والأكمل، فاندرست العلوم بأسرها إلاّ قليلاً من رسومها، فكان المولى المذكور سبباً لانقراض العلوم من الروم كما قال مولانا الأديب شهاب الدين الخفاجي في خبايا الزوايا، وذلك من جملة أمارة انحطاط الدولة. اهـ منلا كاتب جلبي.

فانظر كيف ذهبت دولة الإسلام في الشرق بجنكيز خان وخلفائه الذين أماتوا ألف ألف إنسان في بغداد، وجعلوا الكتب جسراً تمر عليه جيوشهم بدجلة. وانظر كيف جاء الملك «فرديناند» وزوجته «إيزابلا» وقتلوا المسلمين بالأندلس، ومن بقي تنصر منهم ولم يفرّ منهم إلى بلاد شمال أفريقيا إلاّ القليل، وأبناؤهم اليوم في مراكش وتونس والجزائر. وانظر كيف انحطت دولة الترك البائدة الجاهلة في زماننا، وحلت محلها الأمة الحالية التي يقودها الغازي «مصطفى كمال باشا» وهي تجدّ في تعلم العلوم بأسرها، ولله عاقبة الأمور.

هذا تاريخ الأمة الإسلامية. أليس هذا الذي بسطته أمامك الآن معناه أن المسلمين لما أحبوا جميع العلوم كانوا في منعة، ولما غيّروا ما بنفوسهم غيّر الله حالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[الرعد: ١١]. ألست ترى أن هذه الآية منطبقة على تلك الأمم؟ فإنهم لما غيّروا ما بأنفسهم أراد الله بهم السوء، ولم يكن لذلك السوء مردّ، وقد حصل فعلاً فذلّ المسلمون في أقطار الأرض. أوَلست ترى معي أن قوله تعالى في هذه السورة مخاطباً اليهود: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾[الأنعام: ٩١] يقرب مما ذكرناه، فالقرآن وإن كان مقروءاً ولم يغيّر، فالذي غيّر وبدّل هو طرق التعليم، فالمسلمون في أول أمرهم كانوا يدرسون كل العلوم أو يجيزون دراستها، ولما منعوها صاروا كأنهم أخفوا بعض الكتاب وأظهروا بعضاً. ألا ترى أنك تدخل المعهد الديني فلا تسمع إلاّ أن المطلوب هو علم الفقه وعلم التوحيد، ولا يقرؤون للطالب جمال

الطبيعة والفلك، ولا يذكرونه بأن العلوم جميعها فروض كفايات ويوزعونها على الأفراد. أليس مثل إخفاء القرآن تماماً، بل هذا هو المقصود من الإخفاء. لهذا جيء بهذه الآية بين العلوم الفلكية والعلوم الطبيعية تنبيهاً للمسلمين.

إننا ورثنا عن أسلافنا الأقربين علماً ناقصاً، وتركنا أهمّ العلوم فكأننا نبدي بعض الكتاب وهو الفقه، ونخفي كثيراً وهي العلوم الحكمية التي لها (٧٥٠) آية بخلاف الفقه الذي له ما لا يزيد عن (١٥٠) آية. فتعجب من عجائب القرآن. هذا، ولما ترك المسلمون هذه العلوم رأينا وعلمنا أن كل طالب علم ارتقى عن الوسط الإسلامي في الشرق والغرب نزل الإسلام في عينه عن مكانته، كما سمعت ذلك من جميع طبقات المسلمين.

قال لي أحد علماء الصين: إن أبناء الأغنياء المسلمين بعد رجوعهم من أوروبا ينظرون إلى دين الإسلام نظرهم لمستصغر الأشياء وأدناها درجة، لعلمهم أنه لا يخرج عن الوضوء والطلاق وعقد العقود. هذا كلامه، وقال: إن هناك سبعين مليوناً من المسلمين. قد رأينا آثار قصة الخليل في الأمم السابقة فأين آثارها في الإسلام؟.

قد قلت لك قد عثرنا على طريقة تعليم القدماء قبل المسيح بأربعة قرون، وكيفية البحث في العالم العلوي والعروج إلى الكمال في كتاب «جمهورية أفلاطون»، وقد رأينا فيها أنه انتقل من العالم العنصري إلى العالم الفلكي، وجعل أصل المجد هناك، ثم جعل العلم الرياضي كالحساب والهندسة والجبر هي محور العالم الإنساني، وأن الأعداد وأعمالها أقرب إلى عالم المجردات، فالفكر يصعد بها إلى العدل والجمال والخلوص من شقاء المادة وجهلها، وكذلك أوجب الرياضة الجسمية إيجاباً عظيماً، وحتم على كل رجال الجيش ورجال الحكومة أن يكونوا في علم الرياضة بارعين وفي الحساب مدققين، وأكّد تأكيداً أكثر في أمراء الأمة من الملوك والوزراء وأمثالهم، فأوجب عليهم تعلم الرياضيات العقلية أكثر من قوّاد الجيوش وهكذا.

هذه المباحث كانت تقال قبل المسيح، وبعضها يكاد يكون كتعليم الخليل كما تقدّم. فماذا استنبط المسلمون من قصص الخليل ونظره في النجوم ومن قصص سائر الأنبياء؟ نعم، قد اكتفوا بأن نبينا صلى الله عليه وسلم فعل بالأصنام ما فعله الخليل وكسرها، وقال آمنوا بالله فآمنا وانتهى الأمر، وأصبح القرآن يتلى للعبادة. أما التفكر فأصبح في كتب الفقه، وكتب أصول الفقه، وكتب علوم التوحيد، وغاب عن الناس إشراق شمس الذات المحمدية، والعلوم الكونية، والأنوار القدسية، والنجوم السماوية، والأنوار الخليلية، فعظمت البلية، وقتلتنا الأمم الغربية، كل ذلك حاصل ولكن الناس لا يتذكرون، يحسون به ولكنهم لا يشعرون، يعذبون ولكنهم لا يتوبون. يا ليت شعري أرضيَ المسلمون بذلك فناموا، أم السكرة أحاطت بالفكرة فأصبحوا خامدين؟ لقد جاء وقتكم وأقبل سعدكم وأمر ربكم أنكم إلى طريق السعادة سائرون، وإلى مقام الرشد مهتدون.

قال صاحبي: فاذكر نبذة من جمال الفلك، تكون تبصرة للقارئين، وذكرى للذاكرين، لمناسبة قصة الخليل، واقتداء النبي صلى الله عليه وسلم به في نظره الجميل، امتثالاً للأمر بالاقتداء، على شريطة أن لا يكون مما ذكرته في هذا الكتاب.

سأذكر لك نبذة في الفلك قريباً، وعند قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[الأنعام: ٩٧] وشيئاً من أبعاد الكواكب وعددها، وأكتفي هنا الآن بذكر مسألة تختص بهذا النظام الشمسي، فأقول: اعلم أن الأرض تدور حول الشمس، وكذلك السيارات، ثم القمر يدور حول الأرض، كل ذلك في مدارات متشابهة، ويسمى كل منها «الشكل الإهليلجي»، فإذا رأينا الربيع والخريف والصيف والشتاء فإن ذلك حاصل من سير الأرض حول الشمس، وهذا المدار تعرفه بأن تذهب إلى الحدائق وفيها أشكال ذات أزهار منتظمة الوضع بطرق هندسية يعقلها البستانيون. وطريق ذلك أن يضعوا في الحديقة وتدين في الأرض وبينهما بعد يعيّنونه على حسب المصلحة والنظام المطلوب، ثم يأتون بحبل أطول من ضعف المسافة بين الوتدين، ثم يربطون طرفيه فيصير مقفلاً، ويأتون بخشبة ويضعونها على ذلك الحبل من الداخل ويجذبونها إلى الخارج، ويدورون حول الوتدين فيرسمون بذلك شكلاً تاماً، وهذا هو «الشكل الإهليلجي»، فتراه كدائرة مستطيلة، وتراه في البساتين المحيطة بالقاهرة بديارنا المصرية، وقد ألهم الله رجال البساتين أن يصنعوا هذا الشكل، حتى إذا جاء من لم يمارس علم الفلك واطلع عليها وقد قرأ هذا الكلام، أدرك أن هذا هو مدار السيارات حول الشمس، ومدار القمر حول الأرض، وموضع الوتدين في ذلك الشكل يسميان «البؤرتين» أو «نقطتي الاحتراق» أو «المحترقين»، وترى الشمس دائماً بالنسبة للأرض وللسيارات في إحدى البؤرتين، والأرض والسيارات جاريات على هذا الشكل، وكذلك الأرض بالنسبة للقمر الدائر حولها، أي أنها في إحدى البؤرتين دائماً.

كيف قصر المسلمون ونبغ الغربيون في القرون الأخيرة وفلاسفتهم الأقدمون تلاميذ علماء الإسلام بالأندلس كما هم به معترفون

لقد ذكر العلاّمة «سديو» الفرنسي الذي ألف كتاب «تاريخ الأمة العربية» أن علماء أوروبا في القرن الرابع عشر والخامس عشر المسيحي قد ادّعوا أنهم كشفوا مسائل في الفلك والطبيعة، وهم في ذلك كاذبون سارقون وأثبت تلك السرقة بعشرة أدلة، مثل أن أوروبا لم يكن بها مراصد في ذلك الزمان وإنّما كانت في ديار الإسلام، ومثل أن بعض المسائل المكشوفة وجدت في كتب عربية بعد الكشف تاريخ تأليفها قبله بقرون، وهكذا الخ.

أقول فهؤلاء الأوروبيون الذين هم تلاميذ آبائنا كما ذكره العلاّمة «سديو» القائل إنهم كانوا تلاميذ المسلمين بالأندلس الخ، قد أصبحوا اليوم أرقى من المسلمين في جميع العلوم، والمسلمون نائمون خامدون جاهلون، ولأذكر لك آخر ما يصنعون بالفلك وهو:

عجيبتان

الأولى: منظار للبحث في القمر، الثانية: خريطة السماوات

أما الأولى وهي منظار القمر فذلك أنه في هذه السنة أي سنة ١٩٢٦ يصنع في باريس منظار «تيلسكوب» يزيد حجمه عن ضعف أيّ منظار فلكي في العالم حتى اليوم، ويؤمل أن يرى بواسطته الكواكب التي لا تشاهد الآن على مسافة خمسة عشر ألف مرة منها، وهذا المنظار يقيمه الآن العالم

الفلكي الأمريكي «جورج رتشي»، وسير القمر بواسطته على بعد عشرة أميال فقط، وهكذا يتضاعف أمام النظر الكون المرئي مليوناً وخمسمائة ألف مرة في الحجم، ويقولون إنه مستعد للعمل في صيف هذه السنة.

أما العجيبة الثانية وهي خريطة السماوات، فاعلم أنه قد اشترك ١٨ مرصداً في عمل هذه الخريطة، وابتداء العمل كان في سنة ١٨٨٧ وسيستغرق ٧٥ عاماً، وقد أتم ثلاث مراصد للعمل الآن وهي مراصد الكاب في جنوب أفريقيا وجرينوتش وأكسفورد في إنكلترا، وقد بلغت تكاليف الخريطة حتى الآن مليوناً من الجنيهات، وستحتوي على قسمين مختلفين عند تمامها؛ أحدهما صورة تخطيطية عامة، والآخر الأسماء والأوصاف والمقاسات لما يقرب من نصف مليون كوكب، وعلى كل مرصد أن يأخذ ألفاً ومائتي لوحة تصويرية مرتين، وعلى كل لوحة ما يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة كوكب يقاس كل منها ويقيد بأصوله ويبلغ ما يخص كل مرصد عندئذ نصف مليون من الكواكب. اهـ من الجرائد الإنجليزية في هذه الأيام.

هذا عمل أوروبا، وهذا هو الذي يرمي إليه الخليل عليه السلام ومقصد القرآن. هذا هو الذي يطلبه الإسلام. كان هذا واجباً على المسلمين وجوباً كفائياً.

إن هذه الصور السماوية التي يأخذها الأوروبيون نافعة من الوجهة العلمية والتوحيد، ومن جهة ارتقاء النفوس، ومن جهة التجارة، فإن كثرة المعارف السماوية الكوكبية تسهل طرق الملاحة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

قطرة من بحر ملكوت السماوات والأرض الذي أراه الله لإبراهيم عليه السلام والكلام على الكوكب والقمر والشمس المذكورات في هذه القصة

الكواكب على قسمين: ثوابت وسيارات، أما الثوابت فهي أكثر التي نراها في السماء كل ليلة، وهي تبلغ مئات الملايين بالمناظير المعظمة، وقد ذكرنا هذا في مواضع من هذا التفسير.

ونريد الآن أن نبيّن أن القدماء قد قسموها إلى عدة صور. والمنقول عن بطليموس أن تلك الصور (٤٨) صورة، منها ٢١ في الشمال، و١٥ في الجنوب، و١٢ في الجزء المتوسط بالقرب من دائرة المعدّل، ويشتمل مجموع هذه الثمان والأربعين صورة على ١٠٢٩ نجمة عند القدماء، منها ٣٦١ للصور الشمالية، و٣١٨ للصور الجنوبية، و٣٥٠ للصور المنطقية، والاثنتا عشرة صورة المنطقية هي المنازل المعروفة، وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، والإحدى والعشرون الشمالية منها الدب الأصغر أو بنات نعش الصغرى والدب الأكبر والثعبان والملتهب والعوّاء والجاثي على ركبتيه والمرأة المسلسلة، والخمس عشرة صورة الجنوبية منها: قيطس، الجبار، نهر الأردن، الأرنب، الكلب الأصغر، الكلب الأكبر، السفينة، الشجاع الكاس، الغراب، المجمرة، سنطورس الخ. وقد جعلوا هذه النجوم أقداراً فأضوؤها القدر الأول ويليه الثاني وهكذا. والمتأخرون حافظوا على هذا التقسيم، ولكنهم رأوا أن النجوم أكثر حتى جعلوها ستة آلاف نجمة لذوي الأبصار الحادة، ومئات الملايين بالآلات الراسمة كما تقدم إيضاحه في سورة البقرة، ومن هذه الثوابت الآتي:

(١) النجوم المتغيرة فلا يحفظ ضوءها شدة واحدة، وهذا التغير فيها إما لمدة معلومة وإما ليس يعلم له دور.

(٢) ومنها النجوم الوقتية الجديدة فقد تظهر نجوم في محالّ من السماء لم ير فيها نجوم من قبل ثم تختفي، مثل النجمة المشهورة التي رصدوها سنة ١٥٧٢ في وسط ذات الكرسي، فكانت أضوأ كوكب في السماء، ثم أخذت تنقص تدريجاً، ثم اختفت بعد ١٧ شهراً.

(٣) ومنها النجوم التي ظهرت ثم بقيت، مثل نجمة ظهرت في صورة الإكليل الشمالي سنة ١٨٦٦ ظهرت كلؤلؤة ثم ضعفت، ولا تزال إلى الآن ولكن ترى بالمناظير.

(٤) ومنها النجوم التي اختفت ولم ترجع.

(٥) ومنها النجوم المزدوجة، إذ بعض النجوم التي نراها واحدة بالعين تكون في الواقع نجمتين، وقد عدّوا منها ٧٠٠ مجموعة إلى الآن.

(٦) ومنها النجوم المضاعفة بأن تكون النجمة واحدة بنظر العين، ولكنها تكون ثلاثاً أو أربع شموس بالمنظار، ومنها نجمة من الجبار مركبة من ست شموس.

(٧) ومنها القنوان والسدام، فالقنوان جمع قنو مثل صورة الثريا الموضوعة في صورة الثور، وهي مركبة من ٨٠ نجمة، و٦ منها ترى بالعين. والسدام جمع سديم، وهو الضباب الرقيق، وعند الفلكيين نجوم صغيرة القدر جداً متقاربة، حتى ترى كأنها سحابة أو ضباب أو قطعة نيرة سحابية لا تحلّ إلى نجوم مفردة بالنظارات القوية. وملخص هذا النوع ثلاثة أقسام، فإن أمكن حله بالنظارات سمي مجموعة كوكبية مثل «قنوتوكان» وهذا في قسم السماء الجنوبي ويرى دائماً بالعين العادية، وإن أمكن حل البعض منها فإنها ترى على هيئة شكل منتظم كثيراً أو قليلاً، وإن لم يمكن حلها أصلاً فشكلها الذي يرى يكون غير منتظم.

(٨) ومنها طريق التبانة؛ أو المجرة، وهي منطقة ضيقة بيضاء، يراها الناس جميعاً في الليالي الصافية، تقسم الكرة السماوية إلى قسمين متساويين تقريباً، ولا تقلّ النجوم التي فيها عن ١٨ مليون نجمة، ولبعد هذه النجوم ترى كأنها لبن أو تبن، هذه هي النجوم الثابتة.

أما السيارات فإنها قليلة جداً، والفرق بينها وبين الثوابت: أن الأولى ضوؤها هادئ ساكن، وأن الثانية متلألئة الضوء وتظهر كأنها نقط مضيئة قطرها الظاهري صغير جداً بحيث لا يمكن قياسه، ولبعض السيارات أشكال كأشكال القمر، وقد لاحظ الناس قديماً أن بعض النجوم لها حال خاصّة؛ مثلاً يرون في ليلة ما أن كوكباً من هذه الكواكب ظهر بجوار نجم ثابت، وفي الليلة الثانية يرون أنه قد تأخر قليلاً إلى الشرق، وهكذا كل ليلة، ولا زالوا يراقبون كوكباً فكوكباً حتى عرفوا هذه الكواكب على هذا الوصف وهي: عطارد والزهراء والمريخ والمشتري وزحل، وأضافوا إلى هذه الخمسة القمر والشمس.

ولما رأى علماء العصر الحاضر أن الشمس مركز العالم وأن القمر يدور حول الأرض وأن الأرض تدور حول الشمس، بعكس ما كان يظنه الأقدمون أن الأرض مركز العالم؛ والشمس والقمر وغيرهما يدرن حولها. أقول: لما عرفوا ذلك لم يعتبروا الشمس ولا القمر من السيارات، بل جعلوا

الأرض سياراً كأخواتها الخمس المذكورات، وزادوا عليها ما كشف سنة ١٧٨١ وهو «أورانوس» وما كشف سنة ١٨٤٦ وهو «نبتون»، فتكون السيارات إذن ثمانياً والأرض منها، وكل هذه السيارات تتم دورتها حول الشمس في أزمان غير متساوية وغير متغيرة. وقد وجدوا أنه كما أن للأرض قمراً فللمريخ قمران وللمشتري ولأورانوس لكل منهما أربعة أقمار، ولزحل ثمانية ولنبتون واحد كالأرض، وترى للزهراء ابتعاداً عن الشمس بعد غروبها، ولا تزال تبتعد ليلة فليلة بحركة تسمى طردية إلى أن تبلغ ٤٨ درجة تقريباً يراها جميع الناس مساء، وكان يسميها الأقدمون «نجمة الليل»، ثم تكرّ راجعة بحسب مرأى العين حتى تختفي ثانياً تحت أشعة الشمس، وبعد أيام قليلة تظهر قبل شروق الشمس وتسمى «نجمة الصبح»، وهذه تسمى حركة تقهقرية لأنها من الشرق إلى الغرب حتى تبلغ ٤٨ درجة، ثم تصير حركتها طردية ثانياً؛ أعني من المغرب إلى المشرق وتدخل تحت أشعة الشمس، وهذا كله بحسب الظاهر. وإلاّ فإن الحقيقة أن لا رجوع ولا وقوف، وإنّما ذلك بسبب النظر الظاهري الذي يحصل بسبب دوران الكوكب في مداره كما هو معروف في محله بالبرهان. وبهذا تفهم قول الشاعر:

وللنجم من بعد الرجوع استقامة وللشمس من بعد الغروب طلوع

وهذه الظواهر التي تراها بعينك للزهراء تراها أيضاً لعطارد الذي هو وهي سياران سفليان، وإنّما يتباعد هو ٢٣ درجة فقط، ومدة الدورة الاقترانية للزهراء ٥٨٤ يوماً، ولعطارد ١١٦ يوماً، وأما المريخ فإنه يبتعد إلى ١٨٠ درجة، فله ولسائر الكواكب العليا اجتماع واستقبال كالقمر، أما الزهراء وعطارد فليس لهما إلاّ الاجتماع، أما الاستقبال فهو مستحيل إذ الاستقبال لا يكون إلاّ بالمقابلة على بعد ١٨٠ درجة، وهذان لا يتعدان إلاّ إلى ٢٣ درجة لأحدهما و٤٨ درجة للثاني، فكيف يكون استقبال كاستقبال القمر، وللمريخ حركة طردية وتقهقرية بحساب أوسع مما تقدّم.

هذا بيان وصف السيارات

عطارد

أقرب السيارات إلى الشمس يتم دورته في ٨٨ يوماً تقريباً، وترى الشمس فيه أكبر سبع مرات مما ترى من الأرض، وشدة ضوئها وحرارتها تكون أكبر سبع مرات أيضاً منهما على الأرض، وله أشكال كأشكال القمر.

الزهراء

الشمس ترى فيها أكبر مما ترى من الأرض مرتين تقريباً، وكذا الحرارة والضوء، وحجم عطارد صغير جداً، أما حجم الزهراء فإنه يقرب من حجم الأرض وأيام دورتها ٢٢٥ يوماً تقريباً.

الأرض

محيط الأرض يبلغ ٤٠ مليون متر، ونصف قطر خط الاستواء ٦,٣٧٨,٤٠٠ متر.

أعلى الجبال المعروفة لا يزيد ارتفاعه عن سطح البحر عن ٩٠٠٠ متر، وهو جزء من سبعمائة جزء من نصف قطر الأرض، وإذا رسم على كرة قطرها متر لا يزيد ارتفاع أعلى الجبال كجبال هملايا عن السطح العمومي بأكثر من مليمتر ونصف «٤٠١» مليمتر.

العمق المتوسط للبحار ٦٠٠ متر.

نهاية عمق البحار ١٠,٠٠٠ متر. السطح الكلي للأرض يبلغ ٥٠٩ مليون كيلومتر مربع.

مياه البحار تشغل منه ٣٨٣,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتراً مربعاً. اليابسة ١٢٦ مليون متراً مربعاً.

حجم الأرض يزيد عن ألف مليار كيلو متر مكعب ١,٠٧٩,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ أي أكثر من ألف ألف ألف ألف كيلو متر مكعب. سمك الجو قدره ٤٨,٠٠٠ متراً.

مدة دورة الأرض حول الشمس ٣٦٥ يوماً و٢٥٦ جزءاً من ألف جزء من اليوم.

بعد الأرض عن الشمس يساوي ٢٨,٠٠٠,٠٠٠ فرسخاً تقريباً أو ٩٢ مليون ميل تقريباً، ويقطع الضوء المسافة المذكورة في ثمان دقائق و١٨ ثانية، والقطار السريع في ٣٥٠ سنة تقريباً، وقلة المدفع في ١٢ سنة تقريباً.

المريخ

السيار الذي يلي الزهراء بالنسبة للشمس هو الأرض، وقد تقدم الكلام عليها، والذي يليها هو المريخ، وبعده المتوسط عن الشمس قدر بعد الأرض عنها مرة ونصف مرة، ومقداره ٢٢٥ مليون كيلومتراً، ويرى قرص المريخ من الأرض ذا أشكال ولا يظهر وقت البدر كامل الاستدارة، بل يشبه قرص القمر قبل أو بعد البدر بيومين أو ثلاثة.

حجم المريخ يبلغ نحو سدس حجم الأرض ٠,١٤٧، ويظن أن فيه بحاراً وقارات وسحباً وقطبين يخيم عليهما الثلج ويتراكم ويمتد شتاء هناك ويقل امتداده في صيف المريخ فهو في هذا كالأرض. وقد كشف قمراه سنة ١٨٧٧ وهما «فوبوس» و«ديموس» وأولهما أقرب إليه من ثانيهما، وسنة المريخ ٦٨٦ يوماً و٩٨٠ جزءاً من ألف جزء من اليوم.

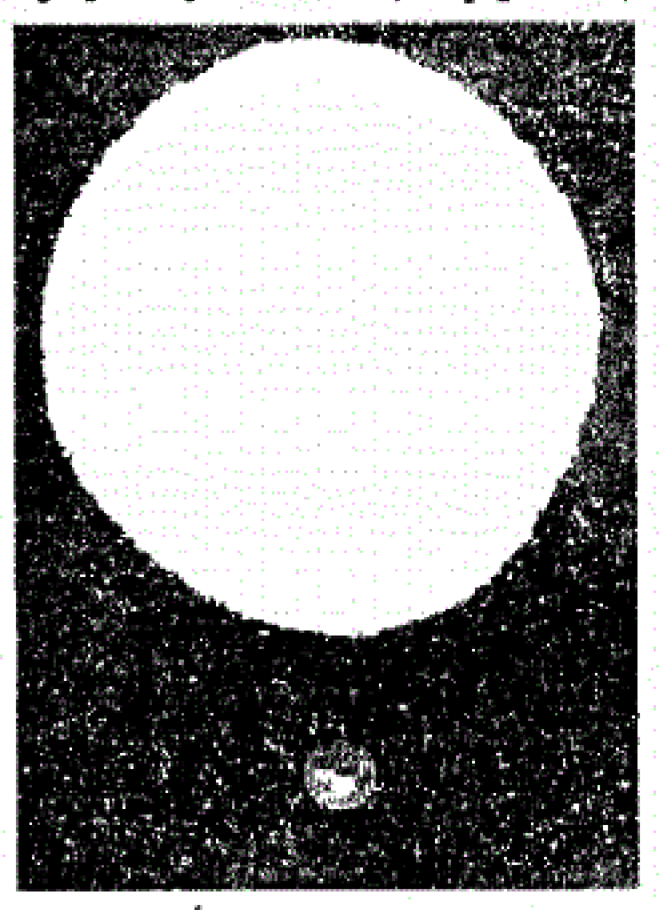
المشتري ــ أبعاده

هو أكبر جميع السيارات وحجمه قدر حجم الأرض ١٣٠٠ مرة، وقطره يساوي ١٤٠,٠٠٠ كيلومتراً، فهو قدر خط الاستواء الأرضي ١١ مرة، وبعده عن الشمس في المتوسط ٧٧٠ مليون كيلومتراً.

انظر صورة المشتري والأرض في شكل (١).

سنة المشتري تعادل ١٢ سنة من السنين الأرضية، له جوّ يظن أنه سميك جداً، وفيه كتل سحابية تحملها رياح كما في الأرض وهي منتظمة انتظامها.

وللمشتري أربعة أقمار ولها كسوف كما في قمرنا، وقد عيّن العلماء مدد دورات الأقمار وأبعادها بالفراسخ وأنصاف أقطارها، كما فعلوا في أرضنا وقمرنا، وسموا تلك الأقمار بأسماء منها «يو» و«جالليستو» الخ. هذا ما كنا تعلمناه من أستاذنا المرحوم حسن أفندي حسني منذ ٣٦ سنة، ونقلته من كتابه الذي تلقيناه بدار العلوم، ولكن الآن بلغت أقماره التي كشفها الناس ٩ أقمار وآخرها كشف قبيل سنة ١٩٢٠.



شكل (١) المشتري والأرض

زحل

امتاز زحل بأن له حلقات منفصلة عن الكرة وتدور حوله في خط استوائه، والبعد المتوسط لزحل عن الشمس قدر بعد الأرض عنها تسع مرات ونصف، أعني ١٤٠٠ مليون كيلومتراً تقريباً، ويقطع مداره في ١٠,٧٥٩ يوماً أعني ٢٩ سنة ونصفاً تقريباً، وحجم زحل قدر حجم الأرض الذي عرفته ٧١٨ مرة، وقطره ٩,٢٩٩ بأخذ نصف قطر الأرض وحده، وفصول زحل مشابهة لفصول أرضنا، وكل فصل تزيد مدته عن سبع سنين من السنين الأرضية.

مجموعة حلقات زحل

هي ثلاث حلقات سمكها رقيق جداً وعروضها غير متساوية، والحلقة الخارجة مفصولة عن المتوسطة بفراغ، وأما الحلقة الداخلة التي هي أقرب إلى السيار فيظهر أنها ملاصقة للثانية، والوسطى ألمع الثلاثة وأكثر استضاءة من كرة زحل، والحلقة الخارجة لونها سنجابي مثل الأحزمة المعتمة من القرص تقريباً، وكلا هاتين الحلقتين مظلمتان وتحذفان على زحل ظلاً ظاهراً جداً. ومجموع عروض هذه الحلقات ٦٠٠٠٠ كيلومتراً تقريباً.

أقمار زحل

هي ثمانية، وقد سماها العلماء بأسماء مثل «سيماس» و«ديوني» و«ريا» الخ، وعينوا مدة دوراتها وأبعادها بالكيلومتر وأنصاف أقطارها، وقالوا: إن أكبرها هو المسمى «تيتان»، فحجمه قدر حجم قمرنا ثلاث مرات وهو أضوؤها. هذا ما تلقيناه من أستاذنا المرحوم حسن أفندي حسني، ثم كشف بعد ذلك قمران؛ أحدهما سنة ١٨٩٨، والثاني سنة ١٩٠٤ كشفهما عالم أمريكي، وأغرب هذه الأقمار العشرة القمر التاسع، فإن الأقمار كلها تدور حول الكوكب من الغرب إلى الشرق، ولكن هذا يدور من الشرق إلى الغرب. انظر شكل (٢) زحل والأرض.



شكل (٢) زحل والأرض

أورانوس

قد كشف سنة ١٧٨١ كشفه «هرشل» والمسلمون نائمون مختلفون، حجم أورانوس قدر حجم الأرض ٦٩ مرة، بعده المتوسط عن الشمس ٦٧٥ مليون فرسخ، ودورته ٨٤ سنة تقريباً أو ٣٠٦٨٧ يوماً بالضبط، وله أربعة أقمار وقد سماها العلماء وبينوها بالمساحات ومعرفة الأبعاد ومدة الدورات، مثل قولهم «أوترون» و«أريل» وهكذا.

السيار نبتون

هو لا يتمّ دورته حول الشمس في أقل من ١٢٥ سنة تقريباً، ولا يمكن أن يرى بالعين المجردة، وقطره يساوي ٣،٨ إذا أخذ قطر الأرض وحده، وحجمه قدر حجم الأرض ٥٥ مرة تقريباً، وله تابع واحد يتمّ دورته حوله في خمسة أيام وإحدى وعشرين ساعة وهو قمره.

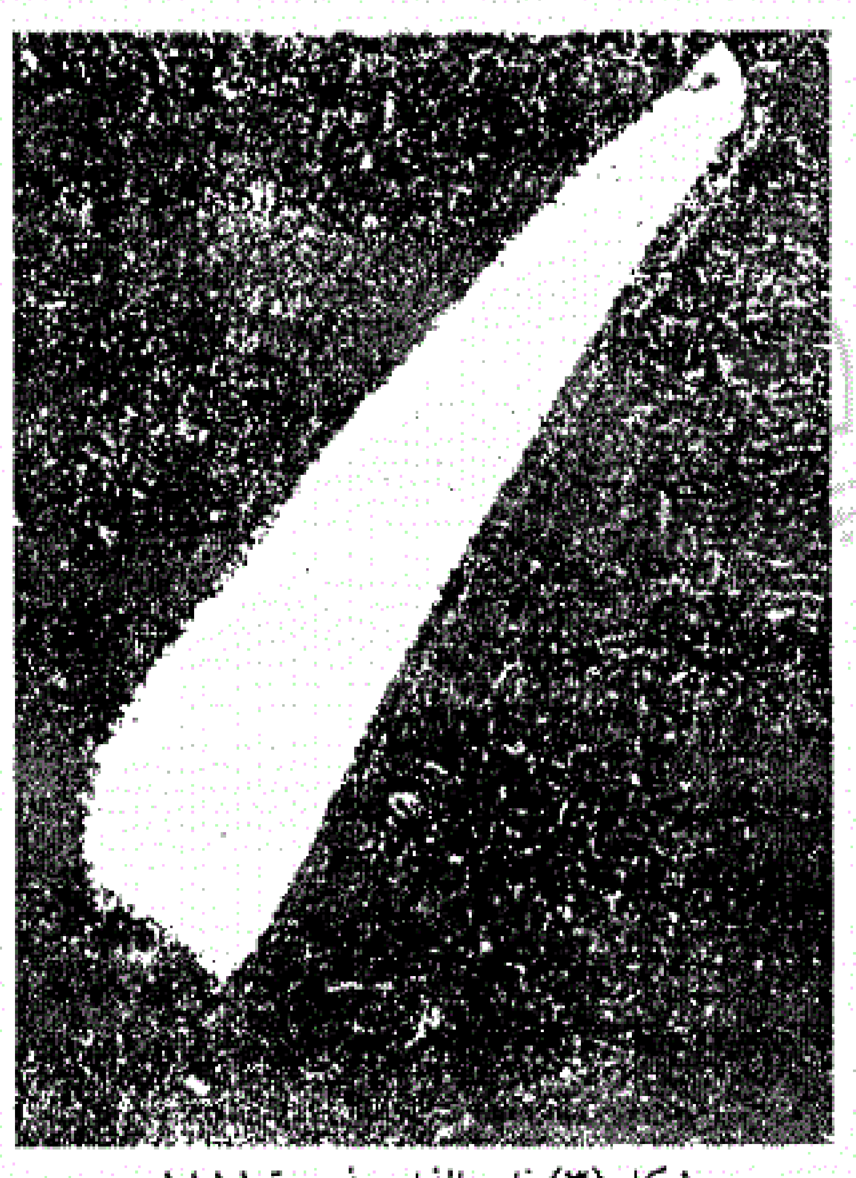
سيارات صغيرة

هناك منطقة بين المريخ والمشتري رأوا فيها كواكب صغيرة جداً كأنها كانت كوكباً مثل المشتري أو نحوه، ثم تحطم وهذه شظاياه وقطعه، فهي تدور في مداره بين الكوكبين، وهناك ذوات الأذناب المسماة عند القدماء بذوات الشعور وهي عدد عظيم من الكواكب التي تتحرك حول الشمس، ولها أذناب كأنها سحابات مستضيئات، وقد شوهدت نجوم ذات ذنبين بل أكثر، وذوات الأذناب تزيد عن ٨٠٠ وبزيادة الكشف الحديث يحتمل أن تعدّ بالملايين في المستقبل، وقال «كبلير»: إن عدد ذوات الأذناب كعدد سمك البحار.

ومن ذوات الأذناب ما علم أن مدة دورتها حول الشمس تعدّ بألوف السنين أو بمئات الألوف منها، ومنها ما يؤمّل رجوعها عن قريب. ومن المعروفة جداً المذنّب المسمى «هالي» ومدة دورتها ٧٦ سنة تقريباً حول الشمس، ومنها ذات الذنب «انك» ومدّتها ٣ سنين و٣١٠ أيام.

وهناك ذوات أذناب قال الفلكيون برجوعها ولم ترجع، وقد ظهرت في الجيل التاسع عشر ذوات أذناب لامعة لمعاناً شديداً، وأشهرها التي ظهرت سنة ١٨١١ وقد أثرت تأثيراً غريباً عجيباً، وهي لا ترجع إلاّ بعد ثلاثة آلاف سنة.

انظر شكل (٣) مذنب سنة ١٨١١ الذي سيرجع بعد ٣٠ قرناً.



شكل (٣) ذات الذنب في سنة ١٨١١

وذات الذنب التي ظهرت سنة ١٨٤٥ هي ألمع جميع ما رؤي من ذوات الأذناب، حتى إن قلبها وجزءاً من ذنبها كان يرى في النهار، وهي قريبة من الناظر إليها، وضوء ذوات الأذناب من انعكاس ضوء الشمس.

الشهب الحجارة الجوّية

يرى الناس في أكثر الليالي ما يشبه شعلاً نارية تمر بسرعة في الجو ترسم منحنياً مستضيئاً وتختفي

بسرعة بعد بضع ثوان وتسمى نجوماً ساقطة وشهباً، وما هي إلاّ أجسام صغيرة جداً تجري حول الشمس كما تجري ذوات الأذناب والسيارات الكبيرة والصغيرة، فمتى قابلت الجو الأرضي سخنت بمقابلة الهواء لها حتى تصير لامعة من الاحتراق، ويرى وراءها ذيل مضيء ناشئ من احتراقها، ويرى ثواني أو دقائق ثم يختفي. وقد تكثر تلك الأجسام في بعض الليالي مثل العاشر من شهر أغسطس ونحوه، والكرات النارية كالشهب غير أن حركتها بطيئة، وتحدث فرقعة بالقرب من الأرض، وما وقع منها على الأرض يسمى الحجارة الجويّة، والكرات النارية قليلة. إلى هنا انتهى الكلام على السيارات وذوات الأذناب والشهب والحجارة الجوّية والكرات النارية، وإني أحمد الله عزّ وجلّ الذي ألهم وعلم وسهل حتى اختصرت المقام اختصاراً، وأحضرت بعونه تعالى بين يديك بعض ملكوت السماوات والأرض لتكون من الموقنين، فوالله لهذا أنزل القرآن دالاً على هذا.

فيا ليت شعري، ما هذا الكون الشاسع، وما هذه السيارات الجميلة والأقمار الباهرة والأبعاد الكبيرة والأنوار الساحرة وذوات الأذناب التي لا ترجع والتي ترجع بعد آلاف السنين، وكيف كانت شمسنا لها هذه الحاشية العظيمة المختلفة الأقدار والأبعاد والأشكال والأزياء والملابس والأعمال، فمن زحل والمشتري العظيمي الحجم إلى شهب لا تعدو الواحدة منها قدر البلاطة. كل هذه تجري حول شمسنا كما تجري أرضنا. وبهذا انتهى الكلام على لفظ كوكب المذكور في الآية.

الكلام على القمر المذكور في الآية

تقدم في هذا التفسير حساب السنين القمرية، وذلك في آخر آل عمران، ومعرفة السنين الكبيسة والبسيطة فلا نعيده، وذلك من أجل سير القمر. سطح القمر يساوي واحداً من ١٤ من سطح الأرض تقريباً، وحجمه يساوي واحداً من خمسين من حجمها تقريباً، والبعد المتوسط لمركز القمر عن مركز الأرض يساوي نصف قطر خط الاستواء الأرضي٦٠,٢٧٣ مرة.

للقمر ٢٢ جبلاً ارتفاعها يزيد عن ٤٨٠٠ متر وهو ارتفاع الجبل الأبيض، وقد سماها العلماء بأسماء وقاسوها بالأمتار مثل ارتفاع جبل «دورفيل» وهو ٧٦٠٣ أمتار. وتلك الجبال صفاتها بركانية بالكلية ولها من أعلاها فوّهات مستديرة قطرها يبلغ ١٥ فرسخاً، وعمق التجاويف يزيد عن الارتفاع الخارجي، وقد يصل الفرق إلى ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ متر، وليس للقمر جوّ وماء على سطحه.

وعرفوا هذا بكسوف النجوم التي تمر خلف الحافة المظلمة بقرص القمر، فإنها تنطفئ بغتة فلا يحصل فيها نقص تدريجي بسبب غاز يحيط به، وإذا انتفى هذا فلا يكون هناك بخار ولا نوع من السوائل، وكيف يكون هناك ماء والماء لا يحفظه من الانطلاق في الجو على هيئة بخار مرة واحدة إلاّ ضغط الجو الهوائي، فإذا لم يكن جوّ ذهب الماء حالاً، فإذن لا يمكن أن يكون هناك نبات ولا حيوان، فالغالب على الظنّ أن القمر غير مسكون. انتهى الكلام على القمر.

الكلام على الشمس وهي الثالثة في الآية

نصف قطر الشمس ٦٩٢٠٠٠ كيلومتراً، وسطحها قدر سطح الأرض فيما تقدّم ١١٨٠٠مرة، وحجمها قدر حجم الأرض ١,٢٨٠,٠٠٠ مرة، وبعدها عن الأرض قد تقدم هناك.

ضوء الشمس كما قال «أراجوا» أشد من ضوء ١٥,٠٠٠ شمعة، وهو قدر ضوء البدر

٣٠٠,٠٠٠مرة ، ورأى «والستون» أنه بقدر ٨٠٠,٠٠٠ أي إنه يلزم ثلاثمائة ألف أو ثمانمائة ألف بدر في السماء لإحداث نهار مضيء كنهار الشمس في وقت صحو.

لطيفة

وهاهنا عجب عجاب ، فنقول : إن مسألة الأنوار ذات حكمة عالية ترينا اختلافاً باهراً ، فبينما نرى الكواكب في السماء وهي تبلغ نحو ستة آلاف أو أقل أو أكثر نرى بالعين المجردة وكل منها له نور لامع ، ومع ذلك لا تضيء لنا الطرق والمسالك لضعف ضوئها الواصل إلى أرضنا ؛ فالنجمة الواحدة ضوؤها جزء من ستة آلاف جزء من المجموع ، وهذا كله ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة للبدر الذي نوره جزء من ثمانمائة ألف جزء من نور الشمس ، ونور الشمس جزء من ثمانية آلاف جزء من نور السماك الرامح كما نص عليه اللورد «افبري» ، والسماك الرامح وراءه كوكب أضوأ منه ، وهذا غاية العجب أن يكون ضوء الكواكب الواصل إلينا جزءاً من مئات الآلاف من ضوء البدر ، وهو جزء من مئات الآلاف من ضوء الشمس ، وهو جزء من آلاف من ضوء كوكب آخر يبعد عنا مائتي سنة بسير النور ، وهو السماك الرامح كما تقدم ، فإذن اختلاف الأنوار المشاهدة يفوق التصوّر ، فإن نسبة البدر إلى السماك الرامح : $١ : \frac{٨٠٠,٠٠٠ \text{ في } ٨٠٠٠}{٦ \text{ و } ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠}$ أي جزء من ستة آلاف وأربعمائة مليون من ضوء السماك الرامح .

فصل في نسبة ضوء الشمس إلى أضواء الكواكب على حسب منظرها من الأرض

لقد علمت نسبة البدر إلى الشمس وأن أعظم مقدار له قدّره العلماء أنه جزء من ثمانمائة ألف جزء من ضوء الشمس ، أي أنه لو كان هناك ثمانمائة ألف بدر لكان ضوؤها مجتمعة يساوي ضوء الشمس . أما النجوم فإن أضوأها وألمعها كالشعرى اليمانية يحتاج ضوؤها الواصل إلينا إلى مقدار عشرة آلاف مليون مرة حتى يصل ذلك كله إلى أن يكون كضوء الشمس .

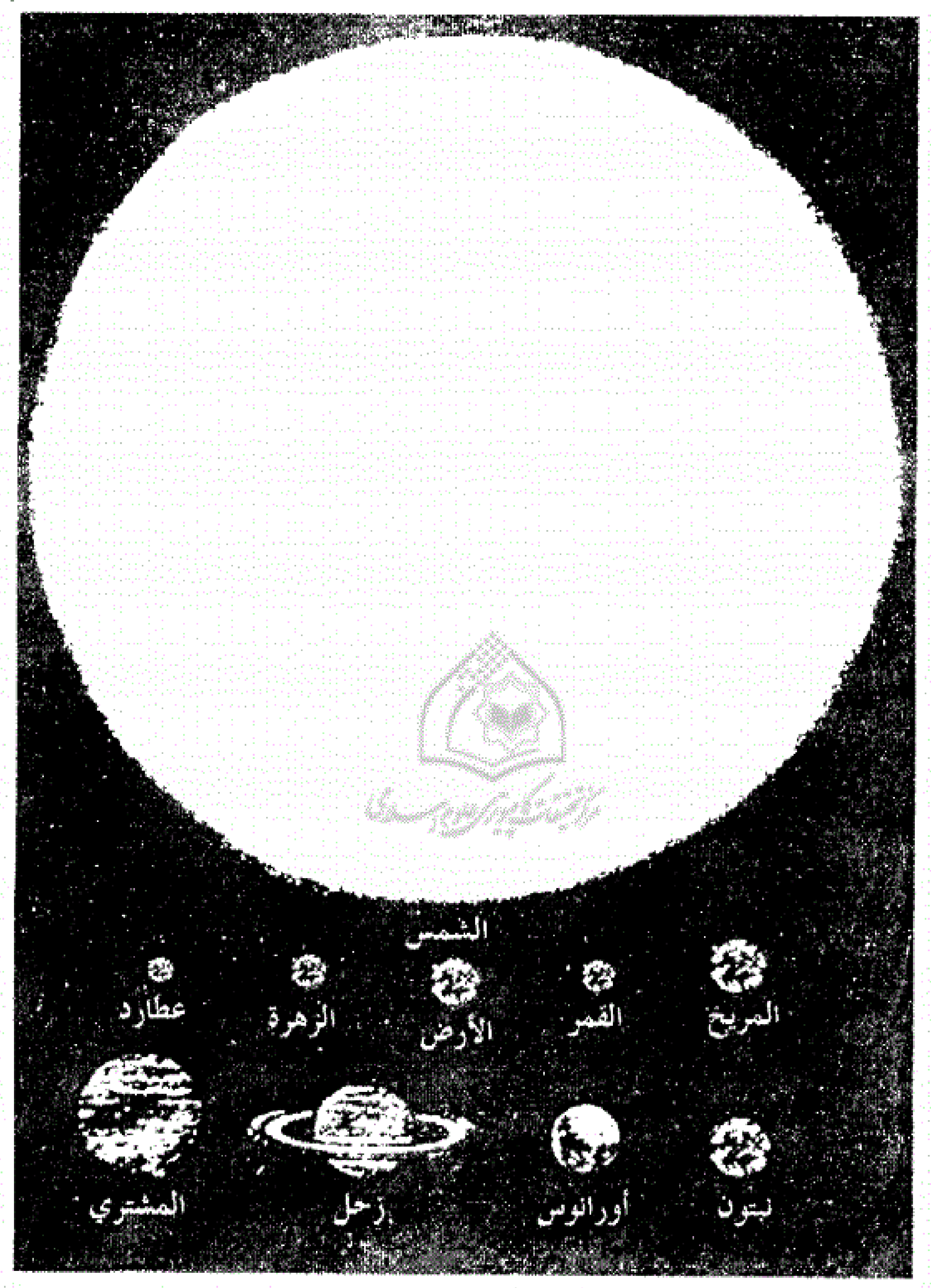
وأوسط الكواكب كالعيوق يحتاج ضوؤه إلى مضاعفته ستاً وخمسين ألف مليون مرة ، فلو أن هناك ٥٦ ألف مليون نجمة في ليلة واحدة لصار الليل نهاراً .

وأضعف الكواكب قد قيس نوره فوجد أنه لو جمع نور ٥٠٠ ألف مليون من أمثاله يساوي نور شمسنا . هذه هي المباحث التي برزت على يد العلماء في أمريكا وأوروبا التي بذلت للناس قاطبة ونحن منهم والتي بها عرفنا جمال الله وبدائع صنعه وغرائب حكمه .

مقايسة

إن اختلاف الأضواء الواصلة إلينا من شمس وقمر وكواكب دلتنا على درجات تعدّ بالملايين وألوف الملايين ، والعقل والعلم شبيهان بالنور ، فلا عجب إذا اختلفت العقول اختلاف الكواكب ، فمن الناس من عقله كالعيوق الذي هو أضوأ من نجوم ضعيفة ، ومنهم من عقله كالشعرى ، ومنهم من عقله كالقمر ، ومنهم من هو كالشمس . وإذا عرفت ذلك تفهم كيف يشبه النبي صلى الله عليه وسلم بالشمس ، وذلك لعموم تعليمه ، ولا فضل لعالم إلاّ على مقدار ما أثر في الناس فنفعهم بعلمه ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء : ٢١] .

انظر شكل (٤) المجموعة الشمسية .



شكل (٤) المجموعة الشمسية

هذا بعض ملكوت السماوات والأرض الذي يورث اليقين.

آراء صغار العلماء وجميع العامّة في أمّة الإسلام

يظنّ صغار العقول من المتعلمين والجهلاء أن نظر الخليل عليه السلام إلى الكواكب وإلى القمر وإلى الشمس بالنظر الظاهري، وعلى هذا لا يكون هناك فرق بين نظر الخليل ونظر العامّة والجهلاء، فإذن

اليقين أمر سهل، وهذا من الغرور الذي طمس على البصائر في أمتنا، فتركوا العلوم فأرسلها الله إلى أوروبا لما أغفلها وجهلها المسلمون، ألا وإن ما ذكرناه ونحوه ظواهر الملكوت، وأحوال الناس تختلف؛ فمنهم من ارتقوا وأدركوا بواطن لا يدركها إلاّ هم ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]. اهـ.

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾

يسمع المسلمون اليوم كيف أصبح القرآن يظهر تفسيره على لسان الأرواح في أوروبا، أصبح القرآن ظاهراً على ألسنة الأرواح الناطقة من عالم الغيب في أوروبا وأمريكا، في إنكلترا وألمانيا والنمسا وإيطاليا، والمسلمون نائمون هائمون لا يعلمون شيئاً، والقرآن يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، ويقول في هذه السورة: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١١٤]، والذي أراه أن هذا هو الزمان الذي ظهر فيه القرآن بالعلم الحديث، فعلم طبقات الأرض من جهة، وعلم الفلك وعلم الطبيعة كل واحد من جهة كما رأيته في هذا التفسير، ولكن من ذا كان يظن أن عالم الأرواح يخاطب البشر وبماذا يخاطبه؟ يخاطبه بنفس ما في القرآن. ومن حكمة الله أنه جعل المسلمين اليوم في مجموعهم غافلين، وأنطق الأرواح وأظهر العلوم على أيدي الغربيين وهم نصارى، حتى إذا جاء مؤلف هذا الكتاب ونقل عن الأوروبيين ما يفيد معجزات القرآن لم يتطرّق شك للعلماء في صدق المباحث، لأنها لو قالها المسلمون لقال الناس إنهم يريدون تأييد دينهم.

أما الغربي فليس يهتمّ إلاّ بالحقائق ولا يبالي بدين من أديان الأرض في جانب العلم فضلاً عن الإسلام الذي لا يدين له. فانظروا أيها المسلمون ظهور هذه الآية على لسان الأرواح.

ملخص ما نقل عن الأرواح في حال الموت في الجمعيات النفسية

إن الناس قسمان: صالحون وفاسقون، والموت إما فجائي وإما أن يتقدّمه مرض أو كبر في السنّ وضعف، فالموت الفجائي مزعج للنفس، وقالوا: إن للروح الإنسانية جسمين، جسماً لطيفاً شفافاً وجسماً أرضياً وهو المعروف، ومعنى نزع الروح أن يأخذ جسمنا الكثيف الأرضي يتخلص من الجسم اللطيف الروحي المحيط بالروح، وكلما كان الإنسان صالحاً أو مريضاً أو كبيراً في السنّ كان الانفصال أسهل، وكلما كان الإنسان أكثر ظلماً وفسوقاً وحباً للمال والولد والجاه وأمور الدنيا كان الانفصال أقسى وأقوى وأصعب.

والشهوات والذنوب أكبر الدواعي للمصائب التي تحلّ بالنفس عند النزع لا سيما الذين لا يقرّون بحياة أخرى، فأولئك يضطربون ويقاسون عذاباً لا يطاق، فإذا انفصلت الروح من الجسم وكانت مادية متكبرة جاهلة بخيلة ظالمة الخ، أحسّت بآلام لا تطاق فرأت من هم أدنى منها منزلة صاروا أعظم منزلة وأعلى مقاماً، فيحصل هناك عذاب لا يطاق، وتبقى تلك الروح محوطة بغلاف ظلماني يحجبها حتى لا يخلص إليها أحد من الأرواح العالية ليعرفها حقيقة الحياة التي وردت إليها.

وأما الروح التقية الصالحة فإنها لخفتها واستعدادها للعلا تكون عند الموت مشتاقة غير مفكرة في الدنيا بل هي فرحة مغتبطة لخلاصها من هذه الأجساد الثقيلة، فهذه تشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر؛ إذ تعاين هذه الكواكب والشموس وترى سكانها ونظامها وتطلع على جمال وبهاء وأنوار مدهشة، حتى تسكر من تلك المناظر سكراً يغمرها سنين، ثم إذا جاء أجلها نقلت إلى عالم لطيف شريف تزيد فيها معارف النفس، وتعرف من العلوم ما لا يتصوّره أهل الأرض، ثم ترتفع درجات فدرجات ألطف فألطف فألطف حتى ترى الله جلّ وعلا. وهذه المرتبة تقول: الأرواح غزيرة جداً، وتكون تلك الأرواح العالية مدبرة للعوالم بإذن الله تعالى، فتدبر الملك لما لها من الخبرة الواسعة والحكمة والعلم، وليس يتولى التدبير العام إلاّ أرواح لا خطأ عندها ولا غلط، وليس هناك اختصاص بل الأمر بالعدل. فاعجب كيف كان كلام الأرواح على يد غير المسلمين أصبح ناطقاً بالقرآن، وكيف يكون المغرم بالدنيا والمذنب في ذهول وقت الموت لا يدري ما العمل، وربما بقي كذلك سنين وهو في عذاب لا يطاق، وكيف تخرج روحه على كره منه لتعلقه بهذه الدنيا، وكيف تأتي الأرواح العالية فتلاطف الصالحين لأنه ليس حولهم حجاب يحجبهم، وكيف تكون الأرواح الصالحة متمتعة بمحادثة الأرواح العالية لتعلمها كيف ترتقي، وكيف يكون ذلك مطابقاً لنص القرآن، فقوله هنا: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾[الأنعام: ٩٣] نطقت به الأرواح، ويقول في سورة أخرى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي عند الموت ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ [فصلت: ٣٠] الخ، وهذا نفسه ما تقوله الأرواح كما تقدّم. وكيف يقول: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾[الواقعة: ٨٨-٨٩] وقد نطقت به الأرواح أيضاً. وكيف يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[يونس: ٧-٨] هو عين ما قالته الأرواح أيضاً، وقال: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾[يونس: ٦٢-٦٤]. وفي الحديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»، وفي الحديث أيضاً: «سترون ربكم»، وفي الآية: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[القيامة: ٢٢-٢٣] وبه قالت الأرواح، وقال: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[المطففين: ١٥] بل تقول الأرواح يكون الفجار محجوبين أيضاً عن الأرواح الصالحة.

والحاصل أن ما نطق به القرآن في الآخرة نطقت به الأرواح بعد الموت، باعتبار أن الموت أول منازل الآخرة، وأن الحساب من يوم ساعة الموت، وهذا من أعجب العجائب، والله هو الولي الحميد. انتهى المقصد الثاني.

المقصد الثالث

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا

بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾

التفسير اللفظي

يقول الله : إن الله يفلق الذرّة والقمح والشعير والأرز ؛ وهذا هو الحب ، ويفلق النوى ؛ جمع نواة وهي ضد الحب ، كنوى الرطب والمشمش والخوخ ، وهكذا النطفة والبيضة ، ومتى فلق هذه الأنواع خرج منها نبات القمح والشعير والأرز وأشجار النخيل والمشمش والخوخ والإنسان والطائر ، وخروج النبات والشجر من الحب والنوى ، والإنسان والطائر عبارة عن حياة ، فالنبات والشجر أحياء خرجت من الأموات ، لأن النامي حيّ وغير النامي ظاهراً كالميت لا حسّ به ولا حركة فيما يظهر للعيون ، كما يخرج المؤمن من الكافر والذكي من البليد والصالح من الطالح ، وهكذا يخرج الحب والنوى والكافر والفاسق والبليد ، من النبات والنخل والمؤمن والصالح ، هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ المفسر بقوله : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ ثم عطف على « فالق » قوله : ﴿ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ﴾ المحيي المميت ﴿ ٱللَّهُ ﴾ الذي يستحق العبادة ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ تصرفون عنه .

واعلم أن الناس لا يرون منه إلاّ قليلاً ، فإن ملايين من الحيوانات تعيش في نقطة صغيرة من الماء تعلق برأس الإبرة مثلاً ، وتنمو وتتكاثر وتموت ، كما تعيش حيوانات البر في القفار ، وحيوانات الماء في البحار ، وهي تتقاتل وتتحارب ويفترس بعضها بعضاً ؛ كالكواسر والجوارح ؛ لا يخلو منها مستنقع ، وتصعد في البخار الذي يتصاعد من الماء بحرارة الشمس ، وتطير في الجوّ مع الهباء ، ثم تعيش وتكثر أينما نزلت ووافقتها الرطوبة والحرارة ، وهذه الحيوانات مع صغرها تتحجر وتصير منها طبقات متسعة من الطباشير في الأرض ، وتربة طرابلس التي يصقل بها مؤلفة منها ، وكل حيوان منها في التربة يساوي $\frac{١}{١٨٧٠٠٠٠٠٠٠}$ من القمحة ، والطباشير مؤلف من أصداف غاية في الدقة كذلك ، ومعلوم أن لكل حيوان منها معدة ، والطعام يدور من أقنية متعدّدة في جسمه ، وطعامها مؤلف من دقائق سائلة وجامدة مثل الإنسان والحيوان ، ولا جرم أن هذه الدقائق أصغر من الحيوان المذكور ، فدقة الحيوان ودقة ما يأكله تحيّر العقول . ولقد جاء نبأ عن هذه الحيوانات في ١٧ إبريل سنة ١٩٢٤ بالجرائد المصرية ، ذلك أن حيوانات دقيقة كهذه ظهر منها نوعان في أمريكا ، نوع منهما يأكل الأسلاك المعدنية ، ونوع هو دود يهدم قناة « بناما » ويسمى « الدودة الهادمة » ، وبالنوع الأول عطّل خمس عدد التليفون في أمريكا ، والنوع الثاني يحفر أنفاقاً حقيقية تحت الأرض ، وقد أحدث بقناة « بناما » ضرراً يقدّر بالملايين ، والدودة الواحدة تلد مليون دودة في العام . اهـ .

ولما كان النبات والشجر من نتائج الأنوار السماوية والحرارة الجوية ، أتبع الكلام فيهما بذكر سببهما ، وأبان أنه شقّ عمود الصبح عن سواد الليل فتميّز بنوره عن ظلمته ، معترضاً في الأفق الشرقي والإصباح في الأصل مصدر أصبح ؛ إذا دخل في الصباح ؛ سمي به الصبح ، ويصح أن يقال : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ أي خالقه ، يقول : كما شقّ النواة والحبة والبيضة والنطفة فانفلقت وخرج منها تلك الأحياء

شقّ الظلمة فأخرج منها عمود الصباح فتشابه العالم العلوي والسفلي، كلاهما فيه العجب، نور اشتقّ من الظلام، وأحياء من الأموات ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ ﴾[الملك: ٣] فتشابه وتشاكل الأمر، ترى النور بهر في السماء، والحيّ ظهر في الأرض، هذا من الجماد وذاك من الظلام.

ثم أكمل الكلام على العلويات فقال: ﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا ﴾ يسكن الناس والحيوان فيه من التعب الذي لاقوه في النهار فلا يتحركون، ومن قرأها جعل عطفها على «فالق» بمعنى فلق، و«الليل» مفعول لـ«جعل» أو لـ«جاعل» على القراءتين، و«جاعل» للاستمرار في الأزمنة المختلفة، وعطف عليه قوله: ﴿ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ﴾ مصدر حسب بالفتح، كما أن الحسبان مصدر حسب بالكسر فيهما، أي على أدوار مختلفة تحسب بهما الأوقات كما أوضحناه في البقرة وآل عمران وغيرهما، وبهذا تمّ الكلام على الأحياء والأموات في الأرض والنور والظلمة في السماء ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي التسيير بالحساب المعلوم ﴿ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ﴾ القاهر فوق عباده بحيث سيرهما على وجه مخصوص ﴿ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ بتدبيره، وكيف رأى أن المصلحة في هذه الدورات طولاً وقصراً وظلمة وإضاءة، نعم هو قاهر ومع هذا القهر لا يعمل إلاّ لحكمة كما تقدم في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ في هذا القهر ﴿ ٱلۡخَبِيرُ ﴾[الأنعام: ١٨] أنه هو الأنفع لخلقه. يا عجباً لهذه الموافقات البديعة.

ثم أخذ يشرح بقية الشموس المشرقة التي تسمّى عندنا نجوماً، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ﴾ أي خلق ﴿ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ ﴾ أي في المسالك والطرق المشتبهات في البر والبحر إلى حيث تريدون، فترصدون تلك النجوم، كالنجمة القطبية التي هي كأنها ثابتة لا تتزحزح من مكانها، وهكذا النجوم الأخرى، والبوصلة التي شملت على الإبرة المغناطيسية التي كسبت المغناطيس بالطرق المعروفة عندكم تقوم مقام النجمة القطبية إذا أظلم الجو بسحاب أو غيره، فإنها تتجه إلى الجنوب والشمال مع بعض انحراف يتغيّر بقوانين مخصوصة، منها تعرفون الطرق والمسالك فالهداية في البر والهداية في البحر إنّما تكون بالنجوم أو بما يقوم مقامها، وذلك كله بحساب. ولقد جعلت الدول الغربية كإنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا معاهد خاصة لتعليم حساب هذه الكواكب حتى يعرف الربان في وسط اللجج البحرية وظلمات الليالي وفي الطرقات المشتبهات النجوم الظاهرة وبروجها ومنازلها، فيرصدها ويهتدي إلى سواء السبيل. ولما كان الأمر يعوزه علم وحكمة قال: ﴿ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ أي بيّناها وأظهرناها ﴿ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ فهؤلاء هم الذين ينتفعون بما فصلناه لأنهم به ينتفعون. ويا ليت شعري كيف يفوز الفرنجة بهذه العلوم ويقتسمون البحار والطرق البحرية ويختصّون بعلم النجوم ويحرم المسلمون من ذلك، كل هذا لأنهم جهلوا دينهم جهلاً تاماً إلاّ ظواهر العبادات. اللهم إني أبرأ إليك من الكتمان وأنت أحكم الحاكمين، فقد نصحت لهم جهدي، وإني ذاهب إليك وقد فعلت ما في طاقتي بنشر الكتب وتأليف هذا التفسير. أقول هذا وأنا موقن أن الله سينزل غضبه على من يكتم العلم، بل على من يقرأ بعض هذا التفسير ولا ينصح المسلمين بالبحث في العلوم كلها، ولا ينبههم إلى الخطر الداهم.

ولما أتم الكلام على العلويات التي ذكرها كالسبب للسفليات؛ أي لإحياء النبات والشجر والطير والإنسان، أخذ يتم الكلام على علم الحياة بعد الفراغ من فهم مصدرها وسببها، فشرح خلق

الإنسان وخلق النبات شرحاً لقوله: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ ولم يشرح إخراج الميت من الحي، لأن المقام مقام ظهور وحياة لا مقام موت وخفاء، وإظهار جلال القدرة وجمال الحكمة وعجائب الحياة، وقدّم الإنسان لأنه أكمل، والحيوان بعده فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ وهذه تقدمت في أول «النساء»، فلكم استقرار في الأصلاب واستيداع في الأرحام، ولما كان خلق الجنين في بطن أمه من أعجب العجائب كما تقدم في أول سورة «آل عمران» يحتاج إلى فكر دقيق يعبر عنه بالفقه قال: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ﴾ بالماء ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي نبت كل صنف من النبات، وهي مع اختلافها تسقى من ماء واحد وتعيش في هواء واحد، وبعضها أفضل من بعض في الأكل ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ ﴾ من النبات ﴿ خَضِرًا ﴾ شيئاً أخضر، يقال: أخضر وخضر كما يقال: أعور وعور ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ ﴾ من الخضر ﴿ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ وهو السنبل كالمطر بضم فسكون، المسمى بالكوز في الذرة وكسنبل القمح ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ «قنوان» مبتدأ؛ خبره «من النخل» و«من طلعها» بدل منه، يقول: ﴿ قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ أي قريبة من المتناول، كائنة من طلع النخل، وقوله: ﴿ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ عطف على «نبات كل»، وعطف على «نبات كل شيء» قوله: ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ حال من «الزيتون والرمان» أي بعض ذلك متشابه وبعضه غير متشابه، في الطعم واللون والقدر والهيئة، وترى ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ولكن ثمرها مختلف، ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ ﴾ جمع ثمرة ﴿ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ أي إذا أخرج ثمره كيف يختلف زهره ولونه، وأوقات طواف الحشرات على الزهرات، وكيف يختلف نوع النبات باختلاف الأزهار، وكيف جاء العلم الحديث فجعل مدار علم النبات على أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث، وكانت هذه أهم ما قام به العلم الحديث في النبات، بحيث كان المدار في تفصيل أنواع النبات وأجناسه وفصائله على هذه المسألة، وتعجب كيف غفل المسلمون عن هذا العلم. وكيف يقول الله: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ أي نضجه وإدراكه، والينع في الأصل: مصدر، ثم نعتت به الثمرة إذا أدركت، وقيل: ينع: جمع يانع؛ كتاجر وتجر، وفي قراءة «يُنْعِهِ» وهي لغة فيه، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ والآيات: أي العلامات للمؤمنين في هذا المقام لا حصر لها، فهي علم النبات وما كشفه الكاشفون وما درسه الدارسون، والمسلمون هم النائمون.

اللهم إني موقن أن الإسلام سيكون في مستقبل الزمان، فأما اليوم فإنّما هي ظواهر وقشور، فأما الجهل فهو ضارب أطنابه الآن في بلاد الإسلام، وعسى أن أمثال هذه الآراء في الأمم الإسلامية تكون من الأسباب التي وضعها الله في بلاد الشرق ليخرج بها إصباح الإسلام ويغلق بنوره ظلمة الجهالة الحالكة المدلهمة، فنقول: فالق إصباح الهدى والنور عن ظلمة الجهل والغفلة، كما فلق عمود الصبح وخلصه من ظلمة الليل، وكما أخرج الحيّ من الميت. اللهم إنك تخرج العالم من الجاهل والحي من الميت، فأخرج من هذا الجيل الإسلامي النائم جيلاً مستيقظاً، بل إن في الآية دلالة على ما أقول، فإن الظلام بعده النور والموت بعده الحياة، فهكذا الإسلام اليوم في نوم عميق، وقد آن أوان ارتقائه وأقبل يوم إسعاده. هذه الآية مما يشير إلى هذه المعاني ويرشدنا إلى تحقيق هذه الأماني، بل هذا المقام من الدلائل التي استدل بها سقراط على البعث والحشر فقال: كل فقر بعده غنى، وكل جهل

بعده علم، وهكذا الأضداد يتبع بعضها بعضاً. وهكذا يقول ربّ سقراط، فليبشر المسلمون بإقبال الزمان وسعادة الأمم الإسلامية. أقول هذا وأنا موقن بما أقول. انتهى التفسير اللفظي.

لطائف

اللطيفة الأولى: البدائع والعجائب في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾[الآية: ٩٥].

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾[الآية: ٩٦].

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا ﴾[الآية: ٩٧].

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾[الآية: ٩٩].

اللطيفة الخامسة: ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾[الآية: ٩٩]، وهناك تنظر رسم الزهرة التي جعلت مفتاح علم النبات.

اللطيفة الأولى: البدائع والعجائب في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾

يقول الله عزّ وجلّ هنا: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ ثم يقول: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، ويقول في سورة آل عمران: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾[الآية: ٢٧]، فليفكر المسلمون في هذا الاقتران كيف يقرن إخراج الحيّ من الميت والميت من الحي في المقامين بالأضواء والأنوار، فهناك في آل عمران يقدّم الأضواء والأنوار على الإخراج، وفي الأنعام هنا يقدّم الإخراج على الضياء. ويا ليت شعري، أيّ علاقة بين الضوء وبين النبات والحيوان.

عجائب النور وغرائبه

لا يأبه الناس بالنور ولا بالهواء، ولا يعرفون أن هذا النور الذي لا طعم له ولا وزن، ولا يباع ولا يشرى ولا يخزن، وإنّما يرسل من الشمس والكواكب إلينا، ونحن ساهون لاهون، ويذهب عنا ونحن لاهون، لا يدري الناس أن هذا النور هو الذي به يكون تدبير حركات النبات وحياته وحياة الحيوان.

أولاً ما هو النور؟ اعلم أن الأصوات التي نسمعها والنور الذي نراه لم يكونا إلاّ حركات، فعدد الحركات هو الذي يجعل هذا صوتاً وهذا ضوءاً. أفلا تتعجب من هذه الدنيا كيف تكون الأصوات ليست شيئاً سوى الحركات، والأضواء ليست شيئاً سوى الحركات، فإذا تكلم إنسان أمامنا أو حدثت حركات في الهواء أو الماء أو الجماد، فإن الهواء المحيط بنا يتموج تموّجات كثيرة بحيث لا تزيد عن ٣٢ ألفاً في الثانية الواحدة، وإذن نسمعه، فحركات الهواء الحاصلة بتموّجه بما أصابه من الحركات كما يتحرّك ماء البحر بإلقاء حجر فيه ويصنع دوائر تتسع كلما بعدت عن المركز، وتكون أضيق كلما قربت منه، هي التي تحدث الصوت، وتكون عدد الحركات في الثانية الواحدة لا تزيد عن ٣٢ ألفاً تقريباً، لأن الصوت إذ ذاك يكون مرتفعاً جداً، فإذا زادت عن ذلك لم نقدر على استماعه وتكون حركات الهواء بعد ذلك لا علم لنا بها.

وجعل العلاّمة «هاملهتز» صوت الموسيقى ٣٨٠٠٠٠ اهتزازة في الثانية وجعل أنقصها ١٦ اهتزازة، فمتى نقصت عن ذلك لم تسمع صوت الموسيقى، ومتى زادت الحركات عن ذلك لم تسمع شيئاً البتة، وما فوق هذه الحركات في الهواء لا يدركه الناس ولا يعرفونه.

فأما حركات الأثير فلا يعرف الناس منها إلاّ ما وصل إلى ٤٥٨ ألف ألف ألف ألف أي ٤٥٨ تريليوناً من الاهتزازات في الثانية الواحدة، ولا تزال الاهتزازات تزيد إلى غاية ٧٢٧ تريليوناً، فيكون اللون البنفسجي وهو آخر الألوان التي تشاهد في قوس قزح وما عداها فهو أقلّ منه. فتبيّن لك بهذا أن الصوت حركات، وأن الضوء حركات، وكذلك الحرارة حركات، ومقدار الأعداد في الثانية هو الذي يعيّن الحرارة ويعيّن الضوء ويعيّن الصوت، وأن في العالم الذي نسكنه من الحركات التي لها نتائج ما لا نصل إليها ولا علم لنا بها، لأن الحرارة والصوت والضوء ما هي إلاّ أعداد مخصوصة معلومة، وما زاد أو نقص نجهله جهلاً باتاً، وغاية الأمر أن الناس كشفوا أشعة رتنجن وأشعة الراديوم التي تخترق الحواجز الكثيفة فترينا ما وراءها، وهذه الأشعة تهتز اهتزازات أسرع من الأضواء المعروفة ويجهلون ما عدا ذلك.

فنحن الآن في جوّ من الجهالة العمياء، فإن حواسنا لم تعرف من العوالم المحيطة بنا إلاّ أعداداً محدودة من الحركات، وما عداها لا نعرفه وهو ما لا يتناهى. ومن عجب أنهم أيام طبع هذا التفسير صنعوا حجرة من «السنليوم» سلطوا عليها نور بعض الكواكب المسمى «كابيلا» وهو يبعد عنا ملايين السنين من الكيلومترات، ثم ضاعفوا التيار الكهربائي الناشئ عن وقوع النور على ذلك المعدن فتحوّل النور إلى صوت سمعوه بآذانهم، فيا له من حادث مزعج، لقد أصبحت النجوم تسمع كما كانت ترى، وأصبحت تناجي البشر كما يناجونها، وقد أعلن في أكاديمية العلوم الفرنسية في أوائل هذا الشهر إبريل سنة ١٩٢٤ أن العلماء يواصلون تجاربهم في هذا الشأن في معمل «الأنفاليد الكيماوي»، وأن هذا الكشف سيحدث انقلاباً مدهشاً في العلم.

هذا تمام الكلام على تعريف الصوت وحركاته وأصواته التي لم تعلم إلاّ في هذا الشهر، فلتنظر ولتتعجب من هذا العالم الذي تعيش فيه. ضوء نراه بأبصارنا يظهر لنا العلم أنه حركات، وتلك الحركات مقدّرة في الثانية، وهذا الضوء متى لامس معدناً خاصاً وجعل فيه نوع من الكهرباء ظهر له صوت، فكأن النجم الذي ننظره بأبصارنا يصلح أن نسمعه بآذاننا، هذه عجائب لنفس الضوء ألا فلتعجب لأعماله.

أعمال الضوء إدارة النظام الأرضي (عالم النبات)

اعلم أن هذا الضوء الذي عرفته أنه حركات وأنه ينقلب صوتاً هو المدبر والمهندس الذي يقوم بشؤون العوالم النباتية، وهذا المهندس تحته عاملان يعملان تحت إشرافه، فأحد العاملين هو الورق والثاني هو الجذور.

اعلم أن النبات ليس له جوف لهضم غذائه، ولا له قلب لإدارة سائلاته في كل أقسامه كما للحيوان، بل يمص غذاءه من التربة بواسطة جذوره، ومن الهواء بواسطة أوراقه، وبالأوراق أيضاً يدفع إلى الخارج ما لا ينفعه. فهاهنا جذور تمصّ وورق، وهاهنا ورق لإفراز ما لا ينفع. إن غذاء النبات منه المائعات ومنه الموجودات الهوائية «الغازية»، فأما الجامدات فلا حظّ للنبات فيها.

وفي الماء موادّ غازية ومعدنية مذوّبة فيه، فمتى حملت الجذور الماء الذي امتصه صعد بما معه من المواد المعدنية والغازية في أنسجة النبات إلى الأجزاء التي فوق سطح الأرض المعرّضة للهواء فيدخل الأوراق.

إيضاح هذا المقام

إننا نشاهد أن الجو الذي نعيش فيه يحتوي على أدخنة من الآلات البخارية، وتلك الأدخنة أجزاء فحمية «الكربون»، وهكذا كل أنفاس الإنسان والحيوان مشتملة على نوع من هذا الفحم أو «الكربون» كالذي تتنفسه الآلات البخارية، بدليل أننا إذا تنفسنا في المرآة حصل على وجهها المصقول الزجاجي طبقة تحجب عنا صورنا فيها، وتلك الطبقة هي الفحم الخارج مع نفسنا من الرئة حينما صلح الدم، فخرج ما فيه من المواد المحترقة الكربونية الخارجة من أجزاء أجسامنا، كما خرجت المواد المحترقة في الآلات البخارية من المداخن سواء بسواء. فهذا الدخان يسير في الجو فيصل إلى أوراق النبات، وهذا هو الغذاء الذي يدخل في ورق النبات، فهذا هو المسمى «الحامض الكربونيك»، فمتى تناوله الورق واجتمع بالماء الذي امتصته الجذور يقابلها النور فيكون منهما معاً النشاء المعلوم، والنشاء هو الذي يذوب إذا مضغت حبة قمح في فمك، فما ذاب منها في ريقنا سميناه نشاء، وما بقي لزجاً سميناه «المواد الشبيهة بالزلال»، ثم إن الجذور إذا امتصت أكثر مما يلزم من الموادّ المائية تحوّلت بخاراً في الأوراق، وتطير في الجو فتنخفض درجة حرارة الماء إذا كان في الفخار وقت الحر.

ثم إن هذا النشاء المركب من الكربون والأكسوجين والأودروجين لا يتم له ذلك التركيب إلاَّ بفعل المادة الملونة الخضراء، وهذه المادة الملونة لا تتم إلاَّ بفعل النور فيها، بدليل أن الجذور لا تلوّن به لاحتجابها عن الشمس بجوهر الأرض، ولا بد من مادة حديدية يمتصها النبات للمادة الملونة، والمادة الملونة حينما يأخذ الورق الحامض الكربونيك من الهواء تحلل الحامض المذكور بفعل النور فتبعث أحد جزأيه وهو الأكسوجين إلى الهواء، وترسل الجزء الآخر وهو الكربون في جسم النبات فيتحد مع أكسوجين الماء وأيدروجينه وهو النشاء، فما النشاء المعروف الأبيض إلاَّ ماء وفحم تركبا، ثم هذا الغذاء ينبث في أجزاء النبات فيصير قوة له.

ثم إن هذا النشاء مع المواد التي منها غاز النتروجين التي تمتصها الجذور من التراب مذوبة في الماء، الجارية في أنسجة النبات، تتكوّن مواد شبيهة بالزلال يتغذى بها النبات فينمو، سواء أكان عشباً أو نجماً أو شجراً، ويكون هذا الشبيه بالزلال مركباً مما تقدم «الكربون والأكسوجين والأيدروجين والنتروجين» ومن الكبريت، ومنها المادة الغروية ـ أي المادة اللزجة ـ التي كلما زادت في الحب كان أشدّ تغذية.

وفي النبات مواد شبيهة بالقلى وهو المورفين والكينا، ونحو المادة الفعالة في الشاي وفي القهوة. ومادة السليكا أيضاً وهو الصوّان، وأما الفسفور فيدخل في المواد الزلالية.

العجب العجاب

فانظر كيف حوّل النور مع ما نتج منه من المادة الملونة الكربون والماء إلى نشاء، وهذا النشاء يسير في الخلايا، ويخزن منه في البزور ليكون غذاء في المستقبل، ومنه ما يخزن في الجذور في زمن الشتاء

لينتفع به النبات فيما بعد، وقد يتحوّل إلى سكر بفعل المادة الملونة أو إلى مادة زيتية أو دهنية كما ترى في بزر القطن واللوز والخروع والزيتون وبزر الكتان. وفائدة هذه المواد للنبات كفائدة النشاء.

واعلم أن السكر هو نفس النشاء، فإذ أضفت إليه ماء ووضعتهما في موضع دافئ يتحول النشاء إلى سكر، فيصير السيال حلو المذاق، وترى ذلك في قصب السكر وعصير العنب وجذور الشمندور وفي جميع الأثمار الحلوة.

ثم انظر كيف كان هذا النشاء نفسه يقابل في النبات أملاحاً فيها النتروجين وكذلك الكبريت، فتكوّن المواد الشبيهة بالزلال، وذلك كله بفعل النور فلا بد من الحرارة ولا بد من النور، ذلك النور المكوّن للنشاء وللمواد الزلالية.

الحيوان والنبات

أفلا تعجب من هذا النظام، وكيف نسير في الضوء والهواء ونحن غافلون؟ يا عجبا لغفلة الإنسان، نرى الكربون في الهواء ونستنشق الأكسوجين ولا ندري ما فيهما من العجائب، فهذا الكربون يخرج من الإنسان ومن الأفران ومن الآلات البخارية كما تقدّم، ويذهب في أوراق الأشجار ويحلل الأكسوجين المصاحب له، ويرسله في الهواء ليصلحه، وكأن الورق هو الرئة التي خلقها الله للهواء. فرئتنا تصفي الأكسوجين وتدخله في أجسامنا، وترسل الكربون إلى الهواء، هكذا الأوراق ترسل الأكسوجين إلى الهواء والكربون إلى النبات بعكس ما تفعل رئتنا.

كيف يتكوّن الحيوان؟

إن عظام الحيوان تكون من المواد المعدنية، وعضلاته من النتروجين وهو الآزوت، ودهنه من الكربون. ولما ضعف الحيوان عن تناول هذه المركبات خلق النبات له حاوياً تلك المواد لتكون في بنية الحيوان. فيا عجباً كل العجب، نشاء ومواد زلالية مركبات من الكربون والماء والكبريت، مع مواد أخرى من الحديد والمادة الصوانية والفسفور، والبوتاسا في النباتات البرية، والصودا في النباتات البحرية، والكلسيوم ـ أي الجصّ والمورفين والكينا والاستركنين والفخسين والأثروبين وخلاصة الشاي وخلاصة البن ـ هذه المواد تكون في النبات ثم تكوّن بنية الحيوان، اشتراك عظيم ونظام جميل. يا رب، ما أعجب هذه الدنيا وأجمل نظامها.

يا الله، أنر بصائرنا حتى نقف على الجمال الذي أبدعته والنور الذي أنزلته. يا الله، نور في الجو نزل من السماء، نورك الجميل الذي تحوّل على بعض المعادن إلى صوت يسمعه الناس في هذا الشهر، وهذا النور هو الذي حوّل الفحم إلى نشاء مع الماء، ثم حوّل هذا النشاء مع الأوزوت والكبريت إلى مواد زلالية، وهذه المواد بها حياة النبات، ثم هي مع مواد أخرى في النبات يكون بها حياة الحيوان. وكيف يا رب كان الفحم لنا دهناً، والأملاح لنا عظاماً، والأوزوت لنا لحماً؟ وكيف يصير الفحم في أجسامنا دهناً والأملاح عظماً والأوزوت لحماً؟ وكيف نرى ما تخرجه أنفاسنا راجعاً إلى أجسامنا بهيئة دهن ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦] حقاً لقد حارت الأفكار في هذه الحكم والعجائب.

أوَليس مما يدهشنا أن الورق له فعلان: فعل إدخال الكربون وفعل إخراج الأكسوجين وبخار الماء، كما ترشح القربة الماء، ويخرج أيضاً من الفتحات الصغيرة على قفا الورقة، وقد حسب العلماء

فتحات ورقة من شجرة التيليوم فوجدت ١,٠٠٠,٠٠٠ ومن فوائـد هـذا البخر تبريد النبات في شدة الحر. ألا ترى أن عباد الشمس يبخر كل ٢٤ ساعة نحو رطل ماء؟ فكيف يكون مقدار ما يبخره شجر السنديان والبطم والخروب وأضرابها؟ هذه أفعال الأوراق.

الجذور وعجائبها

أما أفعال الجذور فإنها أعجب، فإنها تغلظ وتصير مخشوشبة وتدفع التراب عـن جوانبـها كما تدفعه عن أطرافها، وهذه القوة النامية من غرائب الدهر وعجائب البر والبحر. ألم تر أنها تدفع الحجارة الكبار أمامها، وتهدم جدران الأبنية التي تمد تحتها أو بين حجارتها؟ وفي الأقاليم الحارة الكثيرة الرطوبة يظهر فعل النبات في خراب الأبنية أقوى من فعل الزلازل والعواصف والنيران والأمطار، لأن هذه القوى مما لا تقدر على إزاحة حجارة مثل حجارة قلعة بعلبك وأهرام مصر، وإذا وقعت خلالها بزرة تينية مثلاً تنمو وتدخل خيوط جذورها في أدق الثقوب والخلال، فتزيح الحجارة من مواضعـها، بهذا نفهم قوله تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾، فـهذا هـو إخراج النبات من ماء وكربون وآزوت بفعل نور الإصباح المذكور بعدها، فهو يقول: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ﴾ كالنبات والحيوان ﴿ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ وهو الكربون والآزوت والماء والأملاح ﴿ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ﴾ وهي هذه العناصر ﴿ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ وهو النبات والحيوان ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾، وإذا كانت هذه المواد الميتة تصرف فيها فجعلها نباتاً وحيواناً، ثم حللها فتصرف فيها بالتحليل والتركيب وأنتم منها، فكيف تصرفون عن تصرفه فيكم. ثم أبان ما به التصرف في ذلك فقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ وهذا هو مبدأ النور الذي به يكون تكوين النشاء وتكوين الزلال من تلك المواد الميتة، فيكون النبات ثم الحيوان. فانظر كيف أخرج الحي من الميت والميت من الحي، فبمثل هذا فليفسر القرآن للحكماء وليفهم للعلماء. اهـ.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾

أمران يحدثان في الأرض والشمس غائبة عنا. أحدهما يكون قبل طلوعها، والآخر بعد غروبها فأول الأمرين هو الصبح وهو الضوء المنتشر قبل طلوع الشمس، والآخر هو الباقي بعد غروبها، وهذان الحادثان معدومان في خط الاستواء ويبتدئ ظهورهما في أول المناطق المعتدلة، وكلما ازددنا قرباً من القطبين ازداد ظهورهما، ولذلك ترى أهل «لابونيا وسمويد وسبير» يمكثون أربعة أشهر تقريباً وهم لا يرون الشمس، وإنَّما الشفق والفجر في هذا الليل الطويل يضيئان عليهم إضاءة كافلة بتصرّفهم في معايشهم واجتيازهم السهول والهضاب والجبال والمفاوز والأراضي الواسعة الثلجية، ويرى أهل تلك البلاد من الجمال والبهجة في الجو من إشراق النور الفجري والشفقي ما لا يعلمه ولا يحلم به سكان المدارين، أي مدار السرطان ومدار الجدي، فالحكمة الإلهية لم تكمل إشراق تلك الأنوار المتلألئة الوهاجة البديعة، ووصولها إلى غاية الجمال والبهاء، إلاَّ لسكان الأقطار الجليدية جهة القطبين، فإنها تنبعث مزدانة بحلل سندسية ذهبية تدهش العقول وتحير الألباب وتفتن أولي الألباب.

فانظر كيف رأينا العدل جارياً مجراه، فكلما كانت الشمس أكثر إشراقاً حين طلوعها، ترى فجرها وصبحها وشفقها أقل جمالاً، وكلما كانت الشمس أقل ظهوراً، كان الشفق والصبح مشرقين باهرين جميلين، يحيران الأبصار.

فهذه قسمة عادلة وحكمة باهرة . فأهل السودان المصري لم يمنحوا جمال الفجر والشفق ، ولكن أهل الأقطار الجليدية يرون من الجمال ما يحير الأبصار . اهـ .

اللطيفة الثالثة : في قوله تعالى

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا ﴾

معلوم أن بعد الأرض عن الشمس ٩٣ مليون ميل ، وهذه المسافة يطيرها طائر بسرعة مائة ميل في الساعة الواحدة ، وهذه أعظم سرعة للطير وهي سرعة الطيارات الحربية أيضاً ، فهذا الطائر بهذه السرعة يصل من الأرض إلى الشمس بحيث لا يقف ولا ينام ليلاً ولا نهاراً صيفاً وشتاء في مدة مائة سنة وست سنوات ونحو ٧ أشهر ، وهذا الطائر بهذه السرعة يقطع عرض النظام الشمسي من طرف إلى طرف في مدة ٦٣٧٢ سنة ، وهذه المدة يقطع فيها هذا النظام المشتمل على الشمس وسياراتها مثل «نبتون وأورانوس وزحل» الخ .

فالشمس وسياراتها التي عرفت حديثاً وتقدمت في هذا التفسير وعرضها ما ذكرنا ، لم تخرج عن كونها كوكباً صغيراً من مئات الملايين من الكواكب ، وأبعادها عظيمة جداً . وهذا الطائر يقطع مليون ميل في ٤١٦ يوماً ، ويقطع مليون مليون ميلاً في أكثر من مليون سنة ، ومليون المليون من الأميال المذكورة ليس شيئاً مذكوراً في أبعاد النجوم ، فإن أقرب نجم إلينا من السيارات نجم يسمى إلفا في صورة قنطورس ، وبعده عنا ٢٥ مليون مليون ميل ، فهذا الطائر لا يصل إليه إلاَّ بعد ٢٥ مليون سنة ، فهذا الطائر لا يصلح أن نجعله مقدراً بطيرانه بعد الكواكب ، ولذلك جعلوا المقياس سير النور وهو يقطع ١٨٦٠٠٠ ميلاً في الثانية الواحدة ، ويصل من الشمس إلينا في نحو ثمان دقائق وثمان ثوان ، لأن بعدها عنا ٠٠٠ , ٠٠٠ , ٤٩٦ , ٨٦٥ , ٥ أي نحو ستة ملايين مليون ميل ، فنجم إلفا قنطورس المذكور يبعد عنا نحو أربع سنوات نورية وربع سنة ، وهو يبعد عنا ٢٥ مليون ميل ، فلا يصل نوره الخارج منه في هذه الدقيقة إلاَّ بعد أربع سنين وثلاثة أشهر ، وقد سافر في كل دقيقة ١١ مليون ميل فأكثر ، وإذا أطفئ هذا الكوكب جهلنا انطفاءه مدة أربع سنين وثلاثة أشهر .

ومع هذا فذلك ليس شيئاً مذكوراً في جانب الكواكب المدهشة في البعد جداً ، فلننس الشمس ولننس نجمة قنطورس وأمثالها ، ولنسر في الفلوات والمساحات الواسعة السماوية ، ولننظر هذا الملك المعدّ لنا لتسبح فيه أرواحنا ، وتطلع على العوالم الجميلة ، فلندرسها الآن ولنتشوّق إليها ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ ﴾ ، فهناك ما بعده من ١٢٠ سنة نورية إلى ١٤٠ سنة نورية أيضاً ، وهي نجوم الثريا وكذلك القلاص ، وهناك نحو ٨٠ مجموعة مثل مجموعة الثريا ومجموعة القلاص تبعد ١٣٠٠ سنة نورية ، والمسافة التي فيها هذه المجموعات السبعون تبلغ ٠٠٠ , ١٠٠ مائة ألف سنة نورية ، ووجد بعد سديم ممسك الأعنة ٥٠٠٠ خمسة آلاف سنة نورية ، وسديم الدجاجة كذلك خمسة آلاف سنة نورية ، وسديم العقاب بعده ١٧٠٠٠ سبعة عشر ألف سنة نورية ، وقطر المجرة مائة ألف سنة نورية ، ويعد السديم الذي في المرأة المسلسلة نحو ٠٠٠ , ٦٠٠ ستمائة ألف سنة نورية ، وسديم مجلان بعده ٠٠٠ , ٦٠ ستون ألف سنة نورية ، وهناك سديم سحته مثل سعة سديم المرأة المسلسلة يبلغ نحو عشرين مليون سنة نورية .

هذه مخلوقات نورية في السماء لا يصل ضوؤها لنا إلاّ في عشرين مليون سنة نورية، وقد علمنا أن المسافة بيننا وبين الشمس لا تبلغ في السير إلاّ مدة ثمان دقائق وثمان ثوان، فكيف يكون ذلك البعد الشاسع وقد سار النور فيه عشرين مليون سنة؟ وكيف تكون مقادير الكواكب البعيدة عنا؟ لعمري إن شمسنا بالنسبة لتلك الكواكب ذرّة صغيرة.

أقدار الكواكب

قد قسموا أقدار الكواكب إلى عشرين قسماً على حسب التقسيم الحديث، والعين ترى ستة أقدار فقط، ويبلغ ما تراه بها ٦٠٠٠ نجم، وترى العين بالمنظار المعظم الذي بلورته من بوصتين إلى ثلاث ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف نجمة أي إلى القدر السابع عشر.

ونجوم القدر الأول ١٤، والثاني ٢٧، والثالث ٧٣، والرابع ١٨٩، ثم ٦٥٠، ثم ٢٢٠٠، ثم ٦٦٦٠، ثم ٢٢٥٥٠، ثم ٦٥,٠٠٠، وهكذا إلى القدر العشرين فإنه ٧٦,٠٠٠,٠٠٠. ومجموع هذه الكواكب ٢٢٤ مليون كوكب، وهناك كواكب أخرى لا يحصرها العدّ لم يمكن تميزها وستظهر بعد حين. هذا ولأذكر لك آخر ما وصل إليه الناس عند طبع هذا الكتاب، إذ جاء في إحدى جرائدنا المصرية يوم الأحد ٨ أغسطس سنة ١٩٢٦ ما يأتي بالحرف الواحد:

قد قام أخيراً العلاّمة «كنوت لندمرك» بإحصاء مدهش، سلم بصحته أشهر علماء الفلك، وبيّن فيه المسافات التي تفصل بيننا وبين السدم الحلزونية، فالسديم «اندردميد» يبعد عنا مسافة يقطعها النور في مليون ونصف مليون سنة، وسرعة النور ثلاثمائة ألف كيلومتراً في الثانية كما هو معلوم، وهو عظيم جداً بحيث لا يقطعه النور من أحد طرفيه إلى الطرف الآخر بأقل من ستين ألف سنة، مما يدل على أن حجم هذا السديم لا ينقص كثيراً عن حجم المجرة.

وهناك سديم آخر يعرفه علم الفلك باسم «ن. ج. ت ٤٤٨٦»، يبعد عنا مسافة ثمانية ملايين سنة نورية، أي أن النور يحتاج إلى هذه المدة لكي يصل إلينا منه، وبعبارة أخرى إذا انقرض هذا السديم اليوم فإننا لا نعرف انقراضه ولا ينقطع نوره عنا إلاّ بعد ثمانية ملايين سنة.

وقد أثبت العلاّمة «لندمرك» أن السديم المعروف باسم «ن. ج. ت ٤٥٩٤» يبعد عن أرضنا مسافة ٥٦ مليون سنة نورية، أي أننا إذا نظرنا إليه اليوم بالنظارات الكبيرة نراه كما كان قبل ٥٦ مليون سنة. وهذه السدم العظيمة لا تعدّ شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى الكون اللامتناهي، حتى إن علماءنا لم يتنزلوا إلى تسميتها، والدلالة عليها بغير الأرقام. اهـ.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾

ولما كان الأمر معروفاً وجب أن نذكر شيئاً من عجائبه، ليكون سروراً للنفس وبهجة وأنساً لقارئ التفسير تنشرح به الصدور وتقرّ به العيون، فأقول:

(١) الثلج القطبي

من عجائب الماء ما يشاهد في القطبين من الجبال المكوّنة من الثلج، العائمة فوق البحر هناك نحو مترين وتحت الماء سبعة أمتار، وقد يكون عرض تلك الجبال ٢٥ فرسخاً وطولها خمسين فرسخاً.

والتيارات البحرية تجذب تلك الجبال، فتعوم مع مائها السريع الجريان ثم تتكسر تلك الجبال هضبات كبيرة جارية مع الماء، ثم تتلاقى ويفتك الأقوى منها بالأضعف ويكسره، ويفتح فيه طريقاً لنفسه، وقد تتراكم بعض القطع الثلجية فوق بعض حتى تبلغ عشرة أمتار، وبهذه الأعمال تنشأ أشكال عجيبة بديعة المنظر جميلة الأشكال محيرة للناظرين تسرّ أولي الألباب. وهذه المناظر الجميلة أشبه بهذه الحياة الدنيا، جميلة في الظاهر خطرة في الباطن. فإن السفن متى صادمتها تكسرت حالاً، وإذا احتمى الركاب بها بأن صعدوا على تلك الهضبات والآكام الثلجية ماتوا من مكابدة الجوع والبرد الشديد المهلك.

وهناك جبال تكون في الجزائر وفي البر على شاطئ البحر المحيط داخله في الأراضي إلى مسافات بعيدة جداً، ومتى انكسرت تلك الجبال وانحدرت إلى البحر كان منها جبال ثلجية تعوم فوق ماء البحر علوها من خمسين متراً إلى ستين متراً، وذلك حول «امبزبرغ» وتكون في جون «بافين» نحو مائتي متر. والملاّحون يلجؤون إلى هذه الجبال ليتخذوها حمى لهم من التيارات المهلكة لسفنهم، ولكنها كما قال الشاعر:

والمستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

فإنها بأدنى عارض تدور عليهم فتبتلع سفنهم حالاً. وهذا الثلج القطبي منه ما هو مكوّن من الماء الملح، ومنه ما هو مكوّن من الماء العذب.

الثلج المسهل اليسير

اعلم أن أهل بلاد «لابونيا وسيبيريا والموسكوف والاسويجيين» يكون الثلج المصقول السميك الصلب سبباً في سهولة السفر، ويكون فصل الثلوج عندهم فصل الأعمال والربح واللذات، ويستحيل السير في غير زمن الثلج بهذه السهولة، والثلج يمكن أن يكون مسحوقاً ناعماً إذا وصل إلى درجة ٥٠ تحت الصفر، وهو دائماً في حجمه يزيد عن الماء جزءاً من ١٤ جزءاً، ثم الأحوال التي تقتضي تكوين الثلج توجد دائماً في أعالي الجو فوق رؤوسنا وفوق الجبال الشامخات، وكذلك في جهة القطبين، فهو يكون على ارتفاع ٤٧٠٠ متراً تقريباً، وفي عرض ٣٠ إلى ٣١ شمالاً ترى مهابط جبال هملايا الشمالية يكون الثلج فيها على ارتفاع ٥٢١٠ متراً، ويكون في مهابطها الجنوبية على ارتفاع ٣٩٠٠، وفي درجة ٦١ شمالاً في بلاد النرويج يكون على ارتفاع ١٧٠٠ متر، فأما في القطبين فإنه يكون الثلج جبالاً فوق الأرض.

وملخص ما تقدم أن الثلج يكون دائماً لا ينقطع صيفاً وشتاء في القطبين فوق الأرض، ولا يزال يرتفع مكانه منهما إلى خط الاستواء إلى أن يصل إلى ارتفاع نحو ١٣ ألف متر عند قرب خط الاستواء فما فوق ذلك القوس المختلف الارتفاع من خط الاستواء إلى القطبين تكون الثلوج دائمة فوق الجبال وفوق رؤوسنا، ويشير لهذا قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ [النور: ٤٣]، فذكر الجبال هنا لم يكن معروفاً عند الأمم الغربية إذ ذاك، واتساع العلم أرانا أن جبال الجليد والثلج دائمة في تلك المحالّ العالية، والعلم اليوم هو معجزة القرآن، وهذا هو قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٧]، ولعل الكتاب أعمّ من كتب اليهود والنصارى

بل يشمل العلوم الحقيقية الكونية . ومتى انتشر هذا التفسير وأمثاله سيسارع الفلاسفة وعلماء الطبيعة للإسلام بسبب علمهم بكتب الحقائق الطبيعية والكونية الموافقة كلها لدين الإسلام .

وفي بعض البلاد الثلجية يختفي النبات ما دام الثلج ، فإذا استهلّ فصل الربيع ذابت الثلوج واستيقظت تلك النباتات بعد موتها حتى تصل إلى غايتها في أسرع وقت ، فهو كالمسلمين الذين ناموا قروناً تحت ثلج الجهالة واحتلال أوروبا لهم ، حتى إذا قرؤوا هذا التفسير وعرفوا من النابغين في مصر والشام والهند والمغرب من فحول العلماء أن ديننا هو دين العلوم استيقظوا كما استيقظ النبات الذي كان تحت الثلج وازدانت به الأرض وأخذت زخرفها وازّيّنت للناظرين .

(٢) ألوان ماء البحر

اعلم أن الله كما خصص البلاد القطبية بإشراق الفجر والشفق وجمال المناظر الثلجية ومناظر الفجر والشفق والجمال البديع ، وحرم من ذلك الجمال سكان ما بين المدارين ، أراد الله سبحانه أن يعطيهم جمالاً بدل ما فقدوه ؛ ذلك أن السفن وهي تمر في البحر ترسم نهراً من نار على مستوى السائل يحصل من جانبيه أمواج ينقدح منها سيول ضوئية ، فترى المياه على أبعد من مدّ البصر تضاهي السماء المزينة بالنجوم الكثيرة المضيئة ذات الشرر اللامع ، ويرى هناك ما يحاكي النجوم الثوابت في السماء وما يشبه ذوات الأذناب الضالة في الفراغ ، ثم تنقطع هذه الحركة زمناً ما فتكون ظلمة ، ثم تلمع تلك الكتل وتتشتت من جميع الجهات فيكون منها سهل واسع من نار مهول لعظم سعته .

وإذا هبت الرياح أحدثت في الأمواج اضطراباً وتكون هناك أفانين الصور وأعاجيب الجمال الباهرات ، فتعلو الأمواج ثم تنكسر وتصير على هيئة زبد مضيء متشكل بأشكال كثيرة من أقواس قزح ، وهذا الحادث ناتج من الفسفور المتحلل من الحيوانات الرخوة والحيوانات النباتية التي تسميها الفرنجة «زؤوفيت» ، وهي تكون في البحور الاستوائية أكثر منها في الأقطار المعتدلة والباردة ، والفسفور في تلك الحيوانات طبيعي كما أنه كذلك في كثير من الحشرات .

(٣) المياه المعدنية

المياه المعدنية هي التي تحتوي على مواد غريبة ، بحيث تكون ذات طعم ويكون لها فعل مؤثر في الجسم الحيواني ، وقد وجدوا في تلك المياه الأصناف الآتية : الكبريت والصودا والنوشادر والجير والمغنيسيا والألومين والبوتاسا والصوان والكلور والكربون والنحاس والحديد . وهذه المعادن متحدة مثل الحمض الكربوني والحمض الكبريتي وما أشبه ذلك .

ومن هذه المياه ما له تأثير عظيم ، وقد قسموا هذا إلى أربعة أقسام رئيسية ، وهي : (١) مياه كبريتية . (٢) مياه غازية أو محمضة . (٣) مياه حديدية . (٤) مياه ملحية .

وهناك مياه معدنية سمية ذاب فيها الزرنيخ أو الزئبق ، وهذه متى عرفت يبادر الناس بردمها حالاً .

وهناك أيضاً مياه صوانية قد حملت مواد الصوان ، فإذا لامستها الأجسام الحيوانية والنباتية نفذت إلى باطنها وتفرّقت في هياكلها واتّحدت بأجزائها اتّحاداً تاماً ، فيصبح الجسم كالحجر ، وتسمى هذه بالمياه المحجرة ، وهي نادرة الوجود في العالم .

فانظر كيف كان الماء جبالاً وأنواراً وجمالاً في القطبين، ثم هو سماء زينت للناظرين، وجمال يبهر العاقلين، وكواكب أشرقت على المسافرين، وفيه قوس قزح والنجوم وذوات الأذناب وسهول مشرقات وغياض ناضرات وبهجات أعدّت للمسافرين، ونور وجمال وأنس للصادرين والواردين، ثم يكون سماً للشاربين، وشفاء للمستشفين، ولذة للشاربين، وأنهاراً وخلجاناً للزارعين، وسحباً وبرداً وثلجاً للناس أجمعين.

اللطيفة الخامسة: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ ﴾

هذه الآية أصل عظيم في علم النبات، فإن النظر إلى الثمر وزهره هو الذي أنتج علم النبات كله، وذلك لم يتم إلاّ في القرون المتأخرة على يد الأوروبيين. ذلك أن آباءنا وأسلافهم اليونان كان علمهم بالنبات أقل مما جاء في العصر الحاضر بالكشف، وكانوا يقسمون النبات إلى أشكال مختلفة باعتبارات شتى، ولكن لم يقسموه باعتبار الثمر، والذي اعتبر أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث محلاً للتقسيم هم أهل أوروبا، وذلك من معنى قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ ﴾، فالنظر إلى الثمر وزهره أنتج التقسيم.

واعلم أن الزهرة كزهرة القطن مثلاً يكون لها غلاف على لون الخضرة كلون الورق، ويسمى هذا عند علماء النبات كأساً، وغلاف في داخله ملون باللون الأصفر أو الأبيض أو الأحمر ويسمى تويجاً تصغير تاج فكأنه لجماله تاج الملوك، وفي داخل هذين الغلافين يكون التزاوج بين الذكران والإناث، كما يكون بين الزوجين في أنواع الحيوان والإنسان سواء بسواء. وترى في هذه الزهرة وفي غيرها كرات صغيرة ناعمة مستعدّة لتصير بزراً متى لقحت، كما جعل الله للإناث من أنواع الحيوان مواد فيها تنقلب حيواناً متى حصل اقتراب الذكران من الإناث، وهذه الكرات دائماً تكون في مركز الزهرة، وهذا هو عضو التأنيث ويسمى عندهم بالبستيل، وهذا البستيل عبارة عن ثلاثة أقسام:

(١) المبيض وهو في القاعدة وفيه الأصول الخلقية القابلة للنموّ، وهو كالرحم والمبيض في الحيوان وقد يكون ذا مسكن أو عدّة مساكن.

(٢) وأنبوبة شعرية فيها بعض طول.

(٣) والجزء العلوي وهو كفم لتلك الأنبوبة، وذلك الفم هو الذي يقبل اللقح من عضو التذكير ويوصله إلى المبيض بواسطة الأنبوبة المذكورة.

وترى في هذه الزهرة القطنية وغيرها أيضاً عضواً أو أعضاء أخرى محيطة بذلك البستيل أي عضو التأنيث، وتكون غالباً بينه وبين التويج، فإذا نظرت زهرة القطن مثلاً فأول ما يلقاك كأسها ثم تويجها ثم عضو التذكير، وفي الوسط تماماً عضو التأنيث الذي استعدّ لاستقبال اللقح من عضو التذكير الذي أحاط به التويج، فتلك الورقات الجميلة الزهرية الملونة باللون البهيج في مختلف النبات كأنها هيئة العرس والأفراح التي يقيمها الناس، وملابس الزوج والزوجة أيام الزفاف مع الروائح العطرية التي تهيج القلوب وتشرح الصدور.

فهذه التي يصنعها الناس عادة ويزينون العروس بالبهجة والنضارة قد خلقها الله للذكر والأنثى من النبات، وجعلهما في حلتين جميلتين؛ إحداهما ملونة بأجمل الألوان وأبهاها وأحسنها وأجلاها،

وهناك الروائح العطرية البهجة. وترى الحشرات طائفات يغنين كأنهن الموسيقى تصدح والمغنيات يزففن العروس إلى بعلها، والنسمات مطربات يرفرفن بالورق، وتسمع حفيف الأشجار وتغريد الأطيار، وترى بهجة النجوم ونور الشمس المشرق والجمال والبهاء، وكأن الدنيا في عرس وليس في مأتم إلاّ الإنسان في أوروبا وآسيا وأمريكا، فهؤلاء هم المقتتلون المتشاكسون المحجوب أكثرهم عن هذا الجمال بالجهالة الشنعاء والحياة البلهاء.

وعضو التذكير المذكور عبارة عن رأس مرتفع على حامل له، وعلى الرأس المذكور غبار وهو ما يحصل به الإلقاح. وأعضاء التذكير غالباً تكون بحسب عدد أقسام التويج، وهذه الأعضاء إن ساوت عدد أقسام التويج، كما هو الغالب، فإنها تكون موضوعة بين أجزاء التويج بإزاء أقسام الكأس وإن كانت أعضاء التذكير ضعف أقسام التويج الملونة المذكورة كان نصف أعضاء التذكير موضوعاً بإزاء أقسام التويج، والنصف الثاني بإزاء أقسام الكأس.

وعضو التذكير إما واحد أو أكثر، فيكون ذا ستة كالأرز، أو عشرة كالترمس واللوبيا والفول وهكذا، وعلى ذلك يقال زهر أحادي أعضاء التذكير وثنائيها وثلاثيها إلى العشرين، وبعد العشرين يقال كثيرها.

والنبات إن اشتمل على أعضاء التذكير فقط سمي ذكراً، وإن اشتمل على أعضاء التأنيث فقط سمي أنثى، وإن اشتمل عليهما معاً سمي خنثى، كالداتورة والبنج وغيرهما.

ويقال أيضاً إذا كانت أعضاء التذكير والتأنيث في نبات واحد كما في الخروع وفصيلة القرع سمي ذا المسكن، وإن كانت أعضاء التذكير في نبات وأعضاء التأنيث في آخر سمي ذا المسكنين كالنخل وإن كانت أعضاء التأنيث والتذكير والخناثي معاً كما في الخرنوب والسنط سمي مزاوجاً. اهـ.

عجائب البزر

قد يكون للثمرة بزرة واحدة فيقال: أحادي البزر، أو بزرتان فيقال: ثنائي البزر، وهكذا إلى عشاري البزر، ثم ما زاد عن العشرة إلى نحو ٥٠ يقال له: قليل البزر، وما زاد على ذلك إلى نحو المئات والألوف يسمى كثير البزر. ويخرج من ساق الذرة المسماة بـ«العويجة» نحو ألفي حبة، ومن عباد الشمس نحو ٤ آلاف حبة، ومن رأس الخشخاش نحو ٣٢ ألف بزرة، ومن ساق نبات الدخان ٣٣٠ ألف حبة، وشاهد المعلم «دوهامين» حبة شعير نبت منها ١٥٠ سنبلة تحصل من مجموعها ٣٢٠٠ حبة، وشاهد المعلم «فلينيو» حبة «زمير» نبت منها ٣٤٠ ساقاً، لكل ساق سنبلة.

والعلماء يقسمون النبات باعتبار أعضاء التذكير أو أعضاء التأنيث أو البزور وهكذا. فانظر كيف دار علم العلماء في عصرنا الحاضر حول ثمر النبات من زهره وبزوره لمعرفة علمه ومنافعه.

كل هذا والمسلمون نائمون لا يدرون ماذا خلق الله في النبات، ولا بماذا تعرف أقسامه، ولا أيّ الطرق تسلك في معرفة أنواعه وأصنافه.

فلا عجب إذا ملك الفرنجة أكثر بلاد الإسلام، لأن الله لا يسلم أرضه إلاّ للعاملين فيها، ولا يخرج نباته إلاّ للذين يفقهون ويعقلون وينظرون ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ ويعرفون آيات ربهم ويؤمنون بها، بمثل هذا يكون الإيمان، وبمثل هذا يكون الإسلام.

أيها المسلمون، ألم يأن لكم أن تخشع قلوبكم لذكر الله وما نزل من الحق، وأن تدرسوا النبات الذي خلقه الله لكم. وكيف يقول لكم: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ ﴾ وأنتم مغمضون. وكيف تنظر أوروبا وأنتم لا تنظرون. أف لكم أيها المسلمون عار عليكم. ولعلكم تقولون إن الصحابة لم يدرسوا هذه العلوم، أقول لكم ما لكم وما للصحابة رضي الله عنهم، ولو كانت هذه العلوم في زمانهم لكانوا أسبق الأمم لها كما سبقوها بالفتوحات، ولكن القرآن جاء للناس جيلاً بعد جيل، وهاهو ذا الوقت الذي استأهل لتلك العلوم، فلنبيّن للناس مقاصد القرآن فيها، ولنحثّ المسلمين عليها، ولنبيّن لهم أيضاً أن الله يغضب على الأمم التي تجهلها، يغضب عليها لأنها لم تنظر، وبعبارة أخرى أنها كفرت النعمة ولم تشكرها؛ أعطانا بلاداً زراعية خصبة ونعماً عظيمة، فأغمضنا الأعين عنها. يا عجباً، أيها المسلمون، كان علينا أن نعرف هذه النباتات ونظر لثمرها، ولو لم يكن عندنا دين بل كان العقل يدل عليها، فكيف بنا وقد جاء الدين فطلبها، دين وعقل معاً يطلبان هذه العلوم، فكيف أنمنا عقولنا وديننا؟ أفلا يغضب ربنا على الكافرين بنعمه؟ المغمضين الأعين عن موائده التي نصبها، ونعمه التي نشرها، وهو الذي يقول: ﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾[إبراهيم: ٧] وهذا هو الشكر الفعلي لا الشكر اللفظي الذي يتلهى به الجهلاء وصغار العلماء، والله هو الولي الحميد.

هنالك قال لي صاحبي: كيف تقول إن المسلمين يجهلون هذه العلوم وبين يديّ كتاب مصري ألف أيام المغفور له محمد علي باشا بمصر، وفيه أن المعلم «لينيو» جعل أعضاء التذكير أساساً لتقسيم النبات، والمعلم «تورنيفو» جعل التقسيم على صفات التويج والثمر ومدة حياة الجذع، وفيه أن «لينيو» لم يفرق بين الأشجار والحشائش، وأن الزهر يكون خنثى وأنثى وذكراً، وأن الزهر سواء أكان ذكراً أو أنثى إما أن يكون ذا مسكن أو مسكنين أو كثير المساكن، فقسم النبات إلى ٢٤ رتبة وكل رتبة تحتها أجناس عالية، والأجناس العالية التي يسمى الواحد منها جنس الأجناس أيضاً تحت كل جنس منها أجناس، وتحت الأجناس أنواع وتحت الأنواع أفراد.

أما المعلم «جوسيو» فقد قسم النبات إلى قسمين عظيمين: الأول يشتمل على النباتات التي لا بزر لها. الثاني يشتمل على النباتات البزرية أو الفلقية، والقسم الثاني يشتمل على النباتات البزرية ذات الفلقة الواحدة وعلى النباتات البزرية ذات الفلقتين.

فأما القسم الأول من القسمين العظيمين فهي كالحشيش البحري ونحوه فإنه له حبوب صغيرة جداً.

وأما القسم الثاني من القسمين العظيمين فإن ما كان منه ذا فلقة واحدة فهو كالنرجس والبصل والقلقاس والزنبق، وقد تكون أزهار هذا القسم مجتمعة في طرف الجذع، وأعضاء التذكير قد تكون ٣ أو ٦ ويندر أن يكون واحداً، وأوراق هذا القسم يكن طولها أكبر من عرضها، كالنخل وبزرته منحصرة في جسم واحد فلقي. فأما النوع الثاني منه وهو ذو الفلقتين فبزرته تكون منحصرة في جسمين فلقيين لحميين، وهذا القسم يكون له كأس وتويج وأعضاء التذكير تكون خمسة فأكثر إلى مائة.

وهذه نبذة مختصرة من الأوصاف التي في الكتاب المشار إليها، فبأدنى التفاتة يعرف الإنسان النبات ذا الفلقة الواحدة والنبات ذا الفلقتين، فكيف تقول إن المسلمين مقصرون في هذه العلوم؟ قلت له هذا أكبر دليل على التقصير فإنه نقل عن الفرنجة أيضاً، نعم هذا العلم كان يدرس في مصر ولكن

ليس ذلك باعتبار أن الدين يطلبه، وكان على علماء الدين أن يفهموا الأمة أن هذا العلم مطلوب كالصلاة والزكاة والصيام والحج، وأن قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ يوجب هذا العلم في الإسلام الذي يبلغ ٣٥٠ مليون نفس أو أكثر، وهذا هو الذي يجب على علماء الإسلام في مستقبل الزمان ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[النور: ٤٦].

في هذا الشكل ترى الزهرة فترى لها الكأس الذي تقدم ذكره المسمى باللسان النباتي «سبلاً» وهو الذي نراه أخضر فوق الأوراق الملونة.



(رسم الزهرة شكل ٥)

وترى أوراق التويج وهو الملونة المسماة بـ«ستيلا» أو «بتلا»، وترى الوسط مؤلفاً من خيوط قائمة منتهية بانتفاخات عليها غبار أصفر فالخيوط اسمها «أسدية» جمع سداة، والانتفاخ اسمه «الانثير» والغبار اسمه «البلن» أو «الطلع» وفي مركز الزهرة نتوء بارز اسمه «المدقة» ينشأ من قاعدة الزهرة أو تحتها، والمدقة ثلاثة أقسام سفلى وهي قاعدتها ويقال لها المبيض، وعلوي وهو رأسها ويسمونه «السمة» وما بينهما يسمونه «القلم»، والأسدية أعضاء التذكير، والمدقات أعضاء التأنيث، وواسطة التلقيح «البلن» وهو اللقاح، يقع من «الانثير» على «السمة» في أعلى المدقة فيلقح بذورها في المبيض بأسفل المدقة. ثم إن اختلاف المدقات والأسديات والسبلات والبتلات ـ أي أعضاء التأنيث وأعضاء التذكير وأوراق الكأس وأوراق التويج ـ أفراداً وأزواجاً وقلة وكثرة ووضعاً واختلافاً واتفاقاً.

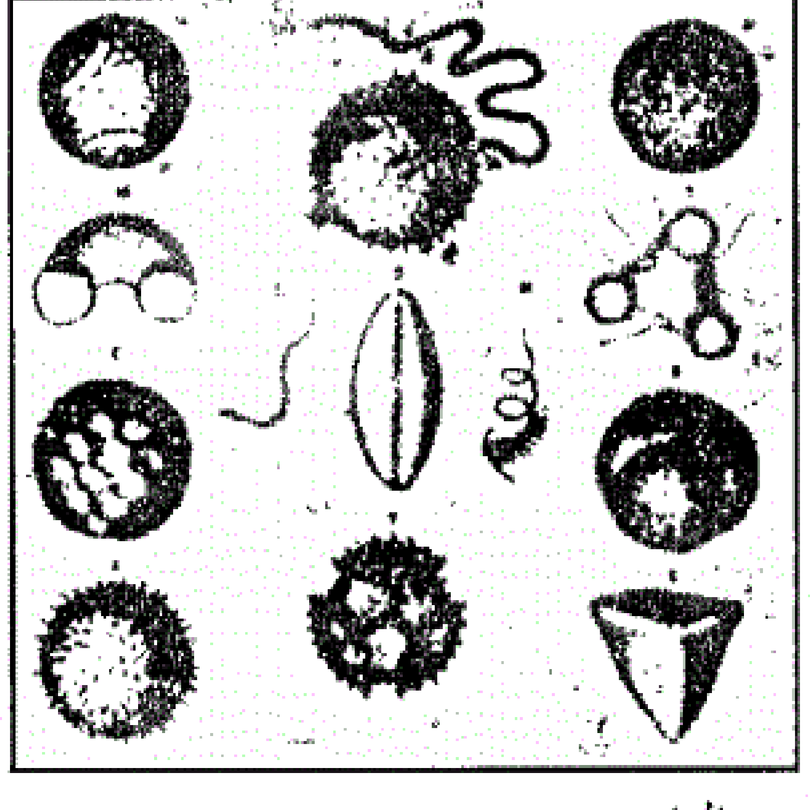
أقول: إن هذا الاختلاف به يمتاز النبات وبه تتمايز جميع النباتات التي تعدّ بالمئات، إذن الزهرة مفتاح علم النبات، مفتاح ذو سنّ واحدة وسنّين وثلاث وما فوقها. هذا هو مفتاح علم النبات الذي يشير له قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾، وقد ذكرها مرتين في هذه السورة، وهذا سرّ من أسرار القرآن.

أمر الله المسلمين بالنظر إلى الثمر، والنظر إلى الثمر يطلب النظر إلى الزهر الذي هو أصله، فهذا مفتاح آخر للعلوم لا مفتاح علوم العربية، فهذا مفتاح أيضاً من مفاتيح العلوم، أما الله فعنده مفاتح الغيب وهذه مفاتح العلوم ألقاها إليك امتحاناً واختباراً.

أشكال هندسية في الطلع المخلوق في الأزهار

ذكرنا فيما تقدّم أن الغبار الذي يسمونه «البلن» هو الذي به يكون لقح الإناث في الزهرة وهي السمة التي في أعلى المدقة، ثم ينزل ذلك الغبار إلى المبيض بأسفل المدقة، وهناك يكون الثمر الذي أمرنا بالنظر إليه.

إن من ينظر لهذا الغبار يظنه لا شكل له بل هو كالدقيق ، ولكن العلماء وجدوا بالبحث بالآلة المعظمة «المكروسكوب» أنه على أشكال هندسية جميلة مختلفة باختلاف النبات ، بل أشكاله جعلت قاعدة لتقسيم النبات أيضاً .



أنواع البلن وأشكاله

(رسم البلن شكل ٦)

المقصد الرابع

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ

ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتۡ
كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي
ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ
مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم
بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ
عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ
﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾
وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ
لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا
يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ
إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ
ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا
كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ
يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى
ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ
﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا
يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا
بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعۡشَرَ
ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ
هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ
كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلّٖ
دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ
يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾
إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي
عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

التفسير اللفظي

يقول الله : هاأنتم أولاء قد رأيتم النبات واختلافه بأعضاء التذكير وأعضاء التأنيث ، وأن منه الذكور ومنه الإناث ومنه الخناثي ، ومن هذا كان تقسيم النبات إلى رتب وأجناس عالية وأجناس ثم أنواع ثم أفراد ، فأنا المنوع والخالق للذكران والإناث ، فكيف تقولون إن لي بنات ، والذي يلد إنّما هو المخلوقات لا الخالق ، فالمخلوقات متنوعات والخالق لا يتنوع ولا يتغيّر . فكيف يقول العرب : إن الملائكة بنات الله فيعبدونها . ويقول اليهود : عزير ابن الله ، والنصارى : المسيح ابن الله . وكيف تجعلون لمن ينظم هذه المخلوقات من الأضواء والظلمات والنجوم والنبات والحيوان كما في الآيات السابقة شركاء ، فيقول الصابئون منكم : أيها الناس ، نعبد الملائكة ، ويعبد جهلة العرب وغيرهم من الصابئين المتأخرين الأصنام بوسوسة الشيطان لهم ، وإذا أنتم اتبعتموه في وسوسته فقد أشركتم الشيطان مع الله ، وكيف يقول الثانوية منكم : إن الله يخلق الخير والشيطان يخلق الشر ، وأنتم إذا فكرتم فيما ذكرنا في الآيات السابقة علمتم أن الخير والشر مني لا من خلقي ، وهذا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ « لله شركاء » هما مفعولا « جعلوا » ، و« الجن » بدل من « شركاء » والجن يشمل الملائكة لاجتنانهم أي : استتارهم ، وهذا يشمل آراء الصابئين في عبادة الملائكة ، والعرب في قولهم إنهم بنات الله ، والثانوية في أن الشيطان يخلق الشر الخ ماتقدم ، ﴿ وَ ﴾ قد ﴿ خَلَقَهُمْ ﴾ وهل من يخلق كمن لا يخلق ﴿ وَخَرَقُواْ ﴾ افتعلوا وافتروا ﴿ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ ﴾ فالبنون عند اليهود والنصارى ، والبنات عند العرب ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ من غير أن يعلموا . وهنا أخذ يؤكد الحجة ثانياً فقال : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ تنزيهاً له ﴿ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي مما يصفونه به من الكذب والافتراء ، وكيف يصفونه بذلك وهو ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ مكونهما على غير مثال سبق ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ أي من أين يكون له ولد ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ يكون منها الولد ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وإذا خلق كل شيء فهو الذي نوّعه وشكّله إلى ذكر وأنثى ، ويتفرع منهما فروع كثيرة ، والإله يستحيل عليه التكاثر ، ومن ذا الذي يحكم عليه بهذا التنوع والولادة ، ثم إن الولد يقوم مقام الأب عند فقده ، ويكون قائماً مقامه ، فالحاجة هي التي أوجبت الولد ، والله دائم فكيف يحتاج إلى الولد ، وأيضاً إنه يعلم كل شيء فهو ينوعه ذكر وأنثى ويحكم عليه بذلك ، ولا حكم لأحد على الله ، ولا يحيطون به علماً ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الموصوف بما سبق ﴿ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ هذه أخبار بعضها من بعض ، وإذا كان متصفاً بهذه الصفات ﴿ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ ولا تعبدوا الشيطان والأصنام والملائكة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي متولي أموركم فوكلوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى نجاح مآربكم ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ المركبة من مواد أرضية لأن الله ليس مادة ولا جسماً ، وأبصاركم وأبصار الحيوان قاصرة على رؤية الأجسام ، وإنّما ترونه بعيون غير جسمية إذا صفت نفوسكم وتأهلتم لرؤيته بتلك العيون التي لم تخلق ، وإذا كان الجن والشياطين لا ترونهم ، والملك إذا نزل إليكم ، كما في أول السورة ينزل في صورة رجل ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الآية : ٩] فالله أجلّ من الملائكة فهو أولى وأحقّ ألاّ يرى بأبصاركم ، وإذا كانت الجن جاء فيها إنهم يرونكم من حيث لا ترونهم ؛ فبالأولى يكون الله عزّ وجلّ خالق الجن وخالق الملائكة ، وقد جاء في

الكشف الحديث كما ذكرناه في أول السورة ما يناسب هذا، وأن الأرواح الملكية والشيطانية لا ترى إلاّ إذا استعارت من جسم الوسيط مواده فظهرت بهيئة الروح التي كانت عليها في الدنيا، ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ ويحيط بها علماً كما يحيط بكل شيء ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ﴾ فلا تدركه الأبصار ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ فيدرك الأبصار.

ولما كان هذا المقام أدلته علمية طبيعية، وقد استوفى البحث فيه، أعقبه بقوله: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ البصائر: جمع بصيرة، وهي للنفس كالبصر للبدن ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ ﴾ الحق فآمن به ﴿ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ أبصر ﴿ وَمَنْ عَمِىَ ﴾ جهل ﴿ فَعَلَيْهَا ﴾ على نفسه عمى ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ برقيب أحصي أعمالكم وأفعالكم، وما أنا إلاّ رسول. ولما كان من عادة القرآن أن المقام إذا كان مستوفي البيان أعقبه بما يدل عليه قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَـٰتِ ﴾ أي: نفصل الآيات في كل وجه كما صرّفناها وبيّناها من قبل، لتلزمهم الحجة ﴿ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ ﴾ اللام هنا: لام العاقبة، أي: ليقولوا قرأت على غيرك، يقال: درس الكتاب إذا أكثر قراءته. وكان أهل مكة يقولون: تعلمت من يسار وجبر ـ وكانا عبدين من بني الروم ـ ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله، أو تعلمت من اليهود. ولما كان القرآن نزل ليضل به كثير ويهتدي كثير، وقد ضلّ من قالوا درست، أعقبه بالمهتدين به، فعطف على قوله: ﴿ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ ﴾ قوله: ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: لنبين الآيات باعتبار المعنى أو للقرآن وإن لم يذكر لكونه معلوماً، وملخصه: أنه يضلّ به قوم ويهتدي به آخرون، ثم قال: ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ بالتدين به ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ جملة اعتراضية ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ولا تلتفت إلى آرائهم إلى أن يأتي لك الأمر بالقتال.

ولما كان دين الإسلام من قواعده الإيمان بالقضاء خيره وشرّه من الله؛ مع وجوب استعمال العقل في جميع الأحوال الممكنة؛ تمريناً للنفس لتعرج إلى عالم القدس، وكان من فضائل هذه العقيدة أنه إذا تعسر أمر ولم نجد حيلة لتحصيله فوّضنا الأمر إلى الله لتسير النفس وتجدّ فيما لا تقدر عليه، ولا تتقطّع أسفاً وحسرة على تفريطها وهي غير قادرة على شيء، أردفه بما يسهّل الأمر على رسوله تسلية له فقال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ فلا تحزن عليهم ﴿ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ رقيباً ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ تقوم بأمرهم. ولما كان من الإعراض عنهم أن لا يسبّوا آلهتهم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: لا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح ﴿ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا ﴾ تجاوزاً عن الحقّ إلى الباطل ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ على جهالة، وقد كان المسلمون في صدر الإسلام يسبّون الأصنام، وكان الكفار يردّون عليهم، فنهاهم الله عن ذلك وهم ضعفاء، وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها؛ فإن ما يؤدّي إلى الشر شر، وكما زيّنّا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام؛ زيّنّا لكل أمّة عملهم من الخير والشر على حسب استعدادهم، لأننا وضعنا كل أناس في مراتبهم التي يستحقونها، فإذا كفر قوم ونحن أردنا ذلك، فما كان كفرهم الذي أردناه ظلماً لأننا نظمنا الملك وجعلنا فيه درجات كالحيوانات والنباتات وهي درجات بعضها فوق بعض. هكذا هؤلاء كفروا لأنهم لم يصلوا للاستعداد لتلقّي الإيمان، كما لم تصل البهائم للدرجات الإنسانية، ولم تصل الأطفال لدرجات الرجال، فلو كان كفرهم ظلماً منّا لكان أغلب أعمالنا ظلماً، فلا يكون في الأرض

حيوان ولا نبات ولا صبيان ولا عصاة؛ بحجة أن غيرها أفضل منها، وهذا قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ وعلى ذلك يجعلهم بعد الحياة في المراكز التي استعدّوا لها ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ولما كانت منزلة هؤلاء لا تسمح لهم بالتعقل والكبرياء حجاب مانع لهم من الفهم؛ اقترحوا عليك الآيات وخوارق العادات؛ وقالوا: اجعل لنا الصفا ذهباً، وابعث لنا بعض موتانا نسأله عنك أحقّ ما تقول أم باطل، وأرنا الملائكة يشهدون لك عياناً، فنزلت الآية الآتية قائلة: إن الآيات التي كانت تنزل على الأنبياء السابقين كعيسى وموسى من ضرب الحجر بالعصا فينبع ماء؛ وإحياء الموتى؛ وما أشبه ذلك لا يرقّي العقول الإنسانية، ولا يرفع الإنسانية إلاّ التعقّل والتفكّر، كما أنزلنا في هذا القرآن، وهذه الأمم كانوا بعد الإيمان يرتدّون إذا شاهدوا ما هو حسن في نظر أعينهم. فأما العقل فهو المرشد الحكيم؛ كما حصل في سحرة فرعون إذ آمنوا بموسى لما عرفوا أن علمه فوق طاقتهم. فأما الجهلة وهم بنو إسرائيل فإنهم لما رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم قالوا: ﴿ قَالُوا يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[الأعراف: ١٣٨]. فهكذا هنا إذا نزلت آيات كهذه لا تنفعهم، وإنّما نريد أن نجعلهم علماء لا يرتدّون عن دينهم متى شهدت عقولهم؛ كسحرة فرعون؛ وهذا هو قوله: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ أي: جاهدين في الإتيان بأوكد الأيمان ﴿ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ ﴾ مما اقترحوه ﴿ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ هو قادر عليها يظهر منها ما يشاء وليس شيء منها بقدرتي، والله منعها عنكم حتى يكون إيمان من يؤمن مبنياً على العقل لا على حاسة البصر ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ أي: وما يدريكم؛ استفهام إنكار ﴿ أَنَّهَآ ﴾ أي: الآيات المقترحة ﴿ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بها كما حصل في الأمم السابقة؛ كما في سورة أخرى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[الإسراء: ٥٩] ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ ﴾ عطف على ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: وما يشعركم أنّا حينئذ نقلب أفئدتهم عن الحق فلا يفقهونه ﴿ وَأَبْصَٰرَهُمْ ﴾ فلا يبصرونه، فلا يؤمنون بها ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ ﴾ أي: بما أنزل من الآيات ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وندعهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين لأننا وضعناهم في مرتبتهم فلا يتجاوزونها ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ كما اقترحوا فقالوا: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[الفرقان: ٢١]، وقالوا: ﴿ فَأْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ ﴾[الدخان: ٣٦] ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا ﴾ أي: وجمعنا عليهم كل شيء من الطيور والدواب مقابلة ومواجهة أو قبيلة قبيلة. وقرئ «قبيلاً» أي: كفيلاً بما بشروا به وما أنذروا به ﴿ مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ إيمانهم لأن المدار على الاستعداد، وأيضاً الأمور المحسوسة لا ثبات لها بخلاف العقلية ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ مثل هذه الحكم فلا يعلمون أنهم لو أوتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد إيمانهم على ما لا يشعرون وهذا على حسب الاستعداد.

ثم أخذ يعزي رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أصاب الرسل فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا ﴾ من المجرمين، أي: كما جعلنا لك هؤلاء أعداء جعلنا لكلّ نبيّ سبقك عدوًّا؛ لأن هذه الدار دار جهاد؛ وعلى مقدار الصبر يكون الارتقاء، فلا داعي إلاّ ناله من الأذى على مقدار مقامه في العمل والدعوة، ثم أبدل من قوله: عدوًّا ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ أي: مردة الفريقين ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ ﴾ يوسوس بعض الإنس إلى بعض وبعض الجن إلى الجن وإلى الإنس الأباطيل

المموهة من زخرفه إذا زيّنه ﴿ غُرُورًاۚ ﴾ أي : لأجل الغرور ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ ﴾ إيمانهم ﴿ مَا فَعَلُوهُۖ ﴾ أي : ما فعلوا معاداة الأنبياء وإيحاء الزخارف ، وإنّما كان الشياطين من الجن ومن الإنس مدفوعين إلى ذلك بعوامل الفطر المغروسة بهم . ولا ريب أن الأرواح الشريرة تسمع ما يقول الناس في هذه الدنيا ، وقد جاء في علم الأرواح حديثاً أن الأرواح البشرية الناقصة التي هي أشبه بالجن تستمع للكلام الذي يقوله الناس ؛ بل هي محجوبة عن العالم الأعلى ، فتكون عقولها أقرب إلى أهل الأرض الأحياء ، فتهتدي وتؤمن وتكفر كالناس الأحياء ، فصارت الأرواح الجاهلة كالأحياء الجاهلين ، والنبي صلى الله عليه وسلم أرسل للطائفتين ، ومثل هذا القول علمه سماعي ليس للعقل فيه دخل ، ولكن العلم الحديث الروحي جاء بتصديقه كما سيأتي في آخر هذه المباحث . والحق أن مثل هذا لا يعرف إلاّ بالعلوم الحديثة ، فأما بغير ذلك فإنها سماعية وليس عليها دليل إلاّ السمع ، فقراءة العلوم الحديثة الروحية وغير الروحية أمر حتم على المسلمين النائمين على ظهر هذه الأرض ، وقد أنذرت وحذرت ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾[هود : ٨٨] قال : ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : وكفرهم وعطف على ﴿ غُرُورًاۚ ﴾ فيما تقدم قوله : ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي : ليغرّ بعضهم بعضاً ولتصغي الخ ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ لأنفسهم ﴿ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ أي : وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الآثام .

ولما أنهى الكلام على دحض ما اقترحوه وبيان ضلالهم وغرورهم ، شرع يذكر أن الله هو الحكم بيني وبينكم ، وأن القرآن كاف لتعقلوا ما فيه من العلم والإرشاد ، فقال : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ أي : أطلب من يحكم بيني وبينكم ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ ﴾ أي : القرآن ؛ مبيناً فيه الحق والباطل ، بحيث ينفي التخليط والالتباس ، فأما الآيات التي اقترحتموها ؛ وهي حسيّة ؛ ففيها التخليط والالتباس ولا تفيد يقيناً ، فلذلك منعناها ، لأننا نريد أمماً تكون أرقى من الأمم السابقة ، لا سيّما أننا بعثنا محمداً صلى الله عليه وسلم آخر رسول في الأرض ، ومن أراد أن يعرف الإسلام فليطّلع على الكتب الدينيّة أو الكتب العلميّة التي تظهر دقائق الكون ، فهؤلاء متى عرفوا حقائق تلك الكتب آمنوا بالقرآن ، وهذا قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ ﴾ وأهل الكتاب هنا أعمّ من اليهود والنصارى ، بل أعمّ من أهل الكتب السماويّة ، لأن اللفظ عام ، وإنّما عمّمنا لأن شهادة العلوم العصرية كثيرة جداً ، والكشف الذي ذكرناه في هذا التفسير يعدّ بالعشرات ولم يكن كثير منه معروفاً عند الأمم السابقة ، فقراءة العلوم اليوم في الشرق والغرب تورث الإيمان بالقرآن ؛ كقراءة المتدينين الكتب الدينية التي فيها ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، كإنجيل برنابا الذي يطارده الفرنجة ، وقد أمروا بإحراقه في ديارنا المصرية ، وذلك لأنهم كانوا قابضين على زمام الأمور في هذه الديار ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ﴾ أيها الإنسان السامع لهذا القرآن ﴿ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ الشاكّين في أنه منزّل من عند الله تعالى ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ القرآن بالأمر والنهي ﴿ صِدْقًا ﴾ في قوله ﴿ وَعَدْلًاۚ ﴾ منه ﴿ لَّا مُبَدِّلَ ﴾ لا مغيّر ﴿ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ ﴾ القرآن ، ويقال : تمت ووجبت كلمة ربك بالنصر لأوليائه ، صدقاً في قوله ، وعدلاً فيما يكون ، لا مبدّل : لا مغيّر لكلماته بالنصر لأوليائه ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لمقالتهم ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بهم وبأعمالهم .

ثم أتى بقاعدة عامّة تشمل جميع أهل الأرض فقال: إن الكوكب الذي تعيشون فوقه من العوالم التي في درجة منحطّة، وأهلها ليسوا كاملين، وإنّما أرسلناك إليهم لتصلح من شأنهم فقال: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وليسوا على بصيرة، ومنهم هؤلاء الكفار الذين يقلدون آباءهم ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ يكذبون لبعدهم عن الحقائق. ولقد خلقناهم وعلمنا مقدار استعدادهم، فنجعل كلًّا في مرتبته التي استعدّ لها ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ﴾ بـ﴿مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ فقوله: «من يضل» مجرور بناء، وهما متعلقان بـ«أعلم» ودلّ عليها «الباء» في قوله: «بالمهتدين» وهي نظيرتها، ويصح أن يجعل «من» منصوباً بفعل محذوف؛ أي: يعلم الخ، لأن «أفعل» لا ينصب الظاهر.

ثم أخذ يذكر نتائج إنكار اتّباع هؤلاء؛ كأكثر أهل الأرض لجهالتهم، فأمر بأكل ما يذبح مقروناً بذكر اسم الله على ذبحه، ولم يبح مخالفة ذلك إلاّ لضرورة كما تقدم مراراً، ثم عمم الأحكام فأمر بترك كل إثم ظاهر وباطن لتتخلص النفوس من ظلمة هذه الدنيا، وخصّ الكلام على تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه ليقتلع العادات الوثنية، ووصفه أنه فسق، وأفاد أن قوماً من الكفّار يوسوس بعضهم إلى بعض ليتعاونوا على مجادلتكم، فإياكم ومطاوعتهم. وهل يستوي الفريقان؟فريق كان ميتاً فأحييناه وفريق لا يزال في الظلمات يتخبط في بحورها. وهذان الفريقان سائران على ما زيّناه لهم، فريق المؤمنين الذي أحييناه وفريق الكافرين الذي أبقيناه في الظلام، فكلٌّ يعمل على شاكلته، وربك أعلم بمن هو أهدى سبيلاً.

ثم أبان داء الأمم العضال وهم الرؤساء وعظماء الأمم، فأفاد أن هناك قاعدة عامّة وهي: أن كل قرية وأمّة قد صيّرنا مجرميها أكابر فيحدثون فيها المكر وسوء الخلق والخلاعة والفسوق والمثل السوء، والناس تبع لهم، وكل ذلك وباله واقع عليهم، فإن من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، والناس يحاسبون على مقدار ما عندهم من قوّة وقدرة، ومن إجرام هؤلاء الذين هم أعداؤك أن يقول بعضهم كأبي سفيان: لن نؤمن لك حتى يوحى إلينا كما أوحي إلى محمد وسائر الرسل، وكيف يكون ذلك والرسالة إنّما تكون لمن هم لذلك مستعدّون، ولا جرم أن مثل هذا استكبار وتعاظم والعقاب عليه بضدّه، وسيصيب هؤلاء المجرمين صغار وذلة وعذاب شديد.

وختم هذا المقام بأن مسألة الإيمان ترجع إلى شرح الصدر، ومسألة الإضلال ترجع إلى ضيق الصدر، فالرسالة استعداد والإيمان استعداد والضلال استعداد، والله هو المحدث لذلك، وعلى الناس الجدّ والبحث والتنقيب، والجزاء يكون على مقدار الأعمال، وهذا قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ

مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ تفسير هذه الآيات ظاهر؛ ولكن لا بدّ من بيان بعض الكلمات، فقوله: ﴿ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ ﴾ أي: وأيّ غرض لكم في أن تتحرجوا عن أكله وما يمنعكم عنه، وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ بالمجاوزين الحق إلى الباطل؛ أي: فيجازيهم، وقوله: ﴿ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ ما يعلن وما يسرّ وما بالجوارح وما بالقلب، وقوله: ﴿ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ ﴾ أي: يكسبون الذنب، وقوله: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ ﴾ مذهب داود: أن متروك التسمية حرام، وقال الشافعي: لا يحرم مطلقاً، وأبو حنيفة قال: إن ترك التسمية عمداً لا تحل؛ وإن تركها ناسياً تحل، وأحمد: ورد عنه روايتان فيمن ترك التسمية عمداً، ومن تركها ناسياً حلت له، وقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ ﴾ قالوا: يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها؟ فقال: الله قتلها، قالوا: فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال؛ وما قتله الكلب والصقر حلال؛ وما قتله الله حرام؟وقوله: ﴿ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ ﴾ أي: في أكل الميتة، وقوله: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ ﴾ ميتاً أي: كافراً، فأحييناه أي: هديناه وأرشدناه للعمل الصالح، وقوله: ﴿ مَّثَلُهُۥ ﴾ أي: صفته، وهو مبتدأ؛ خبره قوله: ﴿ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ وقوله: ﴿ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ ﴾ حال من الضمير المستكنّ في الظروف، وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ ﴾ الخ أي: كما جعلنا في مكة ﴿ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ ﴾ صيّرنا في كل قرية مجرميها أكابر، وقوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ ﴾ الخ، روي أن الوليد بن المغيرة قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «لو كانت النبوّة حقًّا لكنت أنا أولى بها منك لأني أكبر منك سنًّا وأكثر منك مالاً». وروي أن أبو جهل قال: «زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منّا نبيّ يوحى إليه، والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبداً إلاّ أن يأتينا وحيٌ كما يأتيه». وقوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ حيث: مفعول به؛ والعامل محذوف والتقدير: يعلم موضع رسالته، ولا موضع إلاّ نفوس مشرقة بالفضائل، ولا دخل للنسب ولا للمال. ومعنى: ﴿ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ ﴾ يفسحه فيتّسع لقبول الهدى، وقوله: ﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي: ينبو عن قبول الحق، ومن ضيق صدره كأنه يزاول ما لا يقدر عليه من صعود في السماء فيكون الإيمان ممتنعاً عليه امتناع صعود السماء، وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ﴾ الخ أي: كما يضيّق صدره يجعل العذاب أو الخذلان عليهم، وقوله: ﴿ وَهَٰذَا ﴾ إشارة إلى البيان المتقدم من الخذلان والتوفيق ﴿ صِرَٰطُ رَبِّكَ ﴾ الطريق الذي ارتضاه، أو: عادته وطريقه الذي اقتضته حكمته ﴿ مُسۡتَقِيمٗاۗ ﴾ لا عوج فيه، أو: عدلاً مطرداً، وهو حال مؤكدة، وقوله: ﴿ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فيعلمون أنه القادر، وأن ما يحدث من خير وشر فهو بقضائه وقدره، وأنه عالم بأحوال العباد، وقد وضع كلًّا في مركزه لحكمته التامّة، ثم بيّن أن هؤلاء الذين يذكرون ﴿ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ أي: دار السلامة من المكاره ومن كلّ آفة ﴿ عِندَ رَبِّهِمۡۖ ﴾ في ضمانه، أو: ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره؛ وهي الجنة؛ وأعلاها أن يكونوا ﴿ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴾[القمر: ٥٥]، ويكونون

وجوههم ناضرة إلى ربها ناظرة، ويرون ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الجمال الفائق والحسن الناضر والبهجة والاطلاع على العوالم العلوية وإشراق شموسها وبهجتها، فيسكرون بخمرة العلم وهم فرحون مغبوطون، ثم قال: ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ مواليهم وناصرهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: بسبب أعمالهم.

ثم أخذ يشرح حال الشياطين من الإنس والجن، ولقد أظهر علم الأرواح في الكشف الحديث أن الأرواح الشريرة توسوس لأمثالها من الأحياء بما يناسب طبائعها، ويوالونهم ويودّون أن يكونوا على طرائقهم، وأهل العلم والفضلاء يعطون الأحياء إرشاداً وتعليماً نافعاً كما كانوا في الدنيا، وعلى ذلك يكون الفاسقون الميتون من البشر ملحقين بالجن في الوسوسة، والصالحون الميتون ملحقين بالملائكة في الإلهام.

وهذا الكشف الحديث الذي ملأ أمريكا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وجميع بلاد العالم ما عدا المسلمين؛ هو الذي به يكون تفسير القرآن. فيا عجباً كيف يصبح ما كان سماعيًا في الإسلام محسوساً ملموساً؟ يا عجباً كيف يقول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣] وقد سمعت أيها الذكي في هذا التفسير من علوم الآفاق كعلم طبقات الأرض وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم الفلك العجب العجيب، فهاك أسمعك من علم الأنفس الذي عرفه جميع العالم إلاّ المسلمين؛ حتى إذا جاءت الآيات السابقة وجدتها منطبقة عليه تمام الانطباق.

لقد جاء في كتاب الأرواح الذي نقلت فيه ـ قبل هذا التفسير ـ عن علماء أوروبا كثيراً مما جاء في الجمعيات النفسية أن علماء تلك الجمعيات سألوا روحاً أحضروها بالوسيط وألقوا عليها أسئلة منها: ماذا يقصد الروح الشريرة بظهوره لإنسان ما؟ فكان الجواب: يقصد إزعاجه أو الانتقام منه. وسئل ماذا يقصد الروح الصالح بتجلّيه؟ فأجاب: يقصد تعزية من يبكي على فقده، وإثبات وجوده، وبذل النصيحة لمن يحبه، أو طلب الإسعاف لنفسه. وهناك قال الروح الذي وجّهت إليه أسئلة كثيرة ما يفيد أن الأرواح تحيط بالناس من كل جانب، وأن رؤيتها تعرقل مساعي الناس في أعمالهم، فلذلك لم تجعل رؤيتهم عامّة الخ.

وهناك ذكرت ما يناسب هذا من الإحياء في الجزء الثالث صفحة ٢٦ وهو: أن خواطر الخير بإلهام الملائكة للمستعدّين لذلك الإلهام، وأن خواطر الشر من الشياطين، والقلب بينهما. وهناك ذكر الحديث الآتي: «في القلب لُمّتان: لُمّة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وتعالى، وليحمد الله تعالى، ولُمّة من العدوّ إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٦٨]».

ولقد جاء في هذا الكتاب وفي كتب أخرى كثيرة كالتي ألّفها صديقنا «محمد فريد وجدي» أن الناس في أوروبا وأمريكا يجلسون ويحادثون الأرواح بطرق معلومة عندهم ـ كما تقدم في سورة البقرة ـ ويلقون إليهم أكاذيب وحكايات خيالية، ما دام المحدِّثون من الإنس من الأنفس الناقصة، وأن الذين يكلمونهم من الأرواح يكونون على مقتضى مذاهبهم وأخلاقهم، وأن الأرواح العالية لا تخاطب

النفوس الناقصة، وأن الناقصة تألف الناقصة ويفرح بعضها ببعض، وأن بعض الأرواح الشريرة تألف الناس وتسمع نصائحهم وتفهم أقوالهم؛ لتعلقها بالأرض ومن فيها، وعلى ذلك يكون العلم الحديث تفسيراً فعلياً للقرآن، وتكون سورة: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾[الجن: ١] الخ؛ قد أصبحت مكشوفة واضحة ظاهرة، وأن إيمان الجن أصبح من اليقينيات لا من المسموعات. وأنا أقول: سيقرأ هذا القول من الناس متكبّر مراءٍ فيقول: كيف نصدّق الخرافات؟ نقول له: القرآن جاءنا فسمعناه، والعلم في أوروبا جاء بهذا حتى أصبح مشتهراً على أيدي ملايين بل مئات الملايين من الناس، وفيهم فلاسفة وعلماء، وهو مطابق مطابقة تامّة لكتابنا المقدس، فإمّا أن نقول: إن هذا وعد الله بأن يرينا آياته في أنفسنا كما سمعناها بالقرآن؛ وإذن يصبح هذا القرآن يقيناً، أي: على مقتضى العلم لا بمجرد التسليم، وإما أن نقول: نشك في كلامهم؛ وإذن يجب البحث كما بحثوا، وقد تقدّم هذا مشروحاً في سورة البقرة فارجع إليه إن شئت. وإني أعتقد أن هذا التفسير سيفتح باباً للأمم الإسلامية يدخلون منه إلى علوم أمم الأرض قاطبة؛ ويخرجون من ظلمات الجهالة إلى حظيرة نور العلم والعرفان، والله الموفق الهادي إلى طريق الصواب.

إذا عرفت هذا فهمت قوله تعالى: ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ الضمير لمن يحشر من الجن والإنس، فنقول: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ أي: من إغوائهم، لأنكم لقربكم من أخلاقهم وإلفكم عوائد أهل الأرض وبعدكم عن العالم العلوي توسوسون لهم وتجذبونهم إلى أخلاقكم. ومن عجب أن علم الأرواح قد جاء فيه: أن الأرواح العلوية لما سألت: هل يمكن التخلص من الوسوسة؟ فأجابت: نعم؛ ذلك لا يكون إلاّ للنفوس الراقية في الأرض عندكم، وقليل من هو راق، والنفوس العالية عندكم لا تجسر الأرواح الشريرة على الاقتراب منها. وهذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[الحجر: ٤٢]، فاستكثار الجن من إغواء الإنس إنّما يكون في الطبقات الجاهلة الفاسقة فيحشرون معهم، لأن أرواح الأحياء إذا ماتت لا تجد مكاناً إلاّ مكان أمثالها من الأرواح المنحطّة، وهي التي كانت توسوس لهم من أرواح الجن، ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ الذين أطاعوهم ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ أي: انتفع الإنس بالجن والأرواح الشريرة المناسبة للأحياء بأن دلّوهم على الشهوات التي كانت تلك الأرواح تقترفها في الدنيا، لأن الإنسان إذا عجز عن شهوة أنس بمن يتعاطاها؛ كما ترى ذوي الشهوات يحبون النظر لمن يتعاطونها إذا عجزوا عن إتيانها؛ استرواحاً لفصل الموافقين في الأخلاق والعادات والأحوال، والنفس لا تألف إلاّ أمثالها، ولا تحب إلاّ من على شاكلتها، وتهوى أن ترى من يوافقها ويشاكلها. فهؤلاء يقولون: ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ بالبعث ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ ﴾ منزلكم؛ أو: ذات مثواكم ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ حال ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي: يخلدون في عذاب النار أبداً إلاّ الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب السعير إلى عذاب الزمهرير ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ فيما يفعل بأوليائه وأعدائه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأعمالهم فيجزي كلاً على وفق عمله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا ﴾ أي: نكل بعضهم إلى بعض، أو: نجعل بعضهم يتولى بعضاً فيغويهم ويكونون قرناء في العذاب كما كانوا في الدنيا ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والمعاصي.

ثم خاطبهم خطاباً عاماً فقال: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ وقد اختلف المفسرون أمن الإنس الرسل أم منهم ومن الجن؟ خلاف أطال فيه المفسرون، والعلم الحديث طابق الآية مطابقة تامّة وهو: أن كثيراً من الأرواح الموسوسة للناس ملحقة بالجن لأنهم على شاكلتهم في الشر؛ فيوسوسون للناس كما توسوس الجن. ومعلوم أن هذا الفريق من الأرواح كانوا في الأرض ومذاهبهم التي كانوا عليها قد ثبتت في أذهانهم فهي لا تفارقهم فيوسوسون بها ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [الإسراء: ٧٢] فتبقى عقائدهم راسخة فيوسوسون بها، وبعضهم قد يسمع نصح أهل الأرض وهو في حال الموت فيقلل الشرور والفساد في أعماله، وبهذا يفهم قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ فإذن جميع الأنبياء يسمعهم الجن والإنس، وفي الجن قوم ربما ينتفعون بما يسمعونه كما في آية: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الجن: ١] الخ؛ فأنذروا قومهم، وهذا القول قبل العلم الحديث ما كان العقل يصدقه ويقرّ به، بل يراه من الأمور البعيدة عن العادة، فتعجب من القرآن كيف أخبر بما لم يكن معروفاً مشتهراً إلاّ عند المسلمين، فهم وحدهم الذين لا يعلمون إلاّ قليلاً منهم، وهؤلاء يعرفون أن قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ قد طابق العلم الحديث، ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ قَالُوا۟ ﴾ جواباً ﴿ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾ كما يقول الناس اليوم حينما تحتل دولة أجنبية بلادهم: نحن مفرطون مذنبون جاهلون وكما يقول الفساق: لقد أضعنا حياتنا في فسوقنا، ويقول الذين ابتلوا بشرب الخمر أو التدخين: لقد قتلتنا عاداتنا السيئة القبيحة، هكذا عذاب الآخرة ما هو إلاّ نتائج للعادات والأخلاق والأحوال المكتسبة، ويقال فيها ما يقال في الدنيا فيشهد الناس على أنفسهم ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾. ولما كان من عادة الله في خلقه ألاّ يجعل الأمور طفرة؛ بل يأتي لها بمقدمات كالمرض مثلاً يتقدم الموت، والرياح تتقدم المطر، وكذلك البرق ليستعد الناس، هكذا لم يشأ أن يترك القرى وشأنها؛ فلا بدّ من ظهور نابغين فيهم؛ إما بالحكمة والعلم وإما بالنبوة، ولذلك قال: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من بعث الرسل وإنذارهم سوء العاقبة ﴿ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ هذا تعليل للحكم المتقدم، أي: لأن الشأن لم يكن ربك مهلك أهل القرى بسبب ظلم فعلوه وهم غافلون لم ينبّهوا برسول، أو: لم يكن ربك مهلك القرى بظلم منه وهم غافلون.

وإذا كان الله أرسل الرسل فقد انتفى الظلم ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ من المكلفين ﴿ دَرَجَٰتٌ ﴾ مراتب ﴿ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ من أعمالهم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ فيخفى عليه عمل ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ﴾ عن العباد والعبادة، ولكنه جعل ذلك ترقية للناس ليخلّصهم من المادة، وهو ﴿ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ يترحم عليهم بالتكليف ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾ ممن يصلحون لسكنى أرضه، وقد حصل ذلك؛ فقد زالت أمم ودول كأهل أمريكا الأصليين وغيرهم ﴿ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ أي: قرن بعد قرن ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ ﴾ من البعث وأحواله ﴿ لَءَاتٍ ﴾ لكائن لا محالة ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي: بفائتين طالبكم، ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ على غاية تمكنكم واستطاعتكم ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ على

مكانتي التي أنا عليها وما أمرني به ربي، أي: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة فإني ثابت على الإسلام ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ﴾ أي: الذي له عاقبة الدار ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي: الكافرون، وضع موضعه الظالمون لأنه أعمّ فائدة. انتهى التفسير اللفظي لهذا المقصد.

لطائف هذا المقصد

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾.

اللطيفة الثالثة: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

اللطيفة الرابعة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ﴾.

اللطيفة الخامسة: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ الخ.

اللطيفة السادسة: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾

واللطيفة الخامسة: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ ﴾ الخ

إن الكلام مع الموتى الآن أكبر آية أنزلها الله للناس لما فسدت العقائد وقد امتلأ بها السهل والجبل، نعم في هذا الكلام شك، والعلم لا يزال فيه نقص ولكن الشك في العلم لا يوجب تركه، فإن العلماء الذين يعدون بمئات الألوف يشتغلون فيه الآن، فارجع إلى ما كتبته في سورة البقرة، وإلى كتاب الأرواح الذي ألفته، وإلى ما كتبه حضرة: «محمد أفندي فريد وجدي»، وكذلك الكتب الإفرنجية المنتشرة في العالم الإنساني، وسترى في هذه الكتب ما يدهش العقول، وإن الناس في العالم الإنساني اليوم يتحادثون مع الأرواح بطريق «الطاولة» أو بطريق «الكتابة» أو بطريق «التنويم المغناطيسي»، وهناك من الشك والريب تارة والتصديق تارة أخرى ما لا يحصى، وترى هناك أن النفوس الإنسانية الناقصة لا يأتي لها ولا يحادثها إلاّ الأرواح التي على شاكلتها، وتعطي لها معلومات مما يناسب أمور معاشها وأحوالها الدنيوية، وهذه تكون ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾[النور: ٣٩]، وتصبح تلك الأرواح هازئة بالأحياء ضاحكة عليهم استهزاء، وتارة تخبرهم بأخبار يظهر كذبها فيما بعد لقصور نظر الأرواح وإن لم تقصد هزواً ولا سخرية، وأما الأرواح العالية فهي لا تتنزل إلى صغائر الأمور، ولا تهتم إلاّ بالأمور العلمية، ولا تطيع من يدعوها إلى الاستفهام عن الأمور الشهوية، وتقول: إننا لا نحب أن ندخل معكم فيما يجعلكم معلقين بالدنيا، بل تخليكم عنها وفقركم وبؤسكم يقربكم من العالم الأخروي. وهذه الأقوال قد شرحتها في كتاب الأرواح وعجبت كل العجب من أنها موافقة للحكمة الإسلامية ولما شرحه الإمام الغزالي في الإحياء، وأيّ معجزة للقرآن أكبر من هذه وكيف يظهر ملخص الدين على ألسنة الأرواح.

عجائب القرآن ومعجزاته في القرن العشرين في آية :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا ﴾ الخ

أفادت هذه الآية أن الإيمان بالله واليوم الآخر تابع لمشيئة الله واستعداد الإنسان ، فليست البراهين بمغنية ما دام المرء لا يستعدّ ، والقضاء لم يسعد ، وهذا بعينه الحاصل الآن . ألم تر إلى أننا اليوم في القرن العشرين نسمع أن العلماء في أمريكا وأوروبا يكلمون الموتى ، ومع ذلك نرى بعض المتعلمين في بلادنا الشرقية يكفرون بالله واليوم الآخر ، ولا يقلدون في الإيمان ساداتهم من الفرنجة الذين كفروا تقليداً لهم فلما آمنوا لم يقلدوهم وهذا هو ما في نفس الآية . فالله تعالى أذن للناس أن يكلموا الموتى في عصرنا الحاضر كما في الآية ، ولا يزال الناس فريقين : كافراً بالله واليوم الآخر ، ومؤمناً ، وهذا معجزة باهرة ، ومن غرائب ما حدث في هذا الدهر ، وإن شئت بينة على ذلك فهاك ما جاء في جريدة «الأهرام» بتاريخ ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢١ ، فإن ما ستقرؤه في المقالة التالية ناطق بمعنى الآية معجزة للقرآن كما في قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وهذه هي المقالة :

مناجاة الأرواح

في الجهة الغربية من ولاية «نيويورك» وعلى بعد ٦٠ ميلاً من مدينة «بفلو» مصيف باسم «للي دال» اشتهر بجمال موقعه وعذوبة مائه وعليل هوائه ، وامتاز بكثرة أحراجه وضخامة أشجارها وسموّ ارتفاعها ، وأحاطت به بحيرة واسعة الأطراف ، وتقوم بإدارة هذا المكان جماعة من الروحيين الذين يعتقدون بمذهب «مناجاة الأرواح» ويبدون من أعمالهم وأقوالهم فيه ما لا يدرك له العقل حلاً ولا يدري إلى أيّ ناموس يرده .

ومن العجب أنه مع تقادم العهد على ظهور هذا المذهب وسعة انتشاره ، لم تزل آراء العلماء فيه على اختلاف مبين ؛ فمنهم من ينكره إنكاراً باتاً ، ويعدّ أعمال القائمين به من باب التدجيل والأوهام ، ومنهم من يعتقده اعتقاد الحقائق المسلمة ، ذهاباً إلى أن في الطبيعة أسراراً لا يسع الوجدان إنكارها وإن لم تقع في حيّز العقل .

وقد زار هذا المكان أحد أدباء السوريين ، وكتب إلى الهدى النيويوركية يصف ما رأى ، فقال : كان يجتمع في الملهى خلق كثير لسماع الخطيب الروحي «جان سلاتر» أحد زعماء هذا المذهب ووسطائه المشهورين . وقبل ميعاد الاجتماع كان معظم الحضور يتسابقون إلى إلقاء أوراق صغيرة على طاولة الخطيب ، يكتبون عليها بعض الأرقام أو الحروف المقطعة التي كان الوسيط يكتفي بها دون كتابة الأسماء ، ثم يفتح الخطيب الحفلة بإلقاء كلمة بهذا الموضوع من الوجهة العلمية ، ويسترسل في الكلام إلى مسألة خلود النفس وإمكان مخاطبة أرواح الموتى السابحة في الفضاء بواسطة وسطاء حقيقيين ، والوساطة موهبة عظيمة ، إنما في بعض الأحيان يخلو الوسيط من القوة اللازمة لتأدية الوظيفة حقها ، ولكن متى توافرت القوة كالواجب ، تظهر البينة وتتجلى الحقيقة للعيان . ثم يتناول الخطيب الأوراق

الملقاة على الطاولة أمامه، فيقرؤها الواحدة بعد الأخرى مرسلاً عن كل منها جواباً يتناوله من التجليات والمخاطبات الروحية، فيدهش الحضور بما يأتيه من المعجزات. جاء الوسيط إلى عدد ٦ فنادى بصوته الجهوري قائلاً: مستر «جيمس هاملتون»، وأشار بيده إليه فأجاب: نعم، فقال له: ألا تسكن «كلنفلند أوهايو» وتقيم في الشارع الفلاني رقم «كذا». فأجابه: نعم، وهذا عنواني الحقيقي. فقال: إني أرى الآن والدتك واقفة بإزائك تقرئك الشوق والتحيات، وقد أوعزت إليّ أن أبلغك نصيحة، وهي أن الرجل الذي قابلته في «ديترويت ميشكن» مساء الاثنين الماضي، وتحادثت وإياه بشأن افتتاح تجارة في تلك المدينة، ووعدته بأنك ستعود إليه في الغد للمباحثة في العمل، فهي تنصحك بالإقلاع عن هذا العزم، لأن الرجل لا يضمر الخير ولا الإخلاص لك، فإياك أن تتعامل معه. فوقف الرجل مبهوتاً ورفس الأرض برجله وقال: نعم، هذا هو الحادث بعينه، فقد أقلعت الآن عن عزمي وسأعمل بهذه النصيحة.

ثم تناول الخطيب ورقة أخرى كان عليها حرف «ج» على ما أذكر، فالتفت إلى الجمهور وقال: «مسز ماري رولاند»، وبأقل لحظة وقعت عينه على هذه السيدة فقال لها: لا يمكن أن يكون هذا اسمك الحقيقي. أجابت: نعم. قال: ألا تقيمين في «شيكاغو» في شارع كذا ونمرة كذا؟ قالت: نعم، وكل ذلك صحيح. قال لها: إنني أرى الآن نجلك «ألبرت» الذي تجنّد في الحرب الكبرى وسافر مع الفرقة الأخيرة وانقطعت أخباره عنك حتى أصبحت وأنت لا تعلمين عنه شيئاً، جاء إليّ بروح مملوءة من الشجاعة والحماسة وهو يقول لك: إنه وقد كان مقتله قبل انتهاء الحرب بمدة قصيرة. قال: وإن جثته بقيت مطروحة مدة ثلاثة أيام قبل الاهتداء إليها. وهنا وصف الوسيط ملامح نجلها ومظهره، وأخبرها عن اسم المكان واليوم الذي قتل فيه.

وبعد ذلك قرأ الوسيط عدد ١٨ «مسز ألن مكلان» وأشار بيده إليها فذكر لها اسم المدينة التي تقطنها، واسم الشارع الذي تقيم فيه حسب عادته، ثم قال: لك شقيقة تدعى «أنا» جميلة الطلعة رشيقة القوام، كانت تسكن في «دنفر» من ولاية «كولا رادو»، مرضت مرة مرضاً شديداً كاد يودي بحياتها، فكتبت إليك تطلب حضورك إليها، وقد حالت الظروف دون ذهابك، فساءها ذلك وقطعت أخبارها عنك، وهذا ما حملك على الاعتقاد بأنها توفيت، والحقيقة هي أنها لم تزل حية ترزق، وتقيم اليوم في مدينة «بلتيمور»، وكنت أودّ أن لا أخدش مسمعك بإيراد شيء مما عرفته عنها، ولكن الحقيقة يجب أن تقال، فإن سوء أحوالها وسوء العشرة دفعاها لارتياد منازل الفساد، وهي تسكن في الشارع الفلاني تحت نمرة كذا، وإذا شئت مراسلتها فعليك الاعتماد على هذا العنوان، وإذا لم يكن صحيحاً فإني أضرب على نفسي غرامة مالية كبيرة وأتخذ هذا الجمع الغفير شاهداً عليّ على ذلك.

ثم جاء الخطيب إلى عدد آخر، فقال: «مستر توماس فيليس». فأجابه: نعم. قال: إنني أراك شديد الاهتمام بمسألة مبيع البناية التي تملكها في «جامستون نيويورك» لجورج مارش، وتودّ أن تعرف إذا كان المبيع ينتهي حسب طلبك أم لا، وكثيراً ما تباحثت مع امرأتك في هذا الشأن مع أنك قبضت من ثمن البناية حوالة بألف ريال وذلك مساء الجمعة الماضي، وأزيدك الآن اطمئناناً بأن المبيع سيتمّ بالقيمة التي اتفقتما عليها، وهي مبلغ عشرون ألفاً، «بيعة لم يحضرها إبليس» والشاري غير مغبون.

فاستغرق الجمهور في الضحك، وأغرق صاحبنا في التعجب، ولما وصل الوسيط إلى هنا في الكلام صمت هنيهة ثم قال: في هذه الساعة حدثت حادثة محزنة في ضواحي «فلادلفيا»، وذلك أن سيارة تقلّ خمسة ركاب انقلبت براكبيها من شاهق، فقتل اثنان وأصيب الباقون بجروح خطرة، وبينهم امرأة لها بنت موجودة بيننا تدعى «لوزاو تنكس»، ولم يكد يدور نظره على الجمهور حتى رآها، فقال: نعم، إن والدتك من جملة الركاب الذين هوت بهم السيارة، وهي الآن في المستشفى الفلاني القريب من محل الحادثة فأسرعي لإغاثتها، فصرخت الفتاة وبكت والتفتت إلى الساعة وكانت قد قاربت التاسعة والنصف ليلاً، وهو الموعد الذي يترك فيه القطار الأخير المحطة، فقالت: وما الحيلة والقطار قد سافر؟ قال لها الوسيط: انتظري قليلاً، ثم التفت إلى العلا وسأل أهل القطار ترك المحطة وتمتم بلغة غير مفهومة، ثم قال: أسرعي وأعدّي حوائجك، فإن القطار متأخر عن ميعاده نصف ساعة، فهبت الفتاة مسرعة وأعدّت لوازمها، وجاءت إلى المحطة فوجدت القطار على جناح السفر فركبته، وفي اليوم الثالث ورد من الفتاة رسالة على صديق لها هناك تخبره بأن الحادثة وقعت كما رواها الوسيط، وتؤمل بأن والدتها تتقدم إلى الشفاء. اهـ.

اللطيفة الثانية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾

وهذه أيضاً مفهومة مما سبق في مواضع كثيرة من التفسير، فالأنبياء وجميع المصلحين بعدهم يكون نصيبهم على مقدار مقامهم من العلم والتبليغ، وأما شياطين الجن فإنها تلك الأرواح التي كانت قلوبها في غطاء، فأصبحت في العالم الروحي، كما كانت في الدنيا، فأصبحت ملحقة بالشياطين الذين يوسوسون إلى أمثالهم لانغلاق أبواب السماء، ومفاتيح العلم في يد الله لا يصلون إليها، فترتد نفوسهم إلى أهل الأرض وتتسلى بما ترى من نفوس ناقصة فتغريها بما كانت تودّه في الدنيا وعقولها مقفلة قد حكم عليها بذلك قصاصاً لها، فأصبحت نقمة على نفسها وعلى أمثالها من البشر، ولذلك سئلت بعض الأرواح فقيل لها: هل الأرواح تقدر على أذى الناس؟ فكان الجواب: كلا، وإنَّما الناس هم الذين يؤذي بعضهم بعضاً، وإنَّما الأرواح إذا قصدت الأذى وسوست إلى الأحياء بما تريد، فهذا هو الأذى، ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٢]، فهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[الأعراف: ٤٠] لأن نفوسهم لم تستعدّ لتلك الأنوار وهي أشبه بالأجسام الغازية البخارية التي ترتفع في الجو، وكل جسم له حد محدود لا يتجاوزه، والله لا يمنع أحداً عن النعيم، ولكن العوائق من النفوس، ففي النفوس جنتها وفي النفوس نارها، فأي نفس غلظت وفسقت وأحبت الحياة الدنيا فإن طبعها لا يقبل الجنة ولا عالم الملائكة، فلا يصل لذلك بحسب استعداده، وأيّ نفس أحبت ذلك العالم واستعدّت له فإنها ليس بينها وبينه إلاَّ الموت، وهناك تصعد إليه وترتقي ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢].

واعلم أن ما يكشف اليوم من الكواكب والسيارات إنَّما هو ذخيرة قد أعدّها الله للأرواح الأرضية المشرقة النبيلة لتتفرّج عليها إذا ماتت، ويكون موتها أكبر سعادة وأشرف أيامها، فما أسعد أيام الخروج من هذه الدار التي حبسنا فيها حبساً عاقنا عن العروج والخروج إلى باحات الهناء وساحات السعادة والصفا حتى نرى تلك الكواكب البهجة بأقدارها وهيئاتها وأنوارها وإشراقها والحياة عليها

ونرى تلك العجائب، وإذ ذاك نفك من هذا الاعتقال الأرضي ونطالع تلك الشموس في المجرة التي تبلغ مئات الملايين، ونرى شمسنا بقعة صغيرة منها، وأرضنا أصغر من كل شيء، حينئذ ننسى هذه الدنيا وننسى بؤسها وشقاءها، ونخرج من جهنمها إلى السعادة التي نشاهد كل ليلة بصيصاً من نورها، وقبساً من نارها، وحوراً في طرفها، ولوامع مشرقات في دياجي الظلمات تطل علينا تدعونا حثيثاً إلى الخروج من هذه الظلمات إلى تلك الأنوار.

أيها القارئ الذكي، اجعل حياتك معراجاً لذلك المقام الشريف، ولا تدّخر وسعاً في النفع العام لأمتك وللعالم أجمع إذا قدرت، حتى تكون خليفة مبدع هذه الموجودات، وناظم عقدها، وموحّد نظامها وهو اللطيف البديع النور الهادي إلى سواء الصراط. اهـ.

اللطيفة الثالثة: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

اعلم أن أهل الأرض قاطبة مقلدون لرؤسائهم تابعون لساداتهم مسوقون بخواصهم، فترى العلم ربما كان خطأ فيبقى مئات السنين، والناس يظنونه حقاً لما أن قوماً من المشهورين قرؤوه وأقرّوه ودرسوه، فيتبع الآخرون الأولين واللاحقون السابقين، وترى المذاهب الإسلامية والنصرانية واليهودية يتبع الأخير الأول ويتعصب له ويقول هو الحق وما سواه ضلال، وهكذا في سائر العلوم كالفلك والطب والطبيعة، وليس ينقذهم من ذلك بعد مئات السنين إلاّ أفراد يخلقهم الله فيجاهدون ويهذبون الشعوب ويعلمونهم، فأكثر أهل الأرض مقلدون والمجتهدون هم الأقلون، ألا ترى أن ابن النصراني نصراني، وابن اليهودي يهودي، وابن المسلم مسلم، كل ذلك لأن الناس في أكثر أحوالهم مقلدون وعلومهم إنّما تكون محفوظة والنبوغ فيها يكون على مقدار استظهار ما درسوه وفهم ما عقله غيرهم فأما الرجوع إلى أصل تلك المذاهب والتأمّل في أساسها، فإن البشر غالباً لا يتعبون أنفسهم فيه والأعمار قصيرة، وعلى ذلك يجب أن يكون في الأمة الإسلامية مفكرون يفكرون في أصول المذاهب الإسلامية، ويهيمنون على الأمم الإسلامية ويهيئون عقولها للرقي والإصلاح، لأن السني والشيعي وسواهم أصبحوا لا يرون إلاّ ما قرؤوه في كتبهم وهي أمور متشابهة، ثم إن الأمة لم ترفع عن أعينها الأغطية التي غطيت بها العيون، وليس عندي إلاّ نشر العلوم الكونية كما نفعل في هذا التفسير، فبهذا يخرج الناس من ظنهم إلى اليقين.

إن علم الفقه علم عملي والظن يكفيه، أما معرفة هذه العوامل فإنها علمية عملية معاً، فهي علم بالعالم من سماوات وأرضين، ومتى عرفت الصنعة عرفت الصانع، وفوق ذلك يرقى الشعب الإسلامي باستخراج منافع الهواء والماء والأرض والسماء، هذا ما فهمته من قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو عند ربه الآن، وفائدة هذا الكلام ترجع لنا الآن أيضاً، فأما تلكؤنا بأن نفسر بغير ذلك فليس يكون فيه فائدة مرجوّة لنا. اهـ.

اللطيفة الرابعة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾

اعلم أن هذه الآية هي التي تطبق على الأمم كلها لا سيما المسلمين الآن، فإنك حيثما أدرت عينك لا ترى الغيّ ولا الفساد ولا الضلال في الأمة إلاّ من رؤسائها لا سيما بعض مشايخ الطرق، أولئك الذين هم وبعض علماء الدين وعظماء الأمم الإسلامية قاطبة، هؤلاء هم آفات الإسلام

ومصائبه، هم الذين يساعدون الفرنجة على احتلال أرض الإسلام، هم الذين يوالونهم ويحبونهم لأنهم يغدقون النعم عليهم ويولونهم المناصب العالية ويهبونهم الألقاب الضخمة. وترى ذلك في شمال أفريقيا في بلاد مراكش وتونس والجزائر وطرابلس ومصر وبلاد العراق وغيرها، فهذه الأمم لم يدخل الفرنجة فيها إلاَّ مجرموها الأكابر، فهم الذين فسقوا فيها وعلموا الشعوب كيف يفسقون ويميلون إلى الشهوات، فخضع القوم للفرنجة واستناموا لهم، وربما استنار القوم بعد حين. انتهت اللطيفة الرابعة.

اللطيفة السادسة: في قوله تعالى:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾

هذه اللطيفة تناسب اللطيفة التي قبلها، فإن الأمم إذا فسدت بفساد أكابرها ولم يظهر فيها نابغون أجدر أن تلغى من الوجود، وأن تهلك لأن الله لم يجعل في الأرض ولا في غيرها عملاً لغير فائدة، بل هو الذي جعل الأزهار التي لا لون لها ولا رائحة إنَّما يلقحها الريح كما تقدم، أما الأزهار ذات الرائحة الجميلة والمحاسن البديعة والألوان البهجة فإن الحشرات هي التي تلقحها، وجعل ذلك الجمال وتلك الألوان والروائح والعسل مغرية لتلك الحشرات أن تمر عليها فتلقحها، فلم يخلق الجمال عبثاً، بل خلقه لمنفعة راجعة لنفس النبات، لأنه ليس في الوجود معطل، فإذا كان هذا في نبات ندوسه بأرجلنا ونقطعه لنشم رائحته ولا نبالي، وتارة نغرقه بالماء، وتارة ترعاه دوابنا، وتارة نجعله لأغراضنا في معايشنا، فكيف يخلق أمماً في الأرض لا ثمرة في بقائها، فإذا منع الجمال والرائحة عن هذا النبات إذا لم تكن لذلك فائدة، واكتفى بمرور الرياح عليها لإلقاحها، فما أحراه أن يهلك الأمم التي لا تناسب زمانها فيهلكها ويستبدل غيرها بها، ولقد حصلت مبادئ هذه في الأمم الإسلامية فأخذت الفرنجة تسومنا الخسف وتدخل في عقائدنا ما يضر أخلاقنا وعاداتنا، فإن لم يفكر عقلاء المسلمين فليعلموا أن وعد الله حق وأنه لا يخلف وعده، وأنه لا يريد إلاَّ الإصلاح ولا يبقي من الأمم إلاَّ ما يصلح للوجود، ولذلك أرسل التتار من الشرق في القرن السابع فأبادوا الدول الإسلامية «السلجوقية والعباسية»، وكذلك أرسل الأمم الأوروبية في نحو تلك العصور لمحاربة المسلمين، وكذلك أرسل الإسبان فأبادوا أكثر الأمة العربية وبقاياهم هزموا وهربوا ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[هود: ١١٧]. اهـ المقصد الرابع.

المقصد الخامس

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ

لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

التفسير اللفظي

لما فرغ في المقصد الرابع من الكلام على كفرهم وإشراكهم وجهلهم؛ أخذ يذكر في هذا المقصد تفصيل ضلالتهم العلمية وأحكامهم الفاسدة، فمنها:

أنهم كانوا يقصدون الزروع والثمار ـ وهي المعبر عنها بالحرث ـ والإبل والبقر والغنم ـ وهي المعبر عنها بالأنعام ـ فيجعلون منها نصيباً لله ونصيباً للأصنام، فأما ما كان لله فإنهم يجعلونه للضيفان والمساكين، وأما ما كان للأصنام فإنهم يجعلونه للخدام والسدنة، فإن سقط شيء مما جعلوه لله في

نصيب الأوثان تركوه، وقالوا: إن الله غني عن هذا، وإن سقط شيء من نصيب الأصنام فيما جعلوه لله ردّوه إلى الأوثان، وقالوا: إنها محتاجة إليه، وكانوا إذا هلك شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به، وإذا انتقص شيء مما جعلوه للأوثان جبروه مما جعلوه لله. هذه أول مسألة.

المسألة الثانية: أن السدنة كانوا يزينون لهم؛ هم والشياطين؛ أن يقتلوا أولادهم، فكان الرجل يقول في الجاهلية لئن ولد له كذا وكذا غلاماً لينحرن آخرهم؛ كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله.

المسألة الثالثة: أن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ـ المذكورات في سورة المائدة ـ كانوا يحرمونها ولا يأكلها إلا الرجال، وهي على النساء محرمات كما تقدم هناك، ويحرمون ظهورها فلا يركبون البحائر والسوائب والحوامي.

المسألة الرابعة: أنهم لا يذكرون اسم الله على الذبائح عند الذبح، بل يذكرون أسماء الأصنام.

المسألة الخامسة: أنهم كانوا يجعلون الأجنّة في بطون البحائر والسوائب لذكورهم وليس للإناث فيها من نصيب ـ كما تقدم في سورة المائدة ـ هذا إذا نزلت حيّة، فإذا نزلت ميّتة أكلها الرجال والنساء.

هذه المسائل الخمس ذكرها الله في هذه الآيات بعد ما فنّد معتقداتهم.

فلذلك قال في المسألة الأولى: ﴿وَجَعَلُوا﴾ أي مشركو العرب ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ خلق ﴿مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ أي: وللأصنام نصيباً ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ بزعمهم وكذا ما بعده، أي: زعموا أنه لله، والله لم يأمرهم بذلك ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونها إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين كما علمت، ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ من إنفاقهم عليها والإجراء على سدنتها، وقوله: «مما ذرأ» بيان أنهم لو عقلوا لم يجعلوا للأوثان شيئاً، لأن الله هو الخالق، فلذلك قال: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ والمخصوص بالذمّ محذوف أي: حكمهم هذا.

وقال في الثانية: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك التزيين في قسم القربان ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ﴾ هو فاعل زيّن، وفي قراءة «زُيِّنَ» بالبناء للمجهول، و«قتل» نائب فاعل، و«أولادهم» مفعول، و«شركائهم» مضاف إليه، وقد فصل بين المضاف والمضاف إليه، أي: وكذلك زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم، والشركاء هم الجن أو السدنة ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ ليهلكوهم بالإغواء ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام، ومعلوم أن كل ما يقع في هذه العوالم إنما يكون بنواميس واستعداد وقابلية ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: ما فعل المشركون ما زين لهم؛ ولا الشياطين ما زينوا ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: افتراؤهم أو ما يفترونه من الإفك.

وقال في المسألة الثالثة: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي: حرام، فعل بمعنى مفعول؛ كالذبح، يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ يعنون: خدم الأوثان والرجال دون النساء، كما تقدم ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾.

وقال في المسألة الرابعة: ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ مفعول لأجله ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: بسببه.

وقال في المسألة الخامسة: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: أجنة البحار والسوائب ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي: جزاء وصفهم ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. ثم أتى بما يفيد خسرانهم بما تقدم فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ﴾ فكانوا يئدون بناتهم مخافة الفقر والسبي، وأبناءهم إذا نذروا ذلك؛ كما تقدم، ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لخفة أحلامهم وجهلهم أن الله تعالى رازق أولادهم لا هم، ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ من البحائر وغيرها، ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ وهذا ملخص ما تقدم من أعمالهم الفاسدة.

ولما أكمل الكلام على تعديد أعمالهم الفاسدة، وقد ذكر أنهم تصرّفوا فيما ذرأ الله لهم من الحرث ـ وهو الثمر والزرع ـ والأنعام ـ وهي الإبل والبقر والغنم ـ شرع يفصل الكلام على هذين القسمين، أي: الحرث والأنعام على اللف والنشر المرتب، فقال في الحرث:

الكلام على الزرع والشجر

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ يعني: والله الذي خلق وابتدع بساتين مبسوطات على الأرض؛ كالقرع والبطيخ، وكالعنب الذي يبقى على وجه الأرض منبسطاً، والعنب الذي كهيئة سقف، ويقال: عرشت الكرم أعرشه عرشاً وعرّشته تعريشاً: إذا جعلته كهيئة السقف، واعترش العنب العريش: إذا علاه، فالعنب بنوعيه أي: ما فوق العريش وما ينبسط على الأرض، والبطيخ والقثاء والخيار والقرع، كل ذلك يقال له: جنات معروشات أي: مبسوطات إما على الأرض في أكثرها، وإما على العريش في أحد نوعي العنب، وقوله: ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ هي: ما قام على ساق كالنخل والزرع وسائر أنواع الشجر.

عجائب في النبات

اعلم أن هذا هو القسم الأصغر، وهو ما يراه الناس من الجنات المعروشات وغير المعروشات، أما القسم الأعظم منه فهو أنواع الحدائق والبساتين التي ترى في الطحلب الذي يكسو وجه الماء في البرك والمستنقعات، فهذه بساتين ترى بالمنظار المعظم مزهرة باهرة، وكذلك ما يعلو الجدران والسطوح وجذوع الأشجار والأرض الرطبة والصخور المرطبة في المحالّ الظلية، والعفونة النابتة على الحيطان الرطبة، وعلى الجلود المدبوغة كجلود الأحذية وجلود الكتب، وعلى الخبز، فهي بساتين كالبساتين التي نراها بأعيننا، وهكذا ما على سطح ماء البحر بحيث يتلون بها الماء، وعلى الصخور اليابسة على هيئة قشور يابسة أو غبار، وهكذا ما يفسد العنب والبطاطا، وما يخلق في داخل الحيوان الحي، فهذه وغيرها أنواع من الجنات المعروشات وغير المعروشات، متى نظرت بالمناظير المعظمة علم أنها هي القسم الأكبر عدداً والأوسع نطاقاً، فهي أوسع مما يراه الناس بأعينهم العادية، وكما رأى الناس الكواكب بأعينهم فكانت ستة آلاف وهي بالمنظار المعظم مئات الملايين؛ هكذا هنا في النبات سواء بسواء. ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]

لطيفة: جاء في جرائدنا المصرية بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٩٢٦ أن أحراج غيانا البريطانية ـ في جنوبي أمريكا بالقرب من خط الاستواء ـ تحتوي على أنواع من الديدان والحشرات تفوق الحصر، فقد وجدوا ما يزيد على ألف نوع منها فيما لا يتجاوز مساحته ياردة مربعة من الأرض.

أعمار النبات

اعلم أن دود الحرير يعيش ثلاثة أشهر من أيام أن يكون بزراً صغيراً إلى أن يكون دوداً، ففيلجة أي: كرة صغيرة داخلها دودة يحيط بها حرير، ففراشة خارجة من الدودة، فتبيض ثم تموت. والخيل تعيش ٣٠ سنة، والفيل يعيش عمراً طويلاً، هكذا يكون النبات، فمنه ما لا يعيش إلا فصلاً واحداً كالحنطة والشعير والذرة، ومنها ما يعيش مئات السنين مثل البلوط والصنوبر، ولذلك يقولون: إن النبات إما سنوي تكون حياته كلها في سنة فأقل؛ كما تقدم، وإما نبات محول مثل اللفت والشمندور فإنهما يورقان في السنة الأولى ثم في السنة الثانية يزهران ويبلغان ويبزران، وإما معمر وهو ما يعيش سنين عديدة كالأشجار والأجم وبعض الأعشاب التي تزهر وتبلغ وتبزر ويموت ما فوق الأرض منها كل سنة ويبقى ما تحت الأرض حياً ويجدد النبات في السنة التالية كالبطاطا والسوسن والزنابق، هذه هي الجنات المعروشات وغير المعروشات.

ثم أخذ يفصل بعض الجنات غير المعروشات فقال: ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أي: ثمره الذي يؤكل، وهذه حال مقدرة لأن النخل وقت خروجه لا أكل فيه حتى يكون مختلفاً، وهو كقوله: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[الزمر: ٧٣]، وذلك الاختلاف في اللون والطعم والرائحة ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ في الطعم ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي: من ثمر كل واحد ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ ولا أحرم عليكم أكل ما لم يدرك بحجة أن للفقراء والمساكين حقاً فيه لأن رعاية حق النفس مقدمة على رعاية حق الغير، فلكم أكل ما لم يتم نضجه ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ أي: جذاذه وقطعه، وهو أن يطعم من حضر ويترك ما سقط من الزرع والثمر ولقاط السنبل، وقد كانوا يجيئون بالعذق عند الصرام فيأكل منه كل من مرّ، وكان أهل المدينة إذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيلقونه في جانب المسجد فيجيء المسكين فيضربه بعصاه فما سقط منه أكله، وهذا الأمر للندب؛ والآية ليست منسوخة بآية الزكاة فهي محكمة، أما الزكاة فقد تقدمت في سورة البقرة فارجع إليها هناك إن شئت، ثم قال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ۚ﴾ في التصدق، كقوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾[الإسراء: ٢٩] لأن في المال حق الزكاة أيضاً، فمتى انضم الإسراف في الصدقة إلى الزكاة كان ذلك مضيعاً للمال، والسرف: مجاوزة الحد، ولذلك قال السدي: معناه: لا تعطوا أموالكم وتقعدوا فقراء، وقال الزجاج: لو أعطى الإنسان كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئاً فقد أسرف، وفي الحديث: «ابدأ بمن تعول»، ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ فيه وعيد وزجر عن الإسراف في كل شيء. وقال سبحانه في الأنعام:

الكلام على الإبل والبقر والغنم

وقد عطف على جنات قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي: كما خلق من النبات ما يبسط على الأرض وهو المعروشات، وما يقوم على ساق وهي غير المعروشات، خلق من الأنعام ما هو كالمعروشات وهي الصغار الدانية من الأرض كالفراش الذي يفرش وذلك كالمعز والضأن وصغار الإبل، وما هو كغير المعروشات من الشجر وهي ما يحمل عليه من كبار الإبل والبقر وهي التي يطلق عليها حمولة، كما يطلق على ما يحمل من الخيل والبغال والحمير، ثم قال: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: كلوا مما أحل الله لكم منها ولا تحرموها كما كان في الجاهلية، روى البخاري عن ابن عباس رضي

الله عنهما قال: «إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾»، ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ في التحريم والتحليل من عند أنفسكم كما كانت الحال في الجاهلية ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ثم أبدل من قوله: «حمولة وفرشاً» ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ والزوج ما معه آخر من جنسه يزاوجه، وقد يقال لمجموعهما، والمراد الأول ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ زوجين اثنين الكبش والنعجة وهو بدل من ثمانية، والضأن اسم جنس كالإبل؛ وجمعه ضئين أو هو جمع ضائن كتاجر وتجر، ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ التيس والعنزة، ولقد كان القوم في جاهليتهم كما تقدم يحرّمون بعض الضأن والمعز والإبل والبقر؛ تارة الإناث وتارة الذكور وتارة أولادها كيف كانت، زاعمين أن الله حرمها، فقال الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ ذكر الضأن والمعز ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ ونصب الذكرين والأنثيين بحرم ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، أي: أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ أي: بأمر معلوم يدل على أن الله حرم شيئاً من ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى التحريم، ﴿وَ﴾ خلق ﴿مِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ «أم» منقطعة؛ أي: بل أكنتم شهداء حاضرين ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ حين وصاكم بهذا التحريم ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم، والمراد: كبراؤهم المقررون لذلك؛ وأولهم عمرو بن لحي بن قمعة المؤسس لذلك ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ في القرآن ﴿مُحَرَّمًا﴾ طعاماً محرماً ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ أي: إلا أن يكون الطعام ميتة ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ عطف على «أن» المصدرية وما دخلت عليه، أي: إلا كونه ميتة أو دماً مسفوحاً؛ فهذا عطف على المصدر المؤول، والمسفوح: المصبوب كالدم في العروق لا كالكبد والطحال، ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ فإن الخنزير أو لحمه قذر لتعوده أكل النجاسة ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ عطف على لحم الخنزير ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ صفة له موضحة، وسمى ما ذبح على اسم الصنم فسقاً لتوغله في الفسق ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ فمن دعته الضرورة إلى تناول شيء من ذلك ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على مضطر مثله ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: ولا متجاوز قدر الضرورة ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يؤاخذه على ما فعل، وهذه هي التي كانت محرمة عند نزول هذه الآية.

روى مسلم عن ابن عباس: «نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير». وروى أيضاً مسلم أنه صلى الله عليه وسلم «نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر الأهلية». وروى البخاري ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم «نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في الخيل». وعن جابر أنه صلى الله عليه وسلم «نهى عن أكل الهر وأكل ثمنه». وقد استثنى النبي صلى الله عليه وسلم من الميتة السمك والجراد، ومن الدم الكبد والطحال. وورد في الصحيح: «خمس يقتلن في الحلّ والحرم وهن: الحية والعقرب والفأرة والحدأة والكلب العقور». ونهى صلى الله عليه وسلم «عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والقرد» أخرجه أبو داود. ولقد أوضحنا الكلام في هذا المقام في سورة المائدة.

ذكر ما حرم على اليهود

ثم شرع يذكر ما حرم على اليهود فقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ ما له إصبع كالإبل والسباع والنعام، وكل ذي مخلب وحافر، وسمي الحافر ظفراً مجازاً، ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ الثروب وشحوم الكلى ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ إلا ما علقت ظهورهما ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ أو ما اشتمل على الأمعاء؛ جمع حاوية أو حاوياء؛ كقاصعاء وقواصع؛ أو حوية كسفينة وسفائن، ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يعني من شحم الألية لأنه اختلط بالعصعص، وكذا الشحم المختلط بالعظام التي تكون في الجنب والرأس والعين، فكل هذا حلال لليهود، والمحرم عليهم شحم الثرب وشحم الكلية، وما عدا ذلك فهو حلال لهم.

عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح بمكة: «إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام»، قيل: يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس؟ فقال: «لا، هو حرام»، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: «قاتل الله اليهود»، يعني: أن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ـ يعني أذابوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ التحريم أو الجزاء ﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أي: بسبب ظلمهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في الإخبار ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ يمهلكم على التكذيب فلا تغتروا بإمهاله فإنه لا يهمل ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ حين ينزل.

ولما كان هذا المقام يقتضي سؤالاً يرد، فيقال: هذه السورة جاء فيها التحريم والتحليل والإيمان والكفر، وقد جاء نسبة الإيمان لله وقضائه كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ الخ، وجاء أيضاً ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ فالقرآن صريح أن كل هذا من فعل الله نفسه صراحة، وإن كان أهل السنة يقولون بالكسب الاختياري، والمعتزلة يقولون قولاً آخر وهو: أن الفعل للعبد، وآخرون يقولون بالجبر وعدم الاختيار، فكيف يكون هذا، فحسن هنا أن يأتي بهذه الآية قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ فكيف توعدنا يا محمد بالعقاب على الشرك وعلى التحريم والتحليل مع أن صريح القرآن أن الله هو الذي أراد هذا منا.

وقد تقدم في هذا التفسير مراراً أن هذا العالم قد خلق على نظام بديع، وأنه درجات بعضها فوق بعض، وما مثل النفوس الناقصة مع النفوس الكاملة والمستعدة للفضائل التي لا استعداد عندها إلا كمثل الحيوان مع الإنسان وكمثل النحاس مع الماء، فالنحاس لا يذوب إلا على درجة عالية، والماء يذوب على درجة قريبة من الصفر، ولكل منفعة في الوجود، فللنحاس منفعة وللماء منفعة، وللحيوان منفعة وللإنسان منفعة، ولكن الغرائز المودعة في الحيوانات، والعقول المودعة في الإنسان، والديانات التي نزلت، والعلوم التي اخترعت، تدعو حثيثاً إلى الارتقاء إلى أعلى مدارك العرفان، ولذلك وجدنا الإنسان علّم الحيوان حتى أدّبه فركب عليه ولم يتركه على طبعه، فهنا أمور عملية قام الإنسان والحيوان بها، فلا يجوز ترك الأشياء وطباعها، بل لا بد من المزاولة والعمل وإخراجهما من حال أدنى إلى حال أعلى، فعلى ذلك أمر الأنبياء أن يهذبوا الناس ليخرجوهم من ظلماتهم إلى نورهم، والآباء

يعلمون أبناءهم، والعلماء يعلمون الجهال لإخراجهم إلى العلم. وهذا العمل هو الذي امتاز به العقلاء من الناس وليس لهم سبيل للرقي إلا به.

فالأنبياء والعلماء وسائر العقلاء عليهم الجهاد في تهذيب أنفسهم، وهذه العلوم وهذه الديانات أعمال ألزموا بالقيام بها؛ ولو تركوها لأصبح الإنسان كالحيوان الأعجم، ولو أن الناس قالوا: كفانا أن الله هو الذي أراد كل شيء فعلام السعي؛ لجاز لهم أن يتركوا الأكل والمشي وشرب الماء، وتموت الناس في يوم أو بعض يوم. والناس لغفلتهم يعترضون على القضاء ولا يفكرون أنهم يأكلون ويشربون، فلم لا يتركون الأكل والشرب اتكالاً على الله.

إن أمثال هذا القول من الأسباب التي تسقط الأمم وتثبط الهمم، وما من أمة أخذت به إلا خربت ديارها وذهبت سدى وضاعت. وليس عذاب الآخرة تشفياً ولا أخذاً بالثأر، وليس إلا عملاً من الأعمال التي لا بد منها، كما أن الماء يسيل على أدنى درجات الحرارة، والنحاس يسيل على درجات رفيعة جداً عالية كما تقدم في هذا التفسير.

وهناك مصالح لا نعلمها نحن ولكن إذا ارتقت عقولنا أدركت؛ فأصبح بهذا القول عذاب الآخرة سائراً على الناموس الذي نشاهده كل يوم ونحن غافلون، فمن أكل السم مات؛ ولا يعترض أحد لأنه ناموس طبيعي، ومن أكل أكلاً صحياً لم يمرضه. وهذه أمور مشاهدة محسوسة فالآخرة كالأولى ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

واعلم أن أمثال هذا القول كان علماؤنا رحمهم الله يقولون: إن هذا سر القضاء والقدر، والسر الآن يجب إظهار بعضه لأن النوع الإنساني ارتقى فلا بد من إظهار العلم له. ولما كان هذا القول نتيجة تكذيب القرآن قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مثل هذا التكذيب لك كذبت الأمم الخالية أنبياءهم وقالوا مثل هذا القول ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ الذي أنزلناه عليهم بتكذيبهم، ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أي: هل عندكم من حجة وكتاب يوجب اليقين من العلم فتظهروا ذلك العلم لنا وتبينوه فيثبت أن الله رضي شرككم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ فيما أنتم عليه من الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله، وتحسبون أنكم على حق ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ البينة الواضحة، فأنتم لم تطلعوا على ما يعلمه الله، وإنما أنتم مكلفون بالأعمال، فلله علمه وعليكم العمل، ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إذا كنتم مستعدين للإيمان، وهو لا يشاء إلا ما هو ممكن، فالمشيئة لا تتعلق إلا بالأمور الممكنة، والوجود ليس فيه طفرة، فهو يهدي ويضل على حسب الدرجات، ولو لم تكن درجات لم يكن هذا النظام، ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أي: أحضروهم، وهذا الفعل لا يتصرف عند أهل الحجاز ويتصرف عند بني تميم، ﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ لأنهم في شهادتهم كاذبون ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: إذا وقع منهم شهادة فهي باتباع الهوى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ولا تتبع أهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة كعبدة الأوثان ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يجعلون له عديلاً. اهـ التفسير اللفظي. لطيفتان في هذا المقام:

اللطيفة الأولى: الزهر. اللطيفة الثانية: في الكلام على المتشابه وغير المتشابه وبعض الأشجار.

اللطيفة الأولى: الزهر

قد جاء في هذا المقصد قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ ﴾، وقد ذكر هذا في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾، وقد بينا هناك أن مسألة الثمر هي الشغل الشاغل للأمم اليوم في تقسيم النبات وأن رتبه ٢٤. وهنا لا بد من الإشارة إلى أنواع الزهر تفكهة للقراء ليكون ذلك ترويحاً للنفوس وإظهاراً للعجائب العلمية والبدائع الحكمية والمحاسن الطبيعية.

جمال النبات وبهجته في عجائب الأزهار وإلقاحها

كنت أودّ أن أذكر هنا عجائب الأزهار وإلقاحها.

(١) وأبيّن تلك الزهرات التي لها شعرات تحميها فلا يدخلها إلاّ النحل.

(٢) والزهر ذا المفاتيح والأقفال.

(٣) وذا الحارس.

(٤) والزهر المنظم كأنه الجند.

(٥) ونوعاً من الشجر فيه نوعان من الزهر فيهما أعضاء ذكور وأعضاء إناث طويلات وقصيرات وللنحل مع هذين النوعين عجائب وغرائب وحكم ونظام لا محل لذكرها الآن.

(٦) وكيف ينام الزهر وكيف يستيقظ، وما أوقات نومه وما أوقات يقظته، وما العلاقة بين نوم الزهر ويقظته وبين الحشرات والنحل، وكيف يستيقظ نوع الحشرات عند استيقاظ الزهر الخاص به، وينام عند نومه ليلاً ونهاراً، وعلاقة ذلك كله بالإلقاح، والإلقاح لسعادة نوع الإنسان.

(٧) وبيان الزهر الأحمر والأصفر والأبيض والأزرق، وكيف كان اختلاف الألوان مناسباً لأنواع الحشرات الطائفات عليه، وكيف كان الأبيض والأصفر يناسبان وقت الغلس بعد الغروب، وغيرهما يناسب النهار، ولكل حشرات تعرفه. وكيف كان الزهر الذي لا جمال فيه كزهر السنط والصفصاف لا يحتاج للحشرات ويكفيه الهواء، والزهر الذي جمل شكله ولونه وقد احتاج للحشرات فكان ذلك الجمال معشقاً لتلك الحشرات الخ.

(٨) والزهرة التي أعطيت من السياسة والإلهام ما لم يعطه غيرها، بحيث يغترّ بشكلها نوع من الحشرات جهالة فيقع عليها فيحصل الاهتزاز فيكون الإلقاح ولا تنال الحشرة شيئاً.

(٩) والزهرة التي يحصل إلقاحها بمجرد الاستدفاء بها إذ تصل لها الحشرة مستدفئة وتطير لأخرى مستدفئة وهكذا، والبرد يحكم على الحشرات بالدخول ثم يضيق صدرها فتخرج فيحصل البرد فتدخل في أخرى من نفس النوع، وفي أثناء ذلك تكون قد أخذت طلعاً من زهرة الذكور ووضعته في زهرة الإناث، فحصل الإلقاح والناس حولها لا يشعرون.

أقول: كنت أودّ أن أبيّن هذا المقام وأشرح هذه الأنواع شرحاً مستفيضاً، ولكن لا يسوغ لي ذلك هنا لأنه بسورة الحجر أليق، فانظر هذا المقام هناك واضحاً جلياً شارحاً للصدور في تلك السورة إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ﴾ [الحجر: ٢٢] الخ، فهناك تقرأ هذا المقام منقولاً من كتابي «الزهرة» التي هي مقدمة لكتابي «نظام العالم والأمم» مترجماً من كتاب اللورد «افبري» الإنجليزي المسمى «جمال الطبيعة» والله هو الولي الحميد. اهـ.

اللطيفة الثانية: في الكلام على المتشابه وغير المتشابه من النبات والشجر

من النبات والشجر ما ورقه وثمرته متناسبات في الكبر واللون والشكل واللمس، كالأترجّ والنارنج والليمون والكمثرى والتفاح وما شاكلها. ومن النبات والشجر ما ثمرته وحبه غير مناسبين لورقه في الكبر، مثل شجر الرمان والتين والعنب والجوز والنخل.

ألا ترى أن شجر الأترجّ مدحرج الشكل، ثمرها أخضر اللون ليّن الملمس مناسب لورقه، والنارنج مستدير الشكل مناسب لورق الشجرة، والكمثرى مخروط الشكل وكذلك ورق شجرته، والتفاح مستدير الشكل وكذلك ورق شجرته. وأما ثمرة الرمان فغير مناسبة في الكبر لورق شجرته، وكذلك التين والعنب وغيرهما على هذا القياس.

الكلام على النخل

قد ذكرت في تفسير الفاتحة شيئاً في النخل، ونزيد الآن فنقول:

(١) كثرت عروق النخلة الضاربة في الأرض لشدة حاجتها لها، لكبر جثتها وطول قامتها وكثرة عدد سعفاتها وأوراقها، لكيما تخدم في جرم أصولها، وفي جرم سعفها، وفي جرم أوراقها، وفي ليفها، وفي جرم أكمام طلحها، وفي جرم قضبان قنوانها، وفي جرم نواة ثمرتها ودبسها وشيرجها. فهذه الفروع الضاربة في الأرض لتقسم على تلك الأنواع والأعضاء المختلفة.

(٢) لماذا جعل جسم ساقها رخواً متخلخلاً، ذلك لأنه لو كان غير متخلخل كالساج والسرو لعسر على القوى الطبيعية جذب تلك المواد إلى أعلى النخلة في السعف والليف وغيرهما، وأيضاً تلك الخيوط الدقيقة التي ركب منها باطن جذع النخلة، كل خيط منها متصل بعرق ضارب في الأرض لتوزع الغذاء على تلك العروق لتوصله إلى ما خلقت له من أول الأمر.

(٣) ومن أعجب العجب أن الناس يشاهدون النخلة وقد جعل عليها ليف كأنه مآزر مشدودة على أصول مخارج سعفاتها من أجذاعها، كأنها مشمّرة بها والناس يأخذونه يجعلونه حبالاً لأمتعتهم لحفظها من التبدد. وما علم أكثر الناس أن الليف قبل أن يلم أمتعتهم ويحفظها قد حفظ النخلة من التفرق والتشتت، لأن جرمها كما قلنا رخو ومستحيل أن يثبت عليها سعف أو قنوان، بل كانت لولا الليف المشدود بتحريك يسير من الهواء تتناثر تلك السعفات وتقع على الأرض، فلا خوص ولا سعف ولا ثمر ولا يكون على وجه الأرض نخلة مثمرة ولا تمرة تؤكل. فتعجب ثم تعجب من الحكمة والعلم، والناس في الأرض غافلون نائمون.

(٤) وهاك ما هو أعجب: ترى طلع النخلة يحفظ في غلاف وهو «الكفرّي» ليصونه من الآفات العارضة من الحر والبرد المفرطين والمطر الشديد والرياح والعواصف والغبار وغيرها، لأن الطلع يخرج رطباً ندياً رخصاً رخواً، فإذا استحكم واشتد انشقت تلك الأكمام والغلف عنها وظهرت تلك الثمرات لنسيم الهواء وحرارة الجو لتربو وتنضجها حرارة الشمس وتصير بسراً ورطباً ثم تجف وتصير تمراً. لعمري ما أغفل الناس عما يشاهدون في جمال الدنيا. طلع النخل يحفظه الغلاف عند ضعفه كالجنين في بطن أمه، فإذا استأهل وقوي انشق الغلاف عنه كما يخرج الجنين من بطن أمه، والبيضة من الطائر عند قدرة تحملها ملاقاة الجو والاكتساب منه والعيش فيه ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

وهذا هو علم التوحيد، وعلم رقيّ الأمم، وعلم سعادة الدنيا والدين. فليقلع المسلمون عن نومهم العميق وليعلموا أن هذا هو دين الإسلام، هذا هو أصل الدين، أصل الدين أن نقرأ وندرس ما خطه الله بيده على هذه الطبيعة، إنه حكيم، ومن هذا فلتعرف الحكمة، ومن هذا فليفهم مقصد الحكيم في القرآن ذكر أنه «حكيم» عشرات المرات فهذا تفسيره، تفسيره هذا الوجود، فلتفتح البصائر ولتجمّل السرائر، وبمثل هذا يكون الحكماء في الإسلام، وبهذا يكون حب الله، هذا هو سعادة الدنيا والدين.

(٥) وهناك حكم أخرى مثل النسج الحريري على النواة، ومثل الحفرة المستطيلة في جرم النواة، ومثل النقرة التي على ظهر النواة التي منها تخرج النخلة، ومثل القمع الذي على رؤوس الثمرات، فهذه وأمثالها تقدّم ذكرها في تفسير الفاتحة عند قوله: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢].

وبمناسبة ما تقدّم من ذكر الثمر وبهيمة الأنعام أذكر هنا محاورات دارت بيني وبين فلاح مصري وقد نشرتها جريدة «كوكب الشرق» في ٥ سبتمبر سنة ١٩٢٥، وهاهي ذه:

حديثي مع فلاح مصري ذكي الفؤاد

خرجت يوم السبت ٢٩ من شهر أغسطس سنة ١٩٢٥ لأروّح النفس من عناء الأعمال في الحقول، وأستنشق النسمات في الخلوات لا القهوات والمنتديات، فأسامر الزهر والشجر والزرع والثمر والحب والورق، وأمتعها بالحكمة واجتلاء بدائع النظام في مناظر الفاكهة ﴿ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾[الرحمن: ١١-١٢]. قال الشاعر:

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

وذلك في المزارع النائية عن بلدة الجيزة، وبينما أنا أمشي في طرقات المزارع وأتأمّل ذلك الجمال الرائع إذ قابلني فلاح يسقي الذرة، وهو يجمع الكلأ من تحته لجاموسته، فأخذ يقول: أظن أنك جئت هنا للنزهة واستنشاق الهواء منفرداً عن المجامع والمجالس. قلت: نعم، وكان في يدي إذ ذاك زهرة قطن أخذتها من حقله، فسألني قائلاً: ما الذي تستفيده من هذه الزهرة إذ ليس لها رائحة ذكية ولا منافع مادية؟ فقلت: انظر معي، تعالَ هنا لأريك عجائبها وأعلمك بدائعها. قال: وأيّ عجب فيها ونحن نشاهدها كل حين ولا نرى فيها عجباً؟فقلت: انظر ألست ترى هاهنا ثلاث وريقات محيطات بالزهرة أتدري ما فائدتها؟ قال: هي هكذا ربنا يعلم أمرها. فقلت: هذه تحافظ على دثار هذه العروس الجميلة وملابسها السندسية الصفراء المزدانة بلون الشفق، وفي داخلها نقط حمراء وقطرات العسل الحلو قد أعدّت للحشرات تجتنيه. فقال: عروس وملابسها، أما العروس فهي حق إنها بهجة جميلة لأني أرى هذه الوريقات كذلك ولكن أين العروس؟ فقلت: انظر هنا داخل الأثواب البيض المصفرّة، انظر هذه الأنبوبة من داخلها، ألست ترى أنها حاملة حملاً خفيفاً في جوفها وهي جوزة القطن؟ قال: أرى ذلك. قلت: هذا هو الرحم وهذا هو الجنين، وهذه الأنبوبة هي الأنثى، وهذه الأوعية الحاملات حولها حبوباً صفراً هي الذكور، وتلك الحبوب الدقيقة هي الطلع الذي هو كطلع النخل، وهذا الطلع به يكون الإلقاح، وكل نبات هكذا فيه ذكر وأنثى كهذه الجاموسة وهذا الإنسان. إذ ذاك رأيت الرجل أخذ يظهر الدهش والتعجب ويقول: عشنا ولم ندر شيئاً في الدنيا، زدني زدني سبحان الله، أهذا كله في العلم؟ الله يعمر الأزهر ويجعله آهلاً بالعلماء، الله الله، إن العلم حسن جداً، قل لي وهل هذا في القرآن يا سيدنا؟ قلت

له : نعم، قال الله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[الذاريات : ٤٩] . قال : «هه» لعلكم تذكرون، ونحن لا نتذكر، من هنا جاء الذل للناس، من هنا حاقت بهم المصائب، هم لا يعرفون ربهم، لا يعرفون شيئاً من أمور دينهم ودنياهم . قال الفلاح : أنت قلت لي هاهنا عسل، وهل هذا العسل للعروس تأكله، والله إن العروس في ثيابها كأجمل ثياب العرائس . فقلت : قد قلت لك إن العسل أعدّ للحشرات مثل النحل . فقال : ولماذا؟ قلت : إن الحشرات إذا نظرت لون الزهرة فإنه يعجبها، فتطير إليها لحسنها، ثم إذا دخلتها أكلت هذا العسل، وعند دخولها وخروجها تحمل أجنحتها من هذا الطلع الأصفر ونحوه فيقع منها على الأنثى التي رأيتها بعض الطلع فيحصل اللقح، والنحلة لا علم لها بما تحمله، وإنَّما هي مسخرة وقد أخذت أجرتها وهو العسل والمناظر البديعة في الزهرات، وتارة تكون الرياح هي الملقحات وحدها، ولون الزهر معدّ لأجل الحشرات الطائفات على الزهرات وهي مغنيات، كما تسمع النساء يغنين للعرائس أيام الزفاف . فقال : يا سبحان الله شيء عجيب، أنا الآن أريد أن أسألك عن كل شيء . فقلت له : أجيبك على ما أعرفه . فقال : أنت تعرف كل شيء . فقلت : قليلاً، قال الله تعالى : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[يوسف : ٧٦] . قال : يا سيدنا، ماذا تقول في الذرة؟ قلت : هو كالقطن . قال : فأين مادة اللقاح . قلت : في أعلى العود، ألست تراه أشبه بشماريخ طلع النخل . قال : بلى، وأخذ يضرب كفاً على كف، وقال : هو هكذا . قلت : نعم هكذا . قال : فأين الرحم في الأنثى؟ قلت : انظر إلى هذه الأنابيب الشعرية التي هي سلوك حريرية، إن فيها فتحات لا نراها، والطلع ينزل من أعلى العود ويمر داخلها فتحمل بحبة واحدة، فكل حبة على المطر «الكوز» من الذرة جاءت من لقح ذكر وحمل أنثى، وإذن يكون المطر الواحد عبارة عن قرية فيها بيوت كثيرة ومواليد بعدد الحبات المنتظمات على «القولحة» . قال : هذا حق والله، لأني رأيت رجال الحكومة في مصلحة البساتين يجعلون الذرة في خطوط، ويأتون إلى الخط الذي يأتي الريح من جهته فيتركونه، ويأتون إلى الخط الذي تحت الريح فيقطعون أعلاه ليجيء اللقح من الأول إلى الثاني، وهما من نوعين من الذرة، فيحصل صنف جديد من الذرة بأشكال جديدة . فقلت له : أحسنت أنت فهمته عملاً ولكنك لم تكن قد اطلعت على سرّه . قال : نعم . ثم قال الفلاح : انظر إلى جوزات القطن فهاهي ذه قد فتحت وظهر قطنها . قلت : وماذا تسأل عنه؟ قال : أسأل عن السبب في أن القطن هكذا ظاهر واضح، فأما الذرة فإنها إذا نضج حبها وأينع فإنه لا يزال داخل الغلاف ونحن نرفعه عنه بأيدينا، فأما القطن فإنه يظهر للناس خارجاً ليس له وقاية تقيه ولا حافظ يحفظه، فالزهرة قد ذبلت ووقعت، والجوزة انحلت عنه وأصبح بارزاً تراه العيون، وأما حب الذرة فإنه يبقى محفوظاً في سنابله مخبوءاً في أماكنه . فقلت له : ليس القطن ظاهراً كما تقول، بل هو خاف مخبوء، فكما اختبأت حبات الذرة محافظة عليها فهكذا اختبأ القطن . فقال : اختبأ هاهو ذا تراه بعينك . قلت : أرى الشعر وهو وقاية للبذرة، فالمقصود الأعظم هو البذرة وأما الشعر فهو وقاية لها كغلاف الذرة، فهناك غلاف حافظ للحب وهنا شعر القطن يحفظ البذرة التي تنبت فتصير قطناً آخر فيما بعد، والغلاف في الذرة والشعر في القطن في الحفظ كزلال البيضة الحافظ لمحّها «صفارها» . فقال : لا تدخلني في مسائل عويصة، ولا تطوّح بي بعيداً، بل نبقى هنا في الغيط . ثم قال : إنك فتحت لي باباً عظيماً وأنا سعيد جداً لهذا الكلام، إن العلم حسن، وعلماء الأزهر متمتعون بنور العلم فرحون به . فقلت له : هذا العلم يقلّ من يدرسه في مصر الآن . فقال : يقلّ، ومن أين تعرفه

أنت؟ فقلت: أنا من القليل الذين يدرسون. قال: ألم يكن هذا في الدرس وأنت قلت إنه في القرآن؟ قلت: بلى، ولكن الإهمال عظيم جداً، وليس كل عالم بالدين دارساً لهذه العلوم الجميلة.

ثم جاء ابنه ومعه ما كان مجموعاً من الكلأ ليقدّمه للجاموسة، فقال: أسألك يا سيدنا عن هذا أيضاً. قلت: سل. قال: ربنا جعل الحشيش للبهائم، وجعل لنا الحب لأننا أفضل من البهائم والبهائم تأكله وهي قوية الجسم، ومرضها إذا اعتنينا بها قليل، ولكن الحب نطحنه ونخبزه والخضر نطبخها، ومع ذلك نتعب من الأكل ونحس ببعض الأوجاع والمغص، ونستعمل الأدوية فلماذا؟ قلت: إن الله لما أعطاك العقل وطبخت وخبزت أعطاك أيضاً معدة واحدة فقط، أما هذه الجاموسة وأمثالها من الحيوانات التي تأكل الحشيش فإنها لها أربع معدات، اثنتان تجعلان مخزناً للطعام حين تتعاطاه الجاموسة يحفظ فيهما، إحداهما تسمى «الكرش» والثانية «القلنسوة»، واثنتان لهضم الطعام بعد رجوعه من الأوليين لفم الحيوان، فالحيوان يسترجع ما خزنه في الأوليين ليجترّه، وبعد مضغه يدخله في الأخريين ليتم هضمه فيهما، وهاتان الاثنتان إحداهما يسمونها «الأنفحة» والثانية يسمونها «أم التلافيف»، فالعدل قام هنا وظهر. فلما كان الحيوان لا يقدر على طحن ولا عجن ولا خبز ولا طبخ، أعطي أربع معدات تخبز وتطبخ له، وكانت له الحرية التامة أن يخزن في اثنتين ويمضغه بعد ذلك ثم يرجعه للاثنتين الأخريين. وأما الإنسان فكفاه ما هو فيه من الأعمال الخارجية الكثيرة، ولم يمنح إلاّ معدة واحدة، وهنا تمت المسائل العلمية بيننا، وابتدأ الفلاح يسأل أسئلة عامة في أحوال الأمة المصرية، فقال: قل لي ولماذا كان لهذه الجاموسة في بطنها مخزنان، ولماذا لم يكن الطعام متوجهاً إلى ما تسمونه «الأنفحة وأم التلافيف» مرة واحدة؟

شكل (٧) ـ رسم آلات الهضم للأمعاء

فقلت: هذان المخزنان جعلا لأجل هذه الحيوانات في الجبال، إذ تكون الغزالة خائفة من الأسد والنمر ونحوهما، فإذا صادفت عشباً أخذت منه مسرعة ما تحتاجه وخزنته ثم أسرعت إلى كناسها واستراحت وأخذت ترجعه ثانياً إلى فمها وهكذا، وتجتر الطعام وترجعه للهضم، فهذان المخزنان خلقا للخوف من السباع الضارية.

فقال: ولماذا ترى ربنا سلط السباع على هذه الحيوانات؟ فقلت: لقد أطلت الأسئلة. فقال: لا أزيد على هذا السؤال. فقلت: إن السباع جعلت لتأكل لحم هذا الحيوان، بدل أن يعفن في الجو فيملأه بالمكروبات الضارة، فيكون الوباء والكوليرا ويموت الناس والحيوان، فالآساد نعمة لا نقمة. وأيضاً إذا مات هذا الحيوان ولا منفعة للحمه يكون عبثاً، فجعل لحمه للآساد والنمور لتعيش به، أفلست ترى أن الناس حين يموتون يعيش الدود في لحومهم ويتغذى بها، ذلك لأنه يراد أن يكون لكل شيء منفعة. فقال الرجل: والله إن هذا كلام حسن وجميل، لأنه يفتح الأعين ويشرح الصدور، وإني كنت قد فرحت بك، ولكن لما قلت لي إن الذين يعرفون الدين يجهلون هذا اغتممت غماً شديداً، وإذا كان هذا قولاً جميلاً فلماذا لا يعرفه الناس كافة؟ وكيف يعرفون ربهم، وبماذا يعرفون الله إذن؟

فقلت: عندنا علم يسمى علم التوحيد. فقال: هذا هو التوحيد، التوحيد في معرفة فعل الله الذي أريته لي الآن. ثم قال: وكيف يفكرون في التوحيد؟ قلت: يقولون الله واحد وهو قادر وعالم وحي ومريد، ويقولون: إن الله لو لم يكن واحداً وكان له شريك لحصل نزاع بينهما، والغالب منهما يكون إلهاً قادراً، وإذن لا يكون إلاَّ إله واحد. قال: ولماذا يذهبون بعيداً؟ الله واحد وهو ظاهر في فعله، جعل الذكور والإناث فينا وفي البهائم وفي شجر القطن والذرة، فلو كان الخالق غيره لكان العمل مختلفاً، فالعمل هنا يجري بطريقة واحدة منظمة، وأما هذا الكلام فالاقتصار عليه تقصير في العلم وفي الدين وضياع للعقول وغرور كبير. ثم قال: يظهر لي أن الناس أغمضوا عيونهم ولم يعلموا، قل لي: هل واحد في الدنيا يعرف هذه الأشياء معرفة عامة. قلت: هم الفرنجة. قال: تعني الخواجات؟ قلت: نعم، هم يدرسون هذا ويعرفونه. قال: ولكن أنت تقول إن ديننا يطلبه. قلت: نعم، ولكن الغفلة استحكمت. فقال: أنا فهمت الآن. قلت: ماذا فهمت؟ قال: فهمت أننا في الفلاحين مثلكم تماماً، فالفلاح منا يرى هؤلاء الأجانب يزرعون زرعاً منظماً وينظمون الطرق ويأتون بأشجار غريبة، ونحن ننظر لهم ولا نفكر فيما يعملون، ويقول الرجل منا: هذا يحتاج لنقود كثيرة، وإذا صرفنا فنحن لسنا عن يقين من المكسب، وهؤلاء أغنياء ونحن فقراء ونقول هذا ما وجدنا عليه آباءنا، فالابن يتبع أباه، وهؤلاء يرتقون في بلادنا ويملكون أرضنا، ونكون عندهم مأجورين عاملين لا غير، فأظن أنتم مثلنا يخاف كل واحد منكم على مركزه ووظيفته، ويقول: لو أني جعلت النظام على الطريقة النافعة لكرهني الناس، ولقاموا عليَّ قومة واحدة، فيبقى تعليمكم عقيماً وتعلمون الناس ألفاظاً يحفظها الابن عن الأب والتلميذ عن الأستاذ، وهكذا طبقاً عن طبق، وربنا لا يرضى عن الناس قط إذا فعلوا هذا، فالأجانب ملكوا أرضنا بجهلنا وأنتم أيضاً بعلمكم المعوجّ ضيّعتم البلاد والعباد، والله يسألني عما أقول، إن احتلال البلاد وضياعها ناشئ من جهل القائمين بالأمر من رجال الدين وغيرهم، نحن نستحق المدافع والطيارات والموت ما دام كل واحد منا يقول: ما لي وللمسلمين فنحن وأنتم في هذه المسؤولية سواء بسواء. انظر يا سيدنا، إن مصلحة البساتين كانت تعمل كل يوم تجارب، وهذه التجارب تأتي بأنواع جديدة، ونظامهم أحسن من نظام الأجانب، ثم إن الفلاحين لا يقلدون هذه المصلحة، وإذا كان للفقراء عذر فلماذا نرى الأغنياء عنها ساهين لاهين، فأنا أظنّ أنكم مثلنا تماماً أهملنا وأهملتم، وضيّعنا أرضنا وضيّعتم أنتم عقولنا. ولكن يا سيدنا أنت تقول: إن علماء الدين لا يقرؤون هذا. فقلت: كانوا يقرؤونه أيام المغفور لهم «إسماعيل باشا وتوفيق باشا» وأوائل الاحتلال، وبعد ذلك حذف من البلاد بالتدريج. قال: حذف من المدارس؟ قلت: نعم. قال: لأجل أن تقفل الأعين جميعاً، أعين رجال الدين ورجال الحكومة، ولكن كيف يا سيدنا تقول هذا القول مع أني أخبرتك أن رجال البساتين يقطعون أعلى الذرة ليعملوا تجارب، وهذا يدل على أنهم يعرفون مسألة اللقح، فلا بد أنهم يعرفون، فكيف تقول إنهم لا يعرفون. فقلت: هؤلاء هم علماء هذا الفن وطبعاً يعرفونه أحسن مني أنا ومن غيري، ولكن هذه معرفة لأجل الصناعة، لا أنها لأجل الاستنتاج العقلي منها فيما أتكلم معك فيه، وكان يجب أن يكون جميع رجال الدين وتلاميذ المدارس عارفين هذه الأمور معرفة تامة لترقية عقولهم، فأما رجال البساتين ومصلحتها فهم أشبه بالأطباء يبحثون عن الزراعة كما يبحث أولئك عن المرض، فهذا بحث خاص. قال: الآن فهمت وصدّقت قولك، يعني أن

العلم ليس معمماً في المدارس. قلت: نعم، وسيعمّ من الآن. قال: ومن أين جاء لك؟ قلت: إنهم تنبهوا لهذه الأمور الآن. قال: تنبهوا؟ هذا لا يكفي يا سيدنا، أنت حرام عليك إن لم تقل لهم هذا القول، وإياك أن تكون خائفاً كالذين يخافون، وإن هذا الكلام الذي قلته ينفع كثيراً. وصار يقول: سألتك بالله أن تقول لهم هذا القول، ولو كنت بدلك لكنت ملأت المجالس بهذا، وكتبت في الجرائد. فقلت له: سأكتب كل ما جرى بيني وبينك اليوم في الجرائد السيارة، ومتى كتب أحضر إليك هنا وتسمعه. قال: وهل تعاهدني على ذلك؟ قلت: أعاهدك. قال: الآن انشرح صدري، وهذا العمل يرقي الناس ترقية عامة. انتهى حديث الفلاح، ولقد أحببت أن أكتبه لأن العامة أقرب إلى الفطرة، فوجدانهم وشعورهم مقتبسان من النور الإلهي. انتهى الكلام على المقصد الخامس.

المقصد السادس

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ (١٥٧) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ أي: هلموا أيها القوم ﴿أَتْلُ﴾ أقرأ ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حقاً يقيناً لا شك فيه، وليس كما تزعمون من تحريمكم المبني على الأهواء، بل هذا نزل به الوحي عليّ، ثم قال المتلوّ ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ من الشرك ﴿وَ﴾ أحسنوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ من أجل فقر ومن خشيته؛ كقوله تعالى في آية أخرى: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾[الإسراء: ٣١]، ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ يقول: لا تئدوا بناتكم خوف العيلة والفقر فإني رازقكم وإياهم، فالله تكفل بالرزق فعلى الآباء القيام بالتربية، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ كبار الذنوب ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ بدل من «الفواحش» أي: علانيتها وسرها ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾، واعلم أن جميع الفواحش الظاهرة والباطنة لا استثناء في تحريمها كالزنا والغصب والسرقة وما أشبهها، أما القتل فقد يكون لقصاص أو لزنا الثيب أو لترك الدين بالردة، لذلك أفرد بالذكر لينص على الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ المذكور من هذه الثلاثة ونحوها، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ ما ذكر من الأوامر والنواهي ﴿وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا ما في هذه التكاليف، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالفعلة التي هي أحسن ما يفعل بماله كحفظه وتثميره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ حتى يصير بالغاً، و«الأشد» جمع كنعمة وأنعم، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل والتسوية، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، فليس إيفاء الكيل والميزان إلا بما في الطاقة، أما الأمور المعسرة فقد عفى عنها؛ لأن التكليف بما في الطاقة والوسع، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ في حكومة ونحوها ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فيها ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المقول له أو عليه من ذوي قرابتكم، ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ يعني ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون به، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ المذكور في هذه السورة بأسرها من إثبات التوحيد والنبوّة وبيان الشريعة وعجائب الخلقة من السماوات والأرض والجنات المعروشات وغير المعروشات، وبدائع الحكمة الإلهية والأنوار والظلمات، والنظر في الثمر إذا أثمر، والنهي عن قتل الأنفس والمحرمات بأسرها، وما شاكل ذلك، وكذلك جميع أحكام الشريعة، وكل ما بينه الرسول وورد في القرآن من دين الإسلام، ﴿صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الأديان المختلفة والطرق التابعة للهوى ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ أي: فتفرقكم وتميلكم ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ الذي هو اتباع الوحي والبرهان ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الاتباع ﴿وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ السبل والضلال والتفرق عن الحق.

ولما أتم الكلام على المحرمات والتوصية بتركها؛ شرع سبحانه يقول على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ثُمَّ﴾ أخبركم أنا ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا﴾ للكرامة والنعمة ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي: على من أحسن القيام به من أمته، كما أنزلنا القرآن كذلك إتماماً للنعمة والكرامة على كل من أحسن القيام به؛ وحافظ على أوامره وترك نواهيه، كالذي ورد في هذه السورة من الأوامر والنواهي

والإرشادات للجمال والبدائع التي أحسنها الله وزينها للناظرين ﴿ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي: تماماً للنعم على المحسنين، وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُم ﴾ أي: لعل بني إسرائيل ﴿ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا ﴾ أي: القرآن ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ كثير النفع ﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ بواسطة اتباعه وهو العمل بما فيه، وإنما أنزلناه ولم نكتف بالتوراة والإنجيل كراهة ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ اليهود والنصارى، وإنما لم يذكر الكتب السماوية الأخرى لأن العرب لا يعرفون غيرهما ﴿ وَإِن كُنَّا ﴾ «إن» هي المخففة من الثقيلة، ولذلك دخلت اللام الفارقة في خبر كان أي: وإنه كنا ﴿ عَن دِرَاسَتِهِمْ ﴾ قراءتهم ﴿ لَغَافِلِينَ ﴾ لا ندري ما هي أو لا نعرف مثلها، ﴿ أَوْ تَقُولُوا ﴾ عطف على الأول ﴿ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ لحدّة أذهاننا وثقابة أفهامنا، وكيف لا يكون كذلك ونحن على أميّتنا حفظنا تاريخنا بأشعارنا، وعرفنا الأنوار والنجوم والمنازل بحدّة أذهاننا، ولنا قوة جلد وصبر نقتحم بهما المهالك وننشر العرفان في أنحاء الكرة الأرضية فنصل إلى الهند والصين وأوروبا، وننشر علمنا في العالمين، ثم قال الله تعالى: ﴿ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ لمن تأمل فيه وعمل به ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ بعد أن عرف صحتها وتمكن من معرفتها ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أعرض أو صدّ عنها فضلّ وأضلّ، ﴿ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ شدته ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ بإعراضهم أو صدهم ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ أي: ما ينتظرون ﴿ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ملائكة الموت أو العذاب ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ أي: كل آيات ربك؛ أي: آيات القيامة والعذاب والهلاك الكلي ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ أي: أشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض» أخرجه مسلم. وروى البخاري ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها»، وفي رواية: «فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً»، وفي رواية من مسلم: «إن هناك عشر آيات: الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى ابن مريم وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تطرد الناس إلى محشرهم». قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ﴾ كالمحتضر إذا صار الأمر عياناً والإيمان برهاناً ﴿ لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ والمعنى: أنه لا ينفع نفساً حينئذ إيمانها غير مقدمة إيمانها أو مقدمة إيمانها غير كاسبة في إيمانها خيراً. قال الضحاك: من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية كما قبل منه قبل ذلك، فأما من آمن من شرك أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية فلا يقبل منه لأنها حالة اضطرار؛ كما لو أرسل الله عذاباً على أمة فآمنوا وصدقوا فإنهم لا ينفعهم إيمانهم ذلك لمعاينتهم الأهوال والشدائد التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة. قال الله تعالى: ﴿ قُلِ انتَظِرُوا ﴾ أي: انتظروا ما وعدتم به من مجيء الآية، ففيه وعيد وتهديد ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ ما وعدكم به ربكم من العذاب يوم القيامة، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ كاليهود الذين افترقوا إحدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا

واحدة، وكالنصارى افترقوا اثنتين وسبعين فرقة، وهكذا المسلمون فرق كثيرة ﴿ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ فرقاً وأحزاباً ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ أي: في شيء من السؤال عنهم وعن تفرقهم، أو من عقابهم، ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يتولى جزاءهم، ولكن لما نزلت آية السيف قاتلهم ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ بالعقاب، ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ أي: عشر حسنات أمثالها فضلاً من الله سبحانه وتعالى؛ وسبعون وسبعمائة وبغير حساب كما في آيات أخرى، فالعشر إما أقل العدد المضاعف وإما المراد بها الكثرة بلا نظر لنفس العدد الخاص، ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ أي: في مقابلتها ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ بالوحي والإرشاد إلى ما نصب من الحجج ﴿ دِينًا ﴾ بدل من محل صراط؛ لأن المعنى: هداني ربي صراطاً مستقيماً ﴿ قِيَمًا ﴾ فعيلاً من: قام؛ كسيد من: ساد، أو قيماً في قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي على أنه مصدر نعت به، وكان القياس أن يقال: قوماً كعوض؛ فأعلّ لإعلال فعله كالقيام، ﴿ مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ عطف بيان لدينا ﴿ حَنِيفًا ﴾ حال من إبراهيم ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ عطف عليه ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى ﴾ عبادتي كلها ﴿ وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى ﴾ أي: حياتي وموتي واقعة بخلق الله وقضائه وقدره، وسائر أفعاله لا يشاركه فيها أحد من خلقه، وهذا هو قوله: ﴿ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ﴾ يعني: قل يامحمد: وبهذا التوحيد أمرت ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ وأنا أول المستسلمين بقضائه وقدره، ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا ﴾ أي: سيداً وإلهاً ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ سيد كل شيء ومالكه، لا يشاركه فيه أحد ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ أي: إن إثم الجاني عليه لا على غيره ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي: لا تؤاخذ نفس آثمة بإثم أخرى أو لا تحمل نفس حاملة حمل أخرى، ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ يعني: في الدنيا من الأديان والملل، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: جعلكم يا أمة محمد خلائف في الأرض، فإن الله أهلك من قبلكم من الأمم الخالية واستخلفكم فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها، أو خلفاء الله في أرضه تتصرفون فيها، وعلى هذا يكون الخطاب عاماً لكل الأمم، ثم قال: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ في الغنى والشرف ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ من الجاه والمال وغيرهما، أي: يعاملكم معاملة المختبر والمبتلى، فيبتلي الغني بغناه، والفقير بفقره، والعالم بعلمه، والشريف بشرفه، والوضيع بدناءته، والعبد والحر من جميع أجناس خلقه، ليظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب، لأن العبد إما أن يكون مقصّراً فيما كلف به؛ وإما أن يكون موفياً ما أمر به، فالمقصر يخوف ويرغب، فلذلك قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ لأن ما هو آت قريب ﴿ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: لذنوب أهل طاعته. انتهى التفسير اللفظي.

يقول الله في هذا المقصد: إياكم والإشراك بربكم، ثم أطيعوا الوالدين، واستوصوا بأولادكم خيراً فلا تقتلوهم خيفة الفقر، وكأنه تعالى لما أمر الناس بإعظام الخالق فالوالد فتربية الولد قد أتم هذا النظم، وهو إعظام من فوقنا والرحمة بمن تحتنا، أخذ يأمرنا بترك الفواحش الظاهرة والباطنة، فكما راعينا بالعبادة والإجلال من فوقنا وبالرحمة من تحتنا هكذا يشملنا تجمل الظاهر والباطن من أحوالنا بالتباعد عن سيئات الأمور. هذه أول وصية.

فأما الوصية الثانية فهي المعاملة مع الناس، فلا نأكل مال اليتيم ونلاحظه كما نرحم أبناءنا ونزن ونكيل ونقول بالحق فلا نطفف المكيال والميزان ولا نظلم في أقوالنا ونشهد بالحق على الأنفس والأقارب.

فأما الوصية الثالثة فهي أن لا نعدل عن هذا الصراط الذي في هذه الآيات وفي هذه السورة وفي القرآن كله، فإذا تبع كل فريق هواه ضلّ وغوى ووقع في الهاوية. ولما أتم الوصايا الثلاث شرع يخبرنا عن سبيل الديانات قديمها وحديثها وذكر أهم القديم وهو دين موسى عليه السلام، وأهم الحديث وهو دين محمد صلى الله عليه وسلم الذي أمرنا بأن نتبعه فلا نعدل عنه، فقال: أيها الناس قد آتينا موسى كتاب التوراة لنتم النعمة على من أحسن القيام به علماً وعملاً، وفصلنا فيه البينات والهدى، وجعلناه رحمة عسى أن يوقن أتباعه بلقاء ربهم؛ هكذا أنزلنا القرآن فاتبعوه، فليس محمد بدعاً من الرسل، أيها الناس، ليس لكم اعتذار فلا تقولون قد أنزلت التوراة والإنجيل على غيرنا فكيف تعذبنا ونحن غافلون عن دراستهما مع أننا أذكى أذهاناً، وأحدّ أفئدة، وأقوى قلوباً وأشجع، وقد صدق وعدنا ووعيدنا وصبرنا في البأساء والضراء فقوي بأسنا، فلو نزل علينا كتاب لرفعنا به الأمم الأرضية، ولطرنا به في الشرق والغرب، ولهذبنا الأمم وهديناها وربيناها وأدّبناها. فهاهو ذا القرآن قد أزال اعتذاركم بإرشاداته القيمة البليغة، فمن أعرض عنه أو صدّ الناس عن اتباعه جازيناه سوء العذاب. فاتبعوا القرآن ولا تتبعوا الأهواء، فلم يبق لكم عذر واحذروا التفريق ولا تكونوا كالأمم السالفة، ومن لم يتبع هذه النصائح من الأفراد والأمم فإنهم لا محالة واقعون في العذاب الأليم.

عجيبة من عجائب القرآن في هذه الآيات

وهي: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا﴾ الخ الآية.

اعلم أن كل عمل له وقت خاص فإذا تجاوزه لم ينفع العمل، ألا ترى رعاك الله أن لكل زرع وشجر وقتاً محدوداً وزمناً معيناً، فمتى جاوزه لم يفلح زرعه ولم يثمر، هكذا ترى بني آدم إنّما يكون تعلمهم وقت الصغر، فإذا كبروا صعب العلم، وهكذا الأدب لا يفيد إلاّ صغار السنّ ومتى جاوز السن لم يفد، هكذا جميع أعمال الحياة في هذه الدنيا لها أوقات معلومة متى جاوزتها لم تكن لها فائدة.

فلننظر نظرة في أهل الأرض في الفرد والأمة والكرة الأرضية كلها، فإذا لم تكن الأخلاق والآداب والعلوم للفرد في حال تمكنه وذهب وقت ذلك وحلّ الموت فلا يفيد الإيمان ولا العلم ولا الأخلاق، إن الإنسان يحشر على ما مات عليه، فإذا رأى الحقائق عند الموت وهو قد مات ولا علم عنده ولا أخلاق، فأيّ قوة له على الطيران في تلك الباحات الشاسعة والأماكن العالية؟ وكما لا ينفع سقي القطن بعد أن عطش أيام إثماره فلا إثمار بعد فوات سقيه في أيام الإثمار، هكذا لا فائدة من ظهور الحقائق للذي مات ولا علم ولا عمل ولا أخلاق، وإنّما يكون في حسرة وحزن على ضياع زمانه بلا فائدة جناها ولا أعمال زاولها.

وكما رأيت الفرد ترى الأمة فإنها إن لم يقم كلّ فيها بما استعدّ له من علم أو صناعة أو عمل، ضاقت عليها الأرض بما رحبت، وأسرعت إليها الأمم من كل جانب، وكذلك إذا تفرّقت أهواؤها فإن العدوّ يغير عليها، كما حصل في الأزمان الغابرة أيام هجم المغول والتتار وهما الأمتان المجاورتان

للبلاد الصينية وهم المسمون يأجوج ومأجوج في كتب الجغرافيا القديمة، كما يتضح لمن اطلع على خريطة كتاب «إخوان الصفا» فإنه يرى أن تلك البلاد تسمى يأجوج ومأجوج، ففي ذلك الوقت هجم «جنكيز خان» على الأمم الإسلامية لما قتل «قطب أرسلان» رسل «جنكيز خان» الذين أرسلهم للتجارة في بلاد الإسلام، ولم يستحلّ جنكيز خان ذلك الهجوم إلاّ بعد أن أرسل خطاباً لقطب أرسلان، وسترى نصه في سورة الكهف، نقلته عن كتابي المسمى «نظام العالم والأمم»، وهذا الكتاب فيه طلب المبادلة والمعاملة. ولما قرأ قطب أرسلان الخطاب قطع آذان الرسل، فحينئذ صام «جنكيز خان» ثلاثة أيام لم يذق فيها الطعام، وقال: يا الله، أردت عمارة أرضك، ولكن المسلمون هم الذين أرادوا خرابها، ثم هجم الهجمة التي مزقت الإسلام شر ممزق، فلم تقم للدولة قائمة إلاّ قليلاً، وخربت بغداد بعد ذلك، خرّبها «هولاكو» من أعقاب جنكيز خان، هكذا ترى دولة الأندلس إذ فسق المسلمون هناك بعد واقعة بغداد بنحو٣ قرون، وتقاطعوا وتدابروا وأباحوا التجارة بلا قيد ولا شرط، فشربوا خمر الفرنجة ولبسوا ملابسهم، وتعلموا في مدارسهم، فتفرّقوا شيعاً، وذاق بعضهم بأس بعض، وكانت شروط الهدنة بين بارونات أوروبا ودوق فينيزيا والبابا من جهة، وبين ملوك الإسلام في الأندلس من جهة أخرى، أن التعليم حرّ، والتجارة حرة، والدين حر، فتوغل الإسبانيون في بلاد الإسلام إذ ذاك، وسقوهم الخمر، وعلموهم التنعم بلبس الحرير، والترف والفسق والخلاعة، واستدانوا وتقامروا، وخاصر الشبان الشابات في الحارات وعلى قارعة الطريق، وخلعوا العذار، وحقروا مجد العرب ودينهم، وصاروا يقرؤون علوم أسلاف الإسبانيين وآدابهم وتاريخهم، فأصبحت مدارس الإسلام خاوية على عروشها وصار الناس مسرفين شرهين جاهلين، فحقت عليهم كلمة ربك، فأخذهم العذاب من حيث لا يشعرون، وحقت عليهم آية ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، وهؤلاء أسرفوا في الأموال والخلاعة فاستعبدهم الإسبان، فقام الملك «فرديناند» والملكة «إيزابله» فأفنوهم وطردوا من بقي إلى أفريقيا، ذلك لأنهم تفرّقوا شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض، وصار لكل منهم وجهة هو موليها، حتى إن أحد ملوكهم لما استغرقوا في الفسوق اصطاد فتاة إفرنجية من أبيها، فشكا أبوها إلى ملك آخر من ملوك الإسلام هناك، فأرسل هذا الملك إلى الأول الذي هو ابن ذي النون أن أقلع عن خطئك وأرجع الفتاة لأبيها وكيف تكون زانياً؟ فردّ عليه جواباً شديداً، فقامت بينهما الحرب، وساعد الفرنجة ذلك الملك المنتصر للفتاة، وضربوا الأمير ابن ذي النون، وعملت هناك ليال راقصة فرحاً بانتصار الإسلام والنصرانية معاً على ابن ذي النون الذي فسق وغوى.

هذا هو سبب خراب دول الإسلام قديماً، وإلى الآن ترى آثار ذلك في الأعقاب، فإن المسلمين اليوم متفرّقون شيعاً وقد ذاق بعضهم بأس بعض، وكل حزب بما لديهم فرحون، فإن الفرنجة يعلمون الناس تحقير الديانات والآداب والأخلاق الشرقية، وهم قائمون بدياناتهم عاكفون على كنائسهم، يريدون أن يصدونا عن عوائدنا وأخلاقنا، ليضعوا أيديهم علينا ونحن صاغرون، ولم يتفطن لذلك إلاّ طائفتان وهم: أهل الهند، فقد منعوا المنسوجات الأجنبية من بلادهم، وإخواننا الترك، فإنهم في هذا الشهر مارس سنة ١٩٢٥ قد حرّموا تدريس الديانات غير الإسلام في بلادهم، وهذا أول ما تنبه الشرقيون للخطر الداهم.

فإذا سمعت الله في القرآن يقول فيما نحن بصدده: هل ينظرون إلاَّ أن تأتيهم ملائكة الموت فيقبضون أرواحهم أو يأتي بعض آيات ربك. وقد فسر في الصحيحين معاً بطلوع الشمس من مغربها. فاعلم أن موت الإنسان كهلاك الناس كلهم، فإذا طلعت الشمس من مغربها فذلك من أشراط الساعة وخراب الأرض، فإذا مات إنسان فلا ينفعه إيمانه إذا عرف الحقيقة، وإذا هلك أهل أرض كلهم فلا توبة لهم بعد الموت، وإذا سمعت حديث مسلم وقد روى أن آيات ربك عشرة، وذكر منها أنواع الخسوف وخروج يأجوج ومأجوج والدجال وعيسى ابن مريم وخروج الدابة، ونحو ذلك مما تقدم إيضاحه في غير هذا المكان؛ فلتعلم أن ذلك راجع إلى طلب الشيء بعد فواته.

ألا ترى أن خروج يأجوج ومأجوج الذي أوضحته في كتاب «نظام العالم والأمم» وستراه في سورة الكهف قد كان خراباً على الإسلام كما أجملته لك سابقاً، وقس عليه ما ذكر من الخسوف، فإنه لم يخرج عن إهلاك الأنفس التي خسفت الأرض بهم، فكيف يفيد إيمانها بعد ذلك. فأصبحت آيات الله عبارة عن الانقلاب الذي يحصل في الأمم أو في أرض الله كلها، فخراب دولة كخراب الأرض كموت إنسان.

عموم القرآن للأمم

ولما كان القرآن لم ينزل لأمة خاصة بل لعموم أهل الأرض، جاء ذكر هذه الأمور عامة حتى يأخذ كل من أهل الأرض منها بقدر طاقته، وأن المسلم كما ينظر في أمر نفسه ينظر في أهل وطنه ودينه وينظر في أمر الأمم كلها؛ فلذلك ترى المذكور في حديث مسلم عبارة عن أمور عامة لا تخص أمة، مما يدل على أن المسلم يعنيه النظام العام.

وملخص آيات ربك في هذا المقام ما يكون من الأمور الموجبة لفوات الفرصة، فالموت والانقلاب العام في دولة وخراب الأرض كلها متساوية في هذا المعنى.

وضوح معنى الآية

فكأن الله يقول: أيها الناس، احرصوا على العلم والدين والأعمال الصالحات قبل الفوات، وعلى كل امرئ أن يهذب نفسه ويسعى في تعليم أمته لئلا تضلّ. فهلاك الفرد لا ينفع بعده إيمانه، وكذلك هلاك أمته يكون سبب هلاكه، لأن المصائب تعمّ. وإذا ترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خربت دولهم، لأن الأمة كالفرد الواحد، فليكن المسلم مهذباً لنفسه هادياً لأمته، فإن لم تفعلوا ذلك ولم تكونوا على سبيلي فانتظروا معاينة العذاب بموت الأفراد منكم، أو انتظروا ما سيحلّ بكم من تفرّق الأهواء حين يخرج يأجوج ومأجوج ويقتلون الفرس والعرب الذين هم مسلمون، وكذلك تقوم الفرنجة على المسلمين في الأندلس وهكذا.

انتظروا الانقلابات العظيمة فإن هذه كلها ستحصل، وإذن لا تنفع التوبة ويذل المسلمون ﴿ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ معناه أنت منهم بريء وهم منك براء، تقول العرب: إن فعلت كذا فلست منك ولست مني، أي كل واحد منا بريء من صاحبه، هكذا هنا يقول الله: إن أمتك يا محمد حين تتفرّق أهواؤها وتختلف أحوالها وتصبح شيعاً ويقوم كل قوم ضدّ الآخرين، فإنك بريء منهم وانتسابهم لك لا يجديهم نفعاً،

ولقد صدق الله وعيده فإن ابن العلقم وزير المستعصم هو الذي سهل لهولاكو دخول بغداد انتقاماً من المستعصم الذي كان سنياً، والوزير شيعي، واحتل يأجوج ومأجوج البلاد فلم يرحموا سنياً ولا شيعياً فحاق الخراب بالأمم الإسلامية لما تفرقوا شيعاً، هذا معنى قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، وليس معنى ذلك أنهم كفار، بل ذلك معناه أنهم يعاقبون بما يستحقون لمخالفتهم صراطك المستقيم، لأن شريعتك قائمة على قول الحق والعدل وإقامة الميزان في كل شيء، وإعظام الكبير ورحمة الصغير، فإذا تحولت أمتك عن الجادة نزل بها العقاب ولا تقصير فلا تثريب عليك فقد بلغت ونصحت.

جواب اعتراض

لقد اطلع على هذا القول أحد الفضلاء، فقال: هذا حمل للآية على معنى بعيد جداً، وما لهذه الآية ولخراب بغداد وخراب الأندلس؟ وما لك تذهب بالمعاني إلى ما لا تحتمل الآية؟ فقل لي بالله كيف يثق الناس أن هذا هو معنى الآية؟ كلا والله، إن هي إلاَّ معان قامت بذهنك فأوردتها في هذا المقام كأنها معنى وليست بمعنى، ويا ليت شعري كيف تذكر هذا وإنه لبعيد؟ فقلت: أيها الفاضل، أنا لست بدعاً في هذا التفسير، ولم آت به من عند نفسي، فهل إذا أسمعتك أنه تفسير النبي صلى الله عليه وسلم نفسه تكون مقتنعاً بذلك؟ قال: نعم. قلت: فاسمع:

قال أبو هريرة رضي الله عنه في هذه الآية: هم أهل الضلالة من هذه الأمة. وروي ذلك مرفوعاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة» أسنده الطبري. فهذا حث للمسلمين على الاتّحاد.

وروي عن عمر بن الخطاب «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾: هم أصحاب البدع والأهواء من هذه الأمة» ذكره البغوي عن العرباض بن سارية. وفي هذا المقام ذكر المفسرون الأحاديث التي تحض على الاتّحاد، وما أخرجه أبو داود والترمذي من وعظ النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه حتى وجلت القلوب وأمرهم بالسمع والطاعة ولو ولي عليهم عبد حبشي، وأمر أن تتبع سنته وسنة الخلفاء الراشدين بعده، وقال: «إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة».

وفي أحاديث أخرى: إن اليهود افترقت والنصارى افترقت كما تقدم، وإن هذه الأمة ستفترق ٧٣ فرقة إلى آخر ما تقدم، فهذا كله يدل على أن مسألة الآيات في قوله: ﴿يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر ما تقدم يرجع إلى ممالك الأمم الإسلامية الذين تفرّقوا شيعاً وذلوا.

رأي المفسر

وأرى أن هذه الآيات أكبر عبرة في الدين الإسلامي، ذلك أن تفرّق المسلمين إنّما جاء للجهالة الشائعة بينهم، ولو أن علماءهم أفهموهم أن دين الإسلام ليس خاصاً بالمسائل الفقهية، بل هو يشمل جميع العلوم، لأصبحوا أمة واحدة، ولكن الجهالة العمياء، والبلاهة الكتعاء، وظلم الملوك والأمراء، وجهل بعض علماء الدين الذين لا يعرفون من هذا الدين إلاَّ أحكام الفقه التي لا تزيد على مائة وخمسين آية، كل ذلك هو الذي حصر عقل المسلم في عناد أخيه، حتى كره كل صاحب مذهب الآخر

ولو أنهم عرفوا أنهم يجب أن يكونوا أعلم بالعلوم العلوية والسفلية، ففي القرآن ٧٥٠ آية في الأخلاق و٧٥٠ آية في العلوم الكونية، لو عرفوا ذلك لرأوا أن الاختلاف في أحوال قليلة جداً، والاتحاد في أمور كثيرة فإذن يتحدون.

ولكن أقول: إن عمر الإسلام لم يزد عن ١٣ قرناً إلاَّ قليلاً، وهذا العمر في الديانات أشبه بالطفولة للإنسان، ولقد جاء زمن المراهقة للإسلام، وسيكون في المستقبل من المسلمين فطاحل العلماء في العلوم العلوية والسفلية لا الفقهية وحدها، وإذن يرتقي المسلمون ويكونون حاملي ألوية السلام وذلك بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله من مؤلفات علماء الإسلام في الأقطار الإسلامية.

هذا، ولما كان المسلم لا يعم نفعه إلاَّ بالإخلاص، أعقب هذا القول بما يفيد ذلك، فبدأ بالحسنات وأنها تضاعف للمحسن، وأكمل القول بالإخلاص إشارة إلى أن الحسنات لا تكون إلاَّ بالإخلاص، كما أن الاتّحاد لا يكون إلاَّ بالإخلاص، لذلك قال: ﴿ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو الدين القيم الذي كان عليه الخليل عليه السلام، وصلاتي وعبادتي وحياتي وموتي، كل هذه مسلمة ﴿ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وأنا بذلك مأمور ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، ثم أفاد أنه رب كل شيء وأن النفس لا تحمل إلاَّ ذنبها وكل لله راجعون.

ثم ختم السورة بقاعدة عامة وهي أن الناس جميعاً في الأرض ممتحنون مختبرون فلا ينجو مسلم بإسلامه من الاختبار، ولا صالح ولا طالح، بل جميع الناس سواء في ذلك. فإذا عوقبت أمة من الأمم الإسلامية أو أفراد فذلك لا يمنعه الإسلام، لأن كل نفس تحمل ذنبها، وعدل الله حق على الجميع، فالناس كلهم خاضعون لتلك القوانين العادلة الإلهية.

وإذا كان الله سريعاً عقابه فليس معنى هذا أنه يتمادى في غضبه، فالأمة التي ترجع إلى ربها تقبل وترقى، ولذلك ختم بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾. فإذا اتعظ المسلمون بأسلافهم وتعلموا وعرفوا علوم الأمم وعلوم العوالم فإنهم يسودون أهل الأرض، ولا يكونون كالمسلمين أيام «قطب أرسلان» إذ جهلوا قوة المغول والتتر، لنومهم على مهاد الراحة، لأنه ثبت أنهم كانوا يجهلون قوة جيرانهم فاحتقروهم، فما شعروا إلاَّ وطلائع القوم قد حلوا بساحتهم، فأبلوا بلاء حسناً، فعرف المسلمون أنهم جاهلون بمن حولهم، وأيقنوا بالهلاك فدهمهم التتر والمغول، وخرّبوا المدن تخريباً تاماً وقتلوا كل نفس كما تقدم.

فعلى المسلمين أن يعلموا أن تفرّقهم لأنهم جهال نائمون غافلون، وأن الأمم الإسلامية الماضية كان بعض علمائها أشبه بالأميين لا يعرفون من العلوم الشرعية إلاَّ الفقه، وصرفوا الناس عن علوم جمال السماوات والأرض، ففتنوا المسلمين وناموا نومة أهل الكهف في الجهالة العمياء والبلاهة الكثعاء، فعذّبهم الله بالذلة.

فليعتبر المسلمون الحاليون، وإني موقن أنه ظهر فيهم مصلحون وما أكثر المصلحين اليوم في الإسلام. وإني أسأل الله أن يجعل كتابي هذا من مبشرات الرقي في الإسلام، بل أقول إنه سيكون كذلك. وهذا أوان الرقي فلأبشر به المسلمين وليكونوا من مستقبل أمرهم على يقين ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[ص: ٨٨].

جوهرة مشرقة

بعد أن ختمت تفسير هذه السورة رأيت أن قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ يحتاج إلى زيادة إيضاح، فهاك ما وقر في النفس بعد ما تقدم، فأقول: اعلم أن هذه الأحوال كلها أو جلها قد ظهر في هذه الأرض، وقد قلت فيما تقدم: إن مرجعها كلها المفاجأة بالهلاك، ونتيجة ذلك أن تكون الأمم والأفراد مستيقظين للأعمال النافعة في الدنيا والدين، فإن الموت يأتي فجأة وكذلك الأحوال العامة التي تحلّ بالأمم.

(١) فإذا جاء في الحديث الذي أجمع عليه البخاري ومسلم: «أن الشمس إذا طلعت من مغربها لم تقبل التوبة»، فذلك للمفاجأة التي تصيب الناس من ظهور الحقائق بالبلاد الأوروبية حيث تغرب الشمس، فإن العلوم لما ظهرت وبهرت وكانت أمم الإسلام لا يعرفون إلاّ العلوم الفقهية مدة قرون، جاء لهم أهل الغرب فأذلوهم وقتلوهم وابتدؤوا ذلك بالأندلس، ثم تخطوا ذلك إلى بلاد الشرق، وهانحن أولاء نراهم يحرقون القرى ويهلكون أهلها ولا يرحمون صغيراً ولا كبيراً. فالأمم الإسلامية التي تأنف من علوم الكائنات وتظن أنها تنافي إيمانها ودينها فهي لا محالة آيلة إلى الهلاك، كما حصل في بلاد «أفريقيا» من دول أوروبا، فأما التي يكون اعتقادها بالإسلام يحضّها على العلوم فهؤلاء الذين يكسبون في إيمانهم خيراً، وحينئذ ينجون من الخطر فيعيشون مع العالم بسلام. فإذا رأينا بعض الأمم الإسلامية اليوم يقرؤون العلوم العصرية فهؤلاء إذا اعتقدوا أنها من الدين ترقوا سريعاً لاعتقادهم الراسخ في أذهانهم، فيعيشون مع العالم بسلام، وإلاّ أذلهم الغرب بالحرب والهلاك وفاجؤوهم بالمدافع فقتلوهم.

(٢و٣و٤) وإذا جاء في الحديث أن هناك خسفاً بالمغرب وخسفاً بالمشرق وخسفاً بجزيرة العرب فاعلم أن هذا تنبيه على أن الأرض تحصل فيها زلازل كما تقدم في هذا الكتاب، وهذا تنبيه أيضاً على أمر طبيعي، ومفاده أن من القرى ما تقع فيها الزلزلة على سبيل المفاجأة، فأهلها يموتون وكل منهم يموت على ما عاش عليه ولا تنفع التوبة، وهذا تحذير من أمر طبيعي كما يحذرنا من الغفلة لئلا يفاجئنا الموت.

(٥) وإذا جاء في «مسلم» أن هناك ناراً تطرد الناس إلى محشرهم، فحكمها كسابقها وهي المفاجأة، فليكن الناس على حذر صالحين في أعمالهم.

(٦) وإذا جاء في حديث «مسلم» أيضاً أن الدجال إذا نزل لا تقبل التوبة، فاعلم أننا قدّمنا في سورة البقرة أن من يشبه الدجال هم الأمم المستعمرون، فإنهم إذا نزلوا بساحات الأمم الشرقية أذلوها وأهلكوا أهلها، فمن مات منهم لا تنفعه توبته بعد الموت. وهذا تحذير للأمم الإسلامية من دجل الأمم وإضلالها ومدّها بالترف والنعيم والصناعات والخمر والملابس الفاخرة، فيستنزفون ثروتهم ثم يقبضون عليهم ويملكون بلادهم، وقد أروهم جنة الشهوات واللذات والوظائف والبضائع الجميلة، فأصبحت على الشرقيين ناراً تلظى لا يصلاها إلاّ الجاهلون فأذلوهم. وقد قلت في سورة البقرة وغيرها: أنا لست أقول إنهم هم المسيخ الدجال، وإنّما أقول هم نظراؤه وأشباهه فلهم حكمه، كما أني أقول إن طلوع الشمس من مغربها وإن كان على حاله وحقيقته يراد منه على سبيل الكناية المقصودة للناس في هذا

الزمان شمس العلوم والعرفان، وهذه كناية بحسب القواعد في علم البيان، فالدجال كناية، وطلوع الشمس من مغربها كناية، والقرآن أولى بالكنايات، والكناية أبلغ من المجاز ومن الحقيقة.

(٧) وإذا جاء في حديث «مسلم» الدخان، فقد ظهر بأوضح وجه في هذا الزمان. أوَلست ترى أن الدخان هو الذي يحارب به الآن؟ أوَلست ترى الغازات الخانقة والمعمية، والتي تأتي بالطاعون، والتي تميت سريعاً، والتي تأتي بالسل، والتي تأتي بالجنون الخ. وهذا قوله: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[الدخان: ١٠-١١]، وقوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾[الملك: ١٦-١٧]، وهذا الحاصب ينزل من الطيارات في بلاد العراق وفي بلاد مراكش وفي بلاد سوريا، فالأول من الإنجليز، والثاني من الإسبانيين، والثالث من الفرنسيين، وذلك حاصل الآن أي سنة ١٩٢٦.

(٨) وإذا جاء ذكر يأجوج ومأجوج، فهاأنت ذا عرفت حقيقتهما فيما سبق قريباً، وقد أريتك ما يكفيك، وإلاَّ فاقرأه في كتاب «نظام العالم والأمم» وفي سورة الكهف فيما سيأتي.

(٩و١٠) وإذا ذكر الدابة وظهور عيسى ابن مريم، فهذا كناية ظهور الحقائق واضحة جلية. فالقلوب النقية المستعدة تنال السعادة وتفهم الحقائق، والقلوب المطموسة التي لم يهذبها الدين ولا العلم فلا توبة لها لعدم تعقلها وفهمها.

وإذا ذكرت هذا فإنَّما جعلته كناية، والكناية تكون مع الحقيقة، والقرآن للهداية نزل. واعلم أن سورة الأعراف قد أوضحت هذا المقام تمام الإيضاح، فلقد جاء في أولها كيف تفاجأ الأمم بالهلاك، ثم سرد قصص نوح وعاد وثمود ومدين وقوم لوط وفرعون، وأنهم دمروا وهم لا يشعرون.

فهذا من بعض آيات ربك التي إذا جاءت لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً.

واعلم أن ثمرة هذه الآيات والمفاجآت إنَّما يكون في هذا الزمان، فالخسف والتدمير والدخان والعلوم والدجالون الكذابون من الأمم القوية، كل أولئك أحاطوا بالمسلمين وكذلك العلوم والمعارف. فإذا لم يشاكل المسلمون الأمم التي حولهم حقت عليهم كلمة العذاب فأصبحوا خامدين. وما كانت سورة الأعراف الآتية، ولا بعض آيات ربك التي في هذه السورة، لتنزل لمجرد التلاوة أو الإخبار، بل هي إنَّما نزلت لاستيقاظكم أيها المسلمون في هذا العصر، وإني أنذركم صاعقة العذاب الهون وخراب الدول إن لم تقوموا من فوركم بما أبنت لكم في تفسيري هذا من عجائب الله تعالى، وتعرفوا ما ذرأ الله في الأرض والسماوات من بديع صنعه وجميل إبداعه.

هذا هو الزمان الذي تنشر فيه الحقائق الإسلامية، ويقوم المسلمون بنهضتهم العلمية العمرانية، وإلاَّ فليعلموا أنهم خامدون مائتون هالكون صرعى المدافع والقنابل والدخان والدجالين أو تخسف بهم الأرض بما يقذف عليهم من الطيارات وهكذا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ بذلك ﴿ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن أدركوا وعقلوا فأبقاهم إلى حين.

انتهى تفسير سورة «الأنعام» ويليها سورة «الأعراف».

تفسير سورة الأعراف

هذه السورة مكية إلا ثمان آيات وهي

من قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾[الآية: ١٦٣]

إلى قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾[الآية: ١٧٢] الخ

وقد قسمت إلى تسعة أقسام

القسم الأول: من أول السورة إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[الآية: ٥٨] وهذا القسم فيه أربع مقاصد:

المقصد الأول: في مقدمة السورة في ابتداء تفصيل الكلام على ما أجمل في آخر سورة «الأنعام» من مفاجأة الأمم بالحوادث المزعجة، فعليه يجب أن يكون الناس مستيقظين دائماً، من قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ إلى قوله: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[الآية: ١٠].

المقصد الثاني: في قصة آدم وحواء وما أصيبا به من خروجهما من الجنة، ونزولهما إلى الأرض، وهي أول ما جاء من القصص كالتطبيق على ما يصاب به الناس مفاجأة، من قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ﴾[الآية: ١١] إلى قوله: ﴿ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾[الآية: ٢٥].

المقصد الثالث: بيان أن هذه القصة كسائر القصص، ليست تقصد لذاتها، أو للتفكه، بل هي للحكمة والاعتبار والعمل، وحث الناس على ألا يتبعوا وسوسة الشيطان كما اتبع أبوهم آدم وسوسته فغوى، وليحذروا أن يفتنهم الشيطان فينزع عنهم لباس التقوى كما نزع عن أبويهم اللباس المادي. ثم أخذ يذكر أحكام اللباس في الصلاة، وحكم الزينة التي خلقها الله وهكذا، من قوله: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾[الآية: ٢٦] إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الآية: ٥٢].

المقصد الرابع: فيما هو أهم مما تقدم؛ وهو النظر في خلق السماوات والأرض والشمس والقمر والسحاب والمطر والنبات؛ الخ، من قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ﴾[الآية: ٥٣] إلى قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾[الآية: ٥٨].

القسم الثاني: في قصة نوح وقومه، وكيف غرقوا بكفرهم، من قوله: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾[الآية: ٥٩] إلى قوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾[الآية: ٦٤].

القسم الثالث: في عاد ونبيهم هود عليه السلام، من قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الآية: ٦٥] إلى قوله: ﴿ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[الآية: ٧٢].

القسم الرابع: في ثمود ونبيهم صالح عليه السلام، من قوله: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ [الآية: ٧٣] وكيف كانوا يتخذون من السهول قصوراً وينحتون من الجبال بيوتاً، وكيف خسفت بهم الأرض لما طغوا وبغوا، إلى قوله: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الآية: ٧٩].

القسم الخامس: قصة قوم لوط عليه السلام، إذ كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، فأمطر الله عليهم مطراً غزيراً فهلكوا، من قوله: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ [الآية: ٨٠] إلى قوله: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الآية: ٨٤].

القسم السادس: قصة أهل مدين ونبيهم شعيب عليه السلام، إذ كذبوا وطففوا المكيال والميزان وبخسوا الناس أشياءهم فأخذتهم الرجفة لما كذبوا، من قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الآية: ٨٥] إلى قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الآية: ٩٣].

القسم السابع: في نتائج عامة من القصص المتقدمة، ونصائح عامة فصل فيها ما أجمل في أول السورة وفي آخر سورة «الأنعام» من أحوال الأمم العاصية، وأنه يجب الحذر في كل حين، لأن خراب الأمم قد يأتي بغتة ليلاً أو نهاراً، وأن أكثر نوع الإنسان لا عهد له، من قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ ﴾ [الآية: ٩٤] إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾ [الآية: ١٠٢].

القسم الثامن: قصص موسى عليه السلام، وما كان من أمر فرعون معه، وكيف كان أصحاب العقول أقرب للحقائق ممن يتبعون خوارق العادات، كما حصل لسحرة فرعون وجهلة بني إسرائيل، إذ آمن الأولون لما رأوا ما هو فوق قدرتهم على يدي موسى، وكفر الآخرون لما جاوزوا البحر و﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الآية: ١٣٨]، وغير ذلك من الآيات المفصلات، من قوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ ﴾ [الآية: ١٠٣] إلى قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الآية: ١٧٤].

القسم التاسع: قصة بلعام بن باعوراء الكنعاني، إذ أعطاه الله العلم فضلّ به، وما يتبع ذلك من الأحكام العامة، من قوله: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ [الآية: ١٧٥] إلى آخر السورة.

مقدمة تبيّن ارتباط هذه السورة بما قبلها

اعلم أن سورة «الأعراف» متممة لسورة «الأنعام» وبيانه أن سورة «الأنعام» يرجع أهم ما فيها إلى أمرين اثنين: أولهما النظر في العالم العلوي والسفلي. والثاني: اجتناب الشرك والظلم والمعاصي والقتل والعقوق والزنا، وما أشبه ذلك، وتجد العناية بالأمر الأول واضحة جلية في ابتداء السورة بالحمد على أن الله خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور، وفي نظرات الخليل في الكواكب متدرجاً من أدناها إلى أعلاها، وفي أن الله هو الذي فلق الحب والنوى، وأخرج الحي من الميت، وأضاء النهار وأظلم الليل، وأنشأ جنات وأعناباً ونخيلاً، وهكذا مما كثر ذكره في السورة.

وترى الأمر الثاني ظاهراً في التنديد بعبادة الأصنام والشرك واتباع الهوى وتحريم الحلال وتحليل الحرام، وظهر جلياً في آخر السورة إذ قال: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾.

وختم السورة بإنذار الأمم إذا أهملت العلوم فجهلت العوالم العلوية والسفلية، أو لم تراع الأخلاق والآداب فظلمت وعصت فأنذرها بقوله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾، ولم يبيّن تلك

الآيات وإنّما أبهمها وتركها للناس يفكرون فيها، وجاءت بعض الأحاديث بما يشفّ عن بعض الآيات بطريق الرمز ورجع ما فيها إلى أمور عامة ذكرناها يقصد بها أن تكون الأمم متيقظة عالمة عاملة كما شرحناه.

فكأن الله يقول في سورة «الأنعام» كما قال في سورة «الفاتحة»: أي عبادي، هاأنا ذا آمركم أن تحمدوني لأنني ربيت العالمين، ولن تعرفوا التربية العامة إلاّ بدراسة ما ربيته ونظمته من العالم العلوي والسفلي. أنتم مأمورون أن تحمدوني لأني ربيت العالمين، ولأني خلقت السماوات والأرض وجعلت الظلمات والنور، ولا حمد لمن يجهل صفات المحمود، ولا شكر لمن غفل عن صفات المشكور، وأنا لم أبتدئ القرآن بحمدي على أنني رب الثواب والعقاب، ولا رب البيوع والشفعة والرهن والميراث والقضايا، والوضوء وأركانه، وأنواع الحيض، وأقسام المياه التي يجوز التطهير بها، ولا على مسائل العتق، ولا على مجادلات علماء التوحيد واختلافهم في صفاتي، وهل هي عين ذاتي أو غير ذاتي، وإنّما أمرتكم بحمدي على أنني خلقت السماوات والأرض وجعلت الظلمات والنور، وخلقتكم من طين وربيت العالمين.

وكيف تحمدونني وأنتم أجهل الناس بأعمالي وجمالي ونوري الذي أشرق، والظلمات التي تجيء وتذهب بحساب؟ وكيف تحمدونني وأنتم لم تدرسوا الفلك ولا الطبيعة ولا النبات ولا الحيوان ولا جمال مخلوقاتي؟ على هذه يكون حمدي، ولا حمد لكم إلاّ بالدراسة والعلم، فمن جهل صفات المحمود كان حمده نفاقاً، وشكره لفظاً، وتعبده جهلاً، وحبه لربه رياء. وكيف تحبون من تجهلون، أو تتقرّبون إلى من لا تعرفون، وهل تعرفونني إلاّ بأعمالي؟ أعمالي التي أبرزتها في جو الكواكب والشموس والأقمار والنبات والحيوان والإنسان، فلا جمال إلاّ من جمالي، ولا حكمة إلاّ من أعمالي.

ولا يتسنى لكم معرفة جمالي في هذه المخلوقات إلاّ إذا انتظمت دولكم، ولا يكون النظام إلاّ حيث تتركون المعاصي ظاهراً وباطناً، وتقومون بالصلاة والزكاة وبقية أركان دين الإسلام، وتتركون ظاهر الإثم وباطنه، وأن تتركوا ما حرّم ربكم عليكم، فلا تشركوا به شيئاً، ولا تقتلوا أولادكم.

وانظر رعاك الله كيف ختم السورة؟ بماذا ختمها؟ ختمها بالإنذار للأمم كلها، أنذرهم وحذّرهم، قال لهم: اتبعوا صراطي مستقيماً، ولا تفرّقوا، وإلاّ أنزلت عليكم ما يصيب الأمم الجاهلة بفعل ربها ونظامه في خلقه الظالمة في أعمالها العامة والخاصة، فإذا أتت لكم بعض آيات ربكم لا تنفعكم التوبة.

يقول: قوموا بالأمرين معاً: معرفة نظام السماوات والأرض، وتهذيب نفوسكم ونظام دولكم، وإلاّ فإنكم معرّضون للانتقام وذهاب دولكم يوم يأتي بعض آيات ربكم، وإذن لا تنفعكم توبة، ولا ينجيكم اتباعكم لدين الإسلام بمجرد اللفظ وأنتم تجهلونه، فلا تكسب نفس إلاّ عليها، إنكم خلائف الأرض وأنتم مختبرون مُمتحنون، فمن فاز في الامتحان قرّبناه، ومن رسب أنزلناه ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، نحن اختبرناكم فيما أعطيناكم فلا تقصروا في شكرنا ولا تناموا عن معرفة نظامنا.

سورة الأعراف

لما كانت سورة «الأنعام» لم يفصل فيها هلاك الأمم الجاهلة، ولم يبيّن كيف يهلك الذين لا يعقلون والذين هم يظلمون بارتكاب المعاصي، جاءت سورة «الأعراف» وقد ذكر فيها آدم ونوح وعاد وثمود وقوم لوط ومدين وبنو إسرائيل وقوم فرعون، وقد هلك من هلك من هؤلاء، إما لتطفيف المكيال والميزان، وإما لعدم معرفة النعمة وشكرها على قصور في سهول وبيوت منحوتة في الجبال، وإما على الظلم بالقتل، وإما على الفسوق بمباشرة الرجال ومخالفة حكمة الخالق في الاقتراب من النساء، وإما على تكذيب الأنبياء ونبذ الحق ومخالفة طريق الهدى.

فانظر كيف ابتدأ سورة «الأعراف» بما لم يبتدئ به سورة «الأنعام»، ابتدأ سورة «الأنعام» بإيقاظنا إلى النعم التي حولنا وتوجيه عقولنا إليها.

ولما علم أن أمة الإسلام ستكون بعد النبوة بأمد طويل كالقرن الرابع عشر لا تعير هذه النعم التفاتاً، ولا تلوي إليها عناناً، ولا تعرف المقصود منها مع أنها أهم العلوم، وأهم النعم، وأن الحمد لم يذكر في «الفاتحة» ولا في «الأنعام» إلاّ عليها.

ختم سورة «الأنعام» بالإنذار، وابتدأ سورة «الأعراف» بإكمال الإنذار، فقال: ﴿ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الآية: ٢]، يقول في سورة «الأنعام»: توجهوا بعقولكم إلى مخلوقاتي واتركوا المعاصي. ويقول في «الأعراف»: أنزلت إليك الكتاب فلا يكن في صدرك ضيق منه، فأنذر به الناس واتل عليهم أنباء الأمم الضالة، فكم من أمة أهلكناها ليلاً أو نهاراً. فسورة «الأعراف» لبيان الأمم التي جهلت ما صنعه ربها وغفلت عن نعمه أو عصت في أعمالها.

القرآن ونهر النيل

اعلم أن مثل القرآن مع الأمم الإسلامية كنهر النيل مع الأمة المصرية. إن النيل كان يجري قديماً من وراء خط الاستواء من فوق جبال «القمر» ويمر في الأودية والبحيرات، ويقطع أميالاً وأميالاً آتياً من نهرين: النيل الأبيض والنيل الأزرق، وهما يجتمعان عند مدينة «الخرطوم»، ويتجهان شمالاً إلى البحر الأبيض المتوسط، ولم يكن للنيل سدود تمنعه ولا قناطر تحجزه ولا حبوس تحفظه، ولكن كان يمر في طريقه ولا يعرّج على شيء ولا يلوي على أحد حتى يصبّ في البحر الأبيض.

وغاية الأمر أنه في زمن الفيضان أيام الخريف يعم الأرض، وبعد ذلك يقلّ ماء النيل فتجف الأرض فيزرعونها مرة واحدة.

وكان الناس أيام الفيضان يعيشون في مدنهم وقراهم والماء من حولهم، ويأكلون مما يخزنون، ولا يتزاورون إلاّ على المراكب والقوارب وما أشبههما. ولقد كان لقدماء المصريين بحيرة يخزنون الماء فيها لينفع ذلك أيام قلة المياه.

ومن ابتداء الفتح الإسلامي وقبله إلى أمد قريب، لم يكن لتلك البحيرة عمل، بل هجرت لما ذهب مجد الأمة القديمة، وبقي النيل يجري مجراه حتى إذا كان العصر الحديث جعلت للنيل قناطر وسدود في جهات كثيرة، وضبط ما فيه من الماء بقدر الإمكان، فأخصبت مصر وأصبحت عروساً وازّيّنت للناظرين، هكذا القرآن.

القرآن

يقرأ الناس القرآن بألسنتهم وهم لا يعملون بما فيه، بل هم أجهل الناس به، كما كان النيل يجري من وراء خط الاستواء إلى البحر الأبيض ولا ينتفع الناس به إلاّ أيام الفيضان، وهي أيام قليلة، ولذلك لم يكن يسكن بلادنا إلاّ نحو مليونين. أما الآن فقد أصبح السكان نحو ١٤ مليوناً، أي سبعة أضعاف سكانه من قبل، وفيضان القرآن على أمة الإسلام في القرون المتأخرة لم يكن إلاّ الأحكام الشرعية من الحيض والنفاس والميراث والوضوء، وهكذا، فأجدبت الأمة الإسلامية وخلت ربوعها من الأنيس وحلّ بها الإنكيس وأذلها الإنجليز والفرنسيس ووسوس لها إبليس.

فهذه سورة «الأعراف» جاء فيها ذكر الأمم الجاهلة أو الفاسقة، تذكر المسلمين بما حلّ بهم الآن من خراب ممالكهم، كما خربت عاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون لما طغوا وبغوا وجهلوا العلم والحكمة وكانوا ظالمين.

سورة «الأعراف» تذكرة للمسلمين وإنذار لهم بقرب ذهاب دولهم، بل ما فيها من القصص هي عين ما حلّ بالأمة من ذهاب مجد وضياع بلاد وخراب أمم بما فسقوا وبما جهلوا، والفسق والجهل متلازمان وهما صنوان وأخوان لا يفترقان.

سورة الأعراف جاءت لإظهار الحقائق

جاء في سورة «البقرة» قصة آدم، وأتبعت بقصص بني إسرائيل ولم يذكر هناك صراحة نتائج قصص آدم ولا ثمرته، ولكن في هذه السورة العلم والمعرفة والفهم. ألم تر أن قصة آدم في هذه السورة قد أعقبها بدرس في التهذيب والتربية، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾[الآية: ٢٧]، بل تجاوز ذلك إلى ما هو أرقى وأكمل وأتم وأعظم وأنفع وأشمل فقال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[الآية: ٢٦]. يا عجباً، يذكر قصة آدم ويخرج من نزع لباسه الجسمي إلى الكلام في لباس التقوى لنا، ويجعل لباس التقوى خيراً ويقول: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

إن هذه القصة ذكرت في أول سورة «الأعراف» في ابتداء القصص، ليدلنا أن هذه الحكايات والقصص لا يراد لفظها ولا مجرد حفظها ولا فهم معناها، بل يراد منها ما يلزمنا في حياتنا، ويحفظ في كياننا، ويؤلف جامعتنا، ويرقينا في هذا الوجود، وإلاّ فأين ما حصل لآدم وحواء من كشف سوآتهما، وما ألهماه من خصف الورق عليهما، وما جاء تقريعاً على قصصهما من ذكر اللباس الذي يواري سوآتنا من القطن والكتان والتيل والحرير وغيرها، وما فوق ذلك من لباس التقوى، وأنه يجب علينا أن نتقي وسوسة الشيطان لئلا ينزع عنا لباس التقوى كما نزع من أبوينا اللباس الظاهري.

هذه القصة تنطق بلسان فصيح أن ما ورد في القرآن من القصص لم يكن إلاّ للنتائج التي تنفعنا، ولم يذكر من ذلك قصص لذاته، وإلاّ فهذه القصص أصبحت مشهورة بين الناس وهم لا يلتفتون إليها.

فعلى المسلمين أن يحذروا من وقوع العذاب الذي هم أعلم الناس به، فقد حلّ بالدول الإسلامية كلها وأحاط بهم من كل جانب وهم نائمون، ولو أنهم عرفوا أن سورة «الأعراف» إن هي

إلاَّ مثل من الأمم الخالية لما سيحصل في الأمم المستقبلة التي نحن منها، وقد مسنا نفس العذاب الذي حاق بتلك الأمم من عاد وثمود الخ.

لو عرف المسلمون ذلك لرجعوا إلى نظام الله في السماوات والأرض، وفهموا خلق السماوات والأرض والظلمات والنور، وعلوم النبات والحيوان الخ، وإذن تكون هذه العلوم التي تبلغ آياتها ٧٥٠ آية أشبه بالقناطر التي في نهر النيل والسدود والعرم والحبوس التي تحفظ الماء، فيسقي الأرض، هكذا أنتم أيها المسلمون عليكم أن تقفوا عند آيات النظام العام التي لا يمكن حمد الله حمداً حقيقياً إلاَّ بها، وتدرسوا ما اشتملت عليه دراسته كدراسة أوروبا، بل أعظم، وتكون تلك الدراسة أشبه بالقناطر في نهر النيل، فيعم العلم ويتبعه السعادة، فتعرفون نعمة الله، وتنالون منافع ما خلق بعلمكم وعملكم لا بمجرد الطبيعة كما يتربى الدود على العود، لا يفكر من أين وإلى أين وممَّ خلق.

وإذن يعطيكم الله من منافع جباله وأنهاره وسهوله وعلومه وزروعه وإلاَّ قال لكم: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٦٠] لأني لم أخلقكم دوداً ولا ذباباً ولا ناموساً ولا بهائم، بل خلقتكم لتفكروا، ولا تفكر أعم من معرفة العوالم العلوية والسفلية، معرفة بها تستنتجون المنافع المادية والمعنوية، وأنا إذن أعطيكم على قدر ما تكسبون ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨] وكل شيء عندي بميزان. انتهت المقدمة.

القسم الأول من سورة الأعراف، وفيه أربع مقاصد كما تقدم

المقصد الأول

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾

التفسير اللفظي

﴿الٓمٓصٓ﴾ تقدم الكلام عليها بأبسط وجه في أول سورة «آل عمران» وهذه السورة، ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ والجملة صفة كتاب ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ ضيق ﴿مِّنْهُ﴾ لما اشتمل عليه من هلاك الأمم السالفة، ومفاجأتها بالعذاب لما قصرت في كيل وميزان، أو عدل، أو شكر لنعمة، أو كانت تفعل الخبائث، ولم تسبق سورة قبل هذه فيها إنذار باستئصال الأمم، فلذلك ابتدأت بأمره صلى الله عليه وسلم ألا يكون في صدرك حرج وضيق، لأن التبليغ يحتاج إلى الإنذار والتبشير والخوف

والرجاء، وهذه السورة وكذا سورة يونس وهود ويوسف وإبراهيم عليهم السلام وما أشبهها قد أنزلت لبيان ما يعتري الأمم من الهلاك.

وهذه السورة أول سورة من هذا القبيل، فلذلك بدأها سبحانه بطلب نفي الحرج عن صدره إيذاناً بإتمام التبليغ، وهي ليست كسورة «الفاتحة» المبدوءة بالحمد على تربية العالمين، ولا كسورة «آل عمران» المبدوءة بتوحيد الله، ولا كسورة «النساء» المبدوءة بطلب تقوى ربنا لأنه خلقنا من نفس واحدة، ولا كسورة «المائدة» المبدوءة بالأمر بالوفاء بالعقود، ولا كسورة «الأنعام» التي ابتدئت بحمد الله على خلق السماوات والأرض والظلمات والنور، بل هذه هي التي فيها ذكر الأمم الهالكة بظلمها وقد جيء بها هنا بعد ما تقدم من تبيان الصلاة والزكاة والصيام والحج والتوحيد والنبوة والميراث والعدل والحلال والحرام في السورة المتقدمة، بل بعد ما ذكر أن ديننا قد تم وكمل في سورة «المائدة» فناسب أن يؤتى هنا بما يفيد خراب الأمم الظالمة، فناسب ذكر عدم الحرج في قلب النبي صلى الله عليه وسلم.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ ولتذكر ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فمن يكذبونك يُنذرون به، ومن يؤمنون بك يُذكّرون بما حلّ بالأمم قبلهم أنهم لا ينجون من الخطر إذا قصّروا في شريعتك، وإلاّ فلا معنى للذكرى، فتذكير المؤمنين معناه أنهم معرّضون لما تعرضت له الأمم الظالمة، فإذا تفرق شمل المؤمنين، وإذا جهلوا، وإذا ظلموا، فإني أنزل بهم العذاب كما أنزلت على الأمم الماضية، وليس الإسلام بمنجيهم من الهلاك لأني عدل أعدل بين الأمم وبين الأفراد، فلذلك أعقبه بقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ من القرآن والسنة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يضلّونكم من الجن والإنس أي: ولا تتّبعوا من دون الله أولياء ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتذكّرون تذكّراً قليلاً، و«ما» زائدة للتأكيد، ثم شرع يبيّن مقصود ما جاءت به السورة مما يوقع الحرج في القلوب والضيق في النفوس تبياناً لما سبق في آخر «الأنعام» من مجيء آيات الله بغتة حيث لا تنفع التوبة للأمم ولا للأفراد فقال: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾ وكثيراً من القرى ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ أردنا إهلاك أهلها ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَـٰتًا﴾ بائتين كقوم لوط ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ عطف على «بياتاً» أي: قائلين نصف النهار كقوم شعيب إذ أخذتهم الظلة، وأصل الكلام: «أو وهم» فحذفت واو الحال استثقالاً لاجتماع حرفي العطف «الواو» و«أو»، وإنما خصّ وقت البيات والقيلولة لأنهما وقت الاستراحة، فوقوع العذاب فيهما أفظع ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: فما كان دعاء أهل القرية واستغاثتهم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ أي: إلاّ اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وبطلانه تحسّراً عليه، وهذا هو الشاهد الآن في الأمم الإسلامية، إذ يدخل أهل الغرب في مصر وتونس والجزائر ومراكش والهند وجاوة وسومطرة وسائر بلاد الإسلام كالهند وغيرها وبلاد السودان، ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، وينزلون المقذوفات والنار من الطيارات في سوريا والعراق وغيرها، فتنزل تلك النار على الأمم الإسلامية ليلاً ونهاراً أو وقت القيلولة كما في هذه الآيات، فنسمع المسلمين يقولون: ربنا نحن متفرّقون جاهلون متواكلون، فعاقبنا الله بذنوبنا وليس عندنا علماء ولا حكماء، ونحن فينا الطمع والحسد والظلم، فعاقبنا الله بما كنا ظالمين.

هذا كلام المسلمين الذي قال الله في هذه الآيات لنبيه صلى الله عليه وسلم في شأنهم: ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فعذاب هذه الأمم جاء في هذه السورة ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ونحن المؤمنون وقد حلّ بنا ما ذكرنا به، ولم ينفع الندم ولا التوبة عند وقوع المصائب بالأمم الإسلامية.

ومن أعظم المصائب ما أخبرت به عند كتابة هذا الموضوع، إذ جاءني مدرّس بمدرسة الأمريكان بالقاهرة، وهو من متخرجي مدرسة دار العلوم، وقال: إن ناظر المدرسة المسيحي يأمر التلاميذ المسلمين جميعاً أن يحضروا الصلاة، وكذلك يأمر المدرسين المسلمين أن يحضروا، ثم إنه يجمع التلاميذ في يوم من الأسبوع ويلقي عليهم درساً في الأخلاق ملخصه: الذم في الإسلام وفي القرآن وفي نبينا صلى الله عليه وسلم، حتى إن بعض التلاميذ ارتدّ وتنصّر، والباقون يحقرون دينهم، وعندنا مجلس النواب ومجلس الشيوخ والوزارة، وليسوا يقدرون أن يصنعوا شيئاً لأنه لا سلاح عندنا، أما الترك أيدهم الله بالنصر المبين، فقد حرّموا مثل هذا في هذه الأيام، وأغلقوا مدارس أمثال هؤلاء وهم مصلحون.

وهذا من آثار العذاب الذي حلّ بديارنا أن يكون ثمرة غرسنا وهم أحسن أبنائنا، والخلّص منهم يخرجون حاقرين دينهم ووطنهم وأمتهم، ونرجع فنقول إنا كنا ظالمين.

ثم لتعلم أيها الذكي أن حكمة الله في مثل هذا إنّما هو إيقاظ النفوس وترقية المدارك. ولعمرك ما أرسل الله هؤلاء ليذموا في ديننا إلاّ ليحثنا على ارتقائه، وذلك حتماً يرقي الناس، فارتقاء الشعوب لا يكون إلاّ بالمناظرة، وإذا كانت الحرب داعية إلى رقيّ الأمم، هكذا فليكن حرب الديانات بالذمّ والطعن داعياً حثيثاً لرقيها والبحث في إعلاء شأنها، وكل ذلك لارتقاء الأمم على الأرض.

ولما كانت الأمم لا بد لها من هداة، وأولئك الهداة مسؤولون، والأمم مسؤولون، أعقبه بقوله: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، فيسأل الله الأنبياء هل أجيبوا والأمم عن قبول الرسالة؟ والسؤال القصد منه التقريع والتوبيخ لإيقاع النكال، وهذا هو عذاب الخزي المذكور في سورة «آل عمران»، وإلاّ فإنه تعالى يعلم ما يفعلون وليس غائباً ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ فليس يخفى علينا شيء من أحوالهم. ولما كان العالم بالأشياء لا يلزم أن يكون عدلاً في حكومته أردفه بقوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾ أي ووزن الأعمال العدل السويّ حاصل يومئذ، أي يوم القيامة، ولقد عرفت الوزن في أول سورة «آل عمران»، وأن الله وزن في هذه الدنيا سائر الذرات والحركات والسكنات، ومن قرأ علم الفلك والطبيعة والكيمياء أدرك وشهد كيف توزن الذرات في دخولها في الماء المكون من أكسوجين وأودروجين، إذ تكون ذرات أحدهما مع ذرات الآخر بنسب صادقة تماماً عداً ووزناً، ولو اختلت ذرة واحدة لم يكن ماء، وهكذا إذا قرأت ما كتبناه في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾[الآية: ٢٥٩]، وكيف كان نظام الذرات والعناصر في تركيب النبات من القمح والذرة والبرسيم وغيرها لا يختلف، وباختلاف العناصر في المقدار عند دخولها في النبات يختلف فيصير الغذاء ملبساً والملبس غذاء، كل هذا مذكور في سورة «البقرة» وفي «آل عمران» موضحاً مشروحاً ليعرف الذين قرؤوا هذه العلوم، وليشهدوا أن الله وزن كل شيء بالحق، ومن شهد ذلك في هذه الحياة سهل عليه وزن يوم القيامة فالله رب العالمين.

والعالم قسمان: عالم الدنيا وعالم الآخرة، ولقد شهد الحكماء الوزن في الدنيا؛ فهكذا يقرّون بالوزن يوم القيامة، وهذا سهل على من قرأ صفة الله في الدنيا؛ فأما من عداهم من الذين لا يقرؤون، فما أحراهم أن يوصف لهم ذلك بضرب الأمثال.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة، وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان»، وإذا سمعت ما قاله البغوي عن بعضهم إن الأشخاص هي التي توزن، مستدلين بما روي في الصحيحين: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»، وإذا سمعت ما قاله غيره: «إن صحائف الأعمال توزن، وما قاله آخر: «إن نفس الأعمال توزن»، فاعلم أن ذلك كله ضرب مثل ليعرف الناس بما يزاولون، وإلاّ فنحن نشاهد وزن الله في السماوات والأرض، فبهذه العلوم أدركنا أنه وزن الحركات والسكنات والذرات في النبات والحيوان والفلك، ومن اطلع على ما تقدم من هذا التفسير أيقن إيقاناً تاماً أن الله يزن كل شيء ولا بخس شعيرة ولذلك تسمع الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء: ١٤] فكأن العبد لما اطلع على صورته الحقيقية أدرك بنفسه نقصه وكماله، وصار هو نفسه شاهداً على نفسه كأن ميزانه أصبح في فهمه وقام بذهنه وأدرك ما كان حسناً وما كان قبيحاً من أفعاله. وإذا كانت الأيدي والأرجل والألسن تشهد ثم الأنفس تعرف، فهذا دليل أن ميزانه في الدنيا هو ميزانه في الآخرة.

بهذا فليعرف جمال الله وحكمه ووزنه الحق الذي شاهدنا، ونظامه الجميل الذي أدركنا، فالموزون عايناه، والميزان ما رأيناه، فالموزون مشاهد والميزان معلوم لم تشهده العيون وقد أقرّت به القلوب.

وإذا سمعت ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله عزّ وجلّ سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلاً كل سجلّ مثل مدّ البصر، ثم يقول له أتنكر من هذا شيئاً، أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب. إلى أن قال: فيخرج الله له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فتوضع في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلاّت وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء»، وهذا الحديث أخرجه الترمذي وأحمد بن حنبل.

فإذا سمعت هذا فاعلم أنه تمثيل لحال الوزن وترغيب في الإيمان، لأن من آمن يطمع في أن يعمل ومتى عمل ثقلت موازينه، وكثير من يغترّون بظاهر الحديث فينطقون بالشهادتين ويكتفون بهذا وهم مغرورون جاهلون، بل الوزن حقّ والحساب مبني على الوزن ولا بد من التهذيب والتربية.

فالمراد من ذلك أن هذه الشهادة أسّ للأعمال، فالوزن لها ولما ترتب عليها، وإن لم يكن كذلك ضاعت ثمرات جميع الأديان، وهذا هو الذي يغترّ به الجاهلون كما أوضحناه في غير هذا المكان، ولذلك قال تعالى هنا: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي أعماله الحسنة ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الناجون الفائزون بثواب الله وجزائه، ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي أعماله ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم ﴾ بتضييع الفطرة السليمة التي فطرت عليها ﴿ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ فيكذبون بدل التصديق.

واعلم أن الوزن كما ذكر في ديننا ذكر في الديانات السابقة كديانة قدماء المصريين وقد صوّروا هيئة الميزان والكفتين واللسان، فإن غلبت الحسنات السيئات ارتقت الروح إلى ربها، وإن غلبت السيئات الحسنات التقم قلب الميت كلب، والذي يقضي على الميت عندهم ٤٢ قاضياً، وصورهم مرسومة في المعابد والهياكل يقرؤها المتعلمون في الدول الحاضرة.

فهذا الوزن الذي في القرآن وردت به الكتب السماوية لأن دين المصريين هو دين إدريس الذي ورد ذكره في القرآن، وهو من الرسل الذين يجب معرفتهم تفصيلاً في دين الإسلام، ويسمى عند بعض الأمم «اخنوخ» ويسمى أيضاً «سيزوستريس»، وهذه اللفظة وردت في القرآن «إدريس» ولها مشابهة. فتعجب كيف شابهت الأديان في الوزن والميزان.

ولما كان الناس خلفاء الله في الأرض وهم يستمتعون بها، وبذلك وجب حسابهم أردفه بقوله: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي مكناكم من سكناها وزرعها والتصرف فيها ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ أي أسباباً تعيشون بها، جمع معيشة ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي تشكرون شكراً قليلاً على ما صنعت لكم وأنعمت به عليكم، والشكر: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله، ويقال: الشكر تصوّر النعمة وإظهارها. انتهى المقصد الأول من القسم الأول.

المقصد الثاني

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ ابتدأنا خلقكم ثم تصويركم بأن خلقنا آدم ثم صورناه ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ ممن سجد لآدم. وظاهر الآية أن إبليس كان من الملائكة.

واعلم أنه لا طائل في الخلاف أمن الملائكة هو أم ليس منهم، وإنَّما هو من نار وهم من نور، والاستثناء على الأول متصل وعلى الثاني منقطع، فإن الله هو أعلم بغيبه، ولكن الذي نشاهده في هذا الوجود يفيدنا أن آدم وأبناء آدم قد انقسم العالم الذي أمامهم قسمين: قسم أطاعهم كالأنعام والدواب والطيور، وقسم عصاهم كالوحوش والأسود وما أشبه ذلك، وهكذا الحيوانات الذرية منها ما هو لفائدة الحيوان والإنسان، ومنها ما هو لقتلهم.

ولا جرم أن هذا كله خاضع لتنظيم الملائكة بحكمة دبرها الحكيم، فآثار السجود من الملائكة وامتناع سجود إبليس لها نظائر في المشاهدات حولنا؛ كما أن النفوس المجردة عن المادة ما توسوس للناس، ومنها ما تهديهم، فترى آثار الصلاح من الهداية والطلاح من الوسوسة. هذه هي الآثار التي نعلمها في المشاهدات أمامنا والمعلومات بعلومنا، وما عدا ذلك نكله إلى الله. وإليك بقية المحاورة: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ أي أيّ شيء منعك من السجود، و«لا» زائدة. وفي آية أخرى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥] وهذا السؤال للتوبيخ والتقريع، ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ أي الذي منعني من ذلك أني خير منه، وهل يسجد الفاضل للمفضول والرفيع للوضيع، فكيف يؤمر به. ثم علل ذلك، فقال: ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾، ولا جرم أن النار ألطف جوهراً وأخفّ وأجمل، وفيها الضياء والنور ولها الشرف. أما الطين فإنه ثقيل لا ضوء فيه ولا شرف، وأنا وإن كان بعض المادة في تركيبي فالنار غالبة على هيكلي، وآدم وإن كانت الحرارة من قوام جسمه ومن نظام هيكله، فإن الطين غالب عليه. إن آدم من صلصال إذا نقرته صوّت كالفخار الذي يصنع منه الناس الآنية. ولا جرم أنه مركب من نار وطين، والطين هو الأغلب، ولذلك ترى فيه طبائع مختلفة، فبينما تراه لا يقدر على الطيران في الجو لثقل جثته، تراه يفكر في الأمور العالية لخفة روحه ولطافة شكله، ففي الإنسان ثقل الطين وخفة النار ولطافتها، وفيه الغضب وهو من القوة النارية، وفيه الشهوات وطلب الأغذية، وهي ترجع إلى عنصر الطين، أما أنا فتراني خير منه لأن طبع النار وهو الأشرف غالب عليّ.

وهذه الحجة من الحجج التي يستعملها الناس في محاوراتهم للمغالطة والمكابرة والمكاثرة والكبرياء، ذكرها الله ليرينا أكثر ما يحاور الناس في سياستهم وجدالهم. واعلم أن هذه الحجة خطؤها من أربعة وجوه، فإن عنصر الطين فيه من الفضائل ما لا يصلح لها عنصر النار كالرزانة وقبول النبات من الشجر والزرع، وفي الطين الأمانة بحفظ الصور، وليس في النار مثل ذلك وفي النار هلاك.

وإذا سلمنا أن النار أفضل من الطين جدلاً، فمن ذا الذي جعل الفضل بالعنصر والأصل؟ أليس للصورة دخل في التفضيل وكذلك الفاعل، وهكذا نتائج الأعمال والأخلاق، فبكلّ مصنوع كالكرسي لا بد له من مادة وصورة وفاعل وغاية، فمادة الكرسي الخشب، وصورته هي التي بها يصلح للجلوس عليه، وفاعلها النجار، وغاية هذا كله الجلوس عليه.

هكذا آدم مادته الطين، وفاعله الله، وصورته معروفة، وغايته الحكمة والعلم والعمل. فانظر كيف يقول الله في الصورة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر:٢٩]، فهذا إشارة إلى إكمال الصورة، و﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] إشارة إلى عناية الفاعل، وأشار إلى غاية آدم بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة:٣١] فإذا كان استعداد آدم للعلوم فاق استعداد بعض الملائكة، ألا تكون هذه الغاية ذات فضل عظيم، ويكون هو أفضل من إبليس، فثبت أن هذه الحجة أشبه بحجج «أباليس الأرض» من رجال السياسة والدجالين والكذابين.

ولست ترى كلام أكثر الناس إلاَّ على هذه الطريقة. فترى الرجل يقول: أنا خير من فلان، فإن أبي كان أكثر مالاً وولداً، وأنا من نسل رجل عظيم، فيظنّ الجهول أن الله يرفع الناس على حسب عناصرهم وأصولهم، وما دري أن الورد تشم رائحته ولا ينظر لما في الطين الذي تغذى منه من قذر، وهكذا يستقذر الناس ما خرج من الإنسان وهو أفضل من على الأرض، ويقول رجال الاستعمار: قد جئنا بلادكم لنرقيكم، وهم إنَّما جاؤوا ليفسدوا في الأرض ويأكلوا أرزاقهم. فهذه الحجة من الحجج التي نسمعها صباحاً ومساءً من أمم الأرض المتعلمين في المدارس والكليات في أوروبا والشرق، الذين يضلون الناس بآرائهم ليأكلوهم أكلاً لماً، لأنهم يحبون المال حباً جماً.

ولما كانت هذه من نوع السفسطة وهي المغالطة، وهي من أقيسة المنطق الخمسة، وهي أدناها منزلة كما يقال للرجل: لا تشرب العسل فإنه قيء الزنابير.

ومن كان هذا ديدنه من الناس لا يقنعه جواب ولا يهذبه خطاب، كما نرى رجال السياسة يحاولون بالباطل ولا يسكنهم إلاَّ الحرب، فأما القول فلا يفيد، لذلك أجاب الله إبليس إجابة تعلمنا ألا نجادل المشاغب المسفسط، وإنَّما نعدل إلى القوة والغلبة ونسعى لإزالة المنكر بالعمل لا بالقول، ولذلك ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: إن كنت تتكبّر ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي من صورة الملائكة، أو من السماء ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ في صورة الملائكة أو في السماء، لأن آثار المخلوقات إن لم تكن مشاكلة لمبادئها انحطت قيمتها، والإنسان مثلاً إذا لم يحافظ على فضائل العلم والعقل انحط إلى درجة أدنى، واستعمل استعمال البهائم لجرّ الأثقال، وهكذا إذا كان ملوك الأرض لا يقومون بجلال الملك وحقه ينزلون عن عروشهم، والسيف إذا لم يكن قاطعاً صارماً استعمل استعمال السكين، هكذا من خالط الملائكة وتنزل عن صفاتهم أولى بأن يسلب صورتهم ويطرد من مقامهم وينحط إلى الأعمال الصغرى، كما نرى الحيات والعقارب المؤذية للإنسان والحيوان؛ فلتكن الأرواح الشريرة الإبليسية منحطة إلى دركات الجهالة فتستعمل استعمال الحيات لتؤذي الناس، فهذه بسمها وهذه بوسوستها.

وكما لا تصل الحية لمنصب غزال المسك الحامل نوافجه، هكذا لا تصل نفس إبليس ومن على شاكلته درجات العز والكرامة، فتوصل الناس علماً ومعرفة كالملائكة بدل الوسوسة التي ترديهم وتسقط ناقصهم، وكما ينجو من خطر الحيات من سكنوا بيوتاً خلت من العفونات، هكذا ينجو من خطر الوسوسة نفوس نقية صالحة، ومن كانت هكذا حالهم من الشقاوة بسبب الكبرياء والعظمة، فإن

الهوان لاحق به، ولذلك أردفه تعالى بقوله: ﴿ فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ أي فاخرج من صورة الملائكة إنك من الأذلاء المهانين. ولما كان من عادة الله ألا يدع جسماً ولا روحاً بلا عمل لأنه لا معطل في الوجود، فإنك ترى الأرض التي لا يزرعها الناس يخرج فيها زرع ينبت بهطول المطر، سواء انتفع الناس به أم لم ينتفعوا، وهكذا نجد أجسام الحيوان تصبح مأوى للدود، والحشرات تعيش فيها وهي رديئة منتنة، فإذن لا معطل في الوجود.

ولما كان إبليس من المخلوقات وقد فاته حياة الكرامة فلا جرم يعيش حياة أدنى منها، فإن لم يصلح للإلهام فلا جرم ينحط للوسوسة، وهذا حتم في هذه الحياة التي نحن فيها، لأن عالمنا فيه الخير والشر والنحس والسعد والموت والحياة، ومن فقد أحد الضدّين تلبس بالآخر، وبهذا تفهم هذه المحاورة: ﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ أَنظِرْنِىٓ ﴾ أمهلني ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي إلى يوم القيامة فلا تمتني ﴿ قَالَ ﴾ الله ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي فبسبب إغوائك إياي وإيقاعك الغي في قلبي الذي كان سبب هبوطي إلى الأرض لأجلسنّ لهم على طريقك القويم بأن أوسوس إليهم وأزين لهم الباطل وما يكسبهم المآثم قياماً بطبيعتي، كما تقوم الحية باللدغ، والوحوش بالافتراس، والهوامّ بالإيذاء، والحيوانات الذرية بإحداث الحمى والجدري والحصباء والطاعون؛ فليكن في بني آدم من يكونون على شاكلتي إتماماً للنظام العام، فلا ينجو من وسوستي إلاّ المصطفون الأخيار، ولذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[الحجر: ٤١-٤٣]، وإنّما انحطوا إلى جهنم لأن الكبرياء من آثار الغضب الذي هو قوة نارية، فجهنم يرجع إليها من كانوا في الدنيا على طبيعة تدعوهم إلى ورودها، وطبيعة الكبرياء لا اعتدال فيها، وحرارة النار وزمهريرها خارجات عن الاعتدال. ثم أخذ إبليس يفصل كيفية الإضلال، فقال: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾.

وإنّما قصّ الله علينا ذلك ليعلمنا أن الوسوسة داخلة في أحوالنا كلها فهي أشبه بالهواء المحيط بالإنسان والحيوانات الذرية التي تحدث الأمراض فينا كالسل والجذام والبرص، وهي محيطة بنا من كل جانب، ولا ينجو منها إلاّ الأقوياء الذين لم يستعدّوا لتلقيحها، هكذا هنا تجد الوسوسة والخداع عامة في النوع الإنساني. وما هو ذاك؟ هو أنك تجد الأدلة التي يستعملها الناس في أحوالهم العامة كالدليل الذي ذكره إبليس، فإذا قال إبليس: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ على سبيل المغالطة، هكذا ترى الناس يضلون بأدلة مثل هذا الدليل سواء بسواء، بل الضلال الذي يحيط بنا كثير جداً، ولذلك قال شقيق البلخي: ما من صباح إلاّ قعد لي الشيطان من الجهات الأربع من بين يديّ ومن خلفي وعن يمني وعن شمالي، أما من بين يدي فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[طه: ٨٢]، وأما من خلفي فيخوّفني من وقوع أولادي في الفقر، فأقرأ: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[هود: ٦]، وأما من قبل يميني فيأتيني من الثناء، فأقرأ: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[القصص: ٨٣]، وأما من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات، فأقرأ: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾[سبأ: ٥٤]. اهـ.

فانظر كيف جعل الناس الغفران سبباً في الذنوب، وهذه هي الداهية الدهياء والمصيبة العمياء، أن يسمع الإنسان آية أو حديثاً وربما كان موضوعاً أو ضعيفاً، فيغترّ به فيصبح فاسقاً فاجراً، وقد أصبح المسكين بسبب فهمه في الدين جهلاً من الغاوين الضالين. ومن الناس من يكتفي باسم الإسلام ولا علم ولا عمل، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦]، وحجج هؤلاء كحجة إبليس سفسطة ومغالطة ومجادلة بالباطل، وبهذه الحجج الإبليسية انحط كثير من أمم الإسلام وتأخروا، فيقولون لا نقرأ الطبيعة لأنها كفر، ولا نبالي بالأسلحة الحديثة، لأن الإسلام منصور، وهكذا من الحجج الخاطئة الكاذبة الجاهلة الناقصة؛ فتعجب كيف كانت الوسوسة كلها من قبيل هذه الحجة، وتعجب كيف جاءت في القرآن؟ وكيف كان ذلك دائماً صباحاً ومساءً، فنغتاب الناس ونقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٨٢]، ونأكل فوق طاقتنا وعلم الطب يمنعنا، فنقول: شيء قليل والقليل لا يضرّ، ونظلم الناس ونقول: هم مستحقون. وهكذا من الأدلة الكاذبة التي تلازمنا في أكثر أحوالنا.

عجائب القرآن

فانظر كيف كانت هذه الحجة الإبليسية في ظاهر الأمر وعند العامة أمراً سهلاً لا شيء فيه، وعند العقلاء والخواصّ أصبحت رمزاً لكل الحجج التي ندلي بها صباحاً ومساءً في أكلنا ونومنا ومحادثاتنا، فيا عجبا كل العجب من هذا البيان القرآني، ظاهره يفهمه الجاهلون، وباطنه بحر علم زاخر وأمر عظيم وحكمة دقيقة بالغة لا يمسها إلاّ المطهرون، ولا يعقلها إلاّ العالمون، ولا يدركها إلاّ المفكرون. ولما كان أكثر الناس متقلبين في هذه الحجج صباحاً ومساءً، قال: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧] وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فانظر كيف تطابق القولان.

ولما كان هذا شأنه ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ من السماء ﴿ مَذْءُومًا ﴾ معيباً، من: ذأمه، إذا عابه، والذأم والذم: العيب ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ مطروداً مبعوداً من رحمة الله، والله ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ وجواب القسم قوله: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، والقسم وجوابه جواب الشرط. ولما أتم الكلام على إبليس وكبره وحججه السفسطية، أخذ يبيّن نتائج هذه الأخلاق وثمراتها، فإن من طبيعة هذا الوجود أن يجذب كل مخلوق غيره إلى مشاكلته والدخول في زمرته والسير على طريقته والجري على منواله. ألا ترى إلى النبات كيف يجتذب إليه العناصر المحيطة بنا، فتدخل في تركيبه جذوعه وسوقه وأغصانه وأوراقه وأزهاره وأثماره، وإلى الحيوان كيف يجتذب تلك الأوراق والأزهار إلى جثمانه، فتتشكل بهيئته وعروقه وعظامه ولحمه ودمه ورأسه وعينه، وإلى الإنسان كيف كان يسعى لأن يملك ما حوله، ويستخدم الإنسان والحيوان المحيط به، ولا يفتأ يدعو من حوله ليكونوا على شاكلته في أخلاقه وملابسه وعاداته وعلومه. وهذه الطبيعة شاملة لهذا الوجود، حتى إن النار لتلتهم ما حولها وتدخله في حدود مزاجها، والماء يرطب ما خالطه، فهكذا هنا في إبليس لما حرم الدرجات العليا وتلبست نفسه بالإثم والبغي وخاطب الله بحجة المغالطة، أشربت نفسه الضلال والبهتان وأصبح ذلك عادة ملازمة وطريقة دائمة، أخذ يلقي إلى غيره من بني آدم ما رسخ في نفسه، ويوحي إليهم ما امتلأت به نفسه من

الضلالات والرجس والبهتان، كما نرى أن المرأة الفاجرة إذا طوى الزمان سجل شبابها، وخارت قوى شهواتها، وفارقها أعز أحبابها، عمدت إلى الشابات فأوعزت إليهن بما امتلأت به نفسها، وهكذا الرجال الفاسقون الذين شبوا وشابوا، وهم في الفسوق هائمون، تستروح نفوس هؤلاء، وهؤلاء بمن يشاكلهم في أخلاقهم ويوافقهم في آدابهم ويناسبهم في أعمالهم، ويحب الفاجر والأكول أن يرى الفاجرين والآكلين، ليتسلى بطلعتهم ويفرح بمرآهم.

وقد ورد في المثل: «إن الطيور على أشكالها تقع»، لذلك قصّ الله قصص آدم الذي أغواه إبليس ولقنه من الحجج السفسطية ما امتلأت به نفسه، ليميله إلى طبعه ويقوده إلى خلقه، استرواحاً بالنقائص وحباً للمشاكلة، فقال: ﴿ وَ ﴾ قلنا ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، أما الجنة فهي كما قال أبو مسلم الأصبهاني: كانت بعض جنات الأرض، ولذلك تمكن الشيطان من الوسوسة لآدم؛ فلذلك قال تعالى: ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾، الوسوسة: الصوت الخفي، كالهينمة والخشخشة، ومنه وسواس الحلي، ومعنى وسوس له: فعل الوسوسة لأجله، ووسوس إليه: ألقاها إليه. ثم ذكر عاقبة الوسوسة، فقال: ﴿ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا ﴾ ليكشف لهما ما ستر عنهما من عورتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما، ولا أحدهما من الآخر. ثم ذكر كيفية الوسوسة والحجة السفسطية التي اجتذب بها إبليس آدم وأغواه بها، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ ﴾ كراهة ﴿ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴾ أي إنَّما نهاكما الله عن الأكل من هذه الشجرة لأن من أكل منها إما أن يكون كالملائكة يعلم الخير والشر ويستغني عن الغذاء، وإما أن يكون من الخالدين الذين لا يموتون ويبقون في الجنة، فالله منعكما منها لتبقيا مفتقرين للأكل والشرب ولتموتا، فهو بهذا المنع يحرمكما من الكمال الأتمّ والمقام الأعظم. ولم يكتف بهذا الدليل الموهوم، بل أقسم لهما ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾. فبهذا البرهان المغالطي الذي يشبه البرهان المتقدم الذي تعالى فيه على آدم بشرف عنصره، وبالقسم الذي يدخل في النفس صدق قائله، خدع آدم، فلذلك قال: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا ﴾ أي فنزلهما إلى الأكل من الشجرة، وبذلك أنزلهما من درجة عالية إلى درجة سافلة ﴿ بِغُرُورٖ ﴾ بما غرّهما به من القسم، كما يقول الرجل لآخر: اشرب هذا الكأس فإنه مقوّ لشهوة الطعام ومفرح للقلب، وكما يقول آخر: إنَّما الحياة مغالبة، فخذ من الناس ما قدرت عليه حقاً وباطلاً، ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا ﴾ أي فلما وجدا طعمها وهما يأكلان منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية، فتهافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما كما يسقط لباس الشرف والفضل والمال بالخمر والزنا والظلم، ويصبح الإنسان موصوفاً بأنواع الفسوق والظلم وتتلون نفسه بلون تلك المعاصي فتصير سجية له، وهل لباسهما كان نوراً ساطعاً مانعاً من رؤية العورات أو غيره؟ لا فائدة في معرفة ذلك، لأن الذي يهمنا نحن غير ذلك، يهمنا أخلاقنا المستنبطة من هذه القصة.

ولما كان من يفعل ذنباً يجدّ في إخفائه ليستر عورته البادية ويخفيها ويكتمها عن الناس حتى لا تنكشف سوءته، ويبذل للخطباء الأموال ويدفع للجرائد مالاً ليذودوا عنه وليخفوا عوراته وسوءاته، هكذا من انكشفت عورته يجدّ في إخفائها، لذلك قال الله تعالى: ﴿ وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ

﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة من ورق التين أو غيره، وكما أنك ترى من نوع الإنسان في السودان المصري من يعيشون بلا لباس، بل هم عراة يأنفون الملابس ولا تستر عليهم حتى على عوراتهم، وإذا حضروا أمام الحكام المصريين أو الإنجليز ألبسوا لباساً ثم يخلعونه عند خروجهم. وهناك قوم آخرون يخصفون الورق، وآخرون يسترون العورة، وهكذا ذكر الله كيف كان آدم عارياً ثم خصف الورق، ثم أنزلهما إلى الأرض فزرع هو وأولاده فأكلوا ولبسوا بعرق جبينهم. ولما كان الإنسان عادة يذكر عواقب الذنوب بعد وقوعها، ويكون التوبيخ والتقريع، قال الله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ يعاتبهما على مخالفة النهي موبخاً ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ أضررناها بالمعصية والتعريض للإخراج من الجنة ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾. وهذا كان قبل أن يكون آدم نبياً. واعلم أن طاعة الجاهل قد تكون معصية العالم، وطاعة العالم قد تكون معصية الأنبياء، كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ألا ترى أن العالم المفكر إذا ترك العلم وأخذ في العبادة ليلاً ونهاراً وترك الأمة، فإنه قد عصى وظلم نفسه، ولكن معصيته بترك ما هو أفضل ويعاقب، مع أن صرف الزمن في العبادة أرقى درجات الذين تنحوا عن العلوم وعن الأعمال النافعة للأمة، فمعصية آدم بالنسبة لدرجته، فما صدر منهم على سبيل السهو أو التأويل يجدون في أنفسهم حرجاً منه، وليست معاصيهم كمعاصي بقية الناس، هكذا يقول كثير من العلماء، لذلك خاطب الله آدم وحواء وذريتهما ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ أي متعادين، وذلك أن العالم الإنساني مركب من عناصر مختلفة وطباع متشعبة، وباختلاف قواه تختلف الأخلاق، وباختلاف الأخلاق تكون العداوات، وبالعداوات يكون الارتقاء، فإن المسابقات في الحروب والصناعات والأعمال تحثّ الناس على إكمال الأعمال، فصار العقاب على المعاصي من أسباب الكمال، فإن النوع الإنساني لما تنزل عن العالم الكامل الجميل، ونزل إلى عالم الكون والفساد كان المعبر عنه بالعقاب سبباً لارتقائه وسهولة معايشه، ولذلك أردفه بقوله: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾ استقرار ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ تمتع ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ إلى أن تنقضي آجالكم ﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ للجزاء على الأعمال. انتهى المقصد الثاني من القسم الأول من سورة «الأعراف».

المقصد الثالث

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ

ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠) ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ
وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ
وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةٗ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ
ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ
بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا
يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٞ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
(٣٥) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٦)
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا
وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ (٣٧) قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ
ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٞ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتْ
أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابٗا ضِعْفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعْفٞ وَلَٰكِن
لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٖ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ
ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ (٤٠)
لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٤٢)
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلّٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا
لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ
أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا
وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمْۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ
عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ (٤٥)
وَبَيْنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٞ يَعْرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ
عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ
رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٗا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ
قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ

بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

التفسير اللفظي

اعلم أن هذا المقصد قد جاء عقب قصة آدم ليبيّن المقصود من القصص، وأنها ليست ترد لمجرد الحكاية، فماذا يهمّ الحاضرين من الماضين إلاّ العبرة؟ ولعمري ليس للتاريخ من فائدة إلاّ الاتعاظ، فلذلك لما قصّ الله قصص آدم عليه السلام أخذ سبحانه يبيّن مقاصد وفوائد هذه القصة المشتملة على لباس آدم، وقد تعرّى منه، وعلى أن ذلك بسبب فتنة الشيطان له، وبها خرج من الجنة، وعلى احتجاج إبليس بأنه من عنصر النار، وإغوائه لآدم حتى لبس عليه الأمر، فقال: إنك إن أكلت من الشجرة كنت كالملائكة، فهذه ثلاث أصول: اللباس والإغواء والحجة الداحضة، فلذلك أخذ الله عزّ وجلّ يخاطب بني آدم جميعاً ممتناً عليهم باللباس الذي أنزله في الأرض من القطن والكتان والحرير وما أشبهها، بحيث يستغنون عن خصف الورق، وكيف كانت العناصر الأرضية بتفاعلها وامتزاجها بنسب معلومة تكون قطناً أو كتاناً، وهي بأنفسها على نسب أخرى تكون قمحاً أو شعيراً، فالملبوس هو عين المأكول من حيث العناصر، وإنّما أصبح هذا ثوباً وهذا رغيفاً لاختلاف المقادير الداخلة في النباتين «راجع هذا المقام العجيب في سورة البقرة» عند قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾[البقرة: ٢٥٩] إلى آخر الآيات في قصص العزير، فإنك تجده مستوفى هناك من علم الكيمياء العضوية، فتأمل فيما هناك وتعجب، وذلك هو السر العجيب في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾. وقد أفاد أن اللباس الجسمي الناتج من هذه العناصر الذي هو من آيات الله ويواري سوءاتكم وتتجملون به ليس خير لباس، بل لباس التقوى من العمل الصالح والإيمان والحياء والسمت الحسن والعفاف وخشية الله، فهذا اللباس خير من اللباس الذي أنزله الله للناس من القطن والحرير والكتان الخ.

ثم أشار سبحانه إلى ثاني الأمور الثلاثة وهو الإغواء، فقال محذراً أبناء آدم قائلاً: إياكم يا بني آدم أن يخرجكم الشيطان من الجنة بإغوائكم كما أخرج أبويكم من الجنة، فلا ينزعنّ ملابس التقوى عنكم كما نزع عن أبويكم اللباس، وبيّن سبب ذلك أن إبليس وقبيله يرونكم من حيث لا ترونهم، وأن الأرواح جنود مجندة، والنفوس الشيطانية تنزع إلى أخلاقها في وسوستها، ولقد جاء في علم الأرواح الحديث وفي مقال الإمام الغزالي والفخر الرازي أن أرواح الأشرار من الناس تتمنى لو تعاد إلى اللذات في الدنيا، فلما حرمت تلك اللذات أخذت توسوس لما شاكلها من أرواح الأحياء حباً في المشاكلة وإكثاراً للأمثال والأشكال، كما سيأتي في قصة بلعام بن باعوراء الذي آتاه الله العلم والحكمة فتركها وصار معلماً للضلال، فالعالم الفاضل يعلم الناس طريقه حياً بالتعليم وميتاً بالإلهام، والفاسق الضالّ يعلم الضلال حياً وميتاً، كما قيل عن هؤلاء الأعلام، فكأن الشرير ملحق بالشياطين، والفاضل

ملحق بالملائكة، فهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وأشار سبحانه إلى الأمر الثالث في القصة وهو الاحتجاج بالمغالطة، كما احتج إبليس عند ربه لما أغرى آدم، فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فهذه الحجة كالتي تقدمت في قول إبليس إذ اعتبر الفضل بالأصل، فهكذا هؤلاء يعتبرون التشريع بالموروث عن الآباء، والحجتان مستويتان مغالطتان، فإن الآباء قد يكونون ضالين، كما كانت النار في حجة إبليس قد تكون سبب التدمير والإهلاك، كما أن المخلوق منها وهو إبليس والشياطين والأرواح الشريرة سبب المعاصي والضلال لقصور عقول الأرواح الموسوسة والموسوس إليها، وهذا هو ملخص قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ إلى قوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقوله فيها: ﴿يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ أي التي قصد الشيطان إبداءها. يروى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة، ويقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها، وقوله: ﴿وَرِيشًا﴾ أي لباساً تتجملون به، والريش: الجمال، وقيل الريش: المال، يقال: تريش الرجل، إذا تموّل، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ تقدم هنا تفسيره، وقوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ حال من «أبويكم» ﴿إِنَّهُ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ تعليل للنهي وتأكيد للتحذير منه ومن جنوده، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي بما أوجدنا بينهم من المناسبة، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ لأنه تعالى لا يأمر إلاّ بمكارم الأخلاق والفضائل.

ثم أخذ سبحانه يبيّن الأوامر التي يأمر بها، فقال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، وهو الوسط في كل شيء فلا إفراط ولا تفريط في قول ولا عمل ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي اقصدوا عبادته تعالى مستقيمين إليها غير عادين إلى غيرها في كل وقت سجود أو في كل مكان سجود ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي الطاعة مبتغين بها وجهه خالصاً ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما أنشأكم ابتداء يعيدكم، وإذا كان كذلك فلتكن العبادة خالصة له سبحانه وتعالى ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ بأن وفقهم للإيمان ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ بمقتضى استعدادهم. ثم بيّن سبب ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ للمناسبة الموجودة بينهم، وهذا مقتضى طباعهم ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فإن المذنب له حجة يقتنع بها كما اقتنع إبليس بحجته، والضالون مقتنعون بالاحتجاج باتباع الآباء.

واعلم أن النوع الإنساني ما أوقعه في الضلال إلاّ جهله، فمن سرق أو قتل أو ظلم أو أسرف في الأكل والشرب وغيرها أو استدان أو أسرف في عمل من أعمال الحياة فإنه لم يفعل ذلك إلاّ وهو معتقد أن له عذراً، ولا ترى شريراً أو ظالماً إلاّ وعنده براهين يقيمها وأعذار ينتحلها كالبرهان المذكور عن إبليس، فقوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي بما قام عندهم من الدليل السفسطي الذي أقامه إبليس في تفضيله نفسه على بني آدم.

ولما كان ذكر المساجد والصلاة فيها والدعاء بعد ذكر اللباس، ناسب أن يبيّن حكم الملابس في الصلاة. ولما كان الأكل مناسباً للملبس لاقترانه به في أمور الحياة، ذكر أحكامهما معاً، فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ

ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ ثيابكم لمواراة عوراتكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ لطواف أو صلاة. ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة في الصلاة، وفيه دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة.

قال قتادة: كانت امرأة تطوف وتضع يدها على فرجها، وقال ابن عباس: إنه كان أناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراة، حتى إن المرأة كانت لتطوف بالبيت وهي عريانة، فتعلق على سفلها سيوراً مثل هذه السيور التي تكون على وجه الحمر من الذباب، وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أخرجه مسلم، وقال مجاهد: كان حي من أهل اليمن كان أحدهم إذا قدم حاجاً أو معتمراً يقول: لا ينبغي لي أن أطوف في ثوب قد عصيت ربي فيه، فيقول: من يعيرني مئزراً، فإن قدر عليه وإلاَّ طاف عرياناً، فأنزل الله فيه ما تسمعون: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ والمراد من الزينة لبس الثياب التي تستر العورة، فستر العورة واجب في الصلاة والطواف، وقد كان بنو عامر لا يأكلون في أيام حجهم إلاَّ قوتاً، ولا يأكلون دسماً، يعظمون بذلك حجهم، فقال المسلمون: نحن أحق أن نفعل ذلك يا رسول الله، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُلُواْ﴾ من اللحم والدسم ﴿وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ بالشروع في الحرام أو في مجاوزة الشبع أو بتحريم ما لم يحرّمه الله من أكل اللحم والدسم، فلا تحرّم الحلال ولا تتناول الحرام، ولا يكن منك إفراط في الطعام وشره عليه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة.

وكان للرشيد طبيب نصراني حاذق، فقال لعليّ بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان. فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه، وهو قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾. فقال النصراني: ولم يرو عن رسولكم شيء في الطب. فقال: جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة، وهي قوله عليه الصلاة والسلام: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء، وأعط كل بدن ما عوّدته». فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً.

ولما كان الإسراف مذموماً شرعاً وعقلاً أتبع ما تقدم بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الأكل والشرب وغيرهما، فأما فيهما فالمرض وضياع المال، وأما في اللباس والزينة وزخرفة المنازل والمباهاة، فإن الإسراف فيها يدعو إلى ضياع المال والمجد؛ ثم إن الأمم الشرقية الإسلامية وغيرها التي تتناول صناعات الفرنجة من مأكل وملبس ومشرب ومفرش وهم يصرفون فيها أموالهم ويهلكون أنفسهم، يصبحون وقد ملكهم أرباب تلك المصنوعات، ثم تتبعهم دولهم فيحتلون البلاد، ولقد غرق العالم الإسلامي اليوم في المنسوجات الإفرنجية وفتنوا بأعمالهم، فيا ليتهم قلدوهم في الصناعات، ولكنهم اشتروا صناعاتهم ترويجاً لها، وكساداً لصناعات بلادنا، فينشط الأجنبي ويكسل الوطني، وتتدلى الأمة إلى مقام الذل والعبودية.

إن التجارة اليوم هي أسّ الاستعمار والاحتلال، كما هو حاصل في أكثر بلاد الشرق. إن إسراف المسلمين أذلهم للفرنجة وأضاع بلادهم. لأذكر لك مثلاً مما امتاز به المسلمون في الإسراف لتعلم

كيف جهل ملوكهم جهلاً فاحشاً، فأسرفوا وعموا عما حولهم من العالم الراقي، وجهلوا دينهم جهلاً فاضحاً فقلدهم العامة وحذوا حذوهم في الإسراف، فلذلك سقطوا في الذل، لأن الله لا يحبهم لأنهم مسرفون، ومن لا يحبه الله أذله. فهؤلاء المسرفون يبغضهم الله وإن كانوا في ظاهرهم مسلمين، فهاك ما جاء في إحدى جرائدنا المصرية يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٢٦ :

ملوك وملوك

حمل إلينا البرق في الأسبوع الماضي نبأ الاحتفالات الباذخة التي أقامها مولاي يوسف، سلطان مراكش، احتفالاً بتزويج ولديه، وطرفاً من النفقات الطائلة التي بذلت في هذه الاحتفالات، من ذلك أن تكاليف الأنوار بلغت وحدها ثلاثة ملايين فرنك، والحلوى زهاء مليون، والمثلجات زهاء مليون، وأن المدعوين من فرسان وسادة وأمراء بلغوا زهاء أربعمائة ألف، فذكرنا في الحال ذلك الإغراق الذي يبلغ حد السفه في صنوف البذخ الذي لبث لعنة الأمم الشرقية على القرون. ثم قرأنا بعد ذلك ما أذيع من محتويات البرنامج الرسمي لقران ملكي آخر هو زواج ولي عهد البلجيك بالأميرة «أستريد» السويدية، وإليك خلاصة هذا البرنامج الذي يشفّ عن الحزم، لا تنقصه الفخامة في نفس الوقت :

يعقد العقد المدني في «ستوكهلم» ثم يعود الأمير البلجيكي وعائلته إلى «بروكسل» في اليوم السابع من هذا الشهر، وفي اليوم التالي تذهب العائلة المالكة إلى «انفرس» حيث يصل في ذلك اليوم الطراد السويدي «نالجيا» وعلى ظهره الأميرة «أستريد» ووالداها، ودوق ودوقة «فستروجاسي» والأمير «أليكس» الدانماركي وزوجته وأشقاء العروس، وغيرهم من الأمراء والأميرات.

ولن يحضر ملك السويد إلى «بروكسل» حيث تذهب الأسرتان الملكيتان في قطار خاص، وتقام الزينات من المحطة إلى القصر الملكي، وتقام في المساء حفلة كبرى في الأوبرا تقيمها بلدية «بروكسل» إكراماً للعروسين. ثم تقام حفلة الزواج الديني في كاتدرائية «بروكسل» في اليوم العاشر من نوفمبر، وفي المساء يقيم ملك البلجيك وملكته حفلة استقبال كبرى يحضرها ثلاثة آلاف شخص، ويقال إن البرنس «أوف ويلز» سيكون بين المدعوين.

هذه مقارنة إسراف السلطان المراكشي واقتصاد البلاط البلجيكي، وهو إسراف يثير العقل والحزم خصوصاً إذا ذكرنا ما هنالك من فرق بين البلجيك ومراكش، وبين سلطان تظله الحماية الأجنبية وبلاط أمة مستقلة. وهذا من سر قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

ثم أخذ سبحانه يردّ على من حرّم الملابس في الطواف، فقال: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهم ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾ من الثياب وكل ما يتجمل به ﴿ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ أي أصلها، يعني القطن من الأرض، والقزّ من الدود ونحو ذلك، ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ والمستلذات من المآكل والمشارب. قيل: كانوا إذا أحرموا حرّموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها، ﴿ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ بالأصالة، والكفار وإن كانوا شركاءهم فيها فهم تبع لهم ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم. ثم قال: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي كتفصيلنا هذا الحكم ﴿ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾. ويا عجباً لم ختم هذا المقام بهذه الجملة بعد أن أبان أن الطيبات من الرزق حلال، وأن زينة الله التي أخرج لعباده كذلك، وما الغرض إذن من تبيين الآيات لقوم يعلمون. يريد الله عزّ وجلّ أن يفهمنا في أيامنا هذه

نظائر ما كانت تفعله الجاهلية، وأن نقيس الغباوة والجهالة الحاصلين في بلاد الإسلام الآن بالغباوة والجهل اللذين كانا عند أهل الجاهلية. كلا، ثم كلا، إن الغباوة والجهل الحالين بأمم الإسلام الآن أشد وقعاً وأعظم فتكاً وأشد قتلاً وأقوى عملاً وأبعد أثراً في انحطاط الأمم الإسلامية من عمل الجاهلية في انحطاط أممهم. ولعمري لئن تحامى الجاهلي لبس الثوب في الطواف، فلكم تحامى بعض علماء الإسلام في أيام أسلافنا وفي العصر الحاضر أن يدرسوا علوم الآفاق من الفلك والطبيعة مثلاً، ويحسبون أنهم بذلك يخدمون الدين وهم إنّما يخدمون الشيطان، ويحسبون أنهم مهتدون.

اختص الفرنجة بالمعادن وعلم النبات وتربية الحيوان، فأما المسلمون فإنّما يقرؤون ما كان يقرؤه آباؤهم، وهم مقتصرون على علوم قشرية وأحكام شرعية، وهم في الكون لا ينظرون، ومن بحر نعمة الله الزاخر لا يغترفون.

ولئن تحرّج بنو عامر أيام الحج عن تعاطي الطعام الدسم واللحم، وإذا امتنع أهل اليمن أن يلبسوا أثوابهم في الطواف، فلقد تخطى المسلمون في أقطار الأرض كل معقول، وتركوا نعم الله في الأرض وفي السماء للفرنجة، وخالفوا نص كتابهم، لظنهم أن علم الفقه كاف وحده. ولقد أخبرني عظيم من عظماء الهند أن بعض العلماء هناك يحرّمون العلوم. وقال لي العالم الصيني «وان ون كين» من مدينة «تاينتسن»: إن العلماء هناك حرّموا على المسلمين جميع العلوم حتى سبقتهم الأمم العائشة معهم في الصين من الوثنيين. ولعمري لئن قال الله هنا: ﴿ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، وقال المفسرون: إن زينة الله للذين آمنوا بالأصالة ولغيرهم بالتبع، لقد انعكس الأمر، وأصبحت زينة الله، ومائدته المنصوبة، ونجومه المنظورة، وحيواناته المبثوثة، ونباتاته المشهودة، وآثاره المعهودة، وجنوده المنظومة، ومدنه العظيمة، وجواهره البديعة، ومعادنه اللطيفة، ونظام الحكومات، وحفظ العلوم واللغات، كل ذلك أصبح خاصاً بالفرنجة، والمسلمون لهم تابعون.

فيا الله ألهمنا علماً وحكمة إننا من عبادك، وهذا كتابك وأنت أخبرت أنها لنا في الدنيا. وقال السادة المفسرون: إنها لغيرنا تبع لنا، فكيف انعكست الآية؟ اللهم إنك عدل وقولك صدق، نصبت المائدة فأعرضنا، ودعوتنا إلى شكر النعمة فامتنعنا وأحجمنا، إننا يا الله حاملو كتابك لمن بعدنا، وهم الذين يكونون قد تلوا نعمك وزينتك بالأصالة وغيرهم تبع لهم، لأنهم رحمة للعالمين بعد نبينا صلى الله عليه وسلم.

ثم شرع سبحانه يبيّن ما حرّمه، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ جمع فاحشة، وهي ما قبح وفحش من قول أو فعل، أي قل يا محمد لهؤلاء المتجردين من الثياب عند الطواف، ويحرّمون أكل الطيبات مما أحل لهم: كيف تحرّمونه على أنفسكم والله لم يحرّمه عليكم؟ ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ من الأفعال والأقوال ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ أي: سرّها وعلانيتها، ﴿ وَٱلْإِثْمَ ﴾ وما يوجب الإثم، وهذا تعميم بعد تخصيص ﴿ وَٱلْبَغْىَ ﴾ الظلم والكبر ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ متعلق بالبغي للتأكيد ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ تهكم بالمشركين ودلالة أن ما ليس عليه برهان لا يجوز اتباعه ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ بالإلحاد في صفاته تعالى والافتراء عليه، كما قالوا هنا: والله أمرنا بها.

ولما أتم سبحانه الكلام على ما ترتب على القصة من الأوامر والنواهي، شرع يحذّر الناس أفراداً وأمماً: (١) من التهاون لئلا تعاجلهم المنايا. (٢) ومن عصيان الرسل بالكذب والافتراء، وينذرهم هول الموت وسؤال الملائكة، وكيف يجتمع الظالمون من الأمم لاتحادهم في الصفات، ويلقي الآخرون الذنب على الأولين، وكيف تكون حجتهم داحضة فلا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة، وإنّما يدخلون النار، وليس التكليف بما لا يطاق، فعلى كل امرئ أن يقوم بما في وسع طاقته. ثم وصف أهل الجنة بأنهم صافية نفوسهم، عالية درجاتهم، وهناك محاورات أهل الجنة وأهل النار، وكيف يكون الأنبياء والعلماء بين الجنة والنار وهم ينظرون إلى أهلهما ويحاور بعضهم بعضاً. هذا ملخص ما يأتي من الآيات وهو: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ وقت معين لنزول العذاب بهم إذا كذبت رسولها، وهذا وعيد لأهل مكة ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أي لا يتأخرون ولا يتقدّمون أقصر وقت، ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ أي يقرؤون عليكم كتبي، والجملة صفة، وجواب الشرط قوله: ﴿ فَمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ الشرك ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ العمل منكم ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ تعظموا عن الإيمان بها ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ ممن تقوّل على الله ما لم يقله، ﴿ أَوْ كَذَّبَ ﴾ ما قاله ﴿ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ مما كتب لهم من الأرزاق والآجال أو من اللوح المحفوظ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ أي يتوفون أرواحهم بإذننا، وهم أعوان ملك الموت المذكور في آية أخرى، فالموت من الله بواسطة الملك وأعوانه، وجواب «إذا» قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وهذا سؤال توبيخ، أي: أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ﴿ قَالُوا ﴾ أي قال الكفار مجيبين الرسل: ﴿ ضَلُّوا عَنَّا ﴾ غابوا عنا ﴿ وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ اعترفوا بكفرهم ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى يوم القيامة أو أحد الملائكة: ﴿ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أي كائنين في جملة أمم مصاحبين لهم يوم القيامة ﴿ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ يعني كفار الأمم الماضية من النوعين ﴿ فِي النَّارِ ﴾ متعلق بـ«ادخلوا» ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ ﴾ النار ﴿ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ شكلها في الدين، أي: التي ضلت في الاقتداء بها ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا ﴾ أصله: تداركوا، أي تلاحقوا واجتمعوا في النار، فأبدلت التاء دالاً وسكنت للإدغام ثم أدخلت الهمزة ﴿ جَمِيعًا ﴾ حال ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ ﴾ منزلة وهم الأتباع والسفلة أو آخرهم دخولاً ﴿ لِأُولَاهُمْ ﴾ أي لأجل أولاهم، لأن الخطاب مع الله، وهؤلاء إما القادة والرؤوس، وإما الذين دخلوا أولاً على ما تقدم ﴿ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ سنّوا لنا الضلال فاقتدينا بهم ﴿ فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ﴾ مضاعفاً لأنهم ضلوا وأضلوا ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾، أما القادة فبكفرهم وتضليلهم، وأما الأتباع فبكفرهم وتقليدهم ﴿ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ما لكل فريق منكم من العذاب ﴿ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة أو للمتأخرين في الدخول: ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ أي فقد ثبت ألاّ فضل لكم علينا، وأنّا متساوون في استحقاق الضعف ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ بكسبكم وكفركم، وهو من قول القادة للسفلة أو المتقدمين دخولاً للمتأخرين، ويصح أن يوقف على «فضل»، وتكون الجملة بعده من كلام الله، والخطاب منه سبحانه للطائفتين. ثم شرع سبحانه يصف

ما يلاقيه الرؤساء والمرؤوسون جميعاً، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا﴾ أي عن الإيمان بها ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لا يؤذن لهم في صعود السماء ليدخلوا الجنة إذ هي في السماء، وإنَّما تكون أرواحهم راجعة إلى ما كانت تحنّ إليه من العالم السفلي، فتبقى فيه محبوسة تهيم في أودية العوالم المظلمة، و«التاء» في «تفتّح» لتأنيث الأبواب، والتشديد لكثرتها، وفي قراءة: «لا تفتَح» بلا تشديد ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ الولوج الدخول، و«الجمل»: الحبل الغليظ من القنب، وكذلك الحبل الذي تشدّ به السفينة، و«سم الخياط»: ثقب الإبرة؛ فـ«سم» بالضم والكسر، والخياط والمخيط: ما يخاط به وهو الإبرة، فدخول الكفار الجنة محال، كما أن دخول الحبل العظيم في ثقب الإبرة محال، ويصح أن يراد بالجمل: الحيوان المعروف، والمعنى واحد. ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ المشركين، وصفهم تارة بالإجرام وتارة بالظلم، وقرن الأول بالحرمان من دخول الجنة، وقرن الثاني بالعذاب تنبيهاً على عظم الذنب، يقول: إن توغلهم في المادة وبعدهم عن صفاء النفوس منعهم من دخول الجنة، فلا محالة يدخلون النار بظلمهم، للتناسب بين الساكن والمسكن.

ولما وصف الكافرين بما ذكر، أخذ يصف سبحانه وتعالى المؤمنين، ومن عادة القرآن أن يتبع الوعيد بالوعد والعكس.

وصف المؤمنين

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾، وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ جملة اعتراضية للترغيب في اكتساب النعيم المقيم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي نخرج من قلوبهم أسباب الغلّ أو نطهرها منه حتى لا يكون بينهم إلاّ التوادّ، فإنه لا يتفق النعيم مع الحقد والغلّ، كما أن النار تناسب الطباع الغليظة التي لا صفاء فيها، فالإجرام سبب دخول النار، كما أن الصفاء يناسب دخول الجنة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ زيادة في لذتهم وسرورهم، ولا لذة بالأنهار وغيرها إلاّ لقلوب خلت من الشواغل المحزنة كالغلّ، فلذلك قدّم نزعه، ولما تم هذا السرور النفسي ومباهج الآفاق حولهم فرحوا ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا﴾ لما جزاؤه هذا ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ لولا هداية الله وتوفيقه لنا، وجواب «لولا» محذوف دلّ عليه ما قبله، أي: وما كان يصح أن نكون مهتدين لولا هداية الله لنا، و«اللام» لام الجحود لتوكيد النفي، ثم قال: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فاهتدينا بإرشادهم، يقولون ذلك اغتباطاً وسروراً وإظهاراً لما اعتقدوا ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ «أن» بمعنى أي، كأنه قيل: وقيل لهم تلكم الجنة ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أعطيتموها بسبب أعمالكم، والجنة بدل أو عطف بيان لـ«تلكم» و«أورثتموها»: خبر. ولقد ورد في الحديث: «إنه لن يدخل أحد الجنة بعمله وإنَّما يدخلها برحمة الله»، وهو لا ينافي ما هنا، لأن العمل الصالح من رحمة الله؛ فالعمل الصالح من الرحمة، ودخول الجنة مسبب على ما تسبب من الرحمة ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن﴾ بمعنى أي، فهي مفسرة ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ وهذا المقول

شماتة بأصحاب النار وتحسير لهم واعتراف بنعم الله لهم، وقوله: ﴿ مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ ﴾ أي وعدكم ربكم ﴿ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ ﴾ نادى مناد وهو ملك يسمع أهل الجنة والنار ﴿ أَن ﴾ بمعنى أي مفسرة كما تقدّم ﴿ لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾. ثم وصفهم بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ دينه ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي ويطلبون لها الاعوجاج والتناقض ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ بالدار الآخرة ﴿ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا ﴾ وبين الفريقين ﴿ حِجَابٌ ﴾ وهو السور المذكور في قوله: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ [الحديد: ١٣]، أو بين الجنة والنار ليمنع وصول أثر إحداهما إلى الأخرى ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ ﴾ أي على أعراف الحجاب وهو السور المضروب بين الفريقين أو الدارين، وهي أعاليه، جمع عرف، استعير من عرف الفرس وعرف الديك، والعرف: المرتفع من الشيء، فهو لظهوره يكون أعرف من غيره ﴿ رِجَالٌ ﴾ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخيار المؤمنين والعلماء ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا ﴾ من زمرة السعداء والأشقياء ﴿ بِسِيمَىٰهُمْ ۚ ﴾ بعلاماتهم.

واعلم أن علم الفراسة الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥]، وقال: ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقال: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ ﴾ [محمد: ٣٠]، فكأن الفراسة اختلاس المعارف، وذلك ضربان: ضرب يحصل للإنسان عن خاطره ولا يعرف له سبب، وذلك ضرب من الإلهام أو الوحي، وإياه عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «إن في أمتي لمحدثين وإن عمر منهم»، ويسمى ذلك أيضاً النفث في الروع، والضرب الثاني ما يكون بصناعة متعلمة وهي الاستدلال بالأشكال الظاهرة على الأخلاق الباطنة، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود: ١٧]، قال بعض العلماء فيه: إن البينة هو القسم الأول وهو إشارة إلى صفاء جوهر الروح، والشاهد هو القسم الثاني وهو الاستدلال بالأشكال على الأحوال، فإذا سمعت المفسرين يقولون: إن أصحاب الأعراف يعرفون أهل النار بسواد وجوههم وزرقة عيونهم، وأهل الجنة ببياض وجوههم ونضرة النعيم، وبعضه روي عن ابن عباس رضي الله عنهما. فاعلم أن ذلك ضرب من سيماهم، والسيما: العلامة الدالة على شيء، وأصله من السمة ﴿ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي نادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة ﴿ أَن ﴾ بمعنى: أي، كما تقدم ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ وذلك تهنئة منهم لأهل الجنة، وقوله تعالى: ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا ﴾ صفة لـ«رجال» أي: لم يدخلوا الجنة ﴿ وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ في دخولها. قال الحسن: ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلاّ لكرامة يريدها بهم، ولا تظن أن الجنة التي طمعوا في دخولها ولم يدخلوها إلاّ أعلى الجنة التي لا يصل إليها إلاّ المقرّبون، وإنّما وقفوا على الأعراف ليطلعوا على الفريقين، ليظهر عدل الله على ألسنتهم، وليبينوا للناس أن هذا جزاء ما فعلوا من خير وشرّ ثم يرتقون إلى منازلهم العالية، وهذا على أنهم أعاظم الناس من الأنبياء وغيرهم، وهناك تفسير آخر لا محل لذكره، وهؤلاء كما قالوا لأهل الجنة: سلمتم من الآفات وحصل لكم الأمن والسلامة حين ينظرون إليهم، يقولون لأهل النار حين ينظرون إليهم: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ ﴾ الخ. ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ ﴾ نعوذ بالله ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ في النار ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ ﴾ من رؤساء الكفرة ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الحق

أو على الخلق ﴿ أَهَٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ ﴾ وهذا من تتمة قولهم للرجال، يشيرون إلى أهل الجنة الذين كان الكفار يحتقرونهم في الدنيا ويحلفون إن الله لا يدخلهم الجنة ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ أي فالتفتوا إلى أصحاب الجنة وقالوا لهم: ادخلوها وأنت ترى أن أصحاب الجنة نادوا أصحاب النار، وأصحاب الأعراف نادوا الفريقين، ولم يبق إلاّ أصحاب النار، فلذلك قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ ﴾ بمعنى أي مفسرة ﴿ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ ﴾ من غيره من الأشربة أو الطعام والفاكهة، إذا أريد من الإفاضة الإلقاء ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ منعهما عنهم منع المحرّم عن المكلف.

ثم وصف الكافرين، فقال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا ﴾ فحرّموا وأحلوا ما شاؤوا ﴿ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾ اغتروا بطول البقاء فيها وخصب العيش ولذته ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ ﴾ نتركهم في العذاب المهين ﴿ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا ﴾ فلم يخطروه ببالهم ولم يستعدّوا له ﴿ وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ وما كانوا منكرين أنها من عند الله، أي كنسيانهم وجحودهم ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ ﴾ بيّنا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ وميّزنا حلاله وحرامه وقصصه ﴿ عَلَىٰ عِلۡمٍ ﴾ عالمين بكيفية تفصيل أحكامه ﴿ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ ﴾ حال من منصوب «فصلناه» ﴿ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ ظاهر التفسير.

لطيفة في قوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ الخ.

أيها المسلمون، انظروا كيف يذكر الله عزّ وجلّ أخذ الملابس في الصلاة، ويعقبها بعدم الإسراف في الأكل والشرب، ويتبع ذلك بحلّ الطيبات من الرزق. أيها المسلمون، أيّ مناسبة بين الصلاة وبين الأكل والشرب وعدم الإسراف فيهما وحلّ الطيبات من الرزق. إن المقام مقام علم وحكمة وليس للإهمال فيه من نصيب، ولذلك ختم المقال بقوله: ﴿ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾.

يقول الله هنا: إن أخذ الزينة في الصلاة ونحوها والأكل والشرب بلا إسراف وطيبات الرزق إنّما نفصّلها لقوم يعلمون، ويقول في سورة «الأنعام» قبلها: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾[الآية:٩٧]، وأتبعه بأنه خلقنا من نفس واحدة الخ، وأن ذلك البيان لقوم يفقهون، فعلم الفلك لقوم يعلمون، وعلم التشريح لقوم يفقهون كما تقدّم، وهاهنا علم الصحة لقوم يعلمون. إذن علم الفلك وعلم الصحة كلاهما محتاج إلى علماء أما علم الفلك والهيئة فعلمهما ملئت به الأقطار إلاّ في بلاد الإسلام في القرون المتأخرة، اللهم إلاّ شذرات ضئيلة وهكذا علم الصحة، اللهم إنك أنت الذي أرشدت المسلمين لعلم الصحة فناموا، وماذا تقول لهم أكثر من أن الطيبات حلال وأن الخبائث حرام، وأن الإسراف في المآكل والمشرب حرام، وهكذا في الملابس وكل شيء، اللهم إن هذا هو علم الصحة.

إن علم الطب قسمان: قسم يخص إرجاع الجسم إلى الصحة بالعقاقير، وقسم تحفظ به الصحة من المرض.

وثاني القسمين أفضل من الأول، وهو الذي أوجبه الله في هذه الآية وأمثالها، جعل الله علم حفظ الصحة واجباً وجوباً شرعياً عينياً، فعلى كل امرئ أن يعرف من علم حفظ صحته ما يحتاج إليه وكما أن الواجب من علم الفقه كما تراه مسطوراً في إحياء الغزالي على كل نفس ما تحتاج إليه، فالزكاة لا تجب تعلم تفصيلها إلاَّ على من عنده ذلك النوع مما يملكه.

هكذا هنا في صحة الأبدان، يجب على كل امرئ في نفسه أن يعتني بصحته ويتعلم ما يقدر عليه، وكلما ازداد مرضاً وضعفاً وجب عليه أن يزيد علماً، وعلى أمة الإسلام أن يكون فيها علماء للصحة كما يكون فيها علماء للفقه.

فقل لي رعاك الله، قد جاء في السور السابقة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾[المائدة: ٦] الخ، أمرنا بالصلاة وقال: نظفوا أجسامكم تارة بالغسل وتارة بالوضوء وما الوضوء والغسل إلاَّ لصحة الصلاة، وما طهارة الثياب إلاَّ لذلك، وما هذا ولا ذاك إلاَّ ليكون المصلي حاضر القلب، لا يلهيه قذارة ثوبه ولا جسمه، وهو متوجه للقبلة مصروف الفكر للمعبود، فإذا كان الوضوء وما يتبعه، نافعات في حضور قلب المصلي، فيكون بالأولى مرة وألف مرة صحة البدن.

إن المريض ومن به قولنج أو صداع لا يحضر قلبه في الصلاة، فإذن تكون العناية بالصحة أولى وأجدر، ولهذا لما جاء الوضوء والغسل في السورة السابقة ووجوب النظر في العالم العلوي والسفلي في سورة «الأنعام»، جاء في هذه الآيات في هذه السورة يقول لنا: توضؤوا واغتسلوا وتطهروا وانظروا في السماوات والأرض، ولكن لا يتم ذلك إلاَّ بعلم الصحة، فأنا أنهاكم عن الإسراف في المأكل والمشرب وغيرهما، وأنهاكم عن الخبائث في الرزق، والإسراف في المأكل والمشرب لا يعرفه إلاَّ علماء يخلقون لذلك، لأن هذا من فروض الكفايات، وفروض الكفايات إذا لم تقم بها طائفة وقع الذنب على الجميع والمسلمون اليوم جميعاً آثمون معذبون في هذه الحياة الدنيا، لذلك عذبهم الله بالجهل في سائر العلوم، لا سيما علم الصحة الذي لا يتم حج ولا صلاة ولا زكاة ولا علم إلاَّ به، لذلك قال الله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾، وحرّم الخبائث المفهوم من لفظ الطيبات.

اعتنى العلماء بعلم الفقه وابتدؤوا بكتاب الطهارة، هذا حسن ولكن الأحسن منه أن يؤلف لأبناء المسلمين كتب صغيرة تعطى لهم قبل الوضوء والطهارة يذكر فيها علم الصحة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾، ولقوله: ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾.

يا عجباً كل العجب، يذكر الله اللباس والأكل والشرب وعدم الإسراف ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ مصحوباً بقوله: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾، وقد علمت أن في تفسيرها الصلاة، إن هذا رمز إلى أن الصلاة كما تحتاج إلى الوضوء والغسل تحتاج إلى جسم صحيح وعقل حاضر، ولا صحة ولا حضور عقل إلاَّ بمعرفة علم الصحة؛ فلئن وجب الوضوء فإن الصحة أوجب، أي الأخذ في أسبابها أولى، فإذا طرأ المرض على المصلي وتيمم لضرر الماء، فليكن عليه أيضاً أن يتداوى، أو يلازم شروط الصحة جرياً على أمر الله من عدم الإسراف ومن ترك الخبائث من الرزق.

علم الصحة

وهاأنا ذا أبدأ بما بدأ الله به في الصحة، وهي الملابس ثم المآكل ثم الماء، وأبيّن الطيبات منها والخبائث بصورة مختصرة، وأتبع ذلك بفوائد صحية. وإني موقن أن علماء الإسلام بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله سيقرؤون علوم الطب، ويوقنون بأنها من علوم الدين، وأن ما أذكره هنا نموذج صغير أو قطرة من بحر أو حبة ستنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء.

الملابس

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ ويقول: ﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ﴾ ولم يعيّن في أيّ الأنواع يكون الإسراف، فهو وإن ذكر بعد الأكل والشرب محذوف المعمول، فالله تعالى لا يحبّ من أسرف في أيّ عمل من الأعمال، وحذف المعمول مؤذن بالعموم، فالإسراف في الملابس وغير الملابس على حد سواء، وسواء أكان الإسراف بغلوّ الثمن للفقير أو بالملابس التي تزيد عن الحاجة، وهكذا فكله إسراف، فلأذكر لك أحوال الملابس. يشترط في الملابس ما يأتي:

(١) ألاّ تكون ضيقة تتعب الإنسان في غدوّه ورواحه، بل يجب أن تكون واسعة.

(٢) ألاّ تكون ثقيلة، فقد أجمع علماء الصحة أن الدفء لن يكون بتراكم الملابس، وإنّما يكون بنوع ما يفيد الدفء.

(٣) أن تكون الملابس لها مسامّ لتجفف العرق، لأن العرق إذا بقي في الجسم أصابه البرد الذي يكون سبب الزكام وآلامه، فالمسام إذن أكبر عون على الصحة.

الصوف ونحوه والحرير والقطن والتيل والجلد

اعلم أن صوف الغنم ووبر الجمال وشعر المعز لها خاصيتان: الأولى أنها تحفظ حرارة الجسم، الثانية أنها تنشف العرق. إذن هذه المواد أصلح لأن تلبس على نفس الجلد وهو «الشعار» وعليه يحسن أن يكون الشعار من الصوف.

الحرير: اعلم أن الحرير الذي أحله الله للنساء وحرّمه على الرجال يحفظ الحرارة كالصوف، ولكنه لا ينشف العرق كالصوف.

القطن: أما القطن فهو قليل الحفظ للحرارة، وقليل التنشيف للعرق، والملابس المأخوذة من «التيل» أقل من القطن في خواصه.

الجلد: والملابس المصنوعة من الجلد تحفظ الحرارة، ولا تلبس إلاّ في البلاد الباردة.

فوائد عامة في الملابس

يجب أن تكون واسعة، وألاّ تكون طويلة، وأن تحفظ في صيوان خاص، وأن يوضع معها نحو الفلفل الأسود بعد تنظيفها أو «النفتالين» أو نحوها خيفة «العثة». وليغير الشعار مرتين في كل أسبوع صيفاً ومرة شتاء. ومعلوم أن الملابس الوسخة تغسل بالماء الساخن والصابون. وينظف الصوف بغسله بالماء البارد مع عدم عصره، ثم توضع في الظل حتى تجفّ. وليكن الشعار خفيفاً في زمن الشتاء، وليكن لون الثياب الخارجية في الصيف غير قاتم، أما في الشتاء فيجب أن يكون اللون أدكن، وذلك ليسمح

لحرارة الشمس أن تدخل إلى الجسم، أما الأبيض فإنه يمنع حرارة الشمس أن تدخل للجسم، وهو بالصيف أليق. انتهى الكلام على الملابس.

الأكل

اعلم أن الأغذية المستحسنة عند علماء الطب هي الأغذية السهلة الهضم الطازجة من الأغذية الحيوانية والنباتية، مثل اللحم واللبن والزبدة والقمح والذرة والبطاطس، ويستحسنون طبخ الأغذية لسهولة هضمها لقتل الجراثيم الضارة، ويوجبون غسل الخضر بالماء الساخن قبل أكلها وقاية من الإصابة بالديدان. فإذن يغسل الفجل والجرجير والبصل وأمثالها بذلك قبل الأكل.

ويقدّمون من الحيوان ما كان أصغر سناً على غيره، ولحم الضأن على غيره في الهضم، ولحم الدجاج على لحم البط والإوز. ويقولون: إن لحم السمك أقل تغذية من لحوم غيره من لحوم الحيوانات. ويقولون: إن اللبن غذاء الأطفال ولا يكفي للكبار، ويوجبون غليه وحفظه في إناء مخصوص محكم الغطاء مغسول بالماء المغلي. ويقولون: إن البيض الصالح يعرف بوضع ما يملأ ثلاثة فناجيل قهوة من الملح في ثلاثمائة درهم من الماء ويذوب فيه، ثم يوضع البيض، فما طفا فوق الماء فهو غير صالح، وما رسب يكون صالحاً. ويقولون: الجبن أجود ما يصنع من اللبن المحض الخالي من المواد المضافة في الصناعة.

الزبدة: الزبدة غذاء مفيد، ويستحسن أن تؤكل مع الخبز وقليل من السكر، وهي تنفع رجال العمل الجسمي.

البقول: هي مثل العدس والفول ونحوهما، يمكن الاستغناء بها عن مقدار عظيم من اللحم بأنواعه، ويضاف إليها الزبدة أو الزيت.

الخضر: بعضها أسهل هضماً، مثل القرع، وبعضها عسر الهضم قليل التغذية ولكنه نافع للجسم، مثل الإسفاناج «السبانخ»، وخبز القمح أحسن من غيره وأكثر تغذية.

التوابل: هي كالفلفل والخلّ والخردل والملح، هذه كثرتها تعسر الهضم، فإذا قلت الشهوة للطعام حسن تعاطي القليل منها، وقد نهى الأطباء عنها إلاّ قليلاً.

الأغذية التي هي غير طيبات وهي الخبائث

القريب «الفسيخ» والسردين والفواكه التي ليست ناضجة مثل «الرمخ» وهو البلح الأخضر ومثل الفواكه التي زادت في نضجها، واللحوم الكثيرة الدهن، والأسماك ذات القشور الغليظة وذات المحار.

ولأختم هذا المقام ببيان المدة التي تهضم فيها الأطعمة من لحم وخضر وفاكهة، ليختار الإنسان ما يناسب مزاجه، ولا يتناول إلاّ ما تقدر معدته على هضمه:

فأولاً: الطعام الذي لا يهضم في أقلّ من ست ساعات، وهو لحم الضأن المقلوّ في السمن.

وثانياً: الطعام الذي يهضم في أقلّ من ست ساعات ولا ينقص عن خمس ساعات، وهو لحم العجل والكلى المقلوين في السمن، ولحم الضأن المسلوق.

وثالثاً: ما تنقص مدة الهضم فيه عن خمس ساعات ولا تنقص عن أربع وهو: (١) لحم الدجاج والحمام والبقر والبط والإوز المقلوات كلها في السمن. (٢) لحم العجل المشوي. (٣) لحم البط والإوز المسلوقين. (٤) لحم السمك المسلوق. (٥) لحم العصافير المقلي. (٦) الكرنب. (٧) الجزر. (٨) الفجل. (٩) السلجم وهو «اللفت».

ورابعاً: ما يقل عن أربع ساعات ولا ينقص عن ثلاث، وهو لحم الأرنب والجمل المقلوين في السمن، ولحم الدجاج والحمام والكلى المسلوقات، ولحم البقر المشوي، والكبد واللسان، ثم الدجر الجاف والكرفس والبطاطا والخس والتين والشمام والجوز.

وخامساً: ما ينقص عن ثلاث ساعات ولا ينقص عن ساعتين، وهو لحم الديك الرومي المقلوّ في السمن والمسلوق منه ومن الأرانب ومن لحم البقر ثم المخ.

هكذا الباذنجان والبامية والدجر «اللوبياء» الخضراء والفول الأخضر والقنبيط والبطاطا المشوية والطماطم والتفاح النيء ـ وهو الذي لم يطبخ ـ والبلح والبرتقال والعنب والكمثرى وعصير حب الرمان.

وسادساً: ما ينقص عن ساعتين ولا ينقص عن ساعة، وهو الكرش المسلوقة والهليون «كشك الماظ» والقرع والإسفاناج «السبانخ» والتفاح المطبوخ والموز والسفرجل. انتهى.

فإذا سمعت قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ وكنت ضعيف المعدة، فاعلم أن الأوفق لك ما كان سريع الهضم؛ كالقرع وكالعنب.

فإذا أكلت الخيار والقثاء فأنت مسرف لأنك جاوزت حدّك، وعلى هذا ابدأ فقس. فأما إذا كنت قوي المعدة فلتأكل ما تشاء من لحم العجل والضأن وغيرها. ولكل مقام مقال. انتهى ما قصدته من الكلام على الغذاء.

الماء الذي يشرب يجب له الشروط الآتية:

(١) أن يكون خالياً من الرائحة ومن اللون.

(٢) أن يكون رائقاً فلا ترى ذرات صغيرة سابحة فيه، ولا يرسب منه في قرار الإناء شيء.

(٣) أن يكون عذباً.

(٤) أن يذيب الصابون وينضج البقول والخضر إنضاجاً تاماً، وإلاَّ كان محتوياً على أملاح ضارّة بالجسم.

(٥) أن يكون خالياً من الجراثيم وهي «المكروبات»، ولا يمكن معرفة المكروبات إلاَّ بالمجهر أي «المكرسكوب».

الأمراض التي يكون سببها الماء الذي ليس مستوفياً الشروط:

(١) الإسهال المزمن بسبب التراب والرمل اللذين يكونان في الماء.

(٢) الحمى التيفوذية.

(٣) الهيضة الآسيوية «الكوليرا».

(٤) البول الدموي «البلهارسيا».

هذه الثلاثة الأخيرة بسبب الجراثيم المنتشرة في الماء.

تنقية الماء

لذلك طرق ثلاث :

الطريقة الأولى : أن يوضع نوى المشمش أو الخوخ أو اللوز الحلو فيرسب هناك طبقة تحمل الأقذار في أسفل الإناء ، ويكون ما فوقها من الماء صافياً ، ويوضع جزء من الشبّ في الماء ، وهذه الطريقة فيها ضرر للشاربين يستعملها العامة وهم يجهلون أضرارها .

الطريقة الثانية : أن يرشح الماء في إناء ذي مسامّ من الفخار ويغسل من الداخل والخارج بالماء والصابون والليف غسلاً جيداً ، ثم يغطى ذلك الإناء بغطاء نظيف ويوضع تحته إناء نظيف ليتلقى الماء النقي المتساقط بعد رشحه من السطح الخارج ، ويجب أن يوضع هذا الإناء وما تحته في محل نظيف بحيث لا يصل إليه الغبار ، والأحسن أن يكون وعاء خشبياً كبير الحجم ، وفي اللغة العربية يقال للإناء الذي فيه الماء « الحب » ولغطائه « الكرامة » ، فيقولون لمن يحبون « حباً وكرامة » ، وأصله هذا المعنى الذي عرفته ، وهذا يسمى في مصر « الزير وغطاؤه » . وهناك أدوات للرشح غير ما ذكر ، وهذه تباع في الأسواق فلا طائل في ذكرها ، مثل ما يسمى « راشح بركفيلد » .

الطريقة الثالثة : إغلاء الماء ، وهذه هي الطريقة التي بها نعرف تماماً خلوّ الماء من الجراثيم ، وهذا هو الذي يتبع في زمن الأوبئة ، فيغلى الماء للشرب وللطبخ وغيرهما ، ويحفظ ما للشرب في إناء نظيف محكم الصمام ، ويشرب بعد أن يبرد .

هذه نبذة مما يتضمنه قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾ وذكر الأكل والشرب ، ثم أمر بعدم الإسراف فمن لبس ما يضره أو أكل السردين أو الفسيخ أو الفواكه التي ازدادت في النضج فهو مسرف كمن يأكل فوق الشبع ، ومن شرب فوق حاجته مسرف كمن شرب الماء الذي فيه التراب أو الرمل أو الجراثيم التي تصيب الإنسان فتورثه البول الدموي أو الحمى التيفوذية أو الحمى الآسيوية ، كل هؤلاء مسرفون .

فمن لبس شعار الصوف الغليظ في الصيف مثلاً أو أكل البلح الأخضر أو شرب الماء الذي فيه قذر ، فكل هؤلاء مسرفون . فالإسراف إما في الكم ، كلبس الملابس الكثيرة وأكل وشرب المآكل والمشارب الكثيرة ، وإما بالكيف كما تقدم . كل هذا إسراف والمسلمون نائمون والدنيا كلها طافحة بالعلم ولم يغفل عنه إلاّ المسلمون .

اللهم إني أدّيت ما عليّ وما قدرت عليه ، وأنت ستنتقم من كل من قرأ هذا التفسير وفهمه ولم يرشد المسلمين إلى جميع العلوم ومنها علوم الصحة التي ذكرتها في هذه الآيات ، فحللت الطيبات وحرّمت الخبائث ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٨١] .

اللهم إنك أوجبت هذه العلوم على طوائف من الأمة ، ولما قصرنا في ذلك عذبتنا في الدنيا بالضعف والذل ، وسلطت علينا الناس فحاربونا لنتذكر ، وهانحن أولاء تذكرنا ، وإني أكتب هذا تفسيراً لكتابك فهل للمسلمين عذر في الجهل بعد هذا التفسير وأمثاله ؟ كلا ، ثم كلا ، إن قارئ هذا التفسير ملزم أن يرفع صوته في كل مجلس ومقام ، وفي كل كتاب يكتبه ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء : ٢٦] .

فوائد صحية

اعلم أن أسباب نقل المرض من المريض إلى الصحيح إما أن تكون من الأول إلى الثاني مباشرة وإما أن تكون بواسطة الماء، وإما أن تكون بواسطة الحشرات.

فالأول وهو أن يكون بنفس المريض فذلك مثل «الجرب»، وهو مرض جلدي معد سريع الانتشار، ويكثر بين من لا يحافظون على نظافة أجسامهم، وينتقل هذا المرض من الأجرب إلى الصحيح بالمصافحة والمساكنة والملامسة واستعمال ملابس المصاب بهذا المرض الوبيل.

فأما الثاني وهو أن يكون بواسطة الماء، فانظر تر العجب العجاب في العلم وفي دين الإسلام، انظر تر علماء الفقه نهوا عن الاستحمام في الماء الراكد، وعن البول في الماء مطلقاً الخ. وانظر العلم الحديث وظهور فضائل الدين الإسلامي. انظر ثم انظر، هاهنا مرضان: مرض البول الدموي وهو «البلهارسيا» المتقدم ذكره، ومرض الضعف العام المسمى «الانكلستوما»، فهذان المرضان يكونان بالعدوى ولكن بطريق الماء.

فمرض البول الدموي إنّما يكون من ديدان تسكن في الأوردة، وتعيش في الدم وتبيض فيه، ويخرج البيض مع الدم، ومتى بال الإنسان فقس ذلك البيض الذي لا يراه الناس وخرج منه حيوان صغير لا تراه العيون، ولكنه إذا نظر له الإنسان بالمنظار المعظم ظهر كهيئة العقرب. فهذا الحيوان يبحث عن قوقعة من قواقع الماء، فيدخل فيها تكون له أماً بدل أمه، فإذا كبر خرج، فإذا صادف إنساناً يستحم مثلاً ودخل جسمه كما كانت أمه سابقاً وهو لا يعلم تاريخ حياتها، فيدخل من المسامّ ويتجول في الجسم حتى يكبر ويبيض كما كانت أمه تبيض، وهكذا يكون الخلف كالسلف. سبحانك اللهم، ربيت الدود في أجسامنا وأنزلته في مائنا وأدخلته في القوقعة حتى يكبر، ثم أرجعته إلى أجسامنا بعد ما صار حيواناً، عقاباً منك للمسلمين على تقاعسهم عن علم الصحة، وعلى مخالفتهم للفقهاء الذين نهوا عن التبرز والبول في الماء والاستحمام في ماء البرك والمستنقعات التي فيها ذلك الحيوان.

وأما مرض الضعف العام فهو المسمى «الانكلستوما» وهو فقر الدم، فترى الوجه شاحباً والشفتين ذابلتين وعسر التنفس بعد أي عمل، ويحسّ بألم في الرأس والركبتين واضطراب في الهضم. وذلك أن هناك ديداناً تلقح ذكرانها إناثها فتبيض في الأمعاء، لا كديدان البول الدموي التي تبيض في الدم، وهذا البيض يخرج مع الفضلات، فإذا تبرز المصاب في الماء فقس البيض فيه وعاش الحيوان الخارج منه أشهراً، فإذا شرب إنسان ذلك الماء، أو أكل خضراً مغسولة في تلك المياه أو استعمله لاستحمامه دخل هذا الحيوان جسمه بواسطة الجلد أو بواسطة المعدة فيصاب بالمرض القتال.

ولا ينجي الناس من هذا ونحوه إلاّ ترشيح الماء كما تقدم، وألاّ تغسل أواني الأكل إلاّ بالماء المرشح أو المغلي، وألاّ تؤكل الخضر التي لا تطبخ إلاّ بعد غسلها جيداً بالماء المغلي، وألاّ يمشي الإنسان عاري القدمين ولا يلعب بالمياه القذرة، وأن يغسل اليدين جيداً بالماء والصابون بعد قضاء الحاجة وقبل الأكل. انتهى الكلام على القسم الثاني.

القسم الثالث: وهو أن يكون نقل المرض بواسطة الحشرات. فاعلم أن الله عزّ وجلّ جعل ما ينفعنا وما يضرنا من الحيوان على قسمين: قسم ظاهر وقسم باطن، وكل منهما إما نافع وإما ضارّ.

فالقسم الباطن منه مثل الكرات البيضاء والحمراء في الدم، فإنها تشبه الحيوان من حيث المدافعة عن الإنسان، وتقاتل جراثيم المرض الداخلة في الجسم، وهذا معلوم في الطب. والقسم الضار منه مثل ما ذكر آنفاً من جراثيم البول الدموي وجراثيم فقر الدم اللاتي تعيش في الماء وتدخل جسم من يستحم مثلاً وهكذا. فأما القسم الظاهر من الحيوانات فهو قسمان أيضاً: نافع للإنسان وضار. فالنافع للإنسان مثل المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾[النحل:٦٨] الخ، وقد قدمت لك أن النحل وأمثاله من الحشرات هي التي تطوف على الأشجار فتنقل الطلع من الذكور إلى الإناث. ولذلك تجد الحدائق دائماً فيها أصوات هذه الحشرات، ولذلك تصفها العرب بأنها غناء.

فهذه الحشرات التي ترى شرحها فيما تقدم من التفسير كسورة «الأنعام» وغيرها، جعلها الله لتكون سبباً في فاكهتنا وحبوبنا ونحن لا نشعر، فأكثر الناس يأكلون الفاكهة ويتنعمون بالنعم وهم لا يعلمون أن الحشرات التي أمامهم هي من أسباب تلك النعم. فأما الضار للإنسان من الحشرات فهي كثيرة، منها: الذباب والقمل والبق والبراغيث والناموس. ولأتكلم على الناموس ثم الذباب، مكتفياً بهما في هذا المقام، فأقول:

الناموس

يعيش في المياه الراكدة والمستنقعات وفي المنازل التي هي غير صحية، وهي تنقل حمى «الملاريا» وهي من أنواع الحمّى وتسمى «الحمّى الأجمية» منسوبة للأجمات، لأن الناموس يعيش فيها، ولذلك يجب إبادة الناموس من المنازل بوضع زيت البترول في المراحيض، ويجب ردم البرك والمستنقعات، أو وضع زيت البترول على سطح الماء حتى يقتل صغار البعوض التي تعيش على سطحه. وعلى النائم أن تكون له ناموسية سليمة من الثقوب حتى لا يدخل إليه الناموس. فهذا الناموس إذا لدغ مصاباً بالحمّى المذكورة ثم بعد ذلك لدغ آخر سليماً، أصيب السليم بها أيضاً، فينتقل المرض من الأول إلى الثاني. فكما رأيت أن الجرب ينتقل من المريض إلى الصحيح بالملامسة ومرض البول الدموي ومرض الفقر الدموي ينتقلان بواسطة الديدان التي تعيش في الماء، هكذا ترى هنا الناموس ينقل المرض مباشرة من المريض إلى الصحيح. هذا ولأختم هذا المقام بالكلام على الذباب.

الذباب

إن الذباب ينقل المرض من إنسان لآخر كما يفعل الناموس.

غذاء الذبابة: تأكل اللحم والدم والخضر واللبن والزبد والجبن والمادة السكرية والمواد المتخمرة كالجبن المتخمر والمش وبراز المواشي وبراز الإنسان، وهو يفضل المواد المتخمرة لأنها فيها يبيض ومنها يأكل.

إذا علم أن الأنثى من الذباب تبيض ما بين شهر وشهرين ونصف، والبيض يكون على دفعات كل دفعة من مائة بيضة إلى مائة وخمسين بيضة، وجميع البيض يبلغ ألف بيضة. وفي النادر شاهد العلماء أنها باضت في إحدى وثلاثين يوماً نحو ألفي بيضة، والبيضة تفرخ فيما بين ثمان ساعات واثنتي عشرة ساعة. ومتى فقس البيض خرج منه دود أبيض يتحول فيما بعد إلى ذبابة في مدة ستة أيام أو عشرة أيام أو أربع وأربعين يوماً بحسب اختلاف الأماكن حرارة وبرودة، ومن ذلك: دود المش واللحم

ونحوهما. فهذا كله دود ظهر من بيض الذباب أو نحوه، لأن الذباب وسائر الحشرات يكون لـه بيض، فالبيض يكون دودة فشرنقة أي مثل ما نرى في دود القز إذ ينام بهذه الصفة ثم يصير حشرة كاملة.

ضرر الذباب بنوع الإنسان:

(١) ينقل جرثوم الرمد الصديدي من العين المريضة إلى العين الصحيحة من نفس الطفل المريض أو طفل آخر مجاور للمريض، وأكثر العميان في مصر بسبب هذه الحشرة.

(٢) مرض «الدسنتاريا» وهو إسهال شديد بهيئة خاصة. هذا المرض ينقله الذباب من المريض إلى الصحيح.

(٣) الذباب ينقل جراثيم الحمّى التيفوذية، لأنه يذهب إلى البراز الملوّث بجراثيم المرض ثم يذهب إلى أطعمة الأصحاء الذين هم قريب من ذلك المكان، لأن الذباب لا يذهب بعيداً.

(٤) الكوليرا تنتقل بأطراف الذبابة وخرطومها. ويقال: إن مكروب المرض يبقى حياً ١٧ ساعة على أطراف الذبابة. وقد يدخل الجرثوم المرضي في باطن الذبابة بطريق الطعام ويخرج حياً بالتبرز في طعام الأصحاء، فهي تنقل المرض بأطرافها وببرازها.

(٥) جراثيم السل التي يتلقفها الذباب من بصاق المسلولين يرى حياً في براز الذبابة بعد مرور خمسة أيام من أكلها البصاق المعدي.

وهكذا وجدوا ديدان الحيوانات التي تعيش في أمعاء الإنسان، وهكذا الدودة الوحيدة. كل هذه يبلعها الذباب مع المواد البرازية وتخرج مع برازه. انتهى ما أردت من الكلام على الذباب.

الصراصير

وهكذا يقولون: إن الصراصير يعيش في جوفها جراثيم السرطان، فإذا جاءت على طعام الإنسان أنزلت ذلك فيه فتولد السرطان في جسم من يأكله ولا يزال يمشي في الجسم حتى يجد له مكاناً ضعيفاً فيعيش وينمو ويموت المريض. اهـ.

هذا قطرة من بحر من قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾، وقوله: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾.

فيا عجبا كل العجب، كيف يقرأ المسلمون الطيبات من الرزق وأكثرهم يجهلون الفرق بين الطيبات والخبائث.

فيا ليت شعري، كيف يعرف المسلم أن هذا الطعام خبيث وأن هذا الطعام طيب إلاّ إذا قام في الأمة جماعة فدرسوا هذه العلوم ثم نشروا بين الأمة كيف يكون الطعام الذي يحوم حوله الذباب أو تلمّ به الصراصير خبيثاً. وكيف يتحامون الاستحمام في الماء الراكد أو ملامسة الأجرب أو نحو ذلك إلاّ بنشر هذه العلوم نشراً تاماً مع بيان الفوائد بقدر الإمكان.

اللهم إني بيّنت هذا المقام في كتابك بقدر إمكاني، وإني موقن أنه سيأتي بعدنا من يسهلون الطرق ويرقون الشعوب ويعلمون أمم الإسلام وسنرى ما يكون.

ولأختم هذا المقال بأرجوزة كنت نظمتها منذ نحو عشر سنين قبل طبع هذا الكتاب، وهذا نصها:

حفظ الصحة في فصل الصيف

قرأت مقالة في حفظ الصحة في أول فصل الصيف سنة ١٩١٦ بقلم عظيم من أعاظم الأطباء النطاسيين فجعلتها نظماً، وهاهي ذه:

أرجوزة في الطب للإخوان — نظمتها أيام الامتحان

من بعد ما قرأتها تكراراً — لكي أزيد فهمها استبصارا

ليحفظوا صحتهم في الصيف — فحرّه مثل غرار السيف

للصيف حرّ يلفح الوجوها — ويزهق النفوس إذ يغزوها

والشمس مهما قتلت جرثوما — فإنها تحيي سواه دوما

ما أفتك الجرثوم بالأطفال — فإنها مكثرة الإسهال

تسطو بحماها على الأولاد — فتحتسي بفلذ الأكباد

إن اتّقاء المرض المخوف — أفضل من علاجه الموصوف

فنظّف الطعام والشرابا — والجسم والمكان والثيابا

كذلك الحدائق الغنّاء — وكل مجرى كان فيه الماء

فإنها حمالة للداء — تقذفه في داخل الأحشاء

فلتحترس من طائف الذباب — فإنه أعدى من الذئاب

يعدي الذي يلقى بلا ارتياب — ويجعل الأحياء في تباب

مثل الذباب فعل الناموس — فإنه لمرض جاسوس

فاجعل له وقاية تقيكا — على السرير حتى لا يرديكا

يا ربة المنزل يا ذات الأدب — حفظ الصغار صحة مما وجب

فارعي رعاك الله عين الطفل — وفمه وأذنه بالغسل

لا يشربنّ لبناً أو ماء — حتى تزيل النار منه الداء

كذلك الفواكه اطبخيها — حتى يزول الداء مما فيها

وليستحمّ الرجل الكبير — والطفل والطفلة والصغير

بكل ماء فاتر نظيف — منظف للجسم في المصيف

وليأخذ القويّ ماء باردا — إذا أراد حيث لا يخشى ردى

وقلل المأكول والمشروبا — ولا تطع من أكلوا ضروبا

وكلّ ما تشربه مبرّدا — يبرد الأحشاء حتى تخمدا

والثلج والكازوزة المعروفه — وشبهها على الأذى معكوفه

ولا تطع قول الذين قالوا — الثلج يروي إنهم جهال

وخذ من البقول والفواكه — والخضر ما تهواه غير واله

وأقلل اللحوم والمغلظا ... فهل تحب أن تكون في لظى
خير الثياب البيض عند الحر ... وشبه بيض مثلها كالسمر
ثم لتكن واسعة الأطراف ... كالردن والقباب والأعطاف
واجعل شعار الجسم لبس الصوف ... لمصّ ريح العرق المعروف
كذاك أما كنت في عراء ... ليلاً فخص الصوف بالغطاء
ومن يكن ذا عرق في الصيف ... فشرب مثلوج له كالسيف
وكلّ تيار من الهواء ... يدعوه للبأساء والضراء

جمال الله في هذا المقام

يا الله ، خلقت آدم وبنيه بيديك ، وقلت لإبليس : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥] الخ . فأنت بخلقك له بيديك شرفته وعظمته ، وهذا الشرف وهذه العظمة ظاهرة واضحة في التكاليف التي كلفته بها ، فلم يقف التكليف عند الفرائض التي نزلت بها الأنبياء ، بل خلق الله للإنسان بإحدى يديه النور والهواء والجمال والنجوم والحيوانات النافعة ، وهكذا النباتات المثمرة ، وخلق باليد الأخرى الموت والحيوانات القاتلة الفاتكة ، فمن السباع إلى الذباب والناموس والحيات والعقارب إلى الذرات الفاتكة بالأجسام إلى ما وراء ذلك .

وهكذا نرى النبات يفتك به الكلأ والحشائش القاتلة له . يتأمل العاقل في هذه الدنيا ، فيرى هذا الإنسان يحوط بإحدى يديه النحل النافع لإلقاح الأشجار ، ويقتل بالأخرى أنواع السباع والحشرات . وهكذا يحافظ بإحدى يديه على القمح والقطن وأمثالهما ، ويقطع بالأخرى الحشائش والكلأ .

اللهم إنّ نظرنا في هذه الأرض جعلنا نفهم أنك خلقت الإنسان ليكدّ ويجدّ وبهذا يقوى على السير في عالم آخر ، وإلاّ فلماذا جعلت الذباب ينمو ونحن نقاتله ، ويحيط بنا من كل جانب ونحن والحوادث الجوية نبيده وهو لا يبيد ، ونقاتله وهو لا يزال في الوجود ، إنك بذلك فتحت بصائر الإنسان وعلمته التبيان وجعلته لا يهدأ ، ولو أنه هدأ لأحطته بالمهلكات . كل ذلك من رحمتك لأنك تريد رقي عقله وقواه ولا رقي لهما إلاّ بالجهاد في جلب النافع ودفع الضار ، وضعف النافع كالنحل وقوة الضار كالذباب يجعلانه دائماً يجاهد لتقوية الأول وإضعاف الثاني . إنك يا الله بهذا تريد نقلنا إلى عالم غير هذا تكون الحياة فيه على مقدار ما نلنا من القوة وما كسبنا من العلوم ، فالشر والخير والذباب والنحل جعلتهما لنا رحمة كما أمرتنا أن نقرأ بسم الله الرحمن الرحيم . انتهى المقصد الثالث من القسم الأول .

المقصد الرابع

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ

مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

التفسير اللفظي

يقول الله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ هل ينتظرون ﴿ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ﴾ أي إلا ما يؤول إليه أمره من تبيّن صدقه بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ ﴾ تركوه ترك الناسي ﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي قد تبين أنهم جاؤوا بالحق ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ ﴾ اليوم ﴿ أَوْ نُرَدُّ ﴾ أو هل نردّ إلى الدنيا، وجواب الاستفهام الثاني: ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ بطل عنهم فلم ينفعهم.

ولما كان ما تقدم من محاورات أهل الجنة والنار وأصحاب الأعراف ونعيم الجنة وعذاب النار راجعاً إلى اليوم الآخر المرتب على الإيمان بالله والكفر به، وكان التوحيد أجلّ ما يبنى عليه العالم المشاهد المحسوس، أعقب ما تقدم بما يذكر بعجائب السماوات والأرض الدالة على الله، فذكر خلق السماوات والأرض والاستواء على العرش وتسخير الشمس والقمر والنجوم وإرسال الرياح والسحاب وإنبات النبات المختلف الثمرات، وهذه الآية أشبه بآية: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الآية: ١٦٤] المذكورة في سورة «البقرة» وكأنها خلاصتها فارجع إليها هناك.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أي في ستة أوقات ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ والعرش في اللغة يطلق على السرير وعلى ما علا فأظلّ، وسمي مجلس السلطان عرشاً لعلوّه، ويكنى عن العز والسلطان والمملكة بالعرش على الاستعارة والمجاز، يقال: فلان ثلّ عرشه بمعنى ذهب عزه وملكه وسلطانه، و«ثم» للترتيب الذكري وإلاّ فالله عزّ وجلّ مستول على الملك أزلاً وأبداً، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ولذلك أخذ يبيّن الاستيلاء على العالم العلوي فأبان أعظم الأعمال التي نراها من ذلك الاستيلاء، وهو تسخير الشمس والقمر والنجوم وبهذه الحركات التسخيرية تكون جميع العوالم التي بها حياتنا وبقاؤنا، فلذلك قال: ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ يغطيه به، فيحتمل أن النهار يغشى الليل وأن الليل يغشى النهار، ولا جرم أن كلاً منهما يغطي الآخر بسبب جريان الأرض حول الشمس، فالوجه المقابل للشمس مضيء والمغطى عنها مظلم ﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ يعقبه حال كونه سريعاً، كالطالب له لا يفصل بينهما شيء، والحثيث: فعيل؛ من الحث ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ بقضائه وتصريفه بمقتضى استيلائه على الملك، ونصبها

للعطف على السماوات، ونصب «مسخرات» على الحال، ثم لخص ما تقدم كله في هذه الجملة: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ ﴾ راجع لقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ الخ، ﴿ وَٱلْأَمْرُ ﴾ راجع لقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ الخ. فالخلق وأمر الكائنات بيديه كما قال: ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾[الطلاق: ١٢]، ثم قال: ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تمجد وتعظم وارتفع، فانظر كيف ذكر أنه خلق السماوات والأرض في أوقات ستة بحيث أدار المادة اللطيفة المسماة بـ«الأثير»، وحركها في أزمان قديمة العهد جداً، فكان منها شموس وشموس ثم دارت الشموس، ومنها شمسنا آلافاً وآلافاً من السنين فانفصلت منها الكواكب السيارة، ومنها أرضنا، وانفصل القمر من الأرض ثم كان المعدن والنبات والحيوان والإنسان، فهذه هي الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض، فأولها الشمس، فالأرض ومعها السيارات، فالمعدن، فالنبات، فالحيوان، فالإنسان. هذه هي الأيام الستة التي خلق الله فيها عالمنا.

لطيفة

اعلم أن لفظة «يوم» قد وردت في علوم البابليين والآشوريين التي عثر عليها العلماء في المكتبة الملكية بقصر «آشور بانيبال»، ففي هذه الخزانة وجدوا أنهم قسموا منطقة البروج إلى اثني عشر قسماً وهي البروج، وقسموا الدائرة ٣٦٠ درجة، وهكذا الدقيقة والثانية الخ، والأسبوع سبعة أيام، ويقولون: إن تقهقر الاعتدالين في زمان ٤٣٢٠٠ سنة، ويسمون هذه المدة يوماً من الأيام العالمية، وجعلوا السنة الشمسية التي قدرها ٣٦٥ يوماً وربع يوم ثانية واحدة من السنة العالمية، ثم هم يقسمون اليوم العالمي إلى اثنتي عشرة ساعة، فتدبر تجد أن اليوم قد جاوز عشرات الألوف من السنين وهو اليوم العالمي. فاليوم في الآيات عبارة عن أزمان متطاولة نسميها أياماً عالمية لا أياماً معتادة فتعجب. ولنرجع إلى مقام التفسير فنقول:

وهانحن أولاء نشاهد الأمر يجري بين السماوات والأرض، فنرى الليل يغشى النهار والنهار يغطي الليل، ونرى القمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب: لا حريّة لكوكب أن يسير على غير نظام، فإذا كان هذا الخلق له وهذا الأمر له، أفلا يكون مستحقاً للتعظيم والإجلال فيقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ من العوالم السفلية والعوالم العلوية، وإذا كانت هذه صفات الله وأنه خلق هذه الكائنات واستوى على عرشها وسخرها ونظمها فلم يبق إلاّ أن يتوجه له عبيده بالدعاء، فلذلك أعقبه بقوله: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا ﴾ تذللاً من الضراعة وهي الذل ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ سراً ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ المجاوزين ما أمروا به في الدعاء وغيره بأن يرفعوا أصواتهم ونداءهم وصياحهم في الدعاء، وبأن يسألوا منازل الأنبياء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء» أخرجه أبو داود. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً أنه قال: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء؛ وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرّب منها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل». وهل الأفضل إظهار العبادات أو إخفاؤها؟ رأيان رجح الأول من نظر إلى الاقتداء بالعابد، ورجح الثاني من خاف عليه الرياء، وقال قوم الأول في الفرض والثاني في النفل، كالصلاة والزكاة فرضاً ونفلاً.

ولما أكمل الكلام على خلق العالم العلوي والسفلي أتبعه بوجوب الدعاء والتوجه لله بالقلب مع الخشوع والتضرع، وحرّم مجاوزة الحدّ وأمر بالخضوع والتذلل لمن هو المستوي على العرش المدبر للأمر عند ذكر العالم العلوي، أقول لما أكمل ذلك كله أمر بإصلاح الأرض وعدم الإفساد فيها قبل أن يبدأ بذكر الرياح والسحاب الجاريات حول الأرض الساقيات المزارع النابت بسببها النبات، وأخذ يصف البلد الطيب والبلد الذي خبث، فانظر كيف جعل عند كل عالم ما يناسبه، فإذا نظرنا للاستواء على العرش دعونا وخررنا ساجدين، وإن نظرنا إلى نظام أرضنا وسحابها ومطرها ورعدها وبرقها ونباتها وحيوانها، وجب أن نكون عادلين صادقين فنسعى لرقيّ الأمم حولنا ونظام حكوماتنا والانتفاع بخيرات هذه العوالم المحيطة بنا، فهو كما دبر ملكه وهو مستو على عرشه، مجر كواكبه، منظم لعوالمه أمرنا أن ندبر ملكنا بالعدل ونقوم بالقسط وإلاّ كنا مفسدين في الأرض مهملين غير شاكرين، وانظر كيف أمرنا هنا أن ندعوه خوفاً وطمعاً، لأن الأمر في العوالم الأرضية غيره في العوالم السماوية، ففي الأول لا عمل لنا في إدارة السماوات، فلذلك ترانا مضطرين إلى الخضوع والتذلل لمجري الكواكب فرحين بأعماله، وفي الثاني ترانا ندعو خوفاً من العقاب وطمعاً في الثواب، لأن المقام مقام عمل لا مقام علم، فبالعلم بما في نظام الملك خشعنا، وبالنظر للعمل في أرضنا دعونا خائفين تارة وطامعين أخرى، لأننا مكلفون بالنظام والقيام بالعدل واستخراج المنافع من عالمنا، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بالظلم والشرك والمعاصي والدعوة إلى الشر وإتلاف النفس بالقتل أو غيره وإفساد الأموال بالغصب والسرقة وأخذه من الغير بالحيل، وإفساد العقول بالخمر، والأنساب بالزنا، وإفساد الأديان بالكفر واعتقاد البدع والأهواء ﴿ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ﴾ بالعدل والإيمان والطاعات والدعوة إلى الخير ونظام الأمم والأفراد وحفظ الأعضاء والعقول وإرسال الرسل بالإحسان ومكارم الأخلاق ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ذوي خوف من الرد لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطمع في إجابته تفضلاً وإحساناً لفرط رحمته، ثم رجح جانب الطمع بالرحمة، فقال: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ شيء ﴿ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فمن أحسن عمله أو خلقه توالت عليه الرحمات، ومن أتقن صناعته أو زراعته أو عاشر الناس بالمعروف نشاهد الإقبال عليه يكون على قدر إتقانه، وكذلك الذين صبروا وعبدوا وصدقوا في العبادة، فهؤلاء تتوالى عليهم الرحمات والرحمة في كل عمل بحسبه، فإن كان جسمانياً كانت الرحمة من قبيله، وإن كان روحانياً كانت الرحمة من قبيله، فالرحمات على قدر الإحسان، إن الله حكيم في إعطائه يعطي على مقتضى الاستحقاق، فإذا لم يحسن المسلمون صناعاتهم أقبلت إليهم الأمم الغربية فأذاقتهم العذاب الهون، وإذا جهلوا الزراعة والتجارة ولم يحسنوها، أقبل عليهم أهل الغرب وأهل أمريكا وأنزلوا بضائعهم في أسواقهم وباعوها منهم، وأخذوا ما ملكت أيديهم لأنهم لا يحسنون صنعاً، ولا يقيمون للعمل وزناً، فيصبحون أذلاّء فقراء يتخطفهم المحسنون، وفي الأثر: «إن الله يحب المتقن عمله».

ثم أخذ يصف الرحمة العامة، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا ﴾ جمع بشيرة، وهي التي تبشر بالمطر، أي: مبشرات، وقرئ «نشراً» مخففة، كرسل ورسل، جمع نشور كرسول ورسل، أي: ناشرات للمطر ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ قدّام رحمته يعني المطر، فإن الريح تهب حاملة قطرات

الماء من البحار فتحفظها الجبال الراسيات من الجانبين، فلا تزال هابّة حتى تصل إلى الأماكن البعيدة فتسقي الزرع، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ ﴾ حملت ﴿ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ بالماء، وإنَّما جمعه لأن السحاب بمعنى السحائب ﴿ سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ أي لأجله أو لإحيائه وسقيه، ولن يكون ذلك إلاَّ بحفظ الجبال للهواء والسحاب من الجانبين ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ ﴾ بالبلد ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ﴾ بالماء ﴿ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ من كل أنواعها ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي كما أحيينا البلد الميت وأخرجنا من كل الثمرات نخرج الموتى بردّ الأرواح إلى أجسادها بعد جمعها وتنظيمها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على هذا ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ الأرض الكريمة التربة ﴿ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ بمشيئته وبتسييره حيث يكثر النبات ويغزر نفعه ﴿ وَٱلَّذِى خَبُثَ ﴾ كالأرض السبخة والحجرية والطبشيرية والجيرية وما أشبهها ﴿ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ قليلاً عديم النفع ونصبه على الحال، وتقديره: والبلد الذي خبث لا يخرج نباته إلاَّ نكداً، فهكذا الناس كالأرض لأنهم منها، فمنهم من هم كالأرض الطيبة فهم يعلمون ويعملون، ومنهم من هم كالأرض الخبيثة، فهم لا ينتفعون بالعلم ولا الدين. وفي الحديث: «إن مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنَّما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله عزَّ وجلَّ ونفعه ما بعثني الله تعالى به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله تعالى الذي أرسلت به» أخرجاه في الصحيحين، ثم قال الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي مثل ذلك التصريف نصرّف الآيات نردّدها ونكرّرها ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ نعمة الله وهم المؤمنون ليفكروا فيها ويعبروا بها وليقوموا بحقها فلا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، بل عليهم أن يكونوا صالحين عادلين، فهؤلاء هم الشاكرون. انتهى التفسير اللفظي للقسم الأول من سورة «الأعراف» وفيه عشر لطائف:

اللطيفة الأولى: قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾[الآية: ٢].

اللطيفة الثانية: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾[الآية: ٤] الخ.

اللطيفة الثالثة: الوزن والميزان.

اللطيفة الرابعة: نظام هذا القسم من السورة مع ذكر فرعين: وهما قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾[الآية: ٢٦] الخ، وإيضاح ما مضى من قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[الآية: ٣١].

اللطيفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[الآية: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ﴾[الآية: ٥٠] الخ.

اللطيفة السادسة: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[الآية: ٤٠] الخ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[الآية: ٥٠] الخ.

اللطيفة السابعة: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾[الآية: ٤٢].

اللطيفة الثامنة: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾[الآية: ٤٣].

اللطيفة التاسعة: أصحاب الأعراف وكيف يعرفون أهل النار وأهل الجنة بسيماهم.

اللطيفة العاشرة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[الآية: ٥٤] الخ.

اللطيفة الأولى في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾

لقد شرحت هذه اللطيفة في أول السورة وأبنت كيف كان أول هذه السورة مؤذناً بأن الإنذار والإرهاب حاصل فيها بهلاك الأمم الغابرة، وذلك تذكرة للمؤمنين وإنذار للكافرين.

ولقد تبيّن هناك كيف حلّ هذا الوعيد بالأمم الإسلامية، لما قست القلوب، وضلت العقول، وجهلت الأمم، وخربت الذمم، وتقاتل الرؤساء، وجهل المرؤوسون فلم يعرفوا كيف يؤدّبونهم، وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هو وما قبله من قوله: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ وما بعده من قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ الخ من تمام الكلام في آخر سورة «الأنعام». ألم تر في آخرها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الآية: ١٥٣]، وفيه أيضاً: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾[الآية: ١٥٨] الخ، ولا نطيل إيضاح هذه اللطيفة فقد استوفيت في أول السورة.

اللطيفة الثانية: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ الخ

قد وضحت في تفسير أول السورة.

اللطيفة الثالثة: الوزن والميزان

قد ذكر بعضه في هذه السورة، وقد تقدم في «آل عمران» وفي «البقرة» وفي «الأنعام» وفي مواضع شتى، ولكن لا بد من ذكر عجيبة جاءت في بعض الجرائد، وهي تبيّن أن الأرض تتنفس كما يتنفس الناس، وتنفسها في أوقات محددة، فهي في نفسها موزونة أيضاً فتعجب.

تنفس الأرض

هل تعلم أن الكرة الأرضية تتنفس مرة في نحو كل مائتي سنة، وأن تنفسها هذا ينجيها على الأرجح من الانفجار، لأن الغازات تتمدد في باطنها باستمرار، وعندما تتنفس تراها تتقلص من نواح وتتمدد من نواح أخرى، فينشأ عن ذلك خلل صغير في ضبط المواقيت، لم ينتبه إليه العلماء إلاّ منذ عهد قريب؛ فقد اتفق في أثناء حرب «البوير» أنهم أنبؤوا بقرب وقوع خسوف كلي، ولكن ذلك الخسوف لم يقع إلاّ بعد الوقت المعيّن بسبع ثوان. وحدث أيضاً بعد ذلك ببضع سنوات أن خسوفاً آخر تأخر عشرين ثانية عن ميعاده، فدهش علماء الفلك في العالم، وأجمعوا وشرعوا يبحثون عن السبب حتى انجلت لهم الحقيقة، وعرفوا أن تقلص الأرض وتمددها بسبب تنفسها هما سبب ذلك، فأخذوا يحسبون حساب أرصادهم ويضبطون المواقيت.

اللطيفة الرابعة: في نظام هذا القسم من السورة

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ الخ

وإيضاح ما مضى من قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ الخ

إن في نظام هذه السورة ولا سيما هذا القسم منها لعبرة لنا وتفهيماً.

انظر كيف ابتدأ السورة بالإخبار بالأمم البائدة والقرون الخالية ومن فاجأهم العذاب ليلاً أو نهاراً وهم يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ وكيف أتبعه بأن الميزان حق والنظام صدق، فمن غلبت حسناته فهو الفائز، ومن غلبت سيئاته فهو الهالك. ثم أخذ يقول ما معناه: أيها الناس، إنا مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش، فكفرتم النعمة وأبيتم الفضيلة، فكان شكركم قليلاً وكفركم كثيراً. ثم أخذ يصف ما كان من إبليس من براهين المغالطة والحجج السفسطية والكبر الجاهلي، وكيف أصبح بعد أن ضل وغوى موسوساً لآدم وبنيه، فخرج الآخر من الجنة كما سقط الأول من الصورة الملكية ومن السماوات العلية، ثم تاب آدم ولكن إبليس لا يزال شيطاناً رجيماً.

وكيف جعل سبحانه هذه القصة لنا عظة واعتباراً، لم يدع جزءاً من أجزائها إلاّ جعله درساً نقرؤه، وعلماً نفقهه، وحكمة نتلوها، وآية نعقلها، وعبرة نعتبر بها.

ألم تر كيف وعظ بني آدم ألاّ يفتنهم الشيطان كما فتن أباهم آدم من قبل، وكيف حذرهم من نزع لباس الفضيلة والأدب بوسوسته كما نزع عن أبيهم آدم لباس الجسم المادي، وكيف جعل ذلك عبرة للعرب الذين حرموا اللباس في الطواف بوسوسة الشياطين، ودعواهم أن هذا قربة لرب العالمين، وكيف كان أمثال هذا من مثار البدع والشكوك والأهواء منهياً عنها داخلاً في حوزتها جارياً على منهجها، وكيف كان تحريم الحلال والتحرّج من طيبات الرزق من خدع الشيطان. وذلك كله مبني على وسوسة إبليس لآدم ومشابه له ومماثل. وكيف كان سقوط المسلمين اليوم في الحضيض والجهالة العمياء والضلالة العوراء والنوم العميق والجرم العظيم مشبهاً لما حصل لآدم من الوسوسة، بل لما حصل للعرب الجاهلية الذين ظنوا العري قربى إلى الله في الطواف، كما ظنّ المسلمون اليوم ترك العلوم والمعارف والصناعات وترك حبل الأمور على غاربها من المقرّبات لذي الجلال والإكرام، وكما كثر من يدعو إلى ذلك من بعض رجال الصوفية الذين يعلمون أتباعهم مناهجهم ويفهمونهم أن طريقهم خير الطرق، بل ربما كفروا بقية المسلمين.

ولعمري إن هذا لهو الداء العياء والأمر العظيم. وسوس الشيطان لعرب الجاهلية فأعراهم في الطواف، ووسوس لمسلمي الشرق والغرب بقول بعض صغار العلماء وبعض ضعاف شيوخ الصوفية الذين هم ومن قبلهم من شياطين الإنس يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً أن العلوم حرام، وما أشبه ذلك من الضلالات والخرافات التي علقت بالأذهان، فليس يخرجها إلاّ نشر الحكمة والعلم والعرفان بين أمم الإسلام.

حكاية

لما حضر إلى مصر العالم «وان وين كين» من مدينة تاينتسن الذي أشرت إليه سابقاً، قال: لقد سبقنا الوثنيون وقالوا للمسلمين أنتم مخرّفون وليس عندكم إلاّ الحيض والنفاس والجهل والوسواس فأنتم لا تحفظون إلاّ علم الطلاق والميراث والبيع والهبة والقرض وما شاكلها من العلوم، فأما هم فإنهم يقرؤون العلوم بأنواعها من طبيعة وفلك وينقلونها عن أهل أوروبا. فأما العلماء في الإسلام هناك فإنهم يصدون الناس عن سبيل العلوم، ويقولون إنها حرام، ودين الإسلام لا يوجب أن نحب الأوطان ولا أن نعلم شيئاً عن بني الإنسان، ولا أن نفكر إلاّ في الركعات والسجدات والحج والزكاة

وما عدا ذلك فإنّما هو حديث خرافة. وقد كان كتاب «القرآن والعلوم العصرية» يطبع إذ ذاك فترجمه وكانت سورة «الفاتحة» من هذا التفسير تطبع فترجمها وأرسلها إلى بلاده. أفليست هذه الحكاية دلالة أن الشيطان أعرى المسلمين من العلوم كما أعرى الجاهلية في الطواف.

رأي المفسر

والذي أراه أن أمم الإسلام قد دخلت فيها أمم وأدخلت على عقائدها ما أصبح عالقاً بالإسلام وقواعده حتى أصبحوا كالبوذية في التزهد ودخل في الصوفية الصحيحة، وما شوّهها من الفواشي الغريبة فإن المتأخرين من الصوفية أحدثوا بدعاً أبعدت أصولهم عن الدين، وصاروا هم قادة الأمم الإسلامية لاحتلال الأمم الإفرنجية، اللهم إلاّ الصالحين منهم والصادقين الفضلاء أولئك هم الصالحون.

ثم انظر كيف ذكر الناس بأنه أنزل عليهم لباساً من الحرير والقطن والكتان، وقال: إن ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون. نعم، إنه من آيات الله، ألا ترى أن شعر القطن وحب الشعير كلاهما مكوّن من موادّ واحدة. ولما اختلف التركيب اختلفت الصور، فالبوتاسا في الشعير ٢١ في المائة تقريباً، وفي القطن ٥ في المائة، والصودا ٤ في المائة في الشعير، و٤ في المائة في القطن إلاّ قليلاً، والجير ٢ في الشعير، و١٥ في القطن، والمغنيسيا ٩ في الشعير، و٩ إلاّ قليلاً في القطن، وحمض الفسفوريك ٣٤ إلاّ قليلاً في الشعير، و٨ في القطن، وحمض الكبريتيك ٢ في الشعير، و٨ إلاّ قليلاً في القطن، والسلكا ٢٨ إلاّ قليلاً في الشعير، و٦ في القطن، والكلور أقلّ من واحد في المائة في الشعير، و٦ في القطن، وأوكسيد الحديد نحو ثمن الواحد في المائة في الشعير، وهو معدوم في القطن. هذا صنف واحد مما نلبسه وهو القطن قد وازناه بالشعير، وكلاهما يزرعان في حقولنا.

عجائب الجذور الأرضية النباتية

فتعجب كيف كان نبات القطن ونبات الشعير قد أعطي كل منهما فتحات صغيرات في الجذور، وهذه الفتحات قدّرت بقدر بحيث لا يدخل في فتحات جذور القطن ما لا يصلح للملبس، ولا في فتحات جذور الشعير ما لا يصلح للمأكل.

هل يعلم الناس ذلك؟ وهل يعلم الناس أن فتحات جذر الشعير لا تصلح لإدخال شيء من مادة الجير إلاّ نحو سبع ما تدخله فتحات جذور القطن؟ ولو أن جذور الشعير أخطأت فتحاتها فأدخلت من الجير فوق سبع ما أدخلت جذور القطن، لم يكن الحب شعيراً بل كان شيئاً فاسداً. فيا ليت شعري ما هذا الحساب؟ ما هذا النظام؟.

أيها المسلمون، هل كانت جذور القطن علامة دراكة فوزنت البوتاسا بحيث كان ما أدخلته في جرم شجرة القطن يبلغ نحو ربع ما أدخلته جذور الشعير؟ عجب لهذا النظام! أيها المسلمون، هذا هو دينكم، هذا هو الذي عناه الله في القرآن.

يقول الله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ فهذا هو اللباس. وكيف ينادي الله بني آدم ويقول: قد أنزلنا عليكم لباساً، وهو لا يناديهم إلاّ في الأمور العظيمة. لماذا ناداهم؟ ناداهم ليقول لهم: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾. ولقد عرفت في هذا المقام كيف كان من آيات الله بالعلوم الكيمية التي تقدم ذكرها.

إيضاح قوله تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾

أيضاً ذكرى أيام الشباب وطلب العلم

أذكر في هذا المقام ما كنت أفكر فيه أيام الشباب في نحو سنة ١٣٠٠ هجرية، ذلك لأنني كنت نلت في الأزهر قسطاً من العلم وهو النحو والفقه وشيء من التوحيد.

ومعلوم أن العادة جرت أن الصبي يحفظ القرآن صغيراً بلا عقل ولا فكر ولا فهم، فهاأنا ذا كانت هذه حالي؛ ففي تلك الأيام أيام أن دخل الإنجليز مصر انقطعت عن الأزهر ردحاً من الزمن، وهو ثلاث سنين، كنت في خلالها أقاسي متاعب ومرضاً ومشاقّ، وفي الوقت نفسه كنت أقوم بأمر الأسرة، وهناك تجلت لي هذه الحياة بمظهر لا يتسنى لي وصفه الآن، وقد وصفته في كتابي المسمى «التاج المرصع» وهو منتشر بالعربية واللغة الأوردية بالهند واللغة القازانية بالروسيا، ولكن الذي يهمني الآن ما يناسب هذه الآيات فأقول:

لقد كنت أصوم بعض الأيام وأصلي بالليل وأفكر في أكثر الأحوال في هذا الوجود، وفي صانع العالم، وما الدليل عليه، وهل العالم منظم؟ وإذا كان منظماً وعرفت ذلك نلت كل مطلوبي من حياتي. فليفكر الذكي في موقفي، لا علم عندي ولا علماء حولي ولا كتب تهديني ولا مدارس ترشدني، ولا أعرف إلا علم التوحيد، وعلم التوحيد بصورته في البلاد الإسلامية مبعد عن الحقائق إلا قليلاً، أخذ وردّ والقرآن في ناحية والناس في ناحية، وكنت أقول هل القرآن يترك نظام هذه الدنيا؟ وهل ديننا قاصر على هذه المشاغبات في علم التوحيد؟ وكيف يكون دين الفطرة؟ فصممت أن أقرأ القرآن بتعقل في الصلاة لأني كنت أردّد هذا البيت:

وصلاة الليل مسافتها فاذهب فيها بالفهم وجي

وكثيراً ما كنت أصلي ليلاً وأتممته في صلاة الليالي أشهراً لا أتذكر عددها الآن، وهاأنا ذا وصلت إلى ما أريد الآن، وذلك أني ليلة كنت أقرأ في الصلاة هذه الآيات: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾، وكنت كثيراً ما أكرر الآية عشرات المرات في نفس الصلاة مستحضراً المعنى، فأعجبني معنى هذه الآية وأدهشني كيف يوافق ما أراه في حقولنا. نحن نزرع الذرة والقطن بجانبه، القطن للملابس والذرة والقمح للمآكل.

عجباً ذرة تؤكل وقطن يلبس، كانت هذه الآراء تهجس في نفسي وأقول: إن في هذا القطن وفي هذه الذرة التي في حقولنا بمصر لسراً يدهشني أن ألبس من نفس الحقل وآكل منه، وكيف يكون هذا الطين مخرجاً لنا غذاء ولباساً. أهذا الطين يتحوّل ملبساً ويتحول غذاء يهضم، وهكذا كانت هذه المعاني لا تفارقني من وجهين: وجه الغاية منهما وهي ملابسنا ومآكلنا، ووجه التركيب في الخلقة، أي: إني أقول كيف اتفق أن الأرض صالحة لأن يتحول طينها إلى قطن وكتان الخ تلبس على الأجسام وإلى طعام وغذاء، ثم كيف ظهر أن هذا التحول للملبس والغذاء مناسب لحياتنا، فأنا في دهش من هذا الوجود، ثم أعود فأقرأ الآية في الصلاة فرحاً مندهشاً كثير التعجب كثير الحسرة على جهالتي والحزن على نفسي المسكينة التي لا تجد معلماً يرشدها ولا هادياً يهديها فيريها كيف تركب هذان النباتان وما الأجزاء الداخلة فيهما.

وهكذا تمر الشهور تلو الشهور وأنا على هذه الحال، وكنت لا أجد محيصاً من هذا إلاّ التضرّع لموجد هذا الكون ليلاً ونهاراً أن يرجعني إلى الجامع الأزهر، فأجاب الدعاء ووصلت لطلب العلم مدة كافية، ثم دخلت دار العلوم فدهشت أيضاً، إذ وجدت العلوم الطبيعية والفلكية هي هي التي كنت أبحث عنها وأنا أصلي، حتى ضجّ إخواني الطلبة من فكرتي، وتوجهوا إلى أستاذنا المرحوم الشيخ حسن الطويل، وقالوا: إن طنطاوي متهوّس في هذه العلوم التي أتى بها النصارى وهي كلام لا طائل تحته، فأجابهم قائلاً: دعوه يبحث عن ربه في سماواته وأرضه، دعوه دعوه. فكنت إذ ذاك أرى أن ما طلبته في الحقول وفي الصلاة هو عين ما يدرس في المدارس في العالم الإنساني كله.

أفليس هذا الذي ذكرته لك أيها الذكي يوجب عليّ أن أوضح للمسلمين أن القرون المتأخرة في الأمم الإسلامية كانت في نوم عميق، وأن الدين الإسلامي هو أمثال ما في هذا التفسير. أليس مما يؤلمني ويوجب الحسرة والأسى أن أرى أمماً تبعها أمم يتلاحقون ويحيون ويموتون وهو يقرؤون وأكثرهم لا يعقلون.

هاهي ذه حقيقة الإسلام. حقيقة الإسلام ما جاء في نحو هذا التفسير. ذكرت لك أن فطرة الإسلام هي مثل ما اتفق لي، فهل من المعقول أن يكون هذا دين أضعف الأمم قوة؟.

اللهم إني أبرأ إليك من الكتمان، وأعلم أني محاسب على كتمان هذه الحقائق، بل فوق كل ذلك من اطلع على هذا التفسير وشاركني في هذه الحقائق فهو مدين ومعاقب ومعذب في الدنيا والآخرة إن لم يفعل ما فعلته، أنا من بثّ الفكرة بين أمته على قدر إمكانه، وليعلم أن الله سيعينه وفوق ذلك يرى إكراماً وإجلالاً واحتراماً وعطفاً وحباً وودّاً.

أنا مسؤول عن نشر هذه الآراء، وأنت أيها الذكي المشارك لي فيها مسؤول. كيف يكون دين الإسلام العلوم التي بها ارتقت أوروبا وأمريكا والمسلمون لا يعلمون. عليّ وعليك أن نعمم الفكرة بين الأمم التي نعيش فيها، وهذا التفسير اليوم يقرأ بين يدي المسلمين في أقطار الإسلام، فإذا ذكرت قومك بما قرأته فيه، فلتعلم أن إخوانك في الأقطار الأخرى يذكرون قومهم بما يقرؤون فيه أيضاً.

واعلم أن هذه الفكرة ستعم سريعاً وسيتم ما أنبأتك عنه، وسيكون في الإسلام جيل وأجيال خير ما أقلت الأرض. فمن هذا المنبع فاسْقِ المسلمين، وعلى هذا المهيع فليجدّ المجدّون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. انتهى.

بهذا فليفسر القرآن. وبهذا وأمثاله فليرتق المسلمون. تمر قصة آدم على كثير من المسلمين وغيرهم في مشارق الأرض ومغاربها، ولكن القرآن يقول قفوا قفوا لا تتخطوا أيها الناس، ادرسوا نباتي وانظروه. ألم أقل لكم في أول السورة: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾[الآية: ٨]، أنا واحد ووزني واحد في الدنيا والآخرة، كما قلت: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾[الأنعام: ١٥٣]، فزنوا ذرات الملابس وذرات المآكل النباتية وتعجبوا من صنعتي حتى تحبوني وتتمنوا اللحاق بي فلا تغتروا بالأرض ومن عليها. ولما كان مقام الملبس ربما يصعب عليكم، ذكرت مباحثه بعد كلام الأرض والنبات والبلد الطيب والبلد الخبيث، واختلاف النبات تبياناً لما ذكر من الملابس النباتية في القصة الآدمية، والله هو الولي الحميد. وهنا نذكر الفرعين لهذه اللطيفة.

الفرع الأول: إيضاح: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا ﴾ الخ. تفصيل معنى: ﴿ عَلَيۡكُمۡ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ ﴾ الخ.

فقوله تعالى: ﴿ عَلَيۡكُمۡ ﴾ يفيد تخصيصه ببني آدم، وهنا ينظر في صفين وهما:

الصف الأول: أسد. ثور. طير.

الصف الثاني: الإنسان

هذان الصفان تراهما في الأرض وفي الجو، هاأنت ذا ترى الطير له ريش يقيه غوائل القيظ والزمهرير، وترى الأسد والثور كل منهما قد كفاه ما له من جلد وما عليه من أشعار، كفاهما الله وكفى غيرهما من دواب الأرض، حتى الحيات في أجحارها، والسمك في الماء، والحشرات في الخلاء. كل هذه كفاها الله ما خلق لها من فلوس على السمكات ووقايات مختلفات.

أما الصف الثاني فهو أمر عجب، أقول أمر عجب لأني نظرت وما أعجب ما نظرت، هذا الإنسان خلق عاري الجسم رقيق البشرة قلّ شعر جسمه، فماذا صنع الله به؟ صنع له نظاماً آخر وإليك مواده: (١) ادخر له في الأرض فحماً. (٢) وجعل قوة الكهرباء. (٣) وبذر القطن. (٤) وجعله واقفاً على رجلين. (٥) وله يدان تعملان. (٦) وله عقل يفكر. (٧) فعرف أن القطن والكتان والأوبار والأشعار والأصواف وقاية له. (٨) زرع القطن. (٩) جعل الله للقطن قوة بها ينبت مرة أخرى. (١٠) استعمل الكهرباء والفحم في إدارة الآلات لسقيه. (١١) وهكذا لحلجه. (١٢) ونقله بالتجارة. (١٣) وغزله. (١٤) ونسجه. (١٥) وخاطه. (١٦) ولبسه.

هذه ملابس الإنسان من تيل وقطن وغيرهما، وكذا الحرير، تعاون عليها الماء والأرض والحيوان والكهرباء والفحم. فانظر للإنسان عاري البدن رقيق البشرة كيف اضطر إلى جميع هذه الأعمال، ووجد كل ما يحتاج إليه، فلبس بعد كل هذا لينال ما ناله الأسد والثور والطير.

فانظر لحكمة مدهشة وآية عجيبة، حيوان ضعيف جعل ما يقوّيه في نفسه بالعقل وفي الآفاق فإنه نجدها تساعده، وهذا هو إيضاح قوله في أول السورة: ﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾[الآية: ١٠]، وإنَّما قلّ شكرنا لأننا كثيراً ما نذهل عن هذا الجمال الباهر والنظام المحكم. إن هذه آيات بحروف كبيرة ليقال كيف كان النظام سائداً، ولم رأينا الوجود كاملاً في خلقه، تاماً في نظامه. ما أجهل هذا الإنسان، يزرع المصري والأمريكي القطن وأكثرهم لا يعقلون إلاَّ ربحه في الثمن أو خسارته ونحوهما.

أما كون هذا النوع من الحكمة عجيب وغريب، وكيف اختص الإنسان بالعقل وجعلت أعضاء الحركة ملائمة للزرع وللغزل وللنسج، ووافقته العوالم الخارجة كلها وساعدته على إتمام لبسه، وكيف منع هذا العقل وهذه الأعضاء المطاوعة للعمل عن الثور والأسد والطير.

وكيف رأينا نظاماً محكماً في كل ما نشاهد من هذا الوجود، فإن الناس جميعاً لا يفكرون فيه إلاَّ قليلاً من حكمائهم. هم الذين تراهم على أرائك الحكمة متكئين، هؤلاء هم الذين يقرؤون هذا الوجود بلا حرف ولا كتاب فيرونه ناطقاً نطقاً أفصح من اللسان، قائلاً: تضافرت الأدلة وتكاثرت، بل أصبحت أشبه بالشمس المشرقة، فجللت وجه الأرض ولوّنتها بلونها الذهبي، بحيث أصبحت

البصائر في ضوئها اللامع أشبه بأعين الخفافيش تبهرها الأضواء اللامعة ولا يتجلى لها النور إلاّ في دجنات الليال وظلمات الآفاق.

إن هذا الدرس وحده، أي درس الملابس، بل درس الحكمة «لكم» وحدها، أي تخصيص الملابس بالإنسان في الآية وفي الطبيعة يعطي علماً جماً، وهو الذي عبرنا عنه بالنور الشمسي أن الناس يعرفون وجود أنفس الحيوان والإنسان بما ظهر لهم من الحس ومن الحركات، فإذا فقد هذان من الحي حكمنا بأنه ليس فيه نفس.

إننا لم نر نفساً قط، وإنّما حكمنا على النفوس التي في أجسامنا وأجسام حيواننا بآثارها. فإذا كانت أنفسنا وأنفس حيواننا ما عرفناها بأبصارنا، وإنّما عرفناها بعقولنا مستدلين بآثارها، وإذا كان هذا حكمنا على وجودنا، فهذا حكمنا بوجود مدبر حكيم لهذا العالم، وإذا كان حكمنا على وجود زيد، ودابة زيد، والطير في وكره، والأسد في عرينه، بما ظهر من آثار أرواحهم حكماً لا يشوبه شك، فكيف يكون حكمنا على هذا الحيوان الكبير الذي نعيش فيه، وهو المجموعة الشمسية التي رأيتها مرسومة مصوّرة مفهومة في سورة «الأنعام»، هذه المجموعة التي نحن وأرضنا جزء منها فيها آلاف وآلاف من الحكم التي رأيتها في القطن والكتان واختصاصهما بالإنسان.

فكل هذه ناطقات شاهدات بحكمة نظمت وقدرة بها أبرزت هذه العجائب. إن الشواهد الناطقة بالحكمة العامة والتدبير المحكم لا عدد لها، وأي نسبة بين حيوان عرفته بآثار جسمه وبين منظم الكون الذي رأينا له آثاراً لا تتناهى ونعماً لا تحصى.

سهل على عقل الإنسان أن يفهم وجود زيد وحيوانه، لأنه صغير فهم الصغير، ولكنه قد يعسر عليه فهم خالق العالم، لأنه عظيم ودلالاته لا نهاية لها، فبهرت بصيرته، فصار يبحث عن هذا الخالق في ظلمات البراهين، والمناقشات والكتب أن جميع ما نطقت به الأدلة المنطقية والعلوم الوضعية المكتوبة بالحروف اللفظية أشبه بظلمات الليالي والناس فيها خفافيش، فأما الدلائل التي عرفتها هنا فهي أشبه بالنهار، فغابت عن العقلاء فتاهوا في البيداء.

هذا ما وقر في نفسي عند طبع هذا السورة أثبته ليكون تبصرة لأولي الألباب. إن هذا هو الحب والشوق والعشق والغرام والهيام. هذا هو المقام الذي فيه تذوب القلوب حباً وهياماً. وهذا هو المقام الذي يقال فيه: إن طلبنا أن نرى نفس الصانع لا مجرد الصنعة، وهاهنا يضمحل جمال الجنات، وتختفي أنواع اللذات إلاّ لذة النظر إلى الذات الواجب للوجود، وهذا مقام الحكماء والأولياء. قال الشاعر:

إذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى
وكل يدّعي وصلاً لليلى وليلى لا تقرّ لهم بذاكا

وهذا هو الفرع الأول من فرعي هذه اللطيفة في إيضاح قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

الفرع الثاني من اللطيفة الرابعة: زيادة إيضاح لما مضى في قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

لقد تقدم الكلام على جسم الإنسان وتشريحه مراراً في هذا التفسير لا سيما في سورة «آل عمران»، ولكن لا بد لنا من جملة وجيزة توضح مجمل هذا البدن، ثم نتبعها بجملة أخرى في أطعمته إجمالاً، وفيما يضرّ منها، زيادة للفائدة، فأقول:

إن البدن الإنساني كله قوامه الهيكل العظمي وأهمه العمود الفقري الذي ينتهي بالجمجمة الكاسية للمخ الذي تتفرع فيه أعصاب الحس وأعصاب الحركة، وفي هذا العمود الفقري تغرس الأضلاع المنحنية المكوّنة لما يشبه صندوقاً يحتوي على القلب والرئتين، وتحت هذا الصندوق البطن، وفيه المعدة والأمعاء والكبد والكليتان. ثم إن هذا الهيكل يمتد منه الرجلان من أسفل واليدان من أعلى، فبالرجلين تسعى لجلب الطعام، وباليدين نتناوله ونضعه في الفم، وتتناوله الأسنان بأنواعها وتطحنه كما تفعل الطواحين التي صنعها الإنسان ليصلح أن يدخل في المريء الموصل إلى المعدة، فيستقر هناك زمناً ما ويهضم حتى يصلح أن يكون دماً.

ولما كانت الآلة البخارية الطاحنة مثلاً لا بد لها من وقود، هكذا كانت أجسامنا، فهذه الآلة الجسمية يجب أن يقدم لها الوقود، وما هو إذن؟ هو الطعام. إن الجسم ليس موقداً توقد فيه النار حقاً، ولكن فيه الطعام الذي يدفئنا بلا دخان ولا نار، وينقلب دماً يجري في شرايينا، فينتشر من القلب إلى جمجمة الرأس وإلى نهاية أصابع اليدين والرجلين. وما القلب إلاّ كالآلة الماصة الكابسة، فهو يجذب الدم إليه، ثم هو يدفعه دائماً، ولن يدوم القلب في حركته التي لا نعيش إلاّ بها، إلاّ إذا استوفينا شروطاً لا بد منها لذلك الدوام فضلاً عن الطعام، كالهواء النقي والضوء والرياضة البدنية.

إذا تم هذا كله فإن الفضلات لا بد من إخراجها وهي تخرج بالجلد والكليتين والرئتين والأمعاء، فبالجلد يخرج العرق، وبالكليتين يخرج البول وبالرئتين يخرج الكربون، أي المادة الفحمية، وبالأمعاء تخرج الفضلة الغليظة.

ومعلوم أن الكليتين يأخذ الماء عنهما الحالبان، وهما يوصلانه إلى أحد السبيلين. إذا عرفت هذا وقمت بما يوجب صحة بدنك، ومضغت الطعام جيداً، ولم تر في ذلك أيّ ضرّ، فإنك تكون في صحة جيدة، ولكن لا يتم ذلك إلاّ بخمسة أمور، وهذا بيانها:

(١) أن تكون مسروراً بما حولك وبعملك.

(٢) وأن تكون آراؤك وأميالك موزونة لا مضطربة.

(٣) وأن تكون قانعاً بما لديك من أمور هذه الدنيا.

(٤) وأن تكون صابراً عند الملمات والحوادث المزعجة.

(٥) وأن تجعل لك في وقت فراغك عملاً مقبولاً، لأنك إذا تركت نفسك لحظة تنازعتها الأهواء فضلت فأحزنتك فمنعت الصحة.

اعلم أيها الذكي أن الفقير تعينه الصحة على جلب القوت، وإذا فقد الصحة الغني والفقير فقد فقدا السعادة والسرور. فالصحة شرط للسعادة، متى صحّ جسمك نفعت نفسك ونفعت غيرك وكنت سعيداً، فإياك أن تأكل فوق الشبع مثلاً، أو تعرض نفسك للبرد، أو تأكل ما يضرّك، بل عليك بالنظام الذي يشير به الأطباء.

إن الدم الجاري في الأوعية الدموية يعوض ما تفقده كما تقدم؛ فمنه يكون العظم والشحم واللحم والظفر والشعر والعين والأذن وما شاكل ذلك، فإذا اختلفت الأعضاء وجب أن يختلف الغذاء والخبز عماد الحياة وقوامها، فإنه يحتوي على مادة اللحم، والمادة التي تحدث في الجسم حرارة، ومن الأغذية الفاكهة والخضر واللبن والبيض.

ثم إن الملح في الطعام وبعض المعادن الأخرى التي تدخل في الأطعمة كلها يتكوّن منها العظم، فكان هذا النوع الإنساني إذ يميل إلى الملح في خبزه وفيما يطبخه من الخضر واللحم يعمل لتكوين عظمه وهو لا يعلم لماذا دام هذا الاصطلاح في الناس.

واعلم أن الناس لما اتفقوا على أن يطبخوا ويخبزوا ويغلوا الطعام، لم يكن ذلك عبثاً، فهذا فضلاً عن جعله الطعام مقبولاً في ذوقنا يجعله أقرب إلى الهضم وأسرع دخولاً في الأوعية الدموية.

مناقضات الصحة وموجبات العلل والأسقام

الطباق وتسميه الفرنجة «توباكو» سموه باسم جزيرة «توباجو» إحدى جزائر «انتيلة» بأمريكا، قد اعتاد الناس تدخينه، وحرّم جميع الأطباء استعماله، وقد شرحنا هذا المقام في سورة «البقرة» عند آية الخمر بإيضاح تام، وكذلك شرحنا مسألة الطعام عند قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[الآية: ٦١] الخ، فقد أفضنا في هذا المقام هناك وبينا أن أكثر ما اصطلح عليه الناس أنه حسن، هو ضارّ بهم كالسكر الصناعي المعروف، فقد أشار الأطباء بالإكثار من الفواكه بدله لأنه ضار، وقد عملت بهذا ووجدته حقاً.

وهكذا مما لا نعيده هنا، وإنّما نريد أن نشرح مسألة الطباق «الدخان» شرحاً أوسع لم نذكره هناك، وإليك موادّ أضراره بالصحة العمومية، وهاهي ذه:

إن أكثره (١) يفسد الريق. (٢) ويضر حاسة الذوق والشم والبصر. (٣) ويضعف المعدة. (٤) ويقلل شهوة الطعام. (٥) ويهيج الأنسجة الهوائية في الرئة. (٦) ويورث الخفقان في القلب. (٧) ويضعف الأعصاب. (٨) ويجعل في المخ ارتجاجاً وتخديراً. (٩) ويجعل الذاكرة ضعيفة. (١٠) ويضعف القوة المفكرة. (١١) وقوة الإرادة. (١٢) وربما يحدث الجنون. (١٣) وتارة يحدث الرمد في العينين. (١٤) وفي المجموع العصبي يجعل فتوراً. (١٥) ويعيق الجسم عن النمو. وقد حلله الأطباء كيماوياً فوجدوا أنه يحتوي على مادة سامة إذا وضع منها خمس نقط في فم كلب مات في الحال، أو عشر نقط في فم جمل كفت لقتله. وهاك حكاية:

أكثر طبيب من النصح لرجل كان يدمن تعاطي التدخين، فلم يزدد المريض إلاّ غراماً به، فبينما هو سائر ذات يوم إذ رآه الطبيب يسعل، وهو لا يستطيع المشي ولا أي عمل إلاّ ببطء، وقد أصبح يحمل العصا لتعينه، فقال الطبيب له: لقد صدق من قال: الذي يفرط في استعمال الطباق لا يسرق متاعه لص ولا يعضه كلب ولا يبيضّ له شعر. فلما استفهم المريض عن سبب ذلك، قال الطبيب: لأنه يسعل الليل كله لمرضه، فيظنه اللص مستيقظاً فلا يسرق منزله، وعصاه التي يتوكأ عليها تحرسه من الكلاب، وهو يموت في ريعان شبابه فكيف يبيضّ شعره وقد ضمه القبر، فاعتبر المريض وتحمل فراق الطباق وعاش قرير العين. اهـ.

ويلحق بالدخان الأفيون

هو عصير الخشخاش يحصر منه قبل تمام ثمره، فإذا يبس تراه أسود اللون مرّ الطعم وهو خطر شديد يورث إخلال العقل، فيهذي الإنسان ولا يعقل ما يقول. ومتى ملكت هذه العادة الإنسان أصبح في عبودية لها لا تطاق، ومثل ذلك أيضاً ما يسمى:

الحشيش

وهو مخدر مزعج شديد الفتك بالأبدان والعقول. وهو من نبات ينبت في البلاد الحارة، وتستعمله الطبقات المنحطة في بعض البلاد كبلادنا المصرية، والحكومة تراقبه مراقبة شديدة وتعاقب من يتعاطاه بالحبس، وهو سم مهلك لمن استعمله إلاّ من تاب. وأنا أسأل الله أن يجعل ما أكتبه الآن مثالاً ينسج على منواله المسلمون وينشرون مضارّ هذه السموم بينهم، حتى يخرجوا من عداد المذكورين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾، فهذا كله من الإسراف المذكور في الآية، وإن هذا البيان الذي ذكرته تشمله الآية وتشمل غيره، فالمسلم الذي يتعاطى الدخان أو القهوة أو غيرهما، مما هو أشد فتكاً كالشاي والخمر والحشيش والأفيون، أو أقل فتكاً مثل الكاكاو وغيره، معدود من المسرفين، ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾، ولما قلّ حب الله لنا بسبب تعاطي هذه المضار سلط علينا الأمم، فهو لا يحب أكثرنا لجهلنا بأمرين: القرآن وعجائب صنعه، لأنهما متفقان إذ كلامه يوافق عمله. والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ ﴾ الخ

فقوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴾، اعلم أن الناس إذا ماتوا فقد درجوا على طباع ألفوها وأخلاق سلكوها وعوائد عرفوها وأحوال اقترفوها. وكل فريق مغرم بما جبل عليه، محب لما خلق فيه من صلاح وطلاح وكمال ونقص وفضل وجهل، كل يعمل على شاكلته، فإذا ماتوا رجع كلّ إلى مشربه وحنّ إلى مألفه وفرح بما عنده. وروي عن ابن عباس أن الله عزّ وجلّ بدأ خلق بني آدم مؤمناً وكافراً، كما قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ ﴾ [التغابن: ٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً. وروى جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يبعث كل عبد على ما مات عليه» أخرجه مسلم. وزاد البغوي في روايته: «المؤمن على إيمانه والكافر على كفره».

وهذا هو الذي ورد في علم الأرواح في الوقت الحاضر، فإنهم أثبتوا أن روح الإنسان تبقى فيها أخلاقها وآدابها وأعمالها، وذلك كله تام غير منقوص. ويحسن أن أنقل إليك أيها الذكي ما سطرته في كتاب الأرواح لتعجب من مطابقة الكلام النبوي والقرآن لعلوم العصر الحاضر، وهذا نصه:

مطابقات للشريعة الإسلامية الغراء

ثم قلت: أليس هذا يا «شير محمد» من العجب العجاب، أوليس حديث «ديكنس» السابق هذا يومئ إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ

لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨]، وقوله: ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ [الكهف: ٤٨]، وقوله: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤]. فقال «شير محمد»: أما حديث «ديكنس» فهو عجيب إن صح، بل هو أعجب ما سمعنا، وأما هذه الآيات فلا أدري ما موقعها، وأي علاقة لعرض جهنم على الكفار يوم القيامة وعلى الله، وقراءة الإنسان كتابه، لما في حكاية «ديكنس» من نمط الإنشاء وخطأ الإملاء. فقلت: اعلم يا «شير محمد» أن هذه الآيات فيها دلالة واضحة أن كل عمل نعمله واعتدناه يصبح فينا سجية وغريزة ثابتة، فلا ينزعه من الموت، وإن «ديكنس» لم يقتلع الموت منه خطأ الإملاء وأبقى عنده حسن الإنشاء. ولا جرم أن كل ذنوبه وأعماله من الخير والشر بقيت في نفسه يحاسب عليها ويعاقب، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨]، لأن الغريزة لا تقاوم كما لم يمكن إصلاح الإملاء بعد الموت عند «ديكنس»، وهكذا كل ذرة من الخير والشر حاضرة عندنا باقية في نفوسنا هي هكذا لم تتغير، فلا يغادر الله صغيرة ولا كبيرة من أعمالنا، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكفى بنفسنا حسيباً علينا. وإذا قلنا: ﴿ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أجابنا: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧] ويقول: لو رددتكم لعدتم لما نهيتكم عنه، وأنتم تكذبون كما كنتم تكذبون في الدنيا بنقض عهدي بعد مرض يصيبكم أو فاقة تنتابكم أو نازلة تمحقكم، فلا عهد لكم عندي.

يا «شير محمد»، إننا غافلون عن نفوسنا في هذه الدنيا، ولقد أفلح المؤمنون الذين هم في آيات ربهم يتفكرون، ولأذكرك بالحديث الصحيح الشريف: «يبعث العبد على ما مات عليه»، وقال الشيخ محمد الزرقاني:

وتحشر أطفال وسقط كمثل ما يكونون عند الموت ثم تكمل

وقال في شرحه للنظم: هل يحشر الطفل والسقط بصفته وقت الموت أم لا؟ جوابه: قال الحافظ ابن حجر: كل واحد من أهل الموقف يكون على ما مات عليه.

أقول: ألست ترى يا «شير محمد» أن كلام النبوة صريح في أن الإنسان حافظ لأخلاقه وآدابه حتى يحشر عليها؟ أليس هذا بعينه ما في حكاية «ديكنس»، وأنه قد حفظ أخلاقه في أسلوب الإنشاء وخطأ الإملاء. وهكذا يقاس عليها سائر أخلاقه التي يحشر عليها، إلاَّ أن هذه الأخلاق النابتة فينا بعد الموت أعدل ناقد وأكبر شاهد كمنت فينا فأظهرها الله. ألا وإن العادات المغروسات فينا بالتكرار لن تزول بل تبقى خزياً علينا وعاراً وفضيحة يقرؤها الناس في صحائف أرواحنا ويكون عذاب الخزي. فليقلع المرء عن عاداته وليوطد النفس على منابذة الهوى ومحاربة العادات الذميمة، فإنها برسوخها فينا تشهد علينا.

أوليس الخطأ في إملاء «ديكنس» شهد عليه بذلك؟ أليس هذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤]، وقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥]، وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ

كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فصلت: ٢٠-٢٢]. اهـ.

اللطيفة السادسة: قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الخ

اعلم أن هذا المقام قد استوفيناه في سورة «آل عمران» بما لا مزيد عليه، فالمدار في هذا الوجود على الاستعداد، فالنفوس الغليظة التي لا تعرف إلاَّ المادة ولا تقدّس إلاَّ الأجسام، ولا قدرة لها ولا ميل إلى صفاء النفوس وتهذيبها وترقيتها، لا تقدر على العروج إلى الدرجات العالية والسماوات الصافية، بل تبقى في عوالم منحطة على مقدار طاقتها، كما مثلنا لذلك مراراً بأحوالنا الدنيوية، فليس منا أحد يقدر أن يطير في الجوّ، ولا أن يعيش في البحر، بل حكم علينا أن نبقى على وجه الأرض، ومن لم يتعلم الهندسة لا يقدر أن يجاري المهندسين، ومن جهل البناء لا يوكل له بناء البيوت، هكذا في الآخرة يجد الإنسان في نفسه مانعاً من الصعود إلى المقامات الرفيعة متى كان ليس أهلاً لها، كما يمنع في الحال الجسمية من الطيران في الهواء، مع أن الهواء مباح مبذول للجميع، وليس المانع هو الهواء ولا خالق الهواء، ولكن المانع استعداد الإنسان، ومثل ذلك يقال في قول أهل الجنة إلى أهل النار لما قالوا لهم: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، وليس ذلك التحريم إلاَّ استعداد نفوسهم وضعفها عن تلك المنازل الرفيعة إذ يجدون روحاً وريحاناً ويشربون ويأكلون.

اللطيفة السابعة: قوله تعالى: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾

لقد تقدم الكلام عليها في سورة «البقرة» فراجعها هناك فقد شرحتها شرحاً وافياً يشمل العلوم الواجبة على الأمة الإسلامية وعلى نظام التدريس فيها.

اللطيفة الثامنة: قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾

في البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن الله لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا» اهـ.

فتأمل هذا الحديث فإنه موافق للقرآن وللحقائق العلمية، فذكر الاقتصاص وكيف يأخذ كلّ حقه، وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾.

وانظر كيف يقول: «إنهم يحبسون على قنطرة بين الجنة والنار» الخ، ويقول: «حتى إذا هذبوا ونقوا أذن الله لهم في دخول الجنة».

فاعلم أيها الذكي أن هناك من الأمور المغيبة وراء هذه الألفاظ ما لا نعلمه الآن، فالجنة لن يدخلها إلاَّ من تأهّل لها بالعمل كما تأهّل الطير باستعداد جسمه إلى الارتفاع في الجو. هذا هو الحقيقة فإذن نزع الغلّ والحقد لا بد منه قبل دخول الجنة، وما دام الحقد باقياً والعداوات متراكمة فلا جنة ولا نعيم. وكيف يتنعم الإنسان والعداوة كامنة في صدره، وأهل الأرض معذبون بالعدوان في الدنيا، فمن

مات على ذلك بقي معذباً به، فكيف يفرح بالجمال المحيط به وقلبه بالعداوة مشغول، وكشف هذا المعنى في علم الأرواح بأوروبا، فقد جاء في كتاب الأرواح في ترجمة كتاب «برايفت داودينج» قال: ألا وإن جهنم دار خداع وضلال، ألا وإن من أنس بالحواسّ وصدّق أنه لا وجود إلاّ ما صورته ولا حياة إلاّ ما نسجته، فاغترّ بغرورها واستضاء بنورها وفرح بجمالها، فذلك مخدوع يوم يلقى حتفه. ومن ذا يقدر أن يرجعه عن غيه وهو يقول: يا ليتني أردّ فأقاتل الأعداء وأواسي الأصدقاء وأقضي الوطر وأستلذّ بما تسعد به الحواسّ من المطاعم والمشارب والمآرب، هنالك تثور فيه ثائرة الحزن والأسى على ما فاته، وتحيط به خطيئاته من الحسد والغشّ والعداوة والبغضاء والطمع والكبرياء وحب الذات والحقد وصغر الهمة ﴿ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[المطففين: ١٤] وهناك مطهرة أنا الآن فيها، يخرج المطهرون فيها إلى العلا، وقليل من الناس يأبونها. ألا وإن الناس فريقان: فريق عرف أن هناك حياة روحية فعمل لها، وآخر عكف على إرضاء أهوائه وسدّ شهواتها. فالأولون هم الناجون، والآخرون لا يسمعون نصحاً، ولا يذرون ما اعتادوه في الحياة من المطامع والشهوات. ولما أن حللت بساحة جهنم، قال الرسول: لن تقدر أن تخترق تلك الآفاق المظلمة، فمكثت مكاني، وتقدّم أخي والملك حتى وصل إلى ذلك الجندي لينقذاه، ولكنه أبى أن يفارق الجحيم، لأن الهلع خلع قلبه أن يغادر مكانه حتى لا يصيبه ما هو أشد من العذاب، فالخوف والجهل أعمياه، ولو عرف الحب لكان من الناجحين. فانظر كيف ذكر أن هناك مكاناً للتطهر الذي عبّر عنه بالمطهرة ـ بكسر الميم وفتحها ـ وقال السدي في آية: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾: إن أهل الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غلّ فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم الحديث؛ فتعجب كيف تقول الأرواح إن عندها ماء تتطهر به لتزيل الحقد من القلوب، وكيف كان هذا مصداقاً للحديث.

اللطيفة التاسعة
في أصحاب الأعراف وكيف يعرفون الناس بسيماهم

لقد عرفت أن أصحاب الأعراف هم أعاظم الأمم، وهؤلاء يعرفون كلاً بسيماهم، وفي الحقيقة أن أكابر الحكماء والأنبياء والعلماء يعرفون اليوم كلاً بسيماهم، فمن هم أصحاب النار ومن هم أصحاب الجنة؟.

اعلم أن أصحاب النار واضحون لذوي البصائر في الحياة الدنيا، ففي الحديث: «أنت مع من أحببت»، فمن أحبّ المباهاة والمفاخرة والمكاثرة والمغالبة وأحاديث الباطل والزور والأكاذيب والظلم فهو في الحياة لا قرار لراحته ولا سعادة لقلبه ولا هناء لعيشه ولا صفاء لضميره، فهو متقلب في الشقاء يظن القلق راحة، والاضطراب صفاء، وهو أبداً قلق معذب كثير الهموم والأحزان، يرضى من السعادة بالرياء، ومن الحياة بالخيال، ومن الراحة بالخبال، فهو أبداً في همّ مستطير وألم مقيم وعذاب دائم، والناس يرونه سعيداً وهو شقيّ، قريباً وهو بعيد، فمن هذه حاله إذا مات لا تفارقه صفاته، وتبقى روحه معذبة أبداً حتى تغيّر حاله بحال أخرى، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[الرعد: ١١].

فأما أهل الجنة فإنك تراهم من الذين هدأت نفوسهم وصفت أرواحهم، وهم ساكنون هادئون قد كفوا الناس شرهم، وضمائرهم في راحة، وقد اتسموا بالصبر والفضيلة والعفة، وعيشهم أشبه بالكفاح، لا كثرة تطغيهم ولا قلة تقلقلهم، ولا ظلم يضعف بصائرهم.

فأهل الجنة يعرفون بسيماهم وأهل النار يعرفون بسيماهم. فالنفوس المائلة للعلوم والمعارف أقرب إلى الجنات. والنفوس المنهمكة في جمع المال وفي الوظائف أقرب إلى أهل النار، وهناك منازل بين الطائفتين ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾[الإسراء: ٧٢] فالنفوس في الدنيا هي النفوس في الآخرة، وخير النفوس من عملت لمنفعة الجميع وأحبت النوع الإنساني، وكانت مغرمة بالعلم وترقية الجميع، فهذه أقرب إلى الجنات وأبعد عن النيران، ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ٢١٣].

اللطيفة العاشرة: في قوله تعالى

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ﴾

لقد ذكرت في تفسير الأيام الستة ما يناسب العلم الحديث، ولا تظنن أن الذي قلته هو المتعيّن، وإنّما هي صورة من الصور المحتملة، فإنا نعلم أن هناك المادة الأصلية للكائنات وهي الأثير، ثم كانت شموس وأرضون ومعدن ونبات وحيوان وإنسان، فهذه ستة أعمال في ستة أزمان.

ويقال: إن أول ما خلق الله القلم ثم اللوح، فكتب فيه ما كان وما سيكون وما خلق وما هو خالق إلى يوم القيامة. ثم خلق الظلمة والنور، ثم خلق العرش، ثم خلق السماء من درّة بيضاء، ثم خلق التربة، ثم خلق السماوات وما فيها من نجوم وشموس وقمر، ثم مدّ الأرض وبسطها من التربة التي خلقها أولاً، ثم خلق جميع ما فيها من جبال وشجر ودواب وغير ذلك، ثم خلق آدم آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة، وفيه أهبط إلى الأرض، فتكامل جميع الخلق في ستة أيام كل يوم مقداره ألف سنة، وهذا قول أكثر العلماء.

أفلست ترى أن هذا الحديث أقرب إلى ما كشف في العلم الحديث، وذكرته في سورة «الأنعام» في أولها، أفلا ترى أن قوله: خلق السماء من درّة بيضاء، أقرب إلى خلق جميع الشموس من الأثير الذي لا يرى، وقوله: ثم خلق التربة، إشارة إلى انفصال الأرض وجميع الأرضين من الشموس وجميع السيارات التي بردت بعد مدة، فاستعدت لمادة التراب، والشموس لا تزال حارة، وقوله: ثم خلق السماوات وما فيها من نجوم وشمس وقمر الخ، إشارة إلى نظام الشموس في دورانها وتنظيمها، وقوله: ثم مدّ الأرض وبسطها من التربة، إشارة إلى ما حدث في الأرض من الطبقات المذكورة فيما تقدم في «الأنعام» من صوّانية إلى فحمية وهكذا، وقوله: خلق جميع ما فيها من جبال، إشارة إلى علم المعادن الذي في الجبال الذي هو مقدم على النبات الذي أشير له هنا بالشجر وهو مقدم على الحيوان وهي الدواب المذكورة هنا، ثم في آخر الأمر خلق آدم.

فهذا الحديث على وجه التقريب أقرب إلى الكشف الحديث، ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ٢١٣].

بهجة العلم والحكمة والنظام والسلام العام في قوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا ﴾ الخ

سأريك أيها الذكي في هذا المقام عجباً عجاباً، وذلك في نظام المطر والرياح، وكيف كانت الكرة الأرضية كلها متصلة متضامنة متحدة، والناس يقرؤون وكأنهم لا يقرؤون، ويعلمون ولكنهم لا يشعرون أنهم يعلمون.

أنت تعلم أن الهواء لا يكون رياحاً إلاَّ بسبب، وذلك السبب هو الحرارة الشمسية، وآية ذلك أننا نوقد النار في تنورنا في منازلنا فيخف الهواء في داخل المنزل ويلطف فيعلو إلى الجو ويحل محله الهواء الذي هو خارج القرية، فنرى في الحال تياراً يجري إلى داخل المنزل، وذلك التيار جاء خاصاً بهذه الحادثة. هذه حادثة تمر على الناس في منازلهم وهم لا يعلمون، وعلى هذه القاعدة ننظر في الأرض كلها، أي في نصف الكرة الشمالي ونصف الكرة الجنوبي، فماذا نرى؟

نرى هذه المسألة وأمثالها تظهر في قارة آسيا وقارة أستراليا

إذا حلّ زمان الصيف فإن داخل بلاد آسيا يكون حاراً، فترتفع درجة الحرارة تبعاً لشدة حرارة سطح الأرض، وهناك تتدافع الرياح من المحيط إلى القارة كما رأينا تياراً يدخل منازلنا لما ارتفعت الحرارة في التنور لخبز العجين، فهذه الرياح المتدافعة تهبّ على الهند والهند الصينية والصين، وهناك تكون أمطار غزيرة، وتقف الجبال في طريق المطر فتصدّ الأمطار عن الدخول إلى أواسط البلاد الجافة، وكما رأيت صيف آسيا هكذا ترى صيف قارة أستراليا، فإنه أيضاً يكون داخل القارة فيه شديد الحرارة فتهبّ هناك رياح شمالية غربية تحمل الأمطار، وهذه الرياح هي تلك الرياح التي تهب على الهند في ذلك الوقت نفسه الذي هو شتاء هناك.

فصل الشتاء في آسيا وفي أستراليا

ومثل ما رأيت آسيا وأستراليا في الصيف هكذا تراهما بعكس ما تقدم في الشتاء. ذلك أن كلاًّ منهما يكون وسطه شديد البرودة، فماذا يكون؟ تتجه الرياح من الداخل إلى أطراف القارة في الجهتين. ومعنى هذا أن أستراليا في زمن الشتاء وآسيا كل منهما يبرد وسطه، فمتى برد الوسطان كان هناك شتاء مع العلم بأن ماء البحر في أطراف القارتين يعلوه هواء أدفأ مما في وسط القارة. وقد قلنا إن الحرارة بها يرتفع الهواء فيحلّ محله الهواء البارد، وعلى ذلك تجري الرياح من داخلهما إلى خارجهما في شتاء كل منهما. ومعلوم أن شتاء أحدهما هو صيف الآخر، فصيف النصف الشمالي من الكرة شتاء الآخر والعكس بالعكس. فتجد الرياح في زمن الشتاء في أستراليا متى اتجهت من الداخل إلى المحيط تمر من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، وتستمر إلى بلاد الهند التي يكون ذلك الوقت صيفاً عندها، فتكون هناك رياح موسمية جنوبية غربية. ومثل ذلك الشتاء في بلاد آسيا، فإن الرياح التي تهبّ من وسطها إلى خارجها من الشمال الشرقي تصير شمالية غربية جنوب خط الاستواء. فإذا رأيت الجهات الموسمية في بلاد آسيا وهي الهند والهند الصينية والصين وكوريا وسهول منشوريا وجزر اليابان، أقول إذا رأيت هذه الجهات نزل المطر فيها مدراراً في زمن صيفها، فزرعوا الأرز والشاي والقطن الخ، فاعلم أن تلك الريح امتداداً للرياح الآتية من وسط بلاد أستراليا في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية.

عجب عجاب شتاء في آسيا وصيف في أستراليا في زمان واحد

يكون البرد في أولاهما والحرارة في أخراهما سبباً في حدوث الرياح، بحيث تهب الرياح من الجهة الشتوية إلى الجهة الصيفية، وهكذا بالعكس شتاء في أستراليا، يدعو الرياح أن تهب منها إلى الجهة التي فيها الشمس، فهذه هي الرياح الموسمية المحددة الهبوب، فستة أشهر تهبّ إلى جهة وستة أشهر بالعكس على طول الزمان، تظهر الشمس في جهة فتجلب الرياح إلى جهتها، فإن كانت في الجنوب فالرياح تتبعها، وإن كانت في الشمال فكذلك.

عدل الله في النسيم بين الشتاء والصيف والبر والبحر

يعلم الناس اليوم أن الأرض تدور حول نفسها، وتدور حول الشمس، فبالأولى يكون الليل والنهار، وبالثانية يكون الشتاء والصيف. والعجب العجاب هنا أن الحركة الأولى كما يكون بسببها الليل والنهار ليقوم العدل في الإضاءة والظلام هكذا يكون العدل أيضاً في الرياح. إن إشراق الشمس على اليابسة يسرع تسخينها أكثر من الماء، فيخفّ الهواء فوقها فيحلّ محله نسيم البحر فيهبّ في البر، فإذا جنّ الليل وأرخى سدوله كانت الأرض أسرع للبرودة من البحر، فانعكست الآية وأخذ نسيم البر يهب على البحر الذي لا يزال جوه أدفأ من البر، فهناك عدل ونظام وحكمة، فكما يقلب الله الليل والنهار بالإضاءة والإظلام، هكذا يقلب النسمات من البر إلى البحر ليلاً، ومن البحر إلى البر نهاراً، وهذا يسمى نسيم البر والبحر، فأما الذي يكون بالنسبة للحركة السنوية فهي الرياح الموسمية التي شرحناها فيما تقدم. فاعجب لنظام محكم مقدّر بالعدل ليلاً ونهاراً وصيفاً وشتاءً ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[يس: ٣٨] ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[السجدة: ٧].

اللهم إن صنعك لعجيب موزون منظم، ولعمري ماذا نريد من الوجود إلاّ أن نقرأه فنراه بهجة للناظرين، وجنة المفكرين، وحياة الأنبياء والعلماء والعاملين. اللهم إن جمال وجهك أشرق فملأ الأرجاء.

هذا، وبينما نرى الرياح تهب تبع حركات الشمس صيفاً وشتاءً وليلاً ونهاراً، نرى ذلك يتبعه سير السفن للتجارة، وسير الرياح لتفريق المطر على اليابسة ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[يوسف: ١٠٠]. واعلم أنه كما يكون الشتاء والصيف ببعد الشمس وقربها، هكذا يكون الخمود في الأمم والنشاط بقرب العلوم وبعدها.

كان أهل الشرق قديماً أعلم من أهل أوروبا، ثم طلعت على الغربيين شمس المعارف، وأصبح الشرقيون في برد شتاء الجهل، ولكن الله يقلب الليل والنهار والرياح الموسمية ونسيم البر والبحر كما رأيت. فهاهو ذا سبحانه وتعالى أخذ يعكس الآية، وهانحن أولاء نرى أهل الشرق قد استيقظوا في مصر وشمال أفريقيا واليابان والصين والترك والأفغان، لأن الله له نظام مبني على العدل في الضوء والإظلام والرياح، وهكذا في سياسة الدول ونظام الشرق والغرب. اقرأ هذا المقام في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ الخ [الآية: ٢٦] في سورة آل عمران.

هذا بعض قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾، فلولا الرياح ما كان سحاب وما عاش إنسان، ولولا حرارة الشمس لم تكن رياح، فحرارة الشمس بها تحريك الرياح

والرياح تحمل السحاب، والكرة الأرضية كلها متضامنة متحدة. فبلاد أستراليا وبلاد آسيا تعطي كل منهما الأخرى في زمانها هواءها؛ فتعطي أستراليا لآسيا الرياح زمان صيف الثانية، وتعطي آسيا الرياح لأستراليا زمن صيف الثانية، فهناك اتّحاد لم يعمل الإنسان بعلمه، والحيوان عمل على مقدار غريزته فالإنسان اليوم قاصر وهو جهول كفار.

اللهم إن الناس على أرضك غافلون، اللهم إنني وجميع المتعلمين في أوروبا والشرق نعلم هذا، وندرس نظامك، ونعرف أنك جعلت كرتنا الأرضية جميعها ذات نظام موحد، فرياح آسيا ورياح أستراليا تتجه من كل منهما إلى الأخرى في زمان معين، فكل منهما لها نصف السنة، وهذا قد رتبته على مقتضى سير الشمس، والشمس واحدة، أنت جعلت نظامك واحداً ولم تجعل فيه تفاوتاً، ونراك علمتني وعلمت جميع أهل العلم في الأرض هذه المعارف، ولم تعلم هذا لأمثال النمل والنحل والغربان وكلاب البحر، تلك الأمم التي تعيش جماعات وجمهوريات ذات نظام جميل تام على حسب طبائعها وغرائزها.

هذه الحيوانات لا تعرف النظام العام كما نعرفه نحن، وقد قامت بما تعرف من نظام جماعاتها، وحاربت جماعات النمل في قرية جماعات النمل في قرية أخرى، فهي لا تعرف إلاّ ذلك، ولو أنها درست كما درسنا نظامك لكان نمل الشرق متحداً مع نمل الغرب. أما الإنسان الذي أعطيته هذه العلوم والمعارف فإنه جميعه طفل في الشرق والغرب. كل هؤلاء ساساتهم وفلاسفتهم أنظارهم قاصرات على أممهم، يجارون العامة والجهلاء.

الإنسان الأعلى

فأما الإنسان الذي يصل إلى مدى الإنسانية الحقة فهو ذلك الذي يجعل جميع الناس في الكرة الأرضية متحالفين متحدين منظمين الكرة الأرضية على مقتضى نظامك وعدلك، فكما أعطت كل من آسيا وأستراليا الرياح للأخرى زمن شتائها، هكذا يكون الإنسان في شمال الكرة وجنوبها وشرقها وغربها، كل منهم يعدل مع الآخر كعدل هذه الرياح. أما الإنسان الحاضر فهو لا يزال طفلاً وربما عددناه مراهقاً. والدليل على ذلك أنك بينما تراهم متشاكسين تفتخر الدولة بتسخير دولة أخرى في إطعامها ومساعدتها.

ترى بلاد أمريكا تبلغ الممالك المتحدة فيها فوق مائة مليون بعد أن كانوا ممالك مختلفة، فهذه هي المراهقة. فأما بقية الأمم كأممنا الإسلامية وغيرها، فإنهم لم يزالوا جهلاء مختصمين لجهلهم، مع أن الله خلقهم ليكونوا خلفاء.

ما الواجب على المسلمين في هذا الزمان

جاء في هذه الآيات: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أن الأمم الإسلامية ما عاقها عن ظهور الكمال فيها وبزوغ الشمس المحمدية والسلام العام فيها إلاّ أنها أمة في هذا العصر جاهلة جهلاً مريعاً محزناً فاضحاً، ولا يؤهلها للخلافة في الأرض إلاّ تعميم العلم، فتعميم العلم هو الذي يؤهل القلوب أن تقبل النصائح القرآنية، وتكون القلوب هناك مثل الأرض الطيبة تقبل الإصلاح سريعاً.

فليستعدّ المسلمون لتعليم جميع الأفراد رجالاً ونساء من الآن، لنكون خلفاء الله في الأرض ويكون التعليم ابتدائياً وثانوياً وعالياً كأهل اليابان وأوروبا وأمريكا، ولنأخذ بأحسن الطرق والأساليب فهناك يليق أن يكونوا مع الأمم وليبدؤوا هم بالسلام العام، وذلك لأن نبينا صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة للعالمين، فلنكن نحن رحمة للعالمين، ومستحيل أن نكون رحمة وهم علماء ونحن جهلاء بدينا، لأنك تعلم من هذا التفسير أن العلوم متى ملأت الأرض اليوم هي نفسها علم التوحيد الذي هو أهمّ من علم الفقه، والتعمق فيها فرض كفاية، فمتى عرفنا العلوم وعمّت أقطار الإسلام هنالك نجلس معهم، أي مع أهل أوروبا واليابان والصين ونقول نريد السلام العام، لأن الله أخبرنا أنه يأتي يوم تضع فيه الحرب أوزارها كما سيأتي في سورة «القتال»، والقرآن لم يقيده، وقال المفسرون: هو يوم مجيء عيسى عليه السلام، ولكن القرآن لم يخصص، فلو أن الأمم استعدت للسلام فلا معنى لأن المسلم هو الذي يحارب.

إن الإنسان اليوم ناقص، وهو يسير إلى الكمال، فلا معنى لأن المسلمين يتقاعسون، فليتعلموا وليكونوا خير أمة أخرجت للناس بأمرين: أولاً: أن يتعلموا كما تعلمت الأمم. ثانياً: أن يقودوا الأمم للسلام العام.

فأما الآن فإن الإنسانية جاهلة غافلة، يتحاربون كما يتحارب النمل، لم يمتازوا عن الحشرات وكلاب البحر والغربان في نظام الجمعية الإنسانية ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦].

ذكرى للأمم الإسلامية

فيا أيتها الأمم الإسلامية استعدوا للواجبات العلمية والعملية. أفلا ترون أن الأرض التي نعيش عليها قد أصبحت مغلفة بالأسلاك البرقية والطرق الحديدية وتبادل البريد والطرق الجوية للطيارات، وهكذا التلغراف الذي لا سلك له، فهاهي ذه أرضنا اليوم أصبحت أشبه بجسم حيوان، فلكل حيوان جلد يحسّ بما يصيبه بالحواس الخمس المفرقة على ظواهره، هكذا أرضنا، فمهما حصل في جهة فإن سائر الجهات شرقاً وغرباً تعرفه، الأرض كانت قبل اليوم لا علم لشرقيها بما عند غربيها، ولا لجنوبيها بما عند شماليها إلاّ قليلاً، أصبحت الآن الأمم متصلة ببعضها فهاك.

مسألة القطن في أمريكا ومصر والعرض والطلب بأوروبا إنها كمسألة الرياح الموسمية بين آسيا وأستراليا

قد عرفت أيها المسلم الذكي فيما تقدّم كيف كانت الرياح في شتاء أستراليا تبعث منها إلى الصين وما والاها ستة أشهر، وفي الستة الأشهر الأخرى ينقلب الأمر، فترسل آسيا الرياح من أواسطها ذاهباً إلى أستراليا، وتكون تلك الأيام صيفاً لها. هكذا نحن نرى القطن في أمريكا لما كثر أضرّ بقطننا في مصر فصار السعر رخيصاً على قاعدة العرض والطلب، فيقال إن عندهم في هذه السنة ١٩٢٦ عند طبع هذه السورة نحو ١٨ ألف ألف بالة غير ما خزنوه من عام أول، وهو نحو ثلث هذا المقدار، فأضرّ هذا بقطننا المصري، هذه مسألة واحدة من مسائل التجارة والاجتماع، فإذن تصريف الرياح وإزجاء السحب ونحوها ذلك يضارعه أحوال أهل الأرض؛ فالناس أشبه بأسرة واحدة، كما أن المطر والرياح قد صرفها الله بالتبادل والتكافؤ والاشتراك، فالإنسان لا يتمّ كماله إلاّ إذا أصبح أمة واحدة، إن النحل والنمل لا

اشتراك بين شرقيه وغربيه، ولكن الإنسان يتبادل المنافع شرقية وغربية، فما دام أشبه بالحيوان في نظامه وأن كل جماعة تحارب أخرى كالنمل فإنه طفل ظالم لنفسه جهول، وهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. فليكن نظامه على مقتضى رقيّ عقله. اهـ.

يقول الله تعالى هنا: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ قد صرّف الله هذه الآيات في القرآن كما صرّف آيات الرياح والسحاب، كل ذلك ليشكر الناس، ولا معنى للشكر إلاّ بثلاثة أمور:

الأمر الأول: العلم بهذه الدنيا ونظامها وحكمها.

الثاني: ما ينتج من هذا العلم طبعاً، وهما أمران: حب منافع المخلوقات طرًّا لا سيما الإنسان، الثاني حب الله، لأن من أعجب بهذا النظام المتقن بحيث يرى أن الرياح والسحب لم تكن بلا قوانين بل هي تابعة لسير الشمس الذي هو نظام لا خلل فيه فيتبعه نظام مثله، وحينئذ نرى النظام في مزارع أستراليا كما نراه في الصين؛ فكل قوم فيهما يعلمون أوقات الزرع والحصاد فلا يخطئون، والمطر يجيء لهم في وقته، ذلك لحسن نظام الشمس وسيرها، فالله لم يترك الرياح وسحبها بلا نظام متقن، فمثل هذا يحدث في القلب حباً للخالق وإخلاصاً لعباده، وهذان هما الأمران الناتجان عن الأول.

الأمر الثالث: انطلاق اللسان بالحمد وتسخير الأعضاء للعمل للمصالح العامة، هذا هو الشكر الذي قاله علماؤنا، وهو المذكور هنا في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

اللهم إننا معاشر المسلمين قد قصرنا في شكرنا، فلا علم نظامك الذي ذكرته درسنا، ولا نتائجه حصلنا، بل نحن من أقلّ الأمم علماً، فأين الشكر إذن؟ فالشكر ما فصلناه وذلك بالتعليم العام بجميع أنواعه، ثم قيادة أهل الأرض إلى السعادة والسلام حتى نكون شاكرين ورحمة للعالمين، وهناك نكون خلفاء الله في أرضه، والحمد لله رب العالمين.

وهذا ما يرمي إليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، ولا يتم هذا في الدنيا إلاّ باجتماع الناس على فكرة عامة بينهم، والمسلمون هم نواب عن نبينا صلى الله عليه وسلم، فليقوموا بهذه النيابة. وقد ألفت كتاباً بمعنى هذا يسمى «أين الإنسان»، وقد انتشر في أوروبا والشرق، وقرظه الأستاذ «سنتلانة» التلياني في مجلة العلوم الشرقية، وكذلك الأستاذ «كراديفو» الفرنسي في المجلد الخامس من كتابه «مفكرو الإسلام»، وهكذا غيرهم من العلماء لا أذكرهم الآن، وما كنت أعلم الإلهية، أني أعيش حتى أرى هذه الفكرة ينشرها الناس في حياتي في الشرق والغرب، وهذا من عجائب الحكم، قد قلت في الكتاب المشار إليه: إن الأمم سائرة إلى هذه الغاية، فانظر كيف جاء اليوم إلى مصر الأستاذ الشاعر الهندي «طاغور» الذي ملأ صيته الآفاق شرقاً وغرباً أثناء طبع هذا التفسير، وخطب خطبة يوم الجمعة ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٦ توافق ما نحن بصدده الذي قرأته فيما تقدم وتوافق كتابي «أين الإنسان»، وهذا نص ما قاله نقلاً عن جريدة الأهرام في التاريخ المذكور، وهاهي ذه:

لقد أسرفت الأمم في الأثرة والأنانية وفي العصبية الجنسية التي يتمسك بها فريق كبير من أهل الأمم المتحضرة، على أن هذه العصبية أكبر مظاهر ضعف المدنية الحاضرة، فهي التي تجر الأمم إلى

التطاحن لنيل غايتها، وهي التي تثير بينها حروباً مهلكة ما كانت لتقع لولا هذا التعصب وتلك الأثرة، وما أشك مطلقاً في أنه قد وجدت أمم من قبل وبادت، أفنتها الحروب في سبيل أغراضها، وما تزال الآن في مجاهل أفريقيا أمم تسير في طريق الفناء لأخذها في حياتها بهذه الخطة، ولئن كان هذا ممكناً تصوّره يوم كانت الحدود الجغرافية حقيقة واقعة تفصل بين الأمم وتجعل كلاً تعتز بمكانها وبجنسها، وتجعل من لون أصحابها وسيلة لحرب من كانوا من لون آخر، فلم يبق لهذا التصور اليوم محل بعد أن أصبحت الحدود الطبيعية لا حقيقة لها لأسباب أهمها تقدّم المواصلات والنموذج العقلي بين الأمم.

لذلك يجب أن تزول الأثرة وأن يزول التعصب للجنس، والتعصب للون، ويجب أن يشعر العالم أن هنا وحدة روحية تربط أممه المختلفة، ومن حسن الحظ أني رأيت أثناء سياحاتي في البلاد المختلفة كثيراً من الرؤوس الكبيرة متفقة وإياي في الرأي، واثقة كما أثق بأن سيأتي اليوم الذي تسود فيه هذه الفكرة الشعوب جميعاً، بل لم يقف الاقتناع عند الرؤوس الكبيرة، فقد احتفل بي في بلاد عدة كثير من البسطاء لأنهم أحسوا في كتاباتي الدعوة لهذه الوحدة الروحية التي تصبوا إليها نفوسهم، والوسيلة لقهر الأنانية ولزوال التعصب الجنسي ليست هي الحديد والنار، وإنّما هي انتشار الأفكار السليمة بين الشعوب وسعيها جميعاً لإدراك الحقيقة، فهذه الحقيقة الحقيقة المجردة، الحقيقة المطبقة يجب أن تكون غاية الغايات لكل شاعر ولكل مفكر ولكل فيلسوف، وغاية الغايات للإنسان الكامل ويوم يأتي الوقت الذي يعمل فيه كل لمعرفة الحقيقة، فإذا رآها لم يتردد في إعلانها، يومئذ يكون الإنسان قد وصل إلى الكمال، وفي هذا اليوم ينشر السلام على الأرض.

نعم، فالسلام لن يترتب على عمل صناعي مطلقاً كالاتفاقات الدولية وما إليها، إنّما الوسيلة الوحيدة لتحقيقه هي الوحدة الروحية وأحس أن هذه الوحدة بدا في العالم ظهورها.

وختاماً لهذا الحديث أرتل حكمة غالية من أحد كتبنا المقدسة، وهنا أطرق ورتل حكمة بصوت عذب يصل إلى القلب بلغته الأصلية أبياتاً نقلها إلى الإنكليزية ومعناها على التقريب ما يأتي: «رب الأرباب وإله البشر جميعاً، تنزهت عن كل لون وجنس، يا مهيمناً على جميع الأمم وإن اختلفت ألوانها، وحّد بين قلوبها وألهمها تبادل المحبة وأيدها بروح الحق والعدل».

وهذه الفكرة الدينية نزل بأجمل منها القرآن كآية: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، وكآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣] الخ، وكآية: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] الخ. انتهى.

جوهرة

عجائب أسرار القرآن في هذا التفسير معنى: ﴿الٓمٓصٓ﴾

قبل الانتقال من القسم الأول من سورة «الأعراف» والابتداء في القسم الثاني المشتمل على قصص الأنبياء عليهم السلام، يحسن أن أذكر من عجائب القرآن ما به يتذكر أولو الألباب ويعجبون لآي التنزيل.

قد جاء في أول السورة: ﴿الٓمٓصٓ﴾، وقد أحلنا ذلك على أول سورة «آل عمران» ولكن المعنى هناك عام، والخاص بآل عمران ذكرته هناك عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ﴾ [الآية: ٢٣]

وأريد هنا أن أبيّن السر المصون والجوهر المكنون والحكمة البالغة والآية الباهرة والنور الزاهر والسلطان القاهر. انظر وتعجب كيف اختير في أولها هذه الحروف الأربعة.

فاعلم أن المقصود من القرآن نتائجه، ولعمري ما لنا حظ من هذا القصص إلاّ ما انتفعنا به، فإن لم ننتفع ولم نعلم فلا تفسير ولا علم، ومحل الانتفاع في هذه السورة أمران اثنان يجمعان زهرة علومها ومقاصد حكمها وثمرات أخبارها:

أولهما: الاعتبار بهذه القصص والأخبار، فالاعتبار هو الذي أنزل له القرآن ومنه هذه السورة.

الأمر الثاني: نصح الناصحين مع صبر المسترشدين بالعمل بالنصيحة، وإلى الأول: ﴿ الٓمٓ ﴾ [البقرة: ١]، وإلى الثاني: ﴿ صٓ ﴾ [ص: ١]، فانظر قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الآية: ٢٢]. هذه الجملة تجمع مقصود السورة بتمامها، لأن أخبار نوح ومن بعده يقصد منها ملخص هذا المعنى: ألم أقل لكما كذا، فهذه الجملة تفيد كل ما سيأتي من أن الإنسان إذا وقع في الجريمة فهو مقصر إذا وضحت أمامه الأدلة، فالألف واللام والميم قد أدّت مقصود هذه السورة إجمالاً، وقوله: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ ﴾ الخ تفصيل للمجمل، ثم نفس أخبار الأنبياء مع أممهم ترجع لهذا المعنى.

وانظر قول إبليس لآدم وحواء: ﴿ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الآية: ٢١] وقول نوح: ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الآية: ٦٢] وقول هود: ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الآية: ٦٨] وقول صالح: ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الآية: ٧٩] وقول شعيب: ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الآية: ٩٣] وقول موسى عليه السلام لقومه: ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ﴾ [الآية: ١٢٨] الخ.

فهاهنا نصح من الأنبياء ومن إبليس، وأحد الناصحين أمين، كما في قول هود، والنصيحة تلتبس فلا يدري الإنسان أيهما أصدق، نصح إبليس فعمل آدم بنصيحته، ونصح الأنبياء فكفر الناس بهم، فالأمين متروك والكاذب متبع، هذه هي قضية هذه الدنيا، لذلك يقول الله: ﴿ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾، فالنصح والصبر على قبول النصيحة ممدوحان، وفي كليهما «الصاد»، ونصح الصادق فيه صعوبة ومشقة، لكن نصح الكاذب فيه لذة كالأكل من الشجرة، يقول الله: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾ فهذا التوبيخ منصبّ على آدم وأولاده، لأنهم يتبعون الشهوات بسبب النصح المغشوش، فلا صبر عندهم ولا يميزون بين النصحين.

كل هذه المعاني مندمجة في: ﴿ الٓمٓصٓ ﴾، وتفصلها السورة بتمامها، فإذا تذكر المسلم في أكثر أوقاته هذه الحروف الأربعة كانت كنزاً له ثميناً، فهي تذكره بالتقريع على المعصية الشهوية، وعلى عدم الصبر على الفضيلة، وعلى عدم سماع النصيحة، وتذكره بخصف الورق على أبويه من قبل، فهذه أربع «صادات»، وهذه الألفاظ في نفس السورة كلها، وتذكره بالقصص المذكور في هذه السورة إذ قال تعالى: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾ [الآية: ١٧٦]، هذا هو المعنى المفهوم من: ﴿ الٓمٓصٓ ﴾.

ولقد تبيّن لك في سورة «البقرة» أن ﴿ الٓمٓ ﴾ هناك تشير إلى قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وإلى قصة العزير، وقصة الخليل إذ يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى

رَبِّهِۦٓ ﴾[البقرة:٢٥٨] الخ، فكأنه في سورة «البقرة» ذكَّر المسلمين بأهم الأمور، وهي أمران: الجهاد والعلوم الطبيعية والفلكية وغيرها، وهذه الأخيرة تضمَّنتها قصة الخليل والعزير، وهكذا سورة «آل عمران» جاء فيها: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا ﴾[الآية:٢٣] الخ، يحذر المسلمين من الغرور الذي وقعنا نحن فيه الآن، وقد أوضحت هذا هناك إيضاحاً تاماً بإطناب، وبيّنت مسألة البقرة هناك لا في سورة «البقرة» لأني لم أوفق لذلك إلاّ في «آل عمران»، أما هنا فإن ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ تبيان لفهم القصص ولتمييز النصح من الناصحين المختلفين، والصبر على المشاقّ، حتى نميز بين الأمين وغير الأمين، فهذه السورة فيها تشديد وتوبيخ وتقرير، ولذلك زاد حرف «ص»، فكأنه يقول في أول «البقرة» و«آل عمران» و«الأعراف» هكذا: عليكم بالجهاد وحوز العلوم، وإذا نلتم ذلك فإياكم والغرور لئلا تتفرّقوا شيعاً ويذوق بعضكم بأس بعض. ثم إياكم أن يغركم الشيطان بنصحه، ألم يكن الشيطان عدوكم، فليكن الصبر ديدنكم. هذا هو الذي افتتح الله به هذا المقام، والحمد لله رب العالمين. انتهى القسم الأول من سورة «الأعراف».

القسم الثاني من سورة الأعراف

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قد علمت فيما مضى أن هذه السورة نزلت للاعتبار بالأمم وهلاكها، والدول وخرابها، وأن هذه أول سورة جاءت لهذا المعنى بحسب الترتيب الذي جاء في السور لا بحسب ترتيب الوحي، فابتدأ بقصة آدم وحواء وإبليس، وكيف كان أمرهم عبرة للمعتبرين. فإبليس أقصي عن المعالي، وآدم وزوجه نزلا إلى الأرض وحكم عليهما وعلى أولادهما بالمكث في الأرض، وأن بقاءهم فيها متوقف على تنازع البقاء المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾[الآية:٢٤].

وفي قصص آدم نكتة جميلة، وهي أن البيئة والتوارث من أسباب الأخلاق وتكوينها في الأشخاص، فآدم لما خالط إبليس غشّه، وهذا هو الذنب والخلق بسبب البيئة، أي الوسط، وآدم لما أذنب خرج هو وكل ذريته إلى الأرض. والذي يهمنا من هذا القصص ما نراه ماثلاً أمامنا كل حين، وهو أن للوسط والبيئة تأثيراً في أخلاقنا، وكذلك الميراث، فقصة آدم منطبقة تمام الانطباق علينا معاشر أهل الأرض.

إننا نعيش غافلين، فنرى ابن المسيحي مسيحياً، وابن اليهودي يهودياً، وابن البوذي بوذياً، وابن الوثني وثنياً، وابن المجوسي مجوسياً، وهذا تأثير البيئة وتأثيرها في الأخلاق.

وهكذا نجد المنسول من أسرة عريقة المجد طيبة الأصل غالباً يتخلق بأخلاقها، ومن كان أبواه طويلين أو أبيضين أو أسودين خرج غالباً على هيئتهما، وهذا في الشكل الظاهري. وهناك بواطن لا ندركها، نراه قد تخلق بها، كما نرى العصفور يلد العصفور، والبازي يلد البازي، والنخل ينتج نخلاً. فقصة آدم ترينا أمراً عجيباً، ترينا أن في هذا الوجود قد حكم علينا أن نعيش على صفات خاصة وأديان معلومة يوجبها علينا تناسلنا وتوارثنا وأوساطنا التي نعيش فيها.

وهذا هو الأمر الطبيعي الذي خطّه الله على الوجوه ورسمه في القلوب. ولكن يمنع ذلك ما جاء في قصص هؤلاء الأنبياء من أنهم فكّوا الأغلال عن الناس، وكسّروا الأصنام، وأمروا الناس أن يذروا عاداتهم ويتركوا ما عليه آباؤهم من الأخلاق والآراء والعقائد، وأن من بقي منهم على ذلك حاق به الهلاك، وأودى به العذاب، وعليه ذكر هذه القصص، كقصة قوم نوح وعاد وثمود وما بعدها، ليقول لنا ذروا العادات واخلعوا عن أعناقكم ربقة الكسل والجمود، وارتقوا في الأسباب.

ثم إن الفطن إذا علم أنه في وسط وبيئة مملوءة من الأباطيل، وأنه واحد من هذه البيئة له ما لها وعليه ما عليها، يجدّ ويجتهد في تهذيب طباعهم وغسل أدرانهم وتطهير أخلاقهم ورفع رؤوسهم، ولنا في الأنبياء قدوة حسنة. فعلى كل عاقل أن يجدّ في تطهير المجتمع الذي هو فيه من أدرانه، فيكون أقرب إلى ربه، وذلك هو المقام الأوفى، وهاك قصص نوح عليه السلام.

اعلم أيها الذكي أن هذه القصة وما بعدها من سورة «الأعراف»، وهكذا بقية قصص الأنبياء أكثرها إنّما نزل قبل الهجرة يوم لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم تابعون كثيرون.

فانظر لهذه القصص وتأمل فيها تجد أن كل واحدة منها تبتدئ بتكذيب الأنبياء وهلاك الأمم المكذبة وبقاء المؤمنين. ثم تراه يقول: ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٠]، فلتتأمل أيها الذكي كيف كان يقصّ هذه القصص، وليس في يده حول ولا طول ولا جيش، بل كانوا يصلون خفية خائفين من الكفار. وإن من أعجب العجب أن يكون تاريخه صلى الله عليه وسلم كتواريخ الأنبياء الذين قصهم، فكان في أول أمره مكذَّباً، وفي آخر أمره منصوراً. وهذه في الحقيقة أكبر معجزة، لأنه صلى الله عليه وسلم تنبأ بما سيحصل، وقد تَمَّ كما جاء به الوحي.

فانظر في هذه القصة، يقول الله: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾، فـ«اللام» واقعة في جواب قسم محذوف. يقال: إنه كان نجاراً، ويقال: إن أباه لمك بن متوشلخ بن أخنوخ، وهو إدريس عليه السلام، ومعلوم أن إدريس نبي قدماء المصريين، وهو من المقدسين، ولعله «سيزوستريس» المذكور في كتبهم المنقول عن آثارهم. وعلى هذا يكون نوح من أبنائه، وهذه مما لا يقوم عليها برهان قاطع، وليس يهمنا من تحقيقها شيء، وإنّما المقصود أنه أرسله الله ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾، و«غيره» يجرّ على اللفظ، ويرفع على المحل، لأن «إله» مرفوع بحسب إعرابه، مجرور بحسب لفظه ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هو يوم القيامة أو يوم نزول العذاب بهم من الطوفان، لأن التحقيق أن عذاب الناس في الدنيا والآخرة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنهم معذبون، فالعاصون والظالمون معذبون بظلمهم، فإذا هلكوا ذهبوا إلى جهنم ليتموا دروسهم التعذيبية، فيوم العذاب قد يكون في الدنيا كما هو في الآخرة. ثم قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ ﴾ أي الأشراف لأنهم يملؤون

العيون جلالة والقلوب مهابة ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ بيّن ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ ﴾ أي شيء من الضلال ﴿ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ والرسول يكون في الغاية القصوى من الهدى ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي ﴾ ما أوحي إليّ في الأوقات المتطاولة أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي والمواعظ والبشائر. وهذه الجملة مستأنفة بيان لكونه رسول رب العالمين ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ وأقصد صلاحكم بإخلاص، يقال: نصحته ونصحت له، والنصح: أن تريد الخير لغيرك أو هي النهاية في صدق العناية ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فأعلم صفاته من القدرة والعلم، وأنه لا يردّ عذابه عن الكافرين ﴿ أَ ﴾ كذبتم ﴿ وَعَجِبْتُمْ ﴾ من ﴿ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ ﴾ موعظة ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ على لسان رجل من جنسكم، إذ تنكرون إرسال الآدمي ولا تصدقون إلاّ بملك من السماء، وتقولون: ﴿ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾[فصلت: ١٤]، ﴿ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ ليحذركم عاقبة الكفر ﴿ وَلِتَتَّقُوا۟ ﴾ ولتخشوا بسبب الإنذار ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فنسبوه إلى الكذب ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾، يقال: إنهم كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، ويقال أيضاً: هم تسعة: سام وحام ويافث، وهؤلاء الثلاثة أبناؤه، وستة آمنوا معه، ﴿ فِي ٱلْفُلْكِ ﴾ متعلق بـ «معه»، كأنه قيل: والذين صحبوه في الفلك، أي السفينة ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ بالطوفان ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ عمي القلوب غير مستبصرين، يقال: أعمى، في البصر، وعم في البصيرة. انتهى القسم الثاني من السورة.

القسم الثالث من سورة الأعراف

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

القسم الرابع من سورة الأعراف

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

التفسير اللفظي

اعلم أن عاداً وثموداً من العرب البائدة، كالعمالقة وطسم وجديس وأميم ووبار وجرهم وحضرموت ومن يتمي إليهم. ويقال: إنهم كانوا نزحوا من بابل وحلوا بجزيرة العرب، وجميع العرب البائدة من نسل سام بن نوح. أما العماليق فمن نسل لاوذ بن سام، وأما بقيتهم فمن نسل إرم ابن سام، وعلى ذلك يقال: عاد إرم، وثمود إرم، ثم قيل لكل من كان من نسل إرم بن سام: إرمان.

هذا ملخص ما يقوله العلاّمة ابن خلدون، والكشف الحديث على الإجمال يؤيده، فالعرب البائدة جميعهم آراميون إلاّ العمالقة فإنهم من نسل لاوذ. ويقال: إنهم ملكوا العراق وملكوا مصر، ويسمون الرعاة.

ولقد كان في العراق دولة المادّيين، ودولة الكلدان، ودولة العرب، ودولة الآشوريين، والدولة العربية المذكورة هي التي تسمى «الدولة البابلية الأولى»، ورأسها يسمى «حمورابي» المشهور، كان في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، وقيل: إن عدد ملوكها ١١، ملكوا ثلاثة قرون، وهذا رأي «مسبيرو».

وفي أيام هذه الدولة العربية ظهر إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد كشف العلم الحديث ما كان لهذه الدولة من العلوم والقوانين، ومجموع القوانين ٢٨٢ مادة، وجدوا نسخة منها سنة ١٩٠١ في بلاد السوس منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الأسود الصلب، طولها سبعة أقدام.

ولما غلبت هذه الدولة على أمرها نحو ٢٨٢ سنة قبل الميلاد، وقد حكمت ٣٣٤ سنة، خرجت من العراق إلى جزيرة العرب راجعة إلى موطنها الأصلي، وأنشؤوا في اليمن دولة عربية تسمى «دولة المعينيين» كانت عظيمة جداً قبل دولة سبأ وحمير، وآثارها ظهرت في العالم الغربي اليوم.

ولقد كشف المستشرق «هاليفي» لما سافر إلى بلاد الجوف وحدها ٧٩ نقشاً في معين، و١٥٤ نقشاً في براقش بالقرب منها.

ولقد حكم المعينيون جزيرة العرب حتى شاطئ البحر الأبيض المتوسط وشواطئ الخليج الفارسي، فكأنها حكمت جزيرة العرب كلها، وهذه الدولة أفناها السبئيون.

الكلام على عاد

إن العرب كما قلنا نزحوا من العراق لما غلبوا على أمرهم، فرجعوا إلى الجزيرة، وقلنا: إن المعينيين سكان اليمن أخذوا دورهم، ثم أفناهم السبئيون، وهذه الدول آثارها ظاهرة اليوم. هكذا نعلم أن العرب دخلوا مصر وبقوا بها نحو ٥٠٠ سنة، أي من نحو الأسرة الثانية عشرة إلى نحو الأسرة الثامنة عشرة، ثم طردهم المصريون فرجعوا إلى جزيرة العرب أيضاً. أفلا ترى أن يكون عاد من هؤلاء كالمعينيين المذكورين فيما تقدم، وربما كانوا هم أنفسهم، ولقد أفناهم أهل سبأ.

أوَلست ترى أن هذا القول يوافق ما هو معلوم أن قدماء المصريين كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً؟ وكيف لا يكون ذلك وأنت ترى في جبالنا المصرية بيوتاً منحوتة لأغراض خاصة، وقد كانوا إذا اقتطعوا حجارة من جبال مصر جعلوا هذا الاقتطاع هندسياً ليستفيدوا فائدتين: البناء بما اقتطعوا من الجبل والانتفاع بمكان القطع. فإذا قال الله: ﴿ وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتًاۖ ﴾ كان ذلك مما تعلموه من المصريين.

لطيفة

قد كان العالم الأثري الفاضل «كمال بك» الذي هو أعلم العلماء في فنّ الآثار المصرية يوماً يلقي درساً عاماً فيما عرفه من علوم قدماء المصريين، فذكر لنا تاريخ حياته، وأنه تعلم هذا العلم من ابتداء سن الخامسة عشرة من عمره، وأنه أخذ عن علماء فرنسا، وقال: قد كنت أعثر من وقت لآخر على كلمات أجدها مطابقة للغة العربية، حتى إنّ الخبز وحده وجدت له ٤٢ كلمة، مثال ذلك: «خبز، عيش، خبز الملة، كعك، بتاو»، وهكذا قال: وقد كنت أبحث في« لسان العرب» و«القاموس» فأجد جميع الألفاظ عربية، غاية الأمر أنها دخلها القلب والإبدال وهكذا، وأرانا ١٣ جزءاً أمامه قد كتبها مبيناً اتفاق العربية مع لغة قدماء المصريين. ثم إنه بعد ذلك بسنين أتمّ هذا الكتاب، ثم توفي قريباً رحمه الله. فلما انصرف من ذلك الدرس التفت إلينا معاشر مدرّسي اللغة العربية، وقال: قد وجدنا كتابة على الدير البحري تاريخها في الأسرة الثامنة عشرة، ملخصها: أن المصريين قد كثروا جداً فهاجر منهم طائفتان: طائفة نزحت إلى بلاد العرب، وطائفة نزحت إلى بلاد المغرب في شمال إفريقيا، وعلى هذا يكون منهم عاد وثمود.

أفلا ترون ذلك يا حضرات الأساتذة؟ فوافقه المرحوم «حفني بك ناصف» وكذلك أنا «طنطاوي»، وقلنا: لا مانع من ذلك وليس عندنا ما يمنعه. فهذا آخر ما وصل إلينا من العلم في أمر عاد من حيث التاريخ الحديث.

أما ثمود فكان مقامها في الحجر المعروفة بمدائن صالح في وادي القرى بطريق الحاج الشامي إلى مكة. وقد وصلت لها السكة الحديدية الحجازية. والذي ثبت الآن أن مدائن صالح وهي الحجر دخلت قبل تاريخ الميلاد في حكم البيزنطيين سكان «بطرا»، و«بطرا» هذه قصبة الأنباط، مدينة صخرية قائمة في مستوى من الأرض تحيط به الصخور، وهي واقعة في وادي موسى عند ملتقى طرق القوافل بين تدمر وغزة وخليج فارس والبحر الأحمر واليمن، وأطلالها الآن باقية كشفها العلماء في هذه الأيام. وهناك كتابات ونقوش بالقلم النبطي وبجانبها مرسح منقور في الصخر ووراءه كهوف كثيرة منقورة وطبيعية، وكانوا يسكنونها قديماً، وهي الآن يأوي إليها الفقراء من المطر الغزير.

هذه هي «بطرا» التي هي عاصمة النبطيين الذين ملكوا الحجر، وهي مدائن صالح التي كلامنا فيها. فلقد وجد على أطلال تلك المدائن كتابة نبطية، وقد زار هذه المدائن مستشرقون وقرؤوا نقوشاً منقوشة في الصخر، منها أنقاض تعرف بـ«قصر البنت» و«قبر الباشا» و«القلعة»، وقرؤوا عليها ما نصه: هذا القبر الذي بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم، وكليبة ابنتها، وذريتهما، في شهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعبه، فعسى ذو الشرى وعرشه واللات وعمند ومنوت وقيس تلعن من يبيع هذا القبر، أو يشتريه، أو يرهنه، أو يخرج منه جثة أو عضواً، أو يدفن فيه أحداً غير كمكم وابنتها وذريتهما، ومن يخالف ما كتب عليه فيلعنه ذو الشرى وهيل ومنوت خمس لعنات، ويغرم الساحر غرامة مقدارها ألف درهم حارثي، إلاَّ من كان بيده تصريح من يد كمكم أو كليبة ابنتها بشأن هذا القبر، والتصريح يجب أن يكون صحيحاً، صنع ذلك وهب اللات بن عبادة. انتهى.

واعلم أن هذه المعلومات التي وصلت إلينا في العصر الحاضر ستزيد على مدى الأيام، فإن بلاد العرب مشحونة بالأمور العجيبة المدفونة تحت الثرى.

كشف الأمم العربية القديمة في العصور القريبة

اعلم أن أول من فكر في كشف آثار آبائنا العرب مثل ثمود وسبأ وحمير ومعين ولحيان وأمثالها إنَّما هم الألمان في أواسط القرن الثامن عشر، وما دعاهم إلى ذلك إلاَّ ما كان يسمعه الفرنجة في أسفارهم إلى الهند عن طريق البحر الأحمر ومصر، وما تتناقله ألسنة أهل شواطئ اليمن وحضرموت، إذ يقولون: عندنا آثار مدفونة، عليها كتابات لا نعرفها، وأول من فكر في ذلك العالم «ميخايلس» وهو عالم ألماني توفي سنة ١٧٩١، وهو الذي اقترح على «فردريك الخامس» ملك الدانمارك سنة ١٧٥٦ تأليف لجنة للبحث عن تلك المدائن لذكرها في التوراة تحقيقاً للعلم.

وكان الرجل فيلسوفاً عالماً عظيماً، فأرسل الملك المذكور جماعة فماتوا إلاَّ رجلاً يسمى «نيبوهر» كتب كتاباً عن بلاد اليمن التي هي المقصودة بالذات، وانتشر في أوروبا، وفي القرن التاسع عشر عرفت اللغة «الهيروغليفية» بمصر فطمع العلماء بأوروبا في معرفة علوم جيرانها.

ثم سافر «رتسن» الألماني سنة ١٨١٠ إلى اليمن، فعثر على مدينة «ظفار»، وبعد ذلك تنبه الإنجليز، فأول الباحثين: الألمان فالإنجليز فالفرنسيون وهم أوسع مجالاً، ومنهم العلامة «هاليفي» سنة ١٨٦٩، بلغ مأرب ورجع ومعه ٦٨ نقشاً، وقد مرّ ببلاد الجوف التي هي قرب «صنعاء» وأهل صنعاء لا يعلمون بها. ثم كشف معين المتقدمة وهو سائر إلى «نجران»، ثم ذهب «أدوارد غلازر» إلى اليمن، وهو عالم ألماني، فوصل إلى مأرب ونقل معه ألف نقش وفيها كيفية بناء سد مأرب وإصلاحه.

ولقد أصبحت متاحف أوروبا الآن ملأى بآثار اليمن، بعضها منقوش على الحجر، وبعضها على البرونز، وبعضها منقول بالرسم أو الطبع يزيد عددها على ألفين. فبهذه الرسوم والنقوش عرفنا بعضاً من أخبار القرآن، كما سيأتي في سورة «سبأ»، والسدّ مذكور في القرآن، وطوله وعرضه والجنتان اللتان هناك، كما سيأتي في سورة «سبأ» أيضاً.

هذا ملخص ما وصل لنا الآن من الكشف واهتمام أوروبا بالبحث في علوم العرب آبائنا وآثارهم لأنه ورد ذكر هذه الآثار في التوراة.

الخرافات

لقد كان كثير من أهل السير قديماً يتسلون بحكايات خرافية كمدينة ذكرها القصاصون تسمى «إرم ذات العماد»، بناها عاد، وهي في اليمن، ليناقس بها قصور الذهب والفضة في الجنة، وأنه كتب إلى عماله أن يجمعوا جميع ما في أرضهم من الذهب والفضة والدرّ والياقوت والمسك والعنبر والزعفران، فيوجهوا بها إليه، ثم استخرج المعادن من الذهب والفضة، ثم استخرج عماله الجواهر من البحر وأتوا بالياقوت والزبرجد من المعادن، فضرب الذهب لبناً، وبنى به المدينة، وأمر بالدرّ والياقوت والجزع والزبرجد والعقيق ففصص به حيطانها وجعل فيها غرفاً من فوقها غرف بعمد من الزبرجد والجزع والياقوت، ثم جعل تحتها وادياً ساقه تحت الأرض ٤٠ فرسخاً، وأجراه في كل مكان تحتها، وجعل حصباءها الجواهر، وجعل على حافتي البحر أشجاراً من الذهب مثمرة وثمرها الياقوت والجواهر، وطول المدينة ١٢ فرسخاً، وعرضها مثل ذلك، وفيها ٣٠٠,٠٠٠ قصر مرصعة ومرصفة، وقصره يعلو على القصور كلها، واتخذ بنادق المسك والزعفران فألقيت في الشوارع، وارتفاع البيوت ٣٠٠ ذراع، والسور ٣٠٠ ذراع، ومكث في بنائها ٥٠٠ عام. هذه ملخصات علوم الأواخر وخرافات أرباب السير من المتقدمين.

يا أمة الإسلام

عجباً كنا نقرأ في القرآن أخبار عاد وثمود فتمرّ عليها مرّ الكرام، كأنّ عاداً ليسوا من أسلافنا، وكأنّ ثموداً ليست مساكنها في بلاد الإسلام.

ويا ليت شعري، كيف يبحث الغربيون عنها ونحن نائمون، ويدرسون آثارها ونحن غافلون، بل يبحثون عن معاني كتابنا المقدّس ونحن عن ذلك كله ساهون لاهون.

نعم إن قصة عاد وثمود لم ترد إلاّ للاعتبار بالأمم المكذبة، ولكن واسوأتاه واحسرتاه على أمم الإسلام، إن سمعوا قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١] قالوا: لقد عرفنا الله فلماذا ننظر؟ وإن سمعوا قصص الأولين، قالوا: إنها جاءت للاعتبار ومعرفة تقلب الأيام ونحن بذلك عالمون.

وعلى هذا أصبح القرآن في نظر الأمة الإسلامية كتاباً يتلى، فأما المعاني والمباحث فهم عنها نائمون، اللهم إلاّ المباحث الفقهية، وليس منها إلاّ مائة وخمسون آية كما قدمنا. ويا للأسف لا يستدلون بها إلاّ تبعاً للأئمة الأربعة رضوان الله عليهم، وغيرهم من كبار العلماء. بهذا وأمثاله نامت أمة الإسلام، فعلى مجدهم فليبكوا، وعلى بلادهم فليحزنوا، للجهالة العمياء، والبلاهة الغبراء، والبومة الشوهاء السوداء، وقد آن أوان استيقاظهم. والله بكل شيء محيط.

وقد آن أن أفسر الآيات تفسيراً لفظياً بعد ما بينت المقام بقدر الإمكان، فأقول: قال تعالى: ﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَىٰ عَادٍ ﴾ وهو عطف على «نوح» ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ واحداً منهم، تقول: يا أخا العرب للواحد منهم، وإذا كان واحداً منهم كانت الحجة ألزم عليهم ﴿ هُودًا ﴾ عطف بيان لـ«أخاهم»، وهو من نسل سام بن نوح كما تقدم ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾، وهذا ظاهر. ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ خفة وطيش وسخافة عقل ﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ

﴿مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ في ادّعائك الرسالة ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ﴾ فيما أدعوكم إليه ﴿أَمِينٌ﴾ على ما أقول لكم.

جمال الخطاب

اعلم أن مقابلة الأنبياء عليهم السلام من ينسبهم إلى الضلال بمثل هذا القول الجميل الرقيق اللطيف داعٍ إلى كسر حدّة الخصم، وهو الدواء الوحيد لتلطيف حدّته ونفوره، بل ربما أذعن بمثل هذا الحلم. يقولون: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، فيقول: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ الخ، فلا يقول: لا، بل أنتم السفهاء، فإن هذا من أخلاق الجاهلين، والعفو وحسن البيان والأدب بالأنبياء والعلماء ألزم. فهذا من الله تسليم للأنبياء وللدعاة. وأما قوله: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ﴾ إلى قوله: ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾ فقد تقدّم نظيره، ثم قال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ أي خلفتموهم في الأرض أو في مساكنهم، و«إذ»: مفعول به وليس ظرفاً ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗ﴾ قامة وقوة ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ جميعها ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ لأن ذكر النعم يؤدي إلى شكرها فيكون الفلاح ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وهذا احتجاج كالذي تقدم في حجة إبليس المذكورة في أول السورة، إذ احتجّ بأصله وهو النار، وهؤلاء احتجّوا بصفة من صفات آبائهم القلبية فاتبعوها، وهذا برهان سفسطي ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيه ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾ قد وجب عليكم ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ﴾ عذاب، من الارتجاس وهو الاضطراب ﴿وَغَضَبٌ﴾ إرادة الانتقام ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ﴾ حجة، أي في أشياء سميتموها آلهة وليس فيها معنى الألوهية ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ ذلك ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ أي من آمن معه ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدابر: الأصل أو الكائن خلف الشيء، وقطع دابرهم: استأصلهم ودمّرهم عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾.

وملخص القصة التي في كلام المفسرين أن عاداً قد ملكوا البلاد ما بين «عمان وحضرموت»، وكانت لهم أصنام يعبدونها: صداء وحمود والهباء، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام فكذبوه فأمسك عنهم المطر ثلاث سنين، وكانوا إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله الفرج منه عند بيته الحرام، فأوفدوا إليه قيل بن عنز ونعيم بن هزال ومرثد بن سعد، وكان يكتم إيمانه بهود عليه السلام، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وسيدهم معاوية بن بكر، فنزلوا عليه بظاهر مكة، فقال لهم مرثد: لن تسقوا حتى تؤمنوا بهود، فخلفوا مرثداً وخرجوا، فقال قيل: اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه منادٍ من السماء: يا قيل، اختر لنفسك ولقومك، فاختار السوداء على ظن أنها أكثر ماء، فخرجت على عاد من واد لهم فاستبشروا وقالوا: هذا عارض ممطرنا، فجاءتهم ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة، فعبدوا الله فيها حتى ماتوا. اهـ.

أنا لا أطيل لك أيها الذكي في هذه القصة، فقد أسمعتك ما قال المفسرون وما حققه علماء العصر الحاضر. ولعلك تقول أين فائدة القصة؟

تقول: أين فائدتها؟ عاد هلكوا وماتوا بريح صرصر عاتية. وما لنا ولهم؟ أقول: نستفيد فائدتين: فائدة أدبية وفائدة علمية. أما العلمية فقد تقدمت في البحث في الأرض اليمانية. وأما الأدبية فاعلم أنه وإن لم تكن سحابات تنزل علينا اليوم، ولم نخيّر كما خيّروا، فإن هذه الأحوال تحصل لنا كل يوم ونحن غافلون؛ ألم تر إلى الأمم الشرقية كيف يغترون بالفرنجة فيحتمون بهم ليضربوا بهم أعداءهم من جيرانهم الشرقيين، ثم ينقضّ عليهم الفرنجة أيضاً. وهذه قاعدة مطردة، يدخل الفرنجي بلاد الشرق بالاستعانة ببعض أهل البلاد كما في العراق والشام ومصر وغيرها، فينقلب الفرنجة على أهل تلك البلاد، فيكونون سبباً لخسرانهم، وهذا هو الحاصل الآن تماماً، فيظن أهل الشرق أن هذا الغربي نعمة عليه لغناه وجاهه، إذا هو كالسحابة السوداء كثيرة الماء، فإذا دخلوا بلادهم انقلبوا عليهم ناراً وسعيراً فابتزوا أموالهم. وكم تغفل الغربيون أهل الشرق فأذلوهم أجمعين ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١١٩] وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.

وهذه كقصة المسيخ الدجال من حيث إن الناس يطمعون في جنته إذا هي نار، بل أكثر أمور الحياة هكذا، نحن نعذب بما ظننا أنه نعيم؛ فالمناصب والأموال والبنون كل ذلك يكون من أسباب الشقاء والتعب، كما وضح في سورة «البقرة»، فلنجعل ذلك سلماً للفضيلة لا نتيجة للحياة. قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ أي وأرسلنا إلى ثمود، هم من ذرية إرم بن سام بن نوح، وهم عاد ونحوهم يقال لهم الآراميون نسبة لإرم، ولذلك جاء في القرآن «عاد وإرم» بالإضافة، وهو ظاهر، والتاريخ يوافقه والكشف يبينه. وقد تقدم ذكر مساكنهم بإيضاح. ثم قال تعالى: ﴿ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ إلى قوله: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ آية ظاهرة شاهدة على صحة نبوتي، فكأن سائلاً قال: ما هذه البيّنة؟ قال: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ ﴾ إضافتها لله للتعظيم والتخصيص، لأنه كوّنها بلا صلب ولا رحم ﴿ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ حال من الناقة، والعامل معنى الإشارة، و«لكم» بيان لمن هي له آية، وهي ثمود لأنهم عاينوها ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ﴾ أي الأرض أرض الله، والناقة ناقة الله، فذروها تأكل في أرض ربها، من نبات ربها ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ ولا تضروها ولا تعقروها ولا تطردوها ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهو جواب النهي ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ ﴾ وأنزلكم، المباءة: المنزل ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ غرفاً للصيف ﴿ وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ للشتاء، و«بيوتاً»: حال مقدّرة، كما تقول: خط هذا الثوب قميصاً، فالجبل لا يكون بيتاً حال النحت، ولا الثوب قميصاً في حال الخياطة ﴿ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.

وملخص قول المفسرين في قصتهم: أن عاداً لما هلكت عمرت ثمود بلادها، وخلفوها في الأرض وعمروا أعماراً طوالاً، فأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم صالحاً عليه السلام، وكانوا عرباً وصالح منهم، فلم يتبعه في دينه إلاّ المستضعفون، فأنذرهم فسألوه أن يخرج من صخرة بعينها ناقة عشراء، فصلى ودعا ربه، فتمخضت فخرجت منها ناقة كما شاؤوا، فآمن به رهط من قومه ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ ﴾ للذين استضعفهم رؤساء الكفار ثم أبدل منه قوله: ﴿ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ ﴾ أي من قومه، فيكون جميع المستضعفين مؤمنين، أو من الذين استضعفوا فيكون المستضعفون قسمين: كافرين مؤمنين ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ قالوه على

سبيل السخرية والاستهزاء ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ فكأنهم قالوا: إنّا نعلم أنه مرسل ودليله إنا مؤمنون، وهو أبلغ في الجواب ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ فوضعوا «آمنتم» موضع «أرسل به» رداً لما جعله المؤمنون معلوماً مسلماً ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ أي نحروها وما نحرها إلاّ قدار بن سالف، ولكن كان ذلك برضاهم، وكان قدار هذا أحمر أزرق قصيراً ﴿ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ تولوا عنه واستكبروا، وهو ما بلغهم صالح بقوله: « فذروها » الخ، ﴿ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ خامدين ميتين.

قال المفسرون: إنهم من بعد عاد عمروا بلادهم وخلفوهم وكثروا ونحتوا البيوت في الجبل، وكانوا في خصب من العيش، فأرسل الله لهم صالحاً وأجابهم إلى الآية التي طلبوها كما تقدم، فخرجت الناقة من الصخرة ثم نتجت ولداً مثلها في العظم، فمكثت الناقة ترعى في الشجر، وترد الماء غباً، فما ترفع رأسها حتى تشرب البئر، ثم يحلبون منها ما يشاؤون، ويملؤون أوانيهم ويدّخرون، وكانت تصيف بظهر الوادي، فتهرب أنعامهم منها إلى بطنه، وتشتو ببطنه، فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق عليهم ذلك فذبحوها واقتسموا لحمها وغاب الفصيل في الجبل بعد أن رغا ثلاثة أيام، فقال لهم صالح: تصبح وجوهكم غداً مصفرّة وبعد غد محمرّة واليوم الثالث مسودّة، ثم يصبحكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله في أرض فلسطين. ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا بالصبر، وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا. ثم قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ والظاهر أنه خاطبهم بهذا القول بعد موتهم، كما خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة في قليب بدر وهم ميتون.

سؤال ورد على المؤلف

لما وصلت إلى هذا المقام، واطلع عليه أحد الأصدقاء أهل العلم المفكرين، قال: أيّ فائدة لهذه القصة في زماننا، ونحن اليوم في عصر الحديد والبخار والغازات الخانقة والكهرباء والطيارات وزلزلة الأرض بأنواع الديناميت، فلا ينتظر الناس أن تزلزل بهم الأرض زلزلة عظيمة طبيعية، وأيّ ثمرة لمعرفة ناقة خرجت من صخرة وتبعها ابنها ثم قتلت، وأيّ فائدة في ذكر أنهم شربوا لبنها ثم خانوا فأتتهم الصاعقة، ويا سبحان الله، إن عصر التقلبات والآيات والمفاجآت قد مضى وانقضى، وإن العقول اليوم لا ترى لهذا أثراً في الوجود، وكيف يأتي كتاب سماوي بمثل هذا، وما الفائدة إذا كان لا ينتفع به الناس؟.

الجواب

اعلم أيها الذكي أن هذا السؤال يرد على جميع العقول الذكية، فمنهم من إذا مرّ عليه هذا الكلام يسكت ويقول في نفسه: إنني إن نطقت بهذا كفرت، مع أن الله مطلع على قلبه، ومنهم من يجهر، ويقول: إن الدين للعوام، أما نحن فنحن علماء فلا حاجة إلى الديانات عندنا، هذا ما عليه المتدينون في هذه الدنيا شرقاً وغرباً.

واعلم أن كل دين فيه أمثال هذه القصص، ولو خلا دين من أمثال هذا لم تتبعه الأمم، فإن الديانات جاءت ليفهمها الجهلاء بظاهرها، ويستنتج منها العقلاء من أسرارها وعجائبها، وليس يخفى عليك كتاب «كليلة ودمنة» الذي يقرأ في المدارس جميعها شرقاً وغرباً، وفيه حكايات يفهمها الجهلاء بظاهرها، ويدرسها الحكماء والفلاسفة والسياسيون بحسب باطنها، ويستخرجون منها نظام الدول والممالك والحيل السياسية، وهي بحر علم وفلسفة وحكمة وأدب وخلق وجمال، وإذا كان هذا فيلسوفاً فكيف بكتاب أنزل على نبي من ربه. إن سائر الديانات ظاهرها سهل، وفيها معان للحكماء لعلهم يتدبرون، ولا تظن أني أقول إن ناقة صالح كحكايات كتاب «كليلة ودمنة» في أنها غير حقيقية فنحن نؤمن بناقته وبما جاء في ظاهر القرآن، ونكل علمها إلى الله تعالى، ولا نؤمن بالتفصيلات الطويلة التي لم يرد فيها نص، فقال: عرفت هذا، وأيّ فائدة فيها عند الخواص؟ قلت: اعلم أن أحوالنا التي نحن عليها ونشاهدها كل حين في بلاد الإسلام، أشبه بما حصل لقوم صالح، فالناقة نعقرها كل سنة والرجفة تأخذنا كل يوم ونحن غافلون. قال: واعجبا لك، أنت رأيت الناقة وسمعت الرجفة؟ قلت له: وأنت أيضاً، لأنك من الذين رضوا بقتل الناقة فعذبوا، . قال: هذا خارج عن المعقول، فكيف تفسر القرآن إذا كنت تقول ما يخالف العيان. ؟ قلت: أنا أقول لك كما يقول القرآن. قال: قل. قلت: انظر أليس أمر الناقة المذكورة أنها خرجت من صخرة وكان لها لبن يشربونه فنحروها؟ قال: بلى. قلت: أليس الصخر يفتته الماء والهواء والحرارة فيصير حصاً ورمالاً، ويجري عليها الماء فينزل إلى السهل فيزرع فيخرج منه الشجر والزرع فتأكله الدواب، فيخرج ألف ناقة وألف جمل، ونحن نشاهد هذه الآيات ونكفر بها؟أوليس من الكفر بها أن نترك النعم التي أنعم الله بها علينا في السهل والجبل والسماء والأرض؟ أوليست السماوات والأرض من آيات الله، كما أن ناقة صالح من آيات الله؟ غاية الأمر أن الناقة يفهمها العامة والآيات الأخرى يفهمها الخاصة، ألم يقل الله: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٠] والموقنون أرقى من المؤمنين، فلئن آمن قوم صالح بناقته وهي آية ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥]، وقال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾ [الإسراء: ١٢]، أفليست آية النهار أرقى ألف مرة من آية ناقة صالح؟ أليس شروق الشمس بعد الإظلام وظهورها مشرقة تتلألأ كعروس تزينت بالحلي والحلل، وقد نشرت على الأرض حللاً ذهبية جميلة مشرقة بهجة بهية منيرة، تعطي الحياة لكل حي أكبر ألف ألف ألف مرة من ظهور ناقة في صخرة، يشرب منها قوم في قرية خاصة، بل لا نسبة بين الناقة وبين الشمس، على أن الشمس لا يقدر على قتلها الناس، فإنها قد تميت المحموم، وكم أناس تضايقوا منها فلم يقدروا أن يقتلوها، وهي باقية إلى اليوم، والناس يحيون ويموتون وهي باقية، والله سبحانه سماها آية، وسمى ناقة صالح آية. فأما الأولى فهي آية العقلاء، وأما الثانية فهي آية العقول الجامدة، ولذلك جاءت هذه السورة لتوضح الفرق بين الآيات العقلية والآيات الخارقة للعادة، كما سيأتي إيضاحه عند الكلام على سحرة فرعون، وأنهم علماء، فكان إيمانهم ثابتاً، أما الجهلاء من بني إسرائيل فإن إيمانهم المبني على خوارق العادات لم يلبث أن تبدل كفراً؛ فالسورة يراد بها إظهار الحقائق للمسلمين، وأن الإيمان بمثل هذا إيمان الغافلين، إيمان لا ثبات له، أما العلوم الكونية فالإيمان التابع لبراهينها هو الإيمان وهو اليقين، فقال

صاحبي: أيّ كفر كفرناه، وأيّ ضرّ أصابنا، وأيّ مناسبة بين حالنا وحال قوم صالح؟ قلت: ألست تعلم أن الله أعطانا أرض عاد وثمود التي هي كانت أولاً في اليمن، ثم رحلوا إلى الأرض التي يقال لها مدائن صالح على ما يقال، وعندنا أرض الحجاز ومصر وفلسطين وسوريا والعراق، كل هذه وغيرها من البلدان المذكورة في القرآن ملك للمسلمين الآن، ولا جرم أن هذا الملك أضخم من ناقة صالح، أفلست ترى أن المسلمين لم يقوموا بشكر النعمة، فيحفظوا الأمانة التي استودعها الله إياهم، فترى المسلمين أقل الأمم علماً وعملاً وتجارة وصناعة، فأيّ عقر للناقة أعظم من هذا؟ إننا نحن الآن عقرنا آلافاً من النياق عقراً معنوياً، لأننا لم نقم بزراعة الأرض حق القيام، ولا باستخراج مناجمها، ولا بحفظ ثغورها، ولا بتعليم أبنائها، ولا باتحادهم، فإذا عقرت ثمود ناقة خرجت من الجبل، فنحن منعناها أن تخرج ومنعنا ألف ألف ناقة وبقرة وإنسان بتخريب الأرض وقلة حفظها. قال صاحبي: فحينئذ أنا وأنت كافرون. قلت: كلا، بل نحن عاصون، لأن انتشار الصناعات والعلوم فرض كفاية، وكل عنه مسؤول، ألا ترى الله تعالى يقول في أول السورة: ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الآية: ٢] ونحن المؤمنون وهذه هي الذكرى.

ألا ترى أن أهل أمريكا الأصليين، وهم الجنس الأحمر النحاسي، انقضّ عليهم الأوروبيون فأهلكوهم وأخذوا ديارهم، لأن الله هو الذي فعل ذلك، لأنهم أليق لعمارة الأرض، فأما الحمر المتوحشون فإنهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم، وانظر إلى إخواننا عرب الأندلس في الزمن القريب كيف أفناهم الإسبان بالاتّحاد مع أهل أوروبا وقتلوهم أجمعين، أليس ذلك لأنهم عقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، وأيّ ناقة أعظم وأضخم من ملك الأندلس. قال: إذن تريد أن تخرج عن ظاهر إلى المعاني التي ذكرتها، ولكني أراه بعيداً عن القرآن. قلت: بل هو القرآن نفسه. قال: وكيف ذلك؟ قلت: لسببين:

السبب الأول: ما جاء في أول السورة من قصة آدم وإبليس، ألم تر أنه خرج من تلك القصة التي لا يجهلها أصغر وأجهل إنسان في بني آدم إلى مسألة اللباس، وكيف استنتج منها أنهم يجب عليهم أن يلبسوا اللباس في الطواف، ثم ارتقى إلى أن القطن والكتان والحرير التي هي لباس لنا، من آيات الله، وإلى أن هناك لباساً أغلى وأشرف وأعلى، وهو لباس التقوى، ثم طلب من بني آدم ألاّ يفتنهم الشيطان كما فتن أباهم آدم فخلع عنه لباسه، فليس ينبغي أن يخلع عنكم لباس التقوى بالمعاصي فلا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن. فانظر كيف جعلت القصة درساً في الطبيعة النباتية، ودرساً في ستر العورة في الصلاة، ودرساً في أن الشياطين يرونكم ولا ترونهم وهكذا. فإذا كان القرآن هو الذي فتح باب الفهم والعلم، مع أن الكتب السماوية لا تتجاوز الظواهر اتكالاً على العقول، فكيف نقف عند الظاهر في قصة ثمود والناقة.

السبب الثاني: أن الله لا يريد لنا هذه الآيات، بل يريد لنا الآيات الكونية، وهو القائل: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[الإسراء: ٥٩]. فانظر كيف أبان أن خوارق العادات ليست منار الهداية للأمم، وإنّما هي زجر وتخويف، وانظر كيف خصص ثمود والناقة.

فعلى القادة والعلماء أن ينبهوا المسلمين للأخطار الواقعة بهم، وليوقظوهم من غفلتهم وليعلموهم مقصود هذه الآيات، وأن الله إنَّما يريد أن ننظر الحقائق. ولذلك لما ألحّ كفار مكة على النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية مثل هذه، قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]. قال: وما السبب في أن خوارق العادات لا تكفي للإيمان، وأن الأمم الإسلامية يجب أن يكونوا مفكرين لا مقلدين.

قلت: اعلم أن خوارق العادات أشبه بالتنويم المغناطيسي، وكلما كانت الأمم غافلة كان الكذب عليها أدخل، وكلما كانت أعقل كان العلم إليها أقرب والكذب عنها أبعد، وهذا التنويم الآن شائع بين السياسيين والأطباء والدجالين وبعض رؤساء الديانات.

الطب

اعلم أن أهل الأرض جميعاً بالنسبة للأطباء كالمنوّمين، ولو أنهم قالوا لهم الحق لم ينتفعوا بالطب لجهالتهم، فإن أكثر الناس لا يعلمون، وأيضاً لو قال الأطباء الحق لم يكونوا أغنياء.

حكاية: قابلت طبيباً كان تلميذي بالمدارس التجهيزية، وسألته عما يدرّ اللبن للمرأة التي قلّ لبنها. فقال: الكشك والفجل، وعدّ أنواعاً كثيرة. فقلت: وكيف ذلك؟ فقال: تأخذ ماء الفجل مثلاً وتعطيه لقليلة اللبن فتشربه، وهذا أمر سهل، ولكن الأطباء عندهم قاعدة، وهي أنهم لا يقولون للمرضى إن دواءك هو فيما بين يديك. لأنهم لو قالوا ذلك لاحتقروا الطبيب ولم ينتفعوا بدوائه ولم يعطوه نقوداً، وكلما كان الطبيب أكثر حفظاً لمركزه وأكثر إغراباً في القول والعمل، كان ذلك أدعى للاعتقاد فيه، ولو أنه تنزل للمريض وقال: إن دواءك في الفجل مثلاً أو في الملح، لاحتقره المريض، وقال: إنه جهول. بل يكتبون التذاكر «الروشته» بلغة لا يفهمها الجمهور حرصاً على المنفعة وجلباً للدراهم، والناس جاهلون. أليس هذا تنويماً للناس وتغشية على عقولهم وهم لا يعلمون.

الدين

ألست ترى أن كثيراً من مشايخ الطرق يستعملون أموراً غريبة ليصدقهم أتباعهم ويؤمنوا بهم، أفليس ذلك كناقة صالح؟ وأن هذا الإيمان بالشيوخ قد يصدّ التلميذ عن بعض العلوم، ومتى علم نقيصة في شيخه رجع إلى المعاصي وهو غوي شيطان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وإنَّما الذي يحفظ الأمم إنَّما هو التعقل والتبصر، أفلا ترى أن أكثر العامة في الإسلام يتبعون الشيوخ لأمور تقوم على يديهم، إما دجلاً وتزويراً، وإما بأمور أخرى كالتي ذكرها ابن خلدون عن قوم يسمون البعاجة، متى أشاروا إلى قطيع من الغنم انبعجت بطون بعضها، فيعطيهم صاحب الغنم بعضها ليتقي بها سوء الفقر والهلاك، فسواء صحّ هذا أم لم يصحّ؛ فخوارق العادات سواء أكانت على يد صالح أو ساحر لا يمكن أن ترتقي بها أمة، ولذلك ترى أتباع هؤلاء الشيوخ من الصوفية لا يرقون المجموع، بل ترى معلوماتهم قاصرة على بعض الأحوال، ويذرون الكون وما حواه، والقرآن ومن تلاه، وتقف العقول مقصورة على شيوخهم، نائمة حول أضرحتهم، وهم غافلون، فعلى المسلمين أن يعلموا جميع الأمة تعليماً عاماً، وإلاّ فلا حياة لهم ولا دنيا ولا دين. هذا ما نؤمله ونرجو الله أن يحققه.

السياسة

وأما تنويم السياسة، فاعلم أن الساسة في أوروبا يقولون للشرقيين: قد جئنا بلادكم لنخرجكم من الوحشية إلى نعيم المدنية، فإذا هم أكثر توحشاً وأوسع بطوناً وهم ظالمون. بهذه الكلمات يتسلى بها الشرقيون، وهي كلمات يقولها المنوِّم للمنوَّم ـ بالفتح ـ حتى تقفل عيناه، ولا تسمع أذناه، ويصبح قليل العقل لاعتياده النوم واتباع منوِّمه، وذلك ضياع لقواه المادية والعقلية.

وهكذا إذا نامت أمة السياسيين فإنهم يخربون بلادهم وهم غافلون، وهكذا أتباع الشيوخ إذا نامت عقولهم تبعاً لأشياخهم كان رقيها محدوداً.

ومن مصائب الإنسان أن يقف عقله عند حدود شيخ واحد، وربما كان جاهلاً. فالعقل الإنساني أوسع مجالاً وأوفى علماً وأرقى عملاً وأبعد أملاً. ولست أقول: إن جميع أرباب الطرق كذلك، فإن كثيراً منهم صالحون مصلحون.

التجارة

وهكذا ترى الأمم الغربية حبست عقول الشرقيين بتجارتهم الجميلة المنظر، فبهروهم وأخذوا نقودهم، فأصبحت بلادهم خاوية على عروشها من الجهالة العمياء، فلا اقتصاد ولا أعمال ولا علوم وهذا من نوع التنويم، والأخذ بالعيون، وإنامة الأمم وإضعافها. ومن ذلك إشاعة الفسق والفجور في الأمة، فيصبح الناس على الفسوق عاكفين وبالكسل راضين. سرّح طرفك في بلاد الشرق التي احتلها الفرنجة، تجدهم بهذا متصفين. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧]. انتهى الكلام على القسم الثالث والرابع.

القسم الخامس

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ لُوطًا ﴾ ابن هاران بن تارخ، وهو ابن أخي إبراهيم، وإبراهيم عمه ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ يعني: أهل سدوم، وإليهم كان قد أرسل، وذلك أن لوطاً عليه السلام لمّا هاجر مع عمه إبراهيم عليهما السلام إلى الشام فنزل إبراهيم عليه السلام أرض فلسطين؛ ونزل لوط الأردن، أرسله الله إلى سدوم يدعوهم إلى الله تعالى، وينهاهم عن فعلهم القبيح، وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ أي: وقت قوله: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وهذا توبيخ وتقريع على تلك الفعلة؛ أي: ما فعلها قبلهم أحد قط، ثم بيّن الفاحشة فقال: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ وهذا مبالغة في الإنكار والتوبيخ، والعاقل يأنف أن يجعل المباشرة لداع غير الولد، فإن الشهوات أودعت غرائز

لمقاصد التناسل وبقاء العمران، ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ أيها القوم ﴿قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ مجاوزون الحلال إلى الحرام ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ من الفواحش، ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أي: من آمن به ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فإنها ﴿كَانَتْ﴾ تسرّ الكفر، ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب، إنها كانت كافرة فهلكت مع من هلكوا، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: نوعاً من المطر عجيباً. وبيّن في سورة أخرى بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] وهو الطين المطبوخ، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

روي أن لوط بن هاران بن تارخ لمّا هاجر مع عمه إبراهيم عليه السلام إلى الشام نزل بالأردن فأرسله الله إلى أهل سدوم ليدعوهم إلى الله وينهاهم عما اخترعوه من الفاحشة، فلم ينتهوا عنها، فأمطر الله عليهم الحجارة فهلكوا. وقيل: خسف بالمقيمين منهم؛ وأمطرت الحجارة على مسافريهم. اهـ التفسير اللفظي.

القسم السادس

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

التفسير اللفظي

أي: ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ﴾ أولاد ﴿مَدْيَنَ﴾ ابن إبراهيم خليل الله ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ابن ميكيل بن يشجر بن مدين، وكان يقال له «خطيب الأنبياء» لحسن مراجعته قومه، ثم إن أم ميكيل بنت لوط، وكان شعيب أعمى، وكان قومه أهل كفر وبخس في المكيال والميزان، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا

لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يريد المعجزة التي كانت له ؛ ولم يبينها القرآن ، ﴿ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ ﴾ المكيال ﴿ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ ولا تنقصوهم حقوقهم ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بالكفر والحيف ﴿ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ بعد ما أصلح من أمرها بالخصب والهداية باتباع الأنبياء ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ الذي ذكرت وأمرتكم به من الإيمان بالله ووفاء الكيل والميزان وترك الظلم والبخس ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يعني مما أنتم عليه من الكفر وظلم الناس ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني إن كنتم مصدّقين ، ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ وكانوا يقطعون الطريق ، ولمّا أرسل شعيب كانوا يجلسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعيباً : إنه كذاب فلا يفتننك عن دينك ، ويوعدون من آمن به بالانتقام ، ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ أي : بالله ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي : وتطلبون لسبيل الله عوجاً بإلقاء الشبه ووصفها للناس بأنها معوجّة ، ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا ﴾ عَددكم وعُددكم ﴿ فَكَثَّرَكُمْ ﴾ بالبركة في النسل والمال والعُدد ﴿ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ من الأمم قبلكم فلكم فيهم عبرة .

وقوله : ﴿ فَٱصْبِرُواْ ﴾ تربصوا وانتظروا ، وقوله : ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ أي بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ إذ لا معقب لحكمه لأنه حاكم عادل منزّه عن الجور .

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ إلى قوله : ﴿ فِى مِلَّتِنَا ﴾ أي : ليكونن أحد الأمرين : إما إخراجكم من القرية ، أو عودكم في الكفر ، ومعلوم أن شعيباً لم يكن في ملتهم ؛ وإنّما خوطب بما يخاطب به الذين آمنوا تغليباً للجماعة على الفرد ، ﴿ قَالَ ﴾ شعيب عليه السلام : ﴿ أَ ﴾ نعود إلى ملتكم ﴿ وَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ أي : أتعيدوننا في حال كراهتنا ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي : قد اختلقنا عليه ﴿ إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾ وجواب «إن» محذوف يدل عليه ما قبله ، يقول : قد تخرصنا عليه من القول باطلاً إن نحن رجعنا إلى ملتكم وقد علمنا فسادها وأنقذنا الله منها ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ ﴾ وما يصح لنا ذلك ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ خذلاننا وارتدادنا ، وهذا يفيد أن الكفر بمشيئة الله تعالى ؛ ومشيئته على حسب ما سبق به القضاء ؛ وما سبق به القضاء على مقتضى حال المعلومات والاستعدادات والقوابل . وكان نبيّنا صلى الله عليه وسلم يقول كثيراً : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويخلصنا من الأشرار ويوفقنا لازدياد الإيمان ، ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ احكم بيننا وبينهم ، والفتاح : القاضي ، والفتاحة : الحكومة ، أو أظهر أمرنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ويتميّز المحق من المبطل ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ القاضين ؛ أو الكاشفين للأمور ، ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا ﴾ وتركتم دينكم ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ لاستبدالكم ضلالته بهداكم ، ولأنكم تحرمون مما تنالونه من البخس والتطفيف ، وهذه الجملة سادّة مسدّ جواب الشرط والقسم الموطأ باللام ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ الزلزلة الشديدة ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ أي : في مدينتهم ميتين . يقال : إن الله حبس عنهم الريح سبعة أيام ، ثم سلط عليهم الحر حتى هلكوا .

وقال قتادة : إن الله بعث شعيباً إلى أصحاب الأيكة وإلى أهل مدين ، فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة ، وأما أهل مدين فأخذتهم الرجفة ؛ صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا جميعاً ، ﴿ ٱلَّذِينَ

﴿ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ استؤصلوا كأنهم لم يقيموا بها، والمغنى: المنزل، ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ ديناً ودنيا، لا الذين اتبعوه كما زعموا، فإنهم هم الزائلون من الوجود. وهذا ردّ على قولهم: ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾، ثم قال: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ بعد نزول العذاب ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ ﴾ أحزن ﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ اشتدّ حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال: كيف يشتد حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم. انتهى التفسير اللفظي.

لطيفة

ترى أن قصة أهل مدين وقصة قوم لوط قد ذكرها بعد عاد وثمود لتكون العبرة شاملة والذكرى جامعة، فكما أن قوم عاد أهلكوا بما اختاروا لأنفسهم من السحابة السوداء فهبت عليهم ريح صرصر عاتية، وأصبح القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فكانت العبرة في ذلك كما تقدم أن الأمم تغتر بوعود الأمم الخلابة فتكون عليها عذاباً، وهكذا ثمود هلكوا بعقر الناقة، وكانت العبرة أن كفر النعم مؤدٍّ إلى خراب الأمم.

هكذا كان في قوم لوط؛ استبدلوا الرجال بالنساء؛ فكان الهلاك الواقع عليهم مشيراً لما فعلوا، فقال في سورة أخرى: ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾[هود: ٨٢]، وكذلك قوم شعيب عليه السلام بخسوا الناس أشياءهم في المكيال والميزان؛ فأرسل عليهم حرّ شديد؛ فأخذ بأنفاسهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء، فدخلوا في الأسراب كما قيل ليبردوا فيها فوجدوها أشد حراً من الظاهر، فخرجوا هرباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فأظلتهم؛ وهي الظلة؛ فوجدوا لها برداً ونسيماً، فنادى بعضهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم ناراً، ورجفت بهم الأرض من تحتهم، فاحترقوا كاحتراق الجراد في المقلى وصاروا رماداً، ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾[البروج: ١٢] هذا ما يقال عن قوم شعيب عليه السلام.

تطبيق هذا على حال المسلمين اليوم

اعلم أن الأمم الشرقية اليوم قد افتتنت بأهل الغرب الذين يحتلون بلادهم، فبخسوا الناس أشياءهم، ومعنى ذلك: أنهم يحبون متاجر الفاتحين ويغرمون بمصنوعاتهم، وهذا بخس لأشياء أهل وطنهم وظلم لقومهم، فقد وفوا للأعداء وبخسوا الأولياء، وهكذا في العلم فتراهم يحقرون دين آبائهم وتاريخهم وينسون مجدهم، وهذا بخس لأبناء ملتهم وتحقير لشأنهم.

هكذا في الأزياء والأحوال، تراهم يتزيون بزيهم، ويتطبعون بطباعهم، ولا ينطقون إلا بلغاتهم وهذا بخس لأهل وطنهم، وهذا أشد وقعاً من البخس في المكيال والميزان، وإذا وظفوا أجنبياً احترموه ولو كان جاهلاً. هذا هو الذي نفهمه من العبرة في ذلك. هكذا نراهم يقلبون الحقائق، وهذا كما قلب الحقائق قوم لوط فقلب الله عالي قريتهم سافلها.

هكذا ترى أهل الشرق حينما يفعلون ذلك ويحتمون بالأجانب ويلبسون ملابسهم ويشربون شرابهم ويشاركونهم في ظهورهم ولعبهم ويفرحون بهم؛ قد جعلوهم ظلة لهم فاستظلوا بهم وربوا أولادهم على مشاربهم، وأعطوا بعضهم شهادات دراسية كاذبة من بلادهم، فيرجعون إلى الشرق

وهم حاملوها وهم جاهلون، فيجلسون على أرائك الحكم فيظلمون، ولا يزالون على تلك الحال حتى ينقض عليهم أولئك الأعداء فيفتكون بالأمم فتكاً مريعاً، ويسلبون الظالمين والمظلومين. هكذا كان ذلك بالأندلس، وهكذا هو اليوم في مصر والشام والعراق والهند.

إن هؤلاء جميعاً تقوم طوائف منهم يستظلون بظل الأمم الغربية هم ونساؤهم وأولادهم كقوم شعيب؛ حتى إذا اجتمعوا تحت الراية الأجنبية وتم لهم الفوز انقلبوا عليهم فأهلكوهم، فصار النسيم سموماً والرحمة عذاباً والنعيم جحيماً.

فالعبرة في القصص الأربع التي مضت راجعة لحفظ البلاد من الأعداء، وعمارة الخراب، وحفظ النسب والعلوم، وألا يبخس الوطني ويعظم الأجنبي الخ. فمن احتمى بالأعداء أضرّ به الداء، ومن نبذوا تاريخهم أو لغاتهم أو أديانهم أو الجميل من عاداتهم أو لم يقوموا بما وهبهم الله من أرض وعقول فينموها ويرقوها؛ أهلكهم الله وأذلهم كما فعل بالأمم السالفة.

حكاية مصرية

أخبرني منذ أيام مفتش من أفاضل المفتشين بوزارة المعارف المصرية قال: لقد ألّف «فلان» الإفرنجي كتاباً في علم الفلسفة العربية لا أفهم له معنى ولا أعقل فيه لفظاً؛ عبارات غامضة؛ وآراء خاملة؛ وعلوم خاطئة؛ ولحن مشين؛ وعلم ركيك. قال: فوالله لقد طلب مني تقرير هذا الكتاب بوزارة المعارف ثلاثة وزراء على التوالي، فما أجبت لهم سؤلاً ولا أطعت لهم أمراً، ولقد تركت الوزارة هارباً ورجعت إلى العلم تائباً. انتهى.

أقول: إن سبب هذا أن الفرنجة لاحتلالهم بلادنا قبل استقلالنا يأمرون الوزراء أن يجعلوا كتب أبناء ملتهم هي التي تكون في مدارسنا، لأنهم يعلمون أنها لا تسمن ولا تغني من جوع، والوطنيون يجيبونهم لذلك حفظاً لمراكزهم، واستبقاء لمرتباتهم، وقياماً بأوامر المسيطرين عليهم.

حكاية أخرى مصرية

إني أول ما ألفت من الكتب كتاباً يسمى «جواهر العلوم» فقرره المفتشون في المعارف، فلما علم بذلك وزير المعارف ـ وكان متخرجاً من مدارس «الفرير» وهو من نسل تركي ـ أخذ الكتاب وقرأه فرأى أن فيه مزج العلم بالدين؛ فلم يرقه ذلك، فعمد إلى الأمر بعدم تقرير الكتاب، وذلك لأنه على غير المبادئ التي تعلمها، وعلى غير النظام الذي تلقاه عن المبشرين الأوربيين. اهـ القسم السادس.

القسم السابع

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾

﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

لقد علمت أن هذا القسم إنما هو درس على القصص المتقدمة ، ولقد جاء في أول السورة ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾[الآية : ٤] وأبان أن الهلاك ليلاً أو نهاراً . وقد جاء عند الآيات الكونية ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾[الآية : ٥٦] .

ولمّا كان أكثر الناس لا يعقلون ما يرون في الأرض والسماء من العجائب التي ذكرت في القرآن وغيره ، أبرزها على لسان الأنبياء ، كما تقدم عن شعيب عليه السلام . فإذا قال الله تعالى : ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾[الآية : ٥٦] عند ذكر السماوات والأرض أمر شعيباً أن يقولها ، لأن الجاهلين لا يفقهون إلا بالقصص ، وكأن الأنبياء صدى صوت الوضع الإلهي في الأرض والسماء ، فإذا كان الله جعل العالم منظماً ؛ ومن لم يسر على النظام حرم من ثمرته بطريق العقل ، هكذا قال الأنبياء كما ظهر في وضع الكون ونظامه ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنعام : ٨٣] .

هذا ممّا ظهر في أثناء القصص ، فانظر كيف ألقى الله درساً عامّاً على الأمم تثبيتاً لما ألقاه في أول السورة ، فأفاد أنه سبحانه يأخذ القرى بالخوف والبلاء والأمراض والأوجاع ، عسى أن يتذللوا لله ، ثم تغدق عليهم النعم حتى يكثر زرعهم وضرعهم فيقولون إذا رأوا تعاقب الخير والشر وقد أثروا وتنعموا : ماذا يضرنا ؟ لقد كان آباؤنا يتقلبون في الأمرين ؛ النعيم والبؤس ؛ والخير والشر ؛ والنعمة والضر ؛ فيأتيهم العذاب وهم لا يشعرون . ثم قال : إن البركات من السماء والأرض مرتبات على الإيمان ، لأنه يوجب الاتحاد وصفاء الأخلاق وهذان يدعوان إلى الخيرات والبركات . ثم أعاد الدرس السابق في أول السورة فكما قال هناك : ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾[الآية : ٤] .

وقد ذكر القرى التي أشار إليها ، فأهل لوط جاءهم العذاب بياتاً ، وقوم شعيب جاءهم نهاراً ، هكذا قال هنا : هاأنتم أولاء قد سمعتم ما حل بالأمم ، فقوم هلكوا ليلاً ، وقوم هلكوا نهاراً كما قلنا ، أفأمنتم أن ينزل عليكم العذاب ليلاً أو نهاراً كما سمعتم؟ أقول : والله لا نأمن ذلك ، لأن الحروب في العصر الحاضر تأتي للأمم الغافلة وهي على غير استعداد ، وقد جعل الله هذا القرآن ذكرى لنا ، ولقد رأينا الطيارات تحوم في الجو فتحرق قرى المسلمين تارة ليلاً وتارة نهاراً في العراق وفي الشام وفي بلاد الغرب كما كان في الأمم السابقة . فإذا قال الله : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا ﴾ الخ ، نقول : والله لا نأمن يا الله ، فإن العذاب الذي ذكرته قد عايناه بأنفسنا ولمسناه بأيدينا ، وأصبح المسلمون اليوم حيارى سكارى من شدة الجهالة العمياء واتباع الشهوات . إن المسلمين اليوم مساكين لجهل بعض علمائهم ، وشهوات بعض كبرائهم وهم غافلون تائهون ، وسيصلح الله أمرهم ويلم شعثهم عما قريب . حقق الله الآمال .

ثم يقول: هل أمنتم مكر الله؟ أوليس نظامه يقضي أن يهلك الذين لا ينفعون، وكيف يضل الناس وهم قد ورثوا أرضاً بعد فناء أهلها وهم يطلعون على آثارهم ويدرسون تواريخهم، كما يدرس الناس اليوم تاريخ قدماء المصريين وأهل سبأ والمعينيين، وأهل أمريكا القدماء والآشوريين والبابليين. يقول: إنكم أيها الناس تقرؤون تاريخهم وتطلعون على آثارهم وأنتم تعلمون أنهم ما هلكوا بعد عظمتهم ولا ذلوا بعد أنفتهم إلا بعد أن غيروا نظمهم وعصوا علماءهم وطغوا وظلموا، فعاقبناهم وجعلناهم مثلاً لكم، أفلا تخافون أن أطبع على قلوبكم ـ أي: أختم عليها ـ فلا تفهم الحقائق لتراكم الضلالات والبدع عليها، فلا تعرف الحق وتكون الحياة كلها تقليداً وجهلاً.

يا محمد، أنا قصصت عليك قصص تلك القرى وقد كذبوا الأنبياء، وقد طبعنا على قلوبهم هكذا نطبع على قلوب الكافرين لمشابهتهم لهم في الأعمال، فتشابهوا في النتائج.

إن أكثر الأمم لا عهد لها، إن أكثر أهل الأرض فاسقون، لأن العالم الأرضي مقدمة لعالم أعلى منه، وليس عالماً تاماً كاملاً والناس فيه أطفال جهّال وسينقلون في عالم أرقى بعد الموت ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: ١٩].

تفسير بعض ألفاظ الآيات

﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾ البؤس والفقر، ﴿ٱلضَّرَّآءِ﴾ المرض، ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ يتذللون، ﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء نعمة ورخاء، ﴿عَفَواْ﴾ كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم يقولون: عفا النبات، إذا كثر. وقوله: ﴿أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: التي أرسل إليها الأنبياء ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالمطر والنبات، أو لآتيناهم بالخير من كل وجه، وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أي بكفرهم، وقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ عطف على قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وما بينهما اعتراض، والمعنى: أبعد ذلك أمن أهل القرى، وقوله: ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: تبييتاً، أو وقت بيات أو مبيتين، وهو في الأصل مصدر بمعنى: البيتوتة، وقوله: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ حال من ضمير: «هم» البارز أو المستتر في «بياتاً»، وقوله: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: أغفلوا وأمنوا، وقوله: ﴿ضُحًى﴾ أي: ضحوة النهار، وهو في الأصل: ضوء الشمس إذا ارتفعت، وقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يلهون من فرط الغفلة؛ أو يشتغلون بما لا ينفعهم، وقوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ هذا تقرير لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ و«مكر الله» استعارة لاستدراج العبد وأخذه من حيث لا يحتسب، وقوله: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الذين خسروا بالكفر وترك النظر والاعتبار، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ أي: أولم يبين فلذلك عدّيت باللام، وقوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ﴾ أي: أن الشأن لو نشاء ﴿أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ و«أن» وما بعدها في تأويل مصدر فاعل «يهد»، وقوله: ﴿وَنَطْبَعُ﴾ أي: نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ معطوف على ما يؤخذ من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ كأنه قيل: أيغفل الناس، فلم يبين لمن يرثون أرض من خلا قبلهم أنّا قادرون أن نصيبهم بذنوبهم، ثم قال: ﴿وَنَطْبَعُ﴾ كأنه يقول: يغفلون ونطبع، ويصح أن يكون مستأنفاً وهو أسهل، وقوله: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: التي ذكرناها، وهو مبتدأ خبره ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ الخ وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات، وقوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ أي: لأكثر الناس أو لأكثر الأمم المذكورين ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي: وفاء عهد، فإن أكثرهم نقضوا ما عهد الله إليهم في الإيمان والتقوى

بإنزال الآيات ونصب الحجج، أو ما يعطون من العهود وهم في مخافة فيقولون: ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢]، ﴿ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾ «وجدنا» علمنا، و«إن» هذه هي المخففة، واللام فارقة، ويقول الكوفيون: «إن» نافية واللام بمعنى «إلا» كأنه قيل: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين. انتهى القسم السابع.

القسم الثامن من سورة الأعراف

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ

وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾
وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ
لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ
إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا
غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى
بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ
يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ
يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ
﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا
وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ
يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا
مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ
هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا
وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ
مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ
قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ
بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ
شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ
لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ
ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ
مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ
وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا
رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا
قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ
إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ

ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ
﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ
ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا
فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ
﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ
أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم
بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ
فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ
وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى
رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟
بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن
قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ
عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟
مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ
ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ
خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى
كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا
يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ
تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً

خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾

قد أخّر الله عزّ وجلّ هذه القصة لطول الكلام عليها، ولما فيها من العبر والآيات، ولقد كان زمانها بعد ما تقدمها، وكم فيها من عبرة، وكم فيها من حكمة. ألم تر كيف كان موسى عليه السلام تارة يحاجّ الفراعنة ويدعو إلى الله، ثم يحاجّ قومه ويعظهم أخرى. وكيف أفادت تلك المحاورات الفرعونية ما كان في مصر من المجالس النيابية والحكومات الشورية مع وصفهم بالظلم وبعدهم عن العدل مع الغرباء؛ ثم كيف استبان ما للإيمان المبني على العلم من الأثر الشريف والفضل المنيف، وكيف كان السحرة أثبت إيماناً وأعلى بياناً من جهلة بني إسرائيل إذ قالوا: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ وكيف رضي السحرة المصريون أن يموتوا وهم موقنون ورضوا بالقتل وهم مسلمون وكيف عبد بنو إسرائيل عجلاً مصنوعاً من الذهب بعد ما رأوا العصا قلبت ثعباناً، فهم بذلك أشبه بالصبيان يفرحون بالحلوى، حتى إذا سئموها أكلوا غيرها، وكالذين يبيعون الرطب من النخل الذي هم زارعوه، يأكلون رطباً كثيراً فإذا سئموا منه أكلوا سمكاً مملحاً، وهكذا شأن جميع الناس في أمورهم الجسمية يستحبون تغيير المناظر والأطعمة والملابس والأزياء والسفر إلى البلدان ترويحاً للنفس من عناء الأعمال.

فالعالم المادي كثير التلون والتغير وعلى ذلك لا ثبات له. فأما الثبات فليس يكون إلاّ لعالم المعنويات والبراهين العقلية والعلوم الرياضيات والحجج المنطقيات، فتلك هي العلوم الباقية والآراء الثابتة والأحوال الصادقة. فانظر كيف كان إيمان الجهل أضعف أثراً وأقل دواماً، وكيف أضل السامري بني إسرائيل إذ صنع لهم ﴿ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ فقال: ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾[طه: ٨٨].

وفي هذه الآيات دلالة أن الجهاد من المهد إلى اللحد، فإن موسى عليه السلام بعد أن حاجّ المصريين ونجا قومه وذهب إلى التيه معهم، أصبح في جدال وحوار معهم، وهم يكفرون تارة ويؤمنون أخرى، فهو محارب لعدوه وعلى حذر من قومه، ولكن العاقبة للمتقين، فقد فازوا بقبولهم الألواح،

واهتدوا بهديه وأصبحوا مؤمنين. فهذه القصة تعطي علم الصبر، وأن النجاح يتبعه، وتفيدنا أن الإيمان اليقيني لا سبيل إليه إلاَّ بالعلم، ولا نجاح لأمة إلاَّ بالعلم، فأما التقليد فإنه شر مستطير. فالأول كالسحرة، والثاني كبني إسرائيل، وتعلمنا أن الإنسان مجاهد ما دام حياً، فلا يركنن إلى أحد فإنهم جميعاً متقلبون، وليس الحذر من الصديق بأقل قوة من مقاومة العدو، بل الأولياء والأصدقاء هم الذين يراقبون، لأن القلوب متقلبة والنفوس الإنسانية غير ثابتة، كالمادة التي فيها يتقلبون، وأيضاً هؤلاء ملازمون، والأعداء مفارقون، والمعاشر إذا ضرب لم يخطئ في ضربته، بل يصيب المرمى، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس» وذلك لما رجع من إحدى الغزوات، وترى هذا واضحاً في هذه القصة، فإن موسى كانت عداوة فرعون له وقتية ونجا منه. أما قومه وأهله فقد تلوّنوا مرات كثيرة: سئموا المن والسلوى، وعصوا أن يدخلوا الباب سجّداً، وعبدوا العجل، وهكذا فلا تظهر عورات الأمم إلاَّ في حال أمنها، أما في حال الخوف فإنهم بالعدو مشغولون.

وهؤلاء لم تظهر عيوبهم إلاَّ بعد أن خرجوا من مصر، فتفرغوا لما استعدت له نفوسهم من التلوّن والتفرّق والغباوة والشك والإشراك، ولذلك ختمت هذه القصة بآية أخذ العهد، وسيأتي أن العهد الذي أخذه الله على الناس يرجع إلى نظام العالم وجماله، وكأنه ناطق بفصيح العبارة أن الله لا رب سواه، وأردف ذلك بقصة من هو عالم وترك العلم فلم يعمل به، وعصى وانسلخ منه وصار شيطاناً مريداً.

فأهم ما في هذه القصة العلم اليقيني، ولا يكون إلاَّ بالنظر في الطبيعة، بدليل العهد المأخوذ على الناس في مناظر الأرض والسماوات، ويتلو العلم الصبر والأخلاق الفاضلة، وتكون النتيجة الفوز والنجاة. وتعجب كيف تكون هذه القصص كلها على نسق واحد وقد كانت تتلى على المسلمين وهم ضعفاء، فتقوى عقائدهم، ثم كيف أصبحوا أقوياء مشاكلة لقصص الأنبياء. هكذا تكون العلوم، وهكذا تكون المعجزات، وهذه هي الفوائد المستنتجة من الآيات، لا فائدة إلاَّ بنحو ما ذكرناه، ولا نفع إلاَّ في نحو ما حررناه.

فأما القراءة اللفظية والتفسيرات الحرفية فإنَّما هي شأن المقرئين وقراء القرآن المجوّدين، ولكن حياة الأمم بالاستنباط والاستدلال، والرقي بغير ذلك وأمثاله محال.

ولنبدأ بالتفسير اللفظي فنقول: قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ الضمير للرسل في قوله: «ولقد جاءتهم رسلهم» ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ فكفروا بآياتنا، أجري مجرى الكفر لأنهما من واد واحد. وفرعون لقب لكل من ملك مصر، ككسرى لملك فارس ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي انظر يا محمد بعين العقل والبصيرة كيف فعلنا بهم وكيف أهلكناهم ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ إليك، قال فرعون: كذبت، فقال موسى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي أنا حريص على أن لا أقول على الله إلاَّ الحق ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فخلهم يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدسة التي هي وطنهم.

وذلك أن يوسف عليه السلام لما توفي غلب فرعون على نسل الأسباط واستعبدهم، لأن المصريين القدماء كأهل الصين لا يسمحون للغريب أن يطأ بلادهم، ولكن لما دخل العرب العمالقة مصر واستوطنوها نحو خمسمائة سنة، أباحوا دخول الأجانب كالعبرانيين. ولما شبّ يوسف عليه السلام وعظم شأنه، وأصبحت في يده خزائن مصر، أرسل إلى أبويه وإخوته، فأتوا مصر، وبعد مدة رجع المصريون إلى فكرة الخوف من الأجانب فاضطهدوا بني إسرائيل بحكم تنازع البقاء، فجاء موسى وقال لفرعون: ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾. والمدة بين دخولهم أيام يوسف وخروجهم أيام موسى الذي أنقذهم أربعمائة سنة ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ ﴾ من عند من أرسلك ﴿ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فائتني بها لتصح دعواك ويثبت صدقك فيها ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ﴾ «إذا» هي للمفاجأة، وهي ظرف زمان بمنزلة ثمت، وهنالك ﴿ ثُعْبَانٌ ﴾ حية عظيمة، وقوله: ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر.

روي أنه لما ألقاها صارت ثعباناً أشعر فاغراً فاه، بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون فهرب منه، وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم ٢٥ ألف نسمة الخ. وهذا لم يذكره القرآن فلا نعرف إلاّ ما جاء به، أو ما يثبت في أحاديث قام البرهان على صحتها. وعلى كل فالمهم في هذا كله العبرة من هذه القصص، فالقصص تذكر بمناسبتها العلوم، وما عدا ذلك يكتفي به القاصرون.

واعلم أن هذه الحية العظيمة كانت خفيفة الحركات، فمن يراها يظن أنها جانّ أي حية صغيرة كما في آية أخرى: ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾[النمل: ١٠] أي في خفة الحركة، فهي كبيرة الجسم خفيفة الحركة ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ ﴾ من جيبه أو من تحت إبطه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ معناه أن البياض لم يكن من جبلتها وطبيعتها، لأن سيدنا موسى عليه السلام كان آدم، شديد الأدمة فليس في يده بياض، فلما أدخلها وأخرجها إذا هي بيضاء نورانية، غلب شعاعها شعاع الشمس فصار بياضها للناظرين لا في جبلتها، ويصح أن يقال: بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة تجتمع عليه النظارة ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾.

ولقد جاء في سورة «الشعراء» قال فرعون: ﴿ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الآية: ٣٤]. اعلم أن مجلس الأعيان والنواب عن البلاد والملك على رأسهم متى تشاوروا في أمر وأقرّوه بعد المراجعة والمحاورة أصبح مقولاً لهم جميعاً، وإذا كان هذا قولهم هنا، وقول فرعون في سورة «القصص» ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [الآية: ٣٨]، فمعناه أن الأمر كان شورى، وكان الرأي متى تمّ عملوا به، بدليل أن الملأ قالوه هنا، وفرعون سيقوله في «الشعراء»، فإن الحكومة لا تعمل بالمشورة إلاّ بعد تمامها، فكان ذلك إشارة إلى الحكومة المنظمة إذ ذاك، يقول الملأ، ثم تقول الحكومة، وقول الملأ جعل في القرآن في السورة التي تقدمت على السورة التي ذكر فيها قول فرعون، وهذا من عجائب العلم والحكمة. تقول الأمة فتخضع الحكومة.

ومعنى كونه ساحراً عليماً أنه يأخذ بأعين الناس حتى يخيل إليهم أن العصا صارت حية، ويرى الشيء بخلاف ما هو عليه، كما أراهم يده بيضاء وهو آدم، وقد كان السحر غالباً في مصر ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ تشيرون في أن نفعل ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ ﴾ أي أرجئه، أي أخّره، أي

أخّر أمره، وقرئ: «أرجئه» على الأصل ﴿ وَأَخَاهُ ﴾ هارون ﴿ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ جامعين ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ ماهر بصناعة السحر ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ بعد ما أرسل لهم الشرط في طلبهم ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ وهذا جواب سؤال، كأنه قيل: ماذا قالوا إذ جاؤوا؟ ﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ إن لكم لأجراً ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ عطف على الجملة التي سدّ مسدّها «نعم» ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ خيّروا موسى مراعاة للأدب أو إظهاراً للجلادة، وإن كانوا هم أنفسهم يرغبون أن يلقوا قبله ﴿ قَالَ أَلْقُواْ ﴾ من باب الكرم وحسن الخلق والأدب اللائق بالأنبياء ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ بأن خيلوا إلى الأعين ما يخال الحقيقة ﴿ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ وأرهبوهم إرهاباً شديداً كأنهم طلبوا رهبتهم ﴿ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ في فنه. يقال: إنهم طلوا تلك الحبال بالزئبق، وجعلوا داخل العصيّ زئبقاً أبيض أيضاً، وألقوها على الأرض، فلما أثّر حرّ الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض، حتى خيّل للناس أنها حيات، والأرض إذ ذاك قد امتلأت بالحيات، ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه: ٦٧] لأجل فزع الناس أن يتفرّقوا قبل ظهور معجزته ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ فألقاها فصارت حية ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي تبتلع ما يزودونه من الإفك، والإفك هو صرف الشيء عن وجهه، يقال: إنها لما تلقفت حبالهم وعصيهم وابتلعتها بأسرها أقبلت على الحاضرين لتبتلعهم أيضاً، فهربوا وازدحموا حتى هلك جمع عظيم منهم، ثم أخذها موسى فصارت عصا كما كانت، فقال السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ فثبت لظهور أمره ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من السحر والمعارضة والإفك ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾ أي صاروا أذلاّء مبهوتين، أو رجعوا إلى المدينة أذلاّء مقهورين، والضمير لفرعون وقومه ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ لله، أي إن الله حملهم على السجود حتى ينكسر فرعون وينهزم بمن أتى بهم عدّة ليكسر بهم موسى، وانقلب الأمر عليه، فإن الحقيقة تظهر ويخدمها ما هو في جانبها وما هو في صف عدوّها على السواء فالحقيقة غالبة ولو بعد حين، وما دام الإنسان على الحق فإنه غالب لا محالة ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ بالله أو بموسى ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ ﴾ أي إن هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى ﴿ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ في مصر قبل أن تخرجوا للميعاد المضروب ﴿ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ يعني القبط وتخلص لكم ولبني إسرائيل ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة ما فعلتم، وهذا تهديد مجمل، ثم فصله فقال: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ من كل شق طرفاً ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً وخزياً لكم وعبرة لغيركم ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ بالموت فلا نبالي بوعيدك. وقيل في المعنى:

وإذا لم يكن من الموت بدّ ... فمن العجز أن تكون جبانا

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ ﴾ وما تنكر منا ﴿ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ أي ما تنكر منا إلاّ إيماننا، ولا جرم أن حرية الفكر هي مبدأ السعادات، فإذا لم نكن أحراراً في آرائنا، فالقبر خير لنا ولم يبق لنا إلاّ الرجوع إلى الله ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أي هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا كما يفرغ الماء إفراغاً ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ ثابتين على الإسلام.

قيل إنه لم يفعل بهم ذلك فلم يقدر على إنقاذ وعيده فيهم لما جاء في آية أخرى: ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[القصص: ٣٥] وهنا قد فرغت المحاجة وخذل القوم من جهة السحر، وعادة القوي أن يستعمل الحجة، فإذا بطلت استعمل القوة وهذه عادة الأقوياء مع الضعفاء، وأوروبا مع أهل الشرق ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أرض مصر بالاستعلاء فيها وتغيير دين أهلها ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ معطوف على «يفسدوا».

ومعلوم أن مصر فيها معابد كثيرة وفيها أبو الهول وغيره، وكانوا كالصابئين يعبدون الكواكب ويجعلون لها على الأرض أصناماً تبنى لتأخذ بألباب العابدين، ولهم جداول وفقية للكواكب السبعة وفيها حساب دقيق قد ذكرت ملخصه في أول سورة «البقرة»، وأن الله هو الواحد فله عدد (١)، وأما المادة التي بها هذه الكائنات فلها عدد (٢)، وزحل (٣)، والمشتري (٤)، والمريخ (٥)، والشمس (٦)، والزهرة (٧)، وعطارد (٨)، والقمر (٩)، وقد كانوا يجعلون لها مربعات يكتبونها في صحائف من ذهب في أوقات خاصة لمنافع يزعمون أنهم ينالونها، وتلك المربعات ناشئة من ضرب العدد في نفسه. فمثلاً المشتري له عدد (٤) وشكله (١٦)، وتجد الأعداد في الطول والعرض إذا جمعتها تكون متساوية، وهي تبتدئ بواحد وتنتهي بعدد (١٦)، وكل صف أفقي أو رأسي أو قطر من القطرين مجموعه (٣٤)، فإذا كان الصف الأعلى (٤) و(١٤) و(١٥) و(١) والذي تحته (٩) و(٧) و(٦) و(١٢) فإنك تجد كل واحد (٣٤) وهكذا.

ولعلماء الارتماطيقي في هذه الأشكال قواعد يمكن وضعها بها في غاية السهولة، ويظهر أن هذه الأشكال كانت تخلب عقولهم إذا علموا أن حسابها منظم مدهش، فتحدث في النفس الإنسانية استهواء فتصير في حال أشبه بحال التنويم المغناطيسي، فبمثل هذا كانوا يعبدون الصور المصنوعة، والصور المصنوعة قائمة مقام الكواكب، والكواكب من صنع الله الذي هو الواحد، وهي من تكرار الواحد، فلولا الواحد ما كان الاثنان، وهو المادّة، ولولاهما ما كان الثلاثة، وهو زحل، وهكذا فكل واحد هو وما قبله سبب فيما بعده، كما أن كل عدد هو وما قبله علة لما بعده. هذه هي الآراء التي كانت فاشية عند أكثر الأمم القديمة.

ومعلوم أن فراعنة مصر كانوا ينسبون للعلوم العلوية انتساباً خرافياً، كملوك الصين وملوك اليابان، ولولا بطلان الآراء القديمة ما تقدّم نوع الإنسان، لأنه إذا كانت الكواكب السبعة هي التي وقف عليها علوم البشر، وحاموا حولها، وجعلوا النظام الإلهي الشمسي قاصراً عليها حتى تصل إلى القمر الذي من تحته عالمنا الأرضي، فما كان يتسنى للناس أن ينظروا السيارات الجديدة مثل «أورانوس ونبتون»، كما أوضحناه في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام في سورة «الأنعام».

فلما قال الملأ من قوم فرعون ذلك، ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ صغاراً كما كنا نقتلهم قبل ولادة موسى ﴿ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ نتركهن أحياء لنستخدمهنّ وذلك لنقلل عدد بني إسرائيل الذين يغترّ بهم موسى ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ وهم مقهورون تحت أيدينا ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ لما سمعوا قول فرعون وتضجروا منه، وذلك ليسكن قلوبهم ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ هذا وعد لهم بالنصر، وأنهم سينجون

من قبضة المصريين والأرض للجنس لا للعهد، وإلاَّ فبنو إسرائيل لم يملكوا القطر المصري ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي بنو إسرائيل ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا ﴾ بالرسالة بقتل الأبناء ﴿ وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ بإعادته ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي جنس الأرض وهي هنا فلسطين، وهذا وعد صريح بعد التلويح زيادة في التثبيت لزيادة الشكوى وتكرارها ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ فيرى ما تعملون من شكر وكفر وطاعة وعصيان، فيجازيكم على مقتضى أعمالكم، وحقيقة قد فعل بهم ذلك لأنهم لما خرجوا إلى فلسطين كانت لهم حكومة جمهورية، ثم حكومة ملكية، ثم طغوا في الأرض فأذلهم الله على يد بختنصر، فغرقهم في جهات أصبهان، ثم رجعوا وعصوا أيام عيسى عليه السلام، فأجلاهم الروم الجلوة الكبرى قبل انتهاء القرن الأول المسيحي، ولم يرجعوا إلى الآن. نعم في هذه الأيام أرجعهم الإنجليز في الحرب الكبرى، ولكن لا ندري ماذا يصنع الله بهم بعد الآن. هذا معنى قوله تعالى: ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ فليس مجرد النصر كافياً، كما أنه ليس مجرد الانتساب إلى الإسلام كافياً، فالمدار على الأعمال.

الآيات التي أنزلت على موسى عليه السلام

اعلم أن قصة موسى في التوراة ذكرت في سفر الخروج، فذكر في أوائله أن بني إسرائيل بعد موت يوسف تغيرت حالهم عند الملوك الذين جاؤوا من بعد، فقالوا: إن بني إسرائيل قوم أجانب عنا، وإذا حدثت حرب ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا، ويفسدون في الأرض، فسخروهم وأذلوهم وجعلوا عليهم رؤساء من المصريين ليسخروهم، فبنوا لهم مدينتين، وهما: «مخازن فيثوم ورعمسيس»، وكانت أهم أعمالهم في الطين والتراب وعمل الزراعة، فهم يصنعون اللبن للبناء، ويزرعون الحقول، وكان ما كان من قتل الأطفال ونجاة موسى من القتل وهو طفل، وكيف كبر موسى ونصر الإسرائيلي على القبطي، ثم فرّ وتوجّه إلى شعيب وتزوج ابنته بمدين، وكل هذا سيأتي في سورة «القصص»، والتوراة قد أطالت القول فيه، ثم رجع بامرأته، فأوحى الله إليه لما رأى النار في شجرة العليق وأمره بأن يخاطب فرعون فامتثل أمر الله. ولما رجع إلى مصر أظهر آية العصا وآية اليد لبني إسرائيل فآمنوا. ثم توجه إلى فرعون ومعه أخوه هارون بأمر الله، فقالا لفرعون، وهذا نص التوراة:

«هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليعبدوني في البرية. فقال: من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه. ثم زاد الكرب والضغط على بني إسرائيل بحيث كانوا يؤمرون بجمع التبن لأجل ضرب اللبن فضلاً عن عدد اللبن المطلوب منهم المفروض على كل منهم».

يقول في التوراة: إن موسى حينما دخل على فرعون كان ابن ثمانين سنة، وهارون كان ابن ثلاث وثمانين سنة، وأمره الله أن يلقي العصا أمام فرعون، فصارت ثعباناً. ويقول: إن السحرة المصريين رموا عصيّهم فصارت ثعابين، فابتلعت عصا موسى عصيهم، والذي رماها هو هارون بأمر موسى. ثم لما لم يمتثل فرعون ولم يرسل بني إسرائيل أمر الله موسى أن يقول لفرعون: «هاأنا ذا أضرب العصا التي في يدي على الماء الذي في النهر فتحوّل دماً، ويموت السمك الذي في النهر فيعاف المصريون أن يشربوا ماء من النهر الخ».

ولم يمتثل فرعون بعد ذلك، ولم يطلق بني إسرائيل، فضرب هارون العصا بأمر موسى على الأنهار والسواقي الخ، فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر، وفي كل مرة يستغيث فرعون ويقول: أرسلهم معك، ثم بعد زوال المصيبة بدعاء موسى وهارون يغدر عليهما، ثم كان ضرب العصا أيضاً، فعمَّ البعوض بلاد مصر، ثم الذباب، ثم موت المواشي، ثم الدمامل، ثم نزول البرد من السماء على هيئة مطر فتموت البهائم التي في الحقول، والنار كانت تلتهب في وسط البرد، ثم كان الجراد، ثم كان ظلام دامس.

فإذن الآيات المذكورة في التوراة اليد والعصا والدم والضفادع والبعوض والذباب وموت المواشي والدمامل والبرد والجراد والظلام الدامس، وقد جاء في هذه الآيات العصا واليد وقد تقدمتا، وقد ذكر غيرها من البقية فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾ بالجدب لقلة الماء، والسنة غلبت على عام القحط، لكثرة ما يذكر عنه ويؤرخ به، ثم اشتق منها فقيل: أسنت القوم، إذا قحطوا ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ بكثرة العاهات والآفات ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ لكي يتنبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم فترق قلوبهم بالشدائد فيفزعوا إلى الله ويرغبوا فيما عنده ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ كالخصب والسعة ﴿ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ لأجلنا ونحن مستحقوها ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ جدب وبلاء ﴿ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ يتشاءموا بهم ويقولوا ما حلّ بنا هذا البلاء إلاّ بشؤمهم وهذا من قساوة القلب، فإن المصائب إنّما تحلّ بالناس لترق القلوب، فأما هؤلاء فإن قلوبهم اشتدّت صلابتها، فهم كالطين يتماسك ويتصلب بإيقاد النار عليه بخلاف الماء وأنواع السوائل، فإن النار تلطفها، فالناس إذن قسمان: قسم تهذبه المصائب فهو كالمواد المستعدّة للذوبان، وقسم تقسي قلبه فهو كأنواع الأحجار والطين وما أشبه ذلك، ومنهم من يحتاج إلى نار شديدة فتهذبه كالحديد والنحاس، ثم قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ ﴾ سبب خيرهم وشرهم ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ في حكمه ومشيئته، والله هو الذي يقدّر ما يصيبهم من الحسنة والسيئة ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[النساء: ٧٨]، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني أيّما شيء تأتنا به، وبيّن «مهما» المفسرة بما ذكر بقوله: من آية لتسحر بها أعيننا وتشبه علينا ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾والضمير في «به» وفي «بها» لـ«مهما»، ولكنه مذكر أولاً باعتبار لفظ «مهما»، ومؤنث ثانياً لما بينت بلفظ «آية»، و«مهما» في محل نصب بفعل يفسره «تأتنا»، أو في محل رفع بالابتداء، ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ ما طاف بهم وغشى أماكنهم من مطر وسيل، وقيل الموتان أو الطاعون، وهذا القول الأخير قريب مما جاء في التوراة ﴿ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ ﴾ قيل هي البراغيث ﴿ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ﴾ وقد تقدم أكثر ذلك نقلاً عن التوراة ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ ﴾ إلى حدّ من الزمان وهم بالغوه لا محالة كما قدّرناه عندنا في علمنا القديم ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي فلما كشفنا عنهم العذاب فاجؤوا بنكث العهد ونقض الميثاق، ولقد تقدم ذلك في عبارة التوراة، فقد كانوا كلما عاهدوا موسى أن يدعو الله برفع العذاب، وبعد ذلك يأذنون له يأخذ بني إسرائيل فيدعو الله ويستجاب الدعاء، ينكثون، ثم يأمره الله بآية أخرى، وهكذا في كل مرة يعاهدونه ثم ينقضون الميثاق بعد ذهاب العذاب عنهم ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ والانتقام ضد الإنعام كما أن العقاب ضد الثواب ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ هو البحر وهو معظم الماء

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ وهم بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل والاستخدام ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي مشارق الأرض المقدّسة ومغاربها، وهي بيت المقدس وما يليه من الشرق والغرب، وهذا هو الذي تمّ فعلاً في التاريخ، وأما ذكر مصر في هذا الموضوع فهي خرافة دخلت في كتب التفسير، وهي كاذبة بأمرين: التاريخ، وهو معلوم، والقرآن، فإن الأرض التي بارك الله فيها في القرآن لا تطلق إلاّ على الأرض المقدّسة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١] فافهم. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦].
فهاهي ذه تمّت كلمة الله الحسنى لهم بأن ملكهم أرض بيت المقدس ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بسبب صبرهم على الشدائد ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ وخرّبنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من المباني العظيمة وبعض الأهرامات والعمارات ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ أي ما كانوا يسقفون من ذلك البنيان، أو ما كانوا يبنون من البيوت والقصور. وهذا تمام قصة فرعون وقومه. وهنا لطائف:

اللطيفة الأولى

قد علمت أيها الذكي أن هذا القصص جاء تذكرة لنا، وآيات موسى من الجراد والقمل والعصا واليد مضت في الأيام الغابرة والعصور الدائرة، وبنو إسرائيل الأولون قد ماتوا، ونحن الآن في عصر لا نهتم فيه إلاّ بما ينفعنا، لأن الله يقول: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]، فأما الذكرى لنا فاعلم أن النذر والآلام والبلايا إذا صبها الله على قوم، فإنه لا يريد إلاّ إيقاظهم ورقيهم، وهؤلاء القوم إما أن يكونوا كالطين كما قدمنا، فيزدادوا صلابة فيستحقوا النار، كاللبن المصنوع من الماء والطين والتبن، إذا ضربته الشمس صلب فيوضع في التنور فيزداد صلابة، وإما أن يكون كالثلج أو كالزبد، فإذا سلطت النار عليها لانت شكيمتهم وسلبت طبيعتهم، وانقادوا خاشعين خاضعين، كالماء ينزل إلى الأنهار فيجري، وكالسمن من الزبد.

ولقد فعل الله ذلك مع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأنزل عليهم ظلم الأمم التي حولهم مرة بعد أخرى على وفاق ما فعل الله في مصر على يد موسى وهارون عليهما السلام، وأقرب أمة الأندلس هؤلاء أبناء العرب إخواننا، أصابتهم مصائب متكررة من الفرنجة في قرون عدّة، فلم يزدادوا إلاّ حباً للشهوات، وقرباً من الظلم، وبعداً عن العدل، واختلاف كلمة وبعد مودّة وعذاباً واصباً ما له من دافع، فمزقوهم شر ممزق، وأسكنوهم اللحود خامدين، وورثوا أرضهم وديارهم وهم مطرودون. انتهت اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية

إن بني إسرائيل لما صبروا نجاهم الله وأسكنهم في بيت المقدس، وهكذا تتم كلمة الله الحسنى على كل أمة صبرت وجاهدت، ألا ترى أن دولة بولونيا قد مزقت بين ثلاث دول من أوروبا، أي بين الروسيا

وألمانيا والنمسا، فبقي أبناؤها حافظين ذكرى بلادهم وهم صابرون، حتى إذا جاءت الحرب الكبرى استقلت بلادهم وحفظوا كيانهم، فإذا تمت كلمة الله الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، فهي تتم على كل أمة صبرت ويقال لها: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ﴾ فإذا لم تكن بيت المقدس الذي لبني إسرائيل فهي الأرض التي أنبتهم الله منها. وهكذا اليونان والبلغار والسرب والجبل الأسود وأمم كثيرة جاهدت وصبرت فأخذت استقلالها وأصبحت أمة لا سلطان لأحد عليها، وانظر إلى دولة الترك ودولة الأفغان ودولة الفرس المسلمين كيف نبذوا الأجانب في هذه الأيام، وأخرجوهم من الديار بما صبروا وهم فائزون. وانظر إلى الأمم التي حكمتها دولة القياصرة أزماناً وأزماناً، وجعلوهم في حكم دولة واحدة وهي «روسيا» كيف استقلت بما صبرت، هذا هو الوعد الذي وعده الله للأمم، وهذا الوعد صادق على جميع الأمم، فلم يذكر ذلك في القرآن لأجل سواد عيون بني إسرائيل، وإنما هو لأهل المشارق والمغارب، فالصابرون هم الذين ينالون الاستقلال، لهذا أنزل القرآن. انتهت اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة: قوله تعالى:

﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ ﴾ الخ

اعلم أن مدائن بلادنا المصرية كانت كثيرة، وقد شاهدت بعيني رأسي المدينة التي هي قريبة من قريتنا، وهي قرب الزقازيق وتسمى «تل بسطة»، واسمها قديماً «بوبسطيس» باسم معبودهم وهو «بست»، وهي القطة، وقد وجدت محنطة هناك، فكنت أرى في حداثة سني بنيانها مرتفعاً ارتفاعاً شاهقاً جداً يعلو على كل بناء مشيد قديم العهد أو حديثه، وكأنها مدينة بنيت فوق مدينة، وهذه الأبنية عبارة عن آكام، وقد يكشف الناس عما تحتها، فيظهر بعض الجدران الذي عاش نحو أربعة آلاف سنة وكم وجدوا فيها من كنوز، وهذه المدينة بما حولها ربما بلغت أربعة آلاف فدان. أما الآن فقد انقشعت تلك الآكام ولم يبق إلاّ أطلال دارسة قليلة جداً تحافظ عليها الحكومة. وكم في البلاد من مدن مثل هذه أو خلقها الله فوجدناها مخرّبة لا يدري إلاّ الله كيف كان خرابها. وقد سألت أستاذي في علم التاريخ «إسماعيل بك رأفت»، فقال: خربت بزلزلة كبرى بدليل ما شوهد في معبد من معابد تلك المدينة أن الأعمدة مائلة، والله أعلم بغيبه.

وهذا هو قوله تعالى: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ ﴾، ثم بدّلت الحال بعد قرون، وبدّل الدين المصري القديم بالدين المسيحي والإسلامي. هذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ ﴾ الخ أيضاً. انتهت اللطيفة الثالثة.

اللطيفة الرابعة

اعلم أن تدمير ما صنعه فرعون وقومه لم يكن إلاّ في قرون متطاولة، وذلك لأسباب عمرانية وأخلاقية ودينية، وأهم ما أزال ملك المصريين القدماء خرافاتهم الدينية كما يشير لها القرآن، إذ كانوا في القرون الأولى قوماً عارفين بجلال الله وجماله. ومن غرامهم به بنوا في الأرض معابد عجيبة باقية للآن، ونصبوا هياكل قد شاهدنا آثارها في جهات منف وأهرام الجيزة وغيرها. ثم لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم بحكم السنن الإلهية في الأرض، واستدراج الأمم بما جبلوا عليه من التفنن والإغراق في

الدين، حتى يصبح الدين الجديد كأنه ليس من الأصل في شيء، مثلاً كانوا يقدسون الطيور لأن العلماء أمروهم بحفظها لتأكل الديدان فعبدوا بعضها بعد التقديس، فتقديسها بأمر الدين، وعبادتها إفراط؛ كذلك البقر مقدّس لمنفعته فعبدوه. ولقد شاهدت مدافن العجول التي كانوا يعبدونها في جهات «سقارة»، فوجدت هناك نحو ٢٤ مدفناً قد سرقت منها تلك العجول. وتلك المدافن لا تزال باقية، وهي أحواض زرق حجرية كبيرة، يزورها الناس للتفرج عليها، ولم تكشف إلاّ قريباً.

وهكذا توسع القوم في الأمور الجسمية وعبادتها، حتى عبد قوم جهة أسوان «الغنم» وآخرون «السمك»، ولا تزال ترى في المدافن سمكاً صبّروه، وغنماً من الذهب، تستخرج للآن، ويتنافس فيها المتنافسون من الفرنجة.

هذه أمة بعد أن كان نظرها إلى الكواكب والشمس، وأنها من نور الله، وكانوا صابئين، أصبحت أنظارها متجهة إلى العوالم الأرضية، ففسدت النفوس وخربت العقول. فانظروا ماذا جرى لما حضر الفرس بجيوشهم وعلى رأسهم الملك الفارسي، قاتلوا جنود المصريين، وقد عرف الفارسيون ضعف عقول المصريين وعقائدهم، فأحضروا القطط المعبودة عندهم المقدسة في دينهم، فأوقفوها بين الصفين، فتحرّج المصريون من ضربهم خيفة على القطط التي هي آلهة في الأرض، فأوغل الفارسيون فيهم قتلاً وأسراً، ومن ذلك الحين سقط مجد مصر وهوت إلى أسفل سافلين. فانظر كيف كان الدين سبب الهلاك بهذا خربت مصر، ولهذا قال الله: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾. انتهت اللطيفة الرابعة.

اللطيفة الخامسة

كما أن المصريين تدلوا في الدين ونزلوا في العقل، هكذا كثير من الأمم الإسلامية تفرّقوا شيعاً بمثل الطريقة التي تفرّق بها المصريون سواء بسواء، وانحطت دولهم بسبب التفرق الديني، ألم تر كيف ذلت النفوس وصغرت العقول، وأصبح كل فريق من أرباب الطرق يختص بأهل طريقته، ولا يعتقد الفضل إلاّ فيهم، ثم يقوم آخرون وهم يتغالون في شيوخهم، ولا يزالون يقدّسونهم حتى يخيل لمن يراهم أنهم على دين غير دين الإسلام، وهذا هو التغالي في الدين.

ولقد علمت أن شيخاً عالماً أزهرياً قد اتبعه عشرات الألوف في مصر وفي مدنها وفي قراها، وذلك في زماننا الحاضر، وقد تمسك بأمور مثل أن «العذبة» التي تنزل من العمامة فرق بين المسلم والكافر، ويتمسك بأن بعض البدع تورث الكفر حتى اعتقد أتباعه أن المسلمين جميعاً كفار وهم المؤمنون.

وهكذا قام آخر منا معاشر المصريين واستباح لنفسه أن يذكر أتباعه اسمه مائة ألف مرة في اليوم فكما يقولون: الله، يقولون: فلان. وهكذا أمة الإسلام أصبحت اليوم فرقاً ذاق بعضها بأس بعض. وكما رأيت أن «قنبيز» الملك الفارسي غلب المصريين بأمر ديني، هكذا ترى أهل أوروبا ضحكوا على عقول المسلمين واقتطعوا منهم طوائف لغلوّهم في أمور دينهم أو تفريطهم.

إن المسلمين ظنوا أن الدين هو ما في كتب الفقه وحده، ولو أنهم عرفوا أن القرآن أوسع ألف مرة من الفقه، ودرسوا ما فيه، وانتبهوا لأمثال ما نذكر الآن، لكانوا أقرب إلى التعاون. ولكن القرآن من أيام الأئمة الأربعة رضي الله عنهم تركه الناس استغناء عنه بالفقه، وأفهمهم العلماء أن خلاصة

القرآن الفقه، وما عدا ذلك فإنّما هو بركة يتبرك به الناس لا غير، فبهذا أصبح المسلمون شيعاً، وظنوا أن فروع الفقه هي الدين، والحق أنها سياج الدين وحارس الدين لا نفس الدين. أما نفس الدين فهو عجائب هذا القرآن كالتي نذكرها الآن، لتقريب فهم مقاصده ومراميه إلى الأذهان، لتهذيب العقول ورفع منزلة النفوس وتدميث الأخلاق وتوسيع المدارك.

وسيقوم بها قوم أعلى مقاماً وأرفع نفوساً في العلم وأطول في الفهم باعاً ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النور: ٤٦]. واعلم أنه لا سبيل لرقي المسلمين إلاّ بأمر واحد، وهو تعميم العلم، ونشر العلوم الطبيعية والرياضية، والتأمل في عجائب السماوات والأرض مع التحلي بالدين، فإنهم بذلك تتفق مشاربهم وتقوم قائمتهم. فالعلوم وتعليمها هي الدواء، وما عدا ذلك فهو هراء وهواء. انتهت اللطيفة الخامسة.

اللطيفة السادسة

إن هذه القصة تخصّ بلادي وأهلها المصريين، فنحن وقومنا سكان وادي النيل وقد ورثنا أرضهم، ورأينا آثارهم، وبلادنا كانت مراتع الأجانب منذ أيام «قنبيز» للآن، ولم نقدر أن نتخلص منهم إلى الآن منذ ألفي سنة فأكثر. ولكن في هذه السنة حين تأليف هذا الكتاب قد نال قومي حكماً ذاتياً، ولنا مجلس نواب ومجلس شيوخ، عسى الله أن يتم أمرنا ونفوز بالاستقلال، ويرجع الفلك إلى دورته الأولى. والله هو الولي الحميد. انتهى الكلام على قصص فرعون وقومه، ولطائف ذلك الستة.

ثم أخذ سبحانه يبيّن عقول بني إسرائيل، وما هو مقدار تطورهم وفهمهم بعد أن نجوا من أرض مصر، فإن شأن الإنسان إذا مسته البأساء أن يتضرع، حتى إذا نجا من الهلاك طغى، فأما فرعون وقومه فقد تقدّم القول فيهم، وهذا القول خاص ببني إسرائيل، وفيه ذكر:

(١) طلبهم عبادة الأصنام وردّ موسى عليهم، وكيف سفه أحلامهم.

(٢) وذكر وعد الله لموسى بالمناجاة وإعطاء التوراة، وكان ذلك بعد إتمام (٤٠) ليلة.

(٣) وذكر استخلاف موسى لهارون وذكر بعض وصايا التوراة.

(٤) وذكر اتّخاذ قوم موسى عجلاً من الحلي، كما اتخذ المصريون العجل «ابيس» معبوداً.

(٥) وذكر رجوع موسى لهارون وقومه واعتذار هارون له.

(٦) وذكر اختياره السبعين رجلاً من قومه ليتوجهوا معه.

(٧) وذكر الاستطراد بمدح الأمة المحمدية التي بشر بها التوراة والإنجيل.

(٨) ونداء الناس جميعاً أن نبينا صلى الله عليه وسلم رسولهم.

(٩) وقصتهم في السبت والحكم عليهم بتفريقهم في الأرض شذر مذر. فهذه تسع مباحث وإليك بيانها.

المبحث الأول

قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ فصاموا يوم عاشوراء شكراً لله تعالى ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ﴾ يقيمون ويواظبون ﴿عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ تماثيل بقر. يقال: إنهم كانوا نازلين بالرقة، أي: ساحل البحر ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ لأن الله لا نراه وهذه نراها فنعبدها

لتقرّبنا إلى الله زلفى ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ وكيف تطلبون ذلك بعد ما عرفتم كفر المصريين لعبادتهم الأصنام والتماثيل ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ أي مكسر مهدم، فالله يهدم دينهم الذي هم عليه، فالديانات التابعة للصورة متقلبة كتقلب الصور لا ثبات لها ﴿ وَبَٰطِلٌ ﴾ مضمحل ﴿ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من عبادتها، وإن قصدوا التقرب بها إلى الله تعالى ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا ﴾ أطلب لكم معبوداً ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الجملة حالية، ومن شأن الإنسان ألا يحمد الله إلاّ على الصفات الخاصة بنفسه والامتياز الذي له على غيره وهذا شأن أكثر الناس لجهالتهم، وإلاّ فالله عند التحقيق يشكر على النعم العامة والخاصة، بل العامة أولى، فهنا ذكر لهم أنه فضلهم على العالمين. ثم أردفه بنجاتهم إذ قال: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي واذكروا صنيعه معكم في هذا الوقت حال كونهم يسومونكم الخ، ثم أبدل منه قوله: ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم ﴾ أي وفي الإنجاء أو العذاب ﴿ بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ نعمة أو محنة عظيمة. انتهى المبحث الأول.

المبحث الثاني

إنّما ذكر الله هذه المباحث التي تتعلق بجهل بني إسرائيل، ليثبت قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يصيبه من قومه، فليس نصره في غزوة أحد وبدر وأمثالهما مما تقدم ذكره في سورة «آل عمران» بدافع ما سيفعله المنافقون من الكذب والافتراء على دين الإسلام، كما فعل بنو إسرائيل، وليبيّن للمسلمين كيف كانت الأمم جاهلة فيحترسون من جهلهم. ولما أبان جهلهم ذكر بعد ذلك ما أنعم الله به على موسى إذ علمه التوراة وناجاه، وهذا جزاء المحسنين، فإنه نفع قومه وأخرجهم من الذل، فأخذوا يرتدّون، والله يجزي المحسنين فيزيدهم من فضله. فإذا جهل قوم موسى فإن الله قرّبه إليه واصطفاه وأنزل عليه التوراة، فإن جزاء العبد عند ربه لا عند الناس.

هذا ما يفيده هذا المقام، فليصبر الإنسان على ما يصيبه من الناس، فذلك مقوّ لروحه كما قويت نفس موسى حينما آذاه قومه بعد إيذاء فرعون وقومه. ثم قال تعالى: ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً ﴾ ذا القعدة ﴿ وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾ من ذي الحجة. ذلك أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل إذا أهلك عدوّهم فرعون أن يأتيهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه أن ينزل عليه الكتاب الذي وعد به، فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً، ويعمل ما يتقرّب به إلى الله، ثم كلمه وأعطاه الألواح في العشر التي زادها. فلهذا قال: ﴿ وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾ وهو تفصيل ما أجمل في سورة «البقرة» في قوله: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الآية: ٥١]، ثم قال تعالى: ﴿ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ بالغاً أربعين ليلة. انتهى المبحث الثاني.

المبحث الثالث

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ كن خليفتي فيهم ﴿ وَأَصْلِحْ ﴾ ما يجب أن يصلح من أمورهم، أو كن مصلحاً ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ ولا تطع سبيل من دعاك إلى الفساد ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ﴾ أي لوقتنا الذي وقتناه، و«اللام» للاختصاص، أي: اختص مجيئه لميقاتنا بمدين ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ من غير وسط كما يكلم الملائكة، وكلام الله ليس ككلام الناس، فليس

يأتي من جهة خاصة فلا جهة له خاصة، فلما سمع كلامه الذي ليس بحرف ولا صوت اشتاق إلى رؤيته وغلب الشوق عليه هنالك ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ ذاتك بأن تمكنني من رؤيتك، أو تتجلى لي فأنظر إليك وأراك ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ بعين فانية، بل بعين باقية ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ ﴾ بقي على حاله ﴿ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ ﴾ ظهر له عظمته وتصدّى له اقتداره وأمره، ويقال: أعطى الله له حياة وعلماً ورؤية حتى رأى الله، فلما رأى الجبلُ ربَّه ﴿ جَعَلَهُۥ دَكّٗا ﴾ مدكوكاً مفتتاً، والدك والدق أخوان. وفي قراءة: «دكاء» أي مستوية بالأرض إلاّ أكمة فيها، وناقة دكاء: لا سنام لها ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴾ حال، أي: سقط مغشياً عليه ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ ﴾ تعظيماً لما رأى ﴿ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ ﴾ من الجرأة والإقدام على السؤال من غير إذن ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي أنا أول من آمن بأنك لا ترى في الدنيا، لأن النفوس البشرية مهما صفت فعلائقها بالدنيا تمنعها من رؤية ذاتك العلية، وإذا كانت الكهرباء والمغناطيس والجاذبية والقوى الخفية في المادة لا نقدر أن نراها في الدنيا، لشدة لطافتها وغلظ أجسامنا التي سكنت فيها أرواحنا، بل إن مادة الأثير وما فيها من الذرات لم يرها أحد في الدنيا، ولم نعرفها إلاّ بالبرهان، فليس من المعقول أن نراك في الدنيا، بل إن أرواحنا إذا تجردت من المادة لا قدرة لها أن تراك ما دامت أقرب إلى أحوال المادة وعلائقها، إذ لا مناسبة بينها وبين جمالك. اللهم إلاّ إذا ارتقت أرواحنا وخلصت ولطفت وخلعت جميع العلائق المادية بعد دهور ودهور، فحينئذ يمكن أن نشاهد ذاتك لقرب الأرواح من التجرد عن المادة، وتكون تلك الرؤية بعد معرفة جميع العوالم، والوقوف على عجائب صنعك، إذ يستحيل التوصل للطيف إلاّ بعد اختراق الحجب الكثيفة كلها، ومعرفة أسرارها، حتى يزداد قرباً، وبازدياد القرب يزداد الشوق، إلى أن يصل إلى الكمال، وقد عرف أسرار كل موجود، وإذن يصل إلى المقام الأعلى عند سدرة المنتهى ويرى ربه جلّ وعلا بما لا نعلم من الأحوال المغيبة عن الناس.

ثم قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ ﴾ اخترتك ﴿ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ الموجودين في زمانك وهارون كان تحت أمر موسى ﴿ بِرِسَٰلَٰتِي ﴾ هي أسفار التوراة ﴿ وَبِكَلَٰمِي ﴾ وبتكليمي إياك ﴿ فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ ﴾ أعطيتك من الرسالة ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ على النعمة، ولا شكر على النعمة إلاّ بصرفها فيما خلقت له، بأن تبلغ الرسالة مجداً في ذلك ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ مما يحتاجون إليه من أمر الدين ﴿ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ أي وتبييناً لكل شيء من الأمر والنهي والحلال والحرام، وقوله: «موعظة» بدل «من كل شيء» أي كتبنا كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام ﴿ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ ﴾ أي فقلنا لموسى إذ كتبنا له في الألواح كل شيء: خذها بجدّ واجتهاد، أو خذها بقوة قلب وصحة عزيمة ونية صادقة ﴿ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ ﴾ بأحسن ما فيها كالصبر والعفو بالنسبة إلى الانتصار والاقتصاص على طريقة الندب والحث على الأفضل ﴿ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ كمنازل عاد وثمود ومن نحا نحوهم من الأمم البائدة كقوم «معين» الذين كشفوا حديثاً، وكـ«وبار» التي قال فيها الشاعر:

ومرّ دهر على وبار فهلكت جهرة وبار

وإنما أريكم دارهم لتعتبروا بهم وتتحاموا أعمالهم فلا تقعوا فيما وقعوا فيه من الهلاك والدمار والبوار.

لطيفة في كلام الله مع سيدنا موسى فوق الجبل

في هذا المقام جاء في التوراة في سفر الخروج أن بني إسرائيل ارتحلوا إلى برية سيناء ونزلوا مقابل الجبل، وأما موسى فصعد إلى الله، فناداه الرب من الجبل وأخذ يأمره بما ملخص بعضه ما يأتي:

«إني نجيتكم من المصريين وجئت بكم إليّ، وإذا حفظتم وصاياي وعملتم بها كنتم أمة مقدّسة» فبلغ موسى هذه الكلمات إلى شيوخ الشعب، فأجاب جميع الشعب، ثم قال له الله: «إني سآتي إليك في ظلام السحاب». ثم أوصاه أن يتهيأ الشعب بالنظافة وغسل الثياب، ولا يقربوا النساء إلى اليوم الثالث، وفي ذلك اليوم صارت رعود وبروق وسحاب على الجبل، وصوت بوق شديد جداً، فارتعد كل الشعب، وكان جبل «سيناء» كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الأتون، وارتجف كل الجبل ارتجافاً شديداً جداً، وموسى يتكلم والله يجيبه. ولم يؤذن بصعود الجبل إلاّ لموسى وهارون، وأما بقية الشعب فهم تحت الجبل.

ومن كلام الله له ما معناه وملخصه ما يأتي:

(١) لا تعبد إلهاً غيري، ولا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة مما في السماء وما في الأرض الخ.

(٢) لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً.

(٣) اذكر يوم السبت وقدّسه. اعمل ستة أيام واسترح السابع لا تصنع فيه عملاً ما، لا أنت ولا ابنك ولا ابنتك ولا عبدك ولا أمتك ولا بهيمتك وكل من هو داخل أبوابك.

(٤) أكرم أباك وأمك لتطول أيامك على الأرض.

(٥) لا تقتل. (٦) لا تزنِ. (٧) لا تسرق.

(٨) لا تشهد على قريبك شهادة زور. (٩) لا تشته بيت قريبك.

(١٠) لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك.

وكان الشعب من بعيد يرتعد من الرعود والبروق وصوت البوق وما رأوا من دخان الجبل، فالشعب كان واقفاً من بعيد، وأما موسى فاقترب من الضباب حيث كان الله.

وقد ذكر في هذا المقام أن العبد إذا كان إسرائيلياً لا يخدم إلاّ ست سنين، وفي السنة السابعة يصير حراً.

ومن الأحكام ما يأتي:

(١) من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلاً.

(٢) من ضرب أباه أو أمه يقتل قتلاً.

(٣) من شتم أباه أو أمه يقتل قتلاً.

(٤) وإذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه. فأما صاحب الثور فإنه يقتل إذا كان ثوره نطاحاً من قبل، وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه، فإن لم يكن ذلك فهو بريء، وإذا وضعت عليه فدية فليدفع كل ما يوضع عليه.

(٥) وإذا نطح ثور إنسان ثور صاحبه فمات يبيعان الثور الحي ويقتسمان ثمنه، والميت أيضاً يقتسمانه الخ.

(٦) إذا سرق إنسان ثوراً أو شاة فذبحه أو باعه يعوّض عن الثور بخمسة ثيران، وعن الشاة بأربعة من الغنم.

(٧) إن وجد السارق وهو ينقب فضرب ومات فليس له دم.

(٨) لا تضطهد الغريب ولا تضايقه لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر.

(٩) لا تسئ إلى أرملة ولا إلى يتيم، إن أسأت إليه فإني إن صرخ إليّ أسمع صراخه.

(١٠) إن أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي لا تضعوا عليه رباه. اهـ. المقصود.

أقول: هاأنا ذا قد أسمعتك بعض وصايا التوراة وأحكامها مما سمعه موسى عليه السلام وهو على الجبل، لتطلع على الأخلاق التي لا تنافي أخلاق ديننا وسائر الديانات، وعلى الأحكام الشرعية التي تختلف عن أحكامنا الشرعية المحمدية بعض الاختلاف، باعتبار اختلاف الزمان والمكان والأمم.

ثم إن هذه الأحكام والوصايا وأمثالها في التوراة وفي الإنجيل وفي القرآن لا يعقلها ولا يقوم بها إلاّ القلوب المتواضعة النقية. أما أرباب الكبرياء والعظمة فإنهم يأنفون أن يخضعوا للحق. فإذن الكبر حجاب بين المرء وبين الحقائق العلمية. وعلى ذلك يعيش المتكبر ويموت وهو غافل عما بين يديه من العلوم والمعارف، ويكتفي بما يعلمه ولا يزيد علمه لكبريائه الذي حال بينه وبين ما لديه من العجائب الحكيمة العلمية والعملية والسماوية والأرضية، ولذلك أعقبه بقوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ﴾ المنصوبة في الآفاق وفي الأنفس ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ فلا يتفكرون في السماوات والأرض، ولا يسمعون كلام الأنبياء ومواعظهم كالقرآن والتوراة ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ ﴾ منزلة أو معجزة ﴿ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ لعنادهم، ولذلك لا يتبعهم الأنبياء في أول بعثهم إلاّ الضعفاء والفقراء ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ لاستيلاء الكبرياء عليهم كما تقدم في أول السورة من كبرياء إبليس الذي جعل أساساً لهذه المعاصي ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ﴾ الصرف ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ بسبب تكذيبهم للآيات ﴿ وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ أي وعدم تدبرهم للآيات فلا اتعاظ لهم بها ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي ولقائهم الدار الآخرة أو ما وعد الله في الدار الآخرة ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ لا ينتفعون بها ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي إلاّ جزاء أعمالهم. انتهى المبحث الثالث.

المبحث الرابع والخامس

اعلم أنه جاء في التوراة أن الرب قال لموسى: اصعد إليّ إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم، فقام موسى ويشوع خادمه، وصعد موسى إلى جبل الله. وأما الشيوخ السبعون فقال لهم: اجلسوا لنا هاهنا حتى نرجع إليكم، وهاهو ذا هارون وحور معكم، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما، فصعد موسى الجبل، فغطى السحاب الجبل وحلّ مجد الرب على جبل سيناء، وغطاه السحاب ستة أيام. وفي اليوم السابع دعي موسى من وسط السحاب ـ إلى أن قال: وكان موسى في الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة. وهنا أعطاه أوامر أهمها ما يخص صنع التابوت المقدّس الذي يجعل من خشب السنط، وطوله وعرضه، وهناك ذكر البخور

وأنواع الزينة كالذهب والفضة وما أشبه ذلك . وكيف تصنع المائدة من السنط ، وكيف تغشى بالذهب ويكون عليها إكليل من الذهب ، وكيف تصنع المنارة من ذهب نقيّ ، وكيف يصنع المذبح . وقد أطال الكلام في هذا المقام في التوراة بتفصيل عجيب وبيان أوفى . ثم قال : « ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل ، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه . فقال هارون : انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وائتوني بها » . ثم أفاد أن هارون عليه السلام هو الذي صنع العجل من ذلك الذهب ، وبنى هارون مذبحاً أمامه ، وقال : غداً عيد للرب .

يقول مؤلف الكتاب

تبارك الله ، إنه لولا أن القرآن نزل لأيقن الناس أن هارون وهو نبي قد صنع العجل . إني لأعجب من الأمم السابقة كيف كانوا يبيحون لأنفسهم أن يغيروا الحقائق . وكيف يقال : إن هارون كفر بالله وصنع عجلاً . إن القرآن قد أتى بالحقائق الناصعة ، وسيأتي نص الآيات ، وأن الذي صنع العجل هو السامريّ . فتعجب من تلك الأمم ومن تغييرهم الكتب المقدسة . فترى النصارى يرضون أن عيسى إله ، واليهود يقولون إنه كذاب . وترى اليهود يعتقدون أن هارون صنع العجل من الذهب ، والقرآن أتى بالحقائق ونزّه الأنبياء عليهم السلام .

وفي ذلك الوقت أخبر الله موسى أن قومه زاغوا عن الحق ، وأفهمه كل ما حصل ، فرجع موسى إلى قومه فأبصر العجل والرقص ، فغضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل ، ثم أحرق العجل وطحنه وذرّاه على وجه الماء ، ولام هارون كما في الآيات الآتية . وأمر جميع بني لاوى فقتلوا من الشعب ثلاثة آلاف كما تقدم في « البقرة » . ثم صعد إلى الجبل وطلب المغفرة من الله كما في الآيات الآتية أيضاً ، لأنه قال : « والآن إن غفرت خطيئتهم وإلاّ فامحني من كتابك الذي كتبت » ، فاستجاب الله دعاءه ووعدهم أن يملكوا الأرض التي وعدهم بها ، ويرسل لهم ملكاً ، ولا يكون هو في وسطهم لأنهم شعب صلب الرقبة . وهنا ذكر كيف قال الله : لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش . ثم قال : فتنظر ورائي ، وأما وجهي فلا يرى ، ثم أمره أن ينحت لوحين بدل المكسورين ففعل ، وقال الرب لموسى : اكتب لنفسك هذه الكلمات لأنني بحسب هذه الكلمات قطعت عهداً معك ومع بني إسرائيل ، وكان هناك عند الرب أربعين نهاراً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء . فكتب على اللوحين كلمات العهد ، الكلمات العشر . وهنا في سفر الخروج وصايا كثيرة جداً ، وكذلك في السفر الذي بعده وهو المعنون « اللاويين » بما يستغرق عشرات الأوراق .

واعلم أن هذه أهم النصائح في التوراة ، وإذ ذكرت لك ملخص ما في التوراة في هذا المقام ، مع انحراف بعضه عن الحقائق العلمية ، وعصمة الأنبياء ، فاسمع الآية ، قال تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بعد ذهابه للميقات ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا ﴾ من الذهب خالياً من الروح ، ونصبه على البدل ﴿ لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ صوت البقر . يقال : إن السامري لما صاغ العجل ألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل ، فصار حياً . وقيل : صاغه بنوع من الحيل ، فتدخل الريح جوفه وتصوّت ، كما نراه الآن في السيارات « الأتوموبيلات » . واعلم أن الناس في العصور السابقة في الإسلام قد توصّلوا لما هو أبعد من

ذلك إضلالاً، فيأتون بعجل مذبوح مطبوخ ويوضع على المائدة، ويحضرون «ضفدعة» ويضعونها في داخل فم الثور، فيكون لها نقيق وهو يشبه صوت البقر، وكم من حيل يعملها الناس ليغشوا الناس بذلك، فلا مانع أن يفعل السامري أمثال ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾، فكيف يتخذونه إلهاً والإله يرشد عباده، ثم كرره للذم فقال: ﴿ ٱتَّخَذُوهُ ﴾ إلهاً ﴿ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ واضعين الأشياء في غير مواضعها ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ولما اشتد ندمهم، وأصله: أن من اشتد ندمه يعضّ على يديه غماً، فتصير يده مسقوطاً فيها لأن فاه وقع فيها وسقط، وقوله: «في أيديهم» مسند إليه، ﴿ وَرَأَوْا۟ ﴾ وعلموا ﴿ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ ﴾ باتخاذ العجل ﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ﴾ بإنزال التوراة ﴿ وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ بالتجاوز عن الخطيئة ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ شديد الغضب، وقيل: حزيناً، ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ﴾ فعلتم بعدي حيث عبدتم العجل، و«ما» نكرة موصوفة تفسر المستكنّ في «بئس»، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: بئس خلافة خلفتمونيها من بعد انطلاقي إلى الجبل خلافتكم ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ أي أعجلتم وعد ربكم الذي وعدنيه من الأربعين، وقدرتم موتي وغيّرتم بعدي كما غيّرت الأمم بعد أنبيائها، ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر حمية للدين، ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴾ بشعر رأسه ﴿ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ توهماً بأنه قصّر في كفهم، وكان عليه السلام حمولاً ليناً، ولذلك كان أحبّ إلى بني إسرائيل، ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ ﴾ ذكر الأم ليرفق عليه، وكانا من أب وأم ﴿ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى ﴾ وقاربوا فتكي ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾ فلا تفعل بي ما يشمتون بي لأجله ﴿ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ معدوداً في عدادهم بالمؤاخذة ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى ﴾ بما صنعت بأخي ﴿ وَلِأَخِى ﴾ إن فرّط في كفهم، وإنّما ضمّه إلى نفسه في الاستغفار ليرضيه وليدفع الشماتة عنه، قال: ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فأنت أرحم منا بنا، وأرحم من أمهات الطير وسائر الحيوان بأولادها، فرحمتها كلها مشتقة من رحمتك ومستمدة منها.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ وقد حصل ذلك بالقتل المذكور فيما تقدم ﴿ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ وهو خروجهم من ديارهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ على الله، ولا فرية أعظم من فريتهم، وهي قولهم: ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٨٨]، ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ من بعد السيئات ﴿ وَءَامَنُوٓا۟ ﴾ واشتغلوا بالإيمان وما هو مقتضى من الأعمال الصالحة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ من بعد التوبة ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وإن عظم الذنب ولو كان عبادة العجل، أو كثر كذنوب بني إسرائيل ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ باعتذار هارون وبتوبتهم، وفي الكلام مبالغة من حيث جعل الغضب كأنه كان مغرياً له، فسكت عن الإغراء ﴿ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ التي ألقاها، أو التي أحضرها بأمر الرب على ما تقدم، إن صحّ ما في التوراة الحاضرة. وأيضاً فيها أنهما لوحان، فيكون الجمع لما فوق الواحد، وإن لم يصح ما في النسخة الموجودة فالجمع هنا على حاله ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ وفيما نسخ فيها، أي: كتب ﴿ هُدًى ﴾ بيان للحق ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ إرشاد إلى الصلاح والخير ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ أي للذين هم يرهبون معاصي الله لربهم.

لطيفة

جاء في التوراة ما ملخصه في هذا المقام أنه لما نزل موسى من جبل سيناء ولوحا الشهادة في يده لم يعلم أن جلد وجهه صار يلمع، فخافوا أن يقتربوا إليه، فدعاهم موسى، فرجع إليه هارون وجميع الرؤساء في الجماعة، فكلمهم موسى، وبعد ذلك اقترب جميع بني إسرائيل، فوصاهم بكل ما تكلم به الرب معه في جبل سيناء. ولما فرغ موسى من الكلام معهم، جعل على وجهه برقعاً، وكان موسى عند دخوله أمام الرب ليتكلم معه ينزع البرقع حتى يخرج، ثم يخرج ويكلم بني إسرائيل بما يوصى به، فإذا رأى بنو إسرائيل وجه موسى وأن جلده يلمع، كان موسى يردّ البرقع على وجهه حتى يدخل ليتكلم معه. وإنَّما نقلت لك هذا لتعلم نوع أقوال التوراة في هذا المقام، حتى لا يفوتك أهم ما فيه. انتهى المبحث الرابع والخامس.

المبحث السادس

قال تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾ أي: من قومه، والمراد بالميقات: الميقات الذي كلمه فيه ربه، وقد تقدم هذا المعنى منقولاً عن التوراة الحالية، وبه قال بعض المفسرين. وقال آخرون: إن هؤلاء السبعين حضروا للاعتذار من عبادة العجل ﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ إذ دنوا من الجبل ودخل موسى بهم الغمام وخروا سجّداً، فسمعوا الله يكلم موسى، يأمره وينهاه، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه، وقالوا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[البقرة: ٥٥] فـ﴿ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ يعني الصاعقة ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ﴾ عنى هلاكهم وهلاكه قبل أن يرى ما يرى ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ من العناد والتجاسر على طلب الرؤية، أو بعبادتهم العجل، وهؤلاء السبعون قد اختيروا للاعتذار كما هو رأي المفسرين، فغشيتهم هيبة قلقوا منها ووجفوا ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك حتى طمعوا في الرؤية، أو أوجدت في العجل خواراً فزاغوا به ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ ﴾ ضلاله بالتجاوز عن حده ﴿ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ هداه فيقوى به إيمانه ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ القائم بأمرنا ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا ﴾ بمغفرة ما قارفنا ﴿ وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ حسن معيشة وتوفيق طاعة ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ الجنة ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ تبنا إليك، وهاد يهود: إذا تاب ورجع، والهود: جمع هائد، وهو: التائب. هذا هو الدعاء الذي دعا موسى به الله، فكأنه يقول: يا رب، كيف تعمم النقمة والعاصون أقل من المغضوب عليهم، وكيف تؤاخذنا بالفتنة وإنَّما هي من عملك، فأنت المضلّ وأنت الهادي، وأيضاً أنت متولي أمورنا، ثم رتب على هذه الثلاثة طلب المغفرة ليخلصوا من الذنب ثم الرحمة ثم أن يجعل عيشهم سعيداً في الدنيا والآخرة لأنا تبنا إليك.

فأجاب الله على هذا السؤال، فـ﴿ قَالَ ﴾ سبحانه وتعالى: إني وإن كانت الفتنة من خلقي، والهدى من عندي، فلي الحجة البالغة ﴿ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ﴾ إصابته، وهل أشاء إلاَّ ما كان حكمة وعدلاً، فأسلط عذاب الفقر على من اتكل على عمل غيره، وعذاب الهمّ واضطراب القلب والحزن على من جعل جمع المال كل همه، وعذاب المرض على من ترك أعضاءه وجسمه، فلم يشغلها بالحركات لتنشط وتقوى، وأسلط عذاب الجوع على من ترك الغذاء حتى يأكل، وأسلط عذاب الشبق

ولذع الشهوات على قويّ المزاج، حتى يقترن بمن تلد له ولداً، وسلطت الندم والألم على من لم يخلص في عمله، بأن قصد بعمله رضا الأزواج أو الولد أو السلطان أو الجيران أو نحو ذلك، ولم يكن موجهاً قصده إلى الله تعالى، فإن العالم السفلي أكثر أهله جاهلون يكذبون الأنبياء ويؤذون العلماء، ويسيئون للمحسنين، ويعق الولد أبيه، فإذا كانت الوجهة شخصية ندم العلماء والمحسنون على ما عملوا من خير لمن جحد به، فلا سعادة لأحد إلاّ بالإخلاص في عمله، وتكون وجهته الاقتداء بمالك الملك امتثالاً لأمره أنه يفعل رحمة وإحساناً، لا رياء ولا طلباً للمكافأة، وأسلط حزن الجهل على من ترك العلم كسلاً وخمولاً، وبالجملة أسلط العذاب على من لم تكمل جميع قواه الجسمية والعقلية، فليكمل جسمه بأنواع الرياضيات ليقوى، وعقله بالعلوم، ونفسه بالتهذيب، وأهله بالإكرام، وأمته بالنصيحة، وأهل دينه بنشر العلم، وهكذا، فمن نقص شيئاً من ذلك عذبته عذاباً أرقي نفسه به، إن العذاب هو الشريعة الصامتة، شريعة عادلة هي سوط أنزلته في الأرض، أسوق به الناس إلى السعادة، ولو أني لم أشأ العذاب للناس وهم مفرّطون لماتوا في بعض يوم، فالآلام نعمة جليلة ترقي النفوس.

إن هذه الشريعة التي حتمتها في الطبيعة تعاقب على الصغيرة والكبيرة، وعلى العمد والخطأ والغفلة، لأنها لا تغفل طرفة عين، وليس هذا ظلماً لأنها ناطقة بلسان فصيح. لا تغفلوا أيها الناس، وتعلموا العلوم وتفطنوا. وعلى ذلك تكون الرحمة قسمين: قسم هو اللذات، وقسم هو الألم، كما يؤلم الأب ابنه، والأستاذ تلميذه، والطبيب مريضه بشرب المرّ، وما أشبه ذلك. وأنا لم أفعل في خلقي أقلّ من الطبيب ولا المعلم ولا الأستاذ، بل إن عملي أبدع إحكاماً، وأعظم شأناً، فإذن الآلام من أجلّ النعم، وهذا قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، لأنه بعد هذا البيان أصبح الألم نعمة، فأين العذاب إذن، ولا عذاب إلاّ حيث الألم، ولا ألم إلاّ حيث المنفعة وتهذيب النفس أو نحو ذلك، وإذا وسعت الرحمة كل شيء فلم يبق من اعتراض بعد، وإذا قال موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ الخ.

يقول الله هنا: فتنته ليستيقظ، ولا أزال أفتنه وأعذبه حتى يستيقظ، فهذه الفتن كلذعات الجوع ومن ذا يقول: إن ألم الجوع نقمة؟.

ومن ذا يقول: إن ألم العضو المريض الذي ينادي بلسان فصيح: «كمل ما نقص مني»؟.

ومن ذا يقول: إن هذا غضب وأين الرضا؟ إن الألم من الجوع والعطش والمرض والشبق والحقد والحسد تنطق بلسان فصيح أن: كل الغذاء، واشرب الماء، وداوِ العضو، وتزوّج من تلد لك، ونظف قلبك من الغلّ، لأن نار الحقد ستحرقك وعذاب الحسد سيهلكك وما أشبه ذلك.

إن الناس في عذاب وهم لا يشعرون، وفي ألم وهمّ وهم لا يبصرون، فمتى عرفوا ألم النفوس كما عرفوا ألم الأجساد، أقلعوا عن تلك الذنوب وتغذوا بالمعارف، وتركوا الحقد والبخل والحسد وأمثالها، فيصبحون سعداء ويصبحون في نعيم مقيم، لا يمنع الناس من فهم ما ذكرناه إلاّ جهلهم وكبرياؤهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].

ولما كان هذا المقام من الدقة بمكان بحيث لا يعقله إلاّ الحكماء، ولا يدركه إلاّ الكبراء، ولا ينال حدّه إلاّ أولو الألباب، شرع يذكر الأمم التي تدرسه وتعرفه حق معرفته وهو ما يأتي:

المبحث السابع

قال تعالى: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ فسأثبتها في الآخرة ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الكفر والمعاصي ﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ وخصها بالذكر لأنها أشقّ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فلا يكفرون بشيء منها، ثم أبدل من «الذين يتقون» قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ الذي لا يكتب ولا يقرأ، فكمل علمه مع عدم القراءة، وهذه معجزة من معجزاته. ثم وصفه فقال: ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ﴾ مما حرم عليهم كالشحوم ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ﴾ كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ وهو الثقل الذي يأصر صاحبه، أي: يحبسه عن الحراك لثقله. والمراد التكاليف الصعبة، كقتل النفس في توبتهم، وكبعض الأحكام الشاقة التي تقدم ذكرها نقلاً عن التوراة، ثم قال: ﴿ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ هي الأحكام الشاقة السالفة الذكر ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ وعظموه، أو منعوه من العدو حتى لا يقوى عليه عدو، وأصل العزر: المنع، ومنه: التعزير، لأنه منع عن معاودة القبيح ﴿ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ أي: القرآن، و«مع» متعلق بـ «اتبعوا»، أي: واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي صلى الله عليه وسلم والعمل بسنته ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ يعني هم الناجون الفائزون بالهداية والنعيم.

لطيفة

اعلم أن هذه الآية لا مجال للشك فيها أن ما ترمي إليه إنَّما هو فيما يبدو للقارئ أن من اتبع نبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء وصفه في التوراة والإنجيل فإنه ناج، ومن كفر به من النصارى واليهود مع ثبوت وصفه في كتابيهما المقدسين فإنه داخل النار، لأنه جحد حقيقة لمجرد الشهوات الدنيوية والعناد والحسد وحب الرياسة أو التقليد الأعمى، والمتأمل يجد فيها معنى أدقّ، وهو أن محاورة موسى عليه السلام تدور على كل لسان في كل جنان، ولا تزال جميع الديانات وعلوم الفلسفة تذكر هذا السؤال: لم يعذبنا الله، وأين رحمته؟ ولم أمرض وأجوع وأدخل جهنم؟ ولم هذه كلها. فأجاب الله إن عذابه لحكمة، وإنَّما قلنا لحكمة كما تقدم، لأنه قال: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾، وعلى ذلك يكون العذاب داخلاً في الرحمة وقت تعذيبه، لأن التعذيب ثمرته الإنذار والتذكير، ومن ظنّ التذكير عذاباً فما أجهله، ومن ظنّ الوعظ جحيماً فما أضله.

إن أكثر الناس غافلون، والنوع الإنساني لا يفرق بين النقمة والنعمة فهو طفل، وما دام الناس لا يعلمون أن الآلام مذكرات عدّوها شقاء، ومتى عدّوها شقاء لم يعتبروا بها ولم يتداركوا ما فرط منهم، فيكونون أشبه بالأطفال يبكون والطبيب يداويهم، ولا يعلمون أن هذا لمصلحتهم، فهم يكونون دائماً في عذاب.

ولما علم الله أن الأمة التي سترتقي في المعارف والعلوم إنَّما هي الأمة الإسلامية، فهؤلاء هم الذين سيعرفون حقائق الأشياء، ويدركون سر الرحمة، ولذلك كتبها لهم، وكيف تكتب الرحمة لمن لا يعقلها، أو تساق الهدية لمن لا يتقبلها؟ فلا يزال الناس في عذاب حتى يدركوا الحقائق، ومتى أدركوها زال عنهم النصب والعذاب الواصب، ولا سبيل للعلم في الآخرة إلاَّ بعد التفكر في الدنيا.

ولما كانت أمة الإسلام لم يمض عليها من الزمن غير ألف وثلاثمائة سنة، وكانت أمة اليهود محصورة العدد، لأنهم يكرهون اتساع دينهم لأنه دين قوم مخصوصين، وأمة النصارى قد نبذت تعاليم كتابها وفتكت بأهل الأرض، خطر بنفسي أنه سيأتي في هذه الأمة أناس مفكرون حكماء لم يسمح بهم الدهر، وهؤلاء يدركون حقائق العالم الذي نحن فيه، فيعلمون الرحمة ونتائج الآلام وما أشبه ذلك؛ فينالون الرحمة تامة في الآخرة ككثير من سلفنا الكرام الذين أفيضت عليهم المعارف وأدركوا الحقائق، ولله عاقبة الأمور.

لم خلق الإنسان وهو في آلام وذنوب وظلمات وما فائدته من الوجود؟

ومما يناسب هذا المقام ما دار من الحديث بيني وبين بعض الفضلاء من مفتشي وزارة المعارف العمومية المصرية، وهذه صورتها:

جلست وطائفة من العلماء والسادة الأدباء ممن لهم قدم في العلم راسخة، وشهرة في الفضل ذائعة، من رجالات وزارة المعارف، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث من قديم وحديث، فقال أوسطهم مقاماً، وأفصحهم كلاماً، وأوسعهم جاهاً: حدثني رعاك الله حديث هذه الدنيا والحياة فيها وما شأنها وكيف ضلّ أهلها وفجر أعاظمها؟ ولم نر من هذا الإنسان المتمدين بعد مر الدهور وكر العصور والارتقاء المشهور إلاّ أخلاق الذئاب وحرص الكلاب وتهافت الذباب، ولو أنك سرت في أمريكا وأوروبا واطلعت على أسرار الأسرات لرأيت أمراً ﴿ إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: ٨٩-٩٠] من خيانة إلى جناية إلى سعاية إلى سرقة إلى عداوة إلى عار وشنار وهمّ مستطار، فلا الزوج بمخلص لزوجته، ولا الزوجة بصادقة لزوجها، ولا الأسرة بصالحة لشأنها، بل كل لكل حاسد وعليه حاقد، فلو فتش ما في القلوب ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [العاديات: ١٠] لم يجالس الأخ أخاه، ولا الابن أباه، ولا الزوج حماه؛ فأين الإنسانية المنشودة وهذه آثارها المنكودة؟ فيا عجباً، لم خلق الإنسان، ولم علم البيان، ولم يقرأ التوراة والإنجيل والقرآن؟ فلما فرغ من فصيح بيانه وعجيب كلامه أصغى الجمع إلى ما سألقيه من الجواب، فقلت: بالقرآن أجيبك. قال: كلا، فنحن به عالمون. فقلت: إذن بالبرهان. قال: نعم. قلت: البرهان قسمان: يقيني وإقناعي، أما اليقيني فأنت تعلمه، كدلائل الهندسة والحساب والجبر، وهذه ترجع في أواخر الأمر إلى القضايا الأولية المستخرجة من المشاهدات الحسية. قال: نعم. قلت: ولكن عقول أهل الأرض وفلاسفتهم لا طاقة لها، ولا تقدر أن تعلم هذه العلوم بالبراهين العقلية المستمدة من المعلومات الحسية، لأن الأمر أعظم وأوسع من هذه الأرض ومن فيها. قال: إذن تكون الأدلة إقناعية؟ قلت: نعم. قال: فمن أين نستمدّها؟ قلت: من مدارسكم العصرية، أفليس منكم المدرسون والمفتشون؟ قالوا: بلى. قلت: أفلستم ترون المدارس متفاوتة الدرجات؟ قالوا: بلى. قلت: هكذا الإنسان يرتقي درجات في آلاف السنين ومئات الآلاف، بل فيما لا يتناهى من الزمان ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق: ١٩] وهو في كل درجة يستمد مما قبلها، ويستعد لما بعدها، وكل فكرة يجدها أو سيئة يجترحها أو حسنة يفعلها تكون له أو عليه، ولا تزايله، كما ترى التلميذ في المدارس يركب طبقاً فيها عن طبق، فما للناس لا يفقهون. قال: أتستدل بالقرآن، ونحن اليوم في مقام الإقناع بالبرهان؟ قلت: كلا، وإنّما هو اقتباس واستئناس لا برهان وقياس.

فأجاب قائلاً: أجبتني على غير السؤال، ولعمري لشتان بين المدارس العصرية وسؤالنا على الحياة الإنسانية، فأين الثريا وأين الثرى؟ قلت: إن الناس اليوم على هذه الأرض أشبه بالصبيان في مدرسة «روضة الأطفال». فاستغرقوا ضاحكين ورفعوا أصواتهم ساخرين، وقالوا: أتتخذنا هزواً؟ قلت: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين. وهم صاخبون مازحون متغامزون، فقال قائل منهم: سلوه عن كنه جوابه، ولا تسرعوا باللائمة على مقاله. فقال الذي سألني: أوضح ما تقول. فقلت: على شريطة ألا يقاطعني في الحديث أحد حتى أتم البرهان. قالوا: قبلنا شريطتك فأتم مقالتك. فقلت: أحدّثكم حديث النبات وحديث الحيوان وحديث الكواكب، ففيها البيان. فقالوا: نعم. فقلت:

(١) النبات يتنابه الحر والبرد والمطر والصقيع والثلج، ليكون له نتائج ظاهرة ومنافع باهرة من الكلأ للحيوان والحبّ للإنسان.

(٢) والحيوان يتنابه ما يتناب النبات من الحوادث المذكورة، ثم يزيد عليه الآلام النفسية والحوادث الجسمية، ويعطي الحواس الخمس المعلومة، وهي تختلف اختلافاً كثيراً؛ فبينما نرى الدود في لب الثمار وجوف الحيوان لا ينال إلاّ حاسة اللمس، إذ الدود الذي يدبّ على العود يعطى حاستين: اللمس والذوق، وبعض الحيوان في قاع البحر يزيد عليهما حاسة الشم، ثم الحلمة العمياء تزيد السمع لأنها تعيش في جوّ حالك الإرهاب، ثم تكون الحيوانات المعلومة ذوات الحواس الخمس، ثم الإنسان الذي يستنتج المعلومات الأولية، ويقرأ العلوم المشهورة والمعارف المفيدة.

(٣) الكواكب: أما الكواكب فأنت ترى أن أرضنا التي نحن عليها لا هي في العير ولا في النفير ولو أنا وازناها بأخواتها الصغيرات من السيارات حول الشمس لازدراها المشتري والمريخ، ولنبذها ظهرياً «أورانوس ونبتون»، وفوق ذلك أنها بالنسبة للشمس كرة صغيرة ضئيلة، والشمس وما حولها إذا نسبن إلى كواكب أخرى كانت كذرة في الفضاء بالنسبة لقصر شامخ، أو قطرة من ينبوع ماء، كما كشفه العلم الحديث، وسارت به الركبان، وعرفه علماء هذا الزمان.

ولو أن الشمس ناظرت الفرقدين أو فاخرت السماكين، لقالا لها بفصيح البيان وساطع البرهان ما قاله جرير:

فغضّ الطرف إنك من نُمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وفي الأمثال: «أطرق كرا إن النعامة في القرى»، «رأيك في الكنّ لا في الضحّ».

هذه هي المقدمات التي أوردتها لإيضاح المقام في قوله: إن الإنسان على هذه الأرض كالتلاميذ في مدرسة «روضة الأطفال» إذن. قال من سألني: فماذا ينبى على هذه المقدمات؟ فقلت: ألستم تعلمون أن التلميذ في مدرسة «روضة الأطفال» يدخلها وهو ابن خمس سنين؟ قالوا: بلى. قلت: أليست أخلاقه شيطانية؟ قالوا: بلى. قلت: وأفعاله صبيانية وآراؤه هزلية، والأبوان والأساتذة به فرحون، فإن نطق بالحروف الهجائية مدحوه، أو بالأعداد الحسابية كافؤوه، وهم يرونه طول النهار يقاتل الصبيان ويضارب الإخوان، ولم نر أحداً يئس من أعماله المستقبلة، ولا من أن هؤلاء الصبيان هم بعد ذلك الوزراء والعلماء والملوك والحكماء. قالوا: بلى. قلت: فإذا رأيتم هذا الإنسان طغى وبغى وتعدّى حدّه لم يقدّر حقوق الفضل والمنن، وخان إخوانه ظلماً ومشأمة، وعدت الدول القوية على

الضعفاء، وأمسى كل لكل عدواً مبيناً، وعمّ الحسد والكبرياء والخبث وسوء الطوية والحرص والنكد والهم والغم ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾[التين: ٥]، فلتعلموا أنه اليوم في مدرسة «روضة الأطفال».

الحيوان والإنسان

فإذا اختلف الإنسان في مقدرته الحسية، وتعالت أنواع النمور والقرود، وارتقت عن جماهير الدود التي تدبّ على العود في عدد الحواس، واشتد اختلاف الناس في معقولاتهم ودرجات فهمهم، فكانوا أوسع نطاقاً من درجات الحيوان في المحسوس، أفلا تقول إذن: إن هذا الإنسان على هذه الأرض الضئيلة المسكينة التابعة لشمسنا الصغيرة أشبه بالدود على العود الذي يدب على النبات، ولم يملك من الحواس إلاّ اثنتين: اللامسة والذائقة، وأن هذه الأرض التي هو عليها لا يستعد سكانها لأكثر مما يعلمون، ويكون هم الأطفال والأرض روضتهم ومدرستهم، فإن صغر علمهم فهذا استعدادهم، وإن شكست أخلاقهم وقبحت طباعهم فلذلك خلقهم لأنهم أطفال لا يزالون في أول درجات الآمال، وربما كانت آلافاً مؤلفة، كما نرى درجات الحيوان في الإدراك، وكذلك الإنسان ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥]، وستنالون كل علم على طول الأزمنة والدهور المستقبلة ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[الإسراء: ٢١]، ولئن راعكم ما ترون من جهله الظاهر وخلقه البائر ورأيه الفاتر، فلنقس عقله بمقياس الكوكب الذي هو عليه، ولننظر كيف يسوغ أن يكون الإنسان أعلى العالمين، وقد رأينا أرضه لا نسبة بينها وبين الكواكب الصغرى فضلاً عن الكبريات، أفلا نقول على سبيل القياس التمثيلي: إن العقول تتفاوت في درجاتها تفاوت الكواكب في أقدارها، والحيوانات في إدراكها، وإنه الآن في أول سلم الارتقاء، فربما ارتقى في عوالم طبقاً عن طبق فوق ما عرفناه.

ولقد كان الإنسان يظن أنه سيد العالمين حينما كانت الأرض مركز العوالم، فأما الآن فقد زال البهتان ورأيناها حجرة صغيرة في مدينة واسعة. ومن عجب أنك تسمع العلاّمة «أوليفر لودج» سيد علماء الطبيعة في بلاد الإنجليز يقول على ملأ من قومه: «إني أصبحت موقناً أن عقل هذا الإنسان بالنسبة للعوالم الروحية المحيطة به أشبه بالنمل بالنسبة لعقل الإنسان».

ثم قلت: وإذا رأينا الإنسان يزداد على مدى الزمان شراسة وشكاسة، والدين لم يهذبه والعلم لم يؤدّبه. قلت: هكذا المرض يزداد انتشاراً كلما ازداد الطب اختباراً، فهل ترون إقفال مدارسه أو إغفال نفائسه؟ قالوا: لا، ولو فعلنا ذلك لاضمحلت الإنسانية ولرجعت إلى حال الهمجية. قلت: هكذا تلك الديانات والعلوم، ولئن قلتم: فما بالنا نرى الأمراض تتنابه، والفقر يؤذيه، والجهل يرديه، والعذاب يحيط به، لنقولنّ: إن الآلام الحيوانية والحوادث الإنسانية ليرتقي بها وجدانه، كما أنتجت حوادث الجو في النبات حبه وثمره، فارتقاء الوجدان في الحيوان والإنسان بحوادث الأيام كاستكمال الحب والثمر بحرّ الهجير وبرد الزمهرير. فقال قائل منهم: إني منذ أيام ذبحت زوجاً من الحمام وهو ينظر إلى الدنيا نظر المريض إلى وجوه العوّد، وكنت أدهش من هذا النظام، لم ذبحناه وهو صغير؟ فقلت: ألم أقل لك: إننا في مدرسة «روضة الأطفال» وهذا انتقال من فرقة دنيا إلى فرقة عليا، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام: ٣٨].

وقصارى الأمر وحماداه أن للإنسان خمس درجات حسية، وخمساً أخرى نظامية أو طبيعية في مدرسة «روضة الأطفال»، تابعاً في ذلك سنة الارتقاء كالحيوان، إنه يتقلب جنيناً في صور مختلفة من صور الحيوانات من أدناه إلى أعلاه حتى إذا ولد طفلاً تبدّت له مدرسة اللمس فالذوق فالشم فالسمع فالإبصار يتلو بعضها بعضاً كفصائل الحيوان، ثم تكون تربية منزلية فمدارس أولية فالابتدائية والثانوية والعالية، إن دخل المدارس النظامية، وإلاَّ اكتفى بالمدارس الطبيعية من العسر واليسر والغنى والفقر والنفع والضر والصحة والمرض والخير والشر.

ولئن قلتم: فما بالنا لا نعرف برهان ما تقول، وإنَّما أنت تلقيه لنا على سبيل القياس التمثيلي لا البرهان؟ قلت: يا سبحان الله، لو أنكم سألتم الدود في الشجرات، والسمك في البحيرات، والحشرات في الخلوات، والطيور في الهواء، عن الإنسان وعلومه، أو كل فريق عن الآخرين، لقالوا جميعاً: ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾[يوسف: ٨١]، ولو أنك أردت أن تفهم صبيان «روضة الأطفال» عن الوزارة وعظمة الإمارة، لم تجد لذلك إلاَّ أمثلة مما يألفون من الكرة والصولجان، والزهر في البستان، والورد في الأكمام، وحلاوة التفاح، وطعم ألذ الفواكه والثمرات.

ولما كان العقل الإنساني خلق في الأرض طفلاً أعطي من العلم على مقدار طاقته، ولو أنك سألت الدودة في لب النبات عن عالم الحشرات، أو السمك عن عالم الطيور، أو الحشرات عن السباع لكان الجواب: ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾[يوسف: ٨١]. هكذا الإنسان لا يشهد العالم الذي بعد هذا، وإنَّما يعلم بالقياس، ويدرس بالاقتباس الذي دله على عوالم منتظرة. وإذا علمه المؤدبون مثلوا له أحواله المستقبلة بما يناسب معارفه، فالكلام كالدواء يعطى لمن يفقهونه بمقدار. واعلم أن هذا الارتقاء كله روحي لا جسمي في عالم البرزخ. فافهم. انتهى الحديث.

حكمة

لقد أطلت المقال في هذا المقام لتفسير ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ لأن أعقد العقد في العالم الإنساني رحمة الله، مع أنه يعذبنا. وكيف نعتقد أنه رحيم ونصدّق به، وهو يؤلمنا، فهذا القول قد أبان هذا المقام على قدر الطاقة، وبهذا تفهم كيف كان من أركان المبايعة الإسلامية في إبان نزول الشريعة الإسلامية عند الحضرة المحمدية أن يقال لمن أراد الإسلام: «وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله»، فكان المسلم ملزماً أن يعلم أن الشر الذي نابه من الله، وكيف يتفق هذا مع الرحمة فبهذا المقام زال الإبهام، وعليه تعرف قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[البقرة: ٢١٦]. ولا جرم أن العذاب في الدنيا وفي البرزخ مكروه لنا، فإذن يكون خيراً، وهذا القول هو المعقول وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾[مريم: ٤٥]، فهذا عذاب من رحمن كما يكون العذاب من الطبيب، إذن هو رحمة. والله هو الولي الحميد.

غرق الإنسان في الرحمة أعماه عنها

اعلم أن الناس يعيشون مغمورين بالرحمات، غارقين فيها، ولكن القليل من يحسّ بهذه الرحمات. ليس من الحكمة ولا العقل أن يكون العدم خيراً من الوجود. إن الحكيم إذا خلق خلقاً فهو لا محالة يحوطه بالإنعام، ويجعل له الحياة محبوبة لا مبغضة مكروهة. ناهيك ما ترى في الأمهات

والآباء، فهؤلاء وإن لم يكونوا خالقين وإنّما كان لهم بعض الأسباب في وجود الذرية، رأينا حرصهم عليهم وتحننهم وعطفهم واستماتتهم في سبيل إنعاش الأبناء وإسعادهم وإنقاذهم من الهلكات.

إن العقل والقياس يقضي أن يكون خالق هذا العالم الذي نعيش فيه أكثر رحمة وأشد محافظة وعطفاً على مخلوقاته، وإلا فإن خلقهم يكون مخالفاً للحكمة، منافياً للصراط المستقيم. إن محدث هذا العالم لا يجوز ولا يعقل أن يكون كالأبوين رأفة ورحمة، بل القياس يقتضي أن يكون أكثر رأفة ورحمة. وهنا يتبادر هذا السؤال: فلماذا إذن نرى البؤس والشقاء والذل في الإنسان؟.

الجواب

اعلم أن الناس غارقون في الرحمة كما قدمنا، ولكنهم عنها محجوبين، وهاأنا ذا أحدثك عن نفسي وأنت طبعاً مثلي، إنني من الأمة المصرية ومن نسل عربي، فانظر ماذا ترى، أليست الحكومة المصرية والأمة المصرية هما اللذان يحافظان على حياة أفراد المصريين وأنا منهم. إن الحكومة نظام واحد وهذا النظام لو اختلّ اختلّ الأمن، فهو كدولاب واحد لا بد من صحة سائر أجزائه. النيل يجري لسقي الأرض، والحكومة تهندس وتحافظ، وهذه الأمة تتبادل المنافع مع اليابان والصين والهند وأوروبا، وهذا معلوم بدليل مصلحة الجمارك وصادراتها ووارداتها. فإذن كل الأمم شرقاً وغرباً تساعدني، سواء أعرفت أنا أم لم أعرف، أي أنهم يساعدون أمتي المصرية التي لا أكون مطمئناً إلاَّ باطمئنانها. إذن جميع العالم الإنساني يساعدني علمت أم لم أعلم، وهذه الأمم كلها تشرق عليها الشمس والقمر والكواكب. وهذه الأنوار لا سيما ضوء الشمس مؤثرات في المزارع والحيوان والنبات وهي التي تثير البخار من البحار، وتزجي الهواء فيكون رياحاً، ثم الرياح تحمل السحاب فيكون مطراً ثم إن الضوء يؤثر في نمو النبات، فلا تكون المادة الملونة في النبات إلاَّ به، وبها تكون المواد المنمية للنبات كما أوضحناه في سورة «الأنعام».

إذن تكون الأمة المصرية والأمم كلها والشمس والقمر والكواكب والهواء والماء والسحاب والرياح كلها خادمات لي. وبهذه كلها كان لي جسم وأعضاء تبلغ ٢٤٨ عضواً، وعضلات وأعصاب حس، وأعصاب حركة، وعقل في الدماغ، وحس مشترك، وقوة خيالية، وأخرى مفكرة، وحافظة وواهمة. وهذه كلها متصلات بالحواس الخمس وبأعصاب الحركة التي تتجه إلى ظواهر البشرة، فتحرك الأعضاء للطلب تارة وللهرب أخرى، وفي أعضائي من العجائب ما لا حدّ له. خذ مثلاً العين والأذن واقرأهما في سورة «آل عمران»، فهما هناك مرسومتان مصورتان مشروحتان شرحاً وافياً، وفيهما من العجائب ما يدهش العاقل ويحير اللبيب، ويربو في الحقائق المدهشة على ما يدهش المرء من عجائب ألف ليلة وليلة، التي هي وأمثالها خيالات يتسلى بها الشاب قبل أن يلج الحقائق التي نشرحها من العلوم الطبيعية والفلكية.

هذا الجسم وحواسه وعقله وقواه مغمور في الهواء الذي يتنفس فيه، وحوله الماء متوافر والغذاء والدواء والفاكهة والمدارس والمعلمون والتلاميذ وقراء الكتب التي يؤلفها والتي يتعلم منها، ولبلاده مدارس وحكومة منظمة. كل هذا نعمة عليّ أنا، فإذن العالم كله نعمة أسديت إليّ أنا وأبناء جنسي وديني.

ولكن الإنسان ينشأ من صغره غافلاً جاهلاً ما حوله ، حكم عليه أن يكون هذا العالم مدرسة له ، واقتضت الحكمة أن يكون منه غذاؤه ودواؤه وداؤه وحياته وموته ، كما يكون منه علمه وحكمته فهو علم وهو غذاء .

خلق الإنسان في الأرض وقيل له : أنت ملزم أن تحافظ على قوتك وملبسك ومسكنك وصحتك وأمتك ، وتتعاطى الطعام وتجلبه ، ولست كالنبات يأكل من الأرض ولا كالحيوان يأكل من غير أن يزرع ولا يحرث ولا يطحن كلاً .

ينكبّ الإنسان على ما يسدّ جوعه ويزيل مرضه ، ويأخذ في أسباب العلم والرقي ، ويستغرق في الهموم والأحزان بما ينتابه من الآلام أو الفقر أو التنافس أو الكسل أو العداوة أو الكبرياء أو الحسد أو الشره ، فهناك ينسى تلك النعم نسياناً حقيقياً ، فيقول الفقير : أنا أريد الغنى ، والجائع : أريد الخبز ، والمظلوم : أريد النصر ، ومن علا عليه أقرانه يريد أن يغلبهم ، ومن شمت به أعداؤه يريد الفوز .

وأضرب لك مثلاً شاباً عشق فتاة جميلة ، وامتنعت عليه ، فهل يفكر في نعمة العقل والحواس والصحة والغنى والثروة والهواء والماء والأمة والأمم والشمس والقمر؟ كلا ، ثم كلا ، لا يرى لله نعمة ولا رحمة إلاّ أن يحظى بمعشوقته . كفاك هذا المثل وأنت تعرف أمثاله وأمثاله .

فالإنسان تحيط به الرحمات التي لا عدد لها ، ولكنه يحجب عنها حجباً حقيقياً بطمع أو كبرياء أو غفلة أو ظلم . يكون للإنسان آلاف من الجنيهات فيحسد من زاد عليه ألفاً واحداً ، وينسى آلاف الآلاف من النعم ومن النقود ومن الصحة والبنين والأصحاب والخلاّن ، ويعترض على خالق هذا العالم الذي جعل له رجلاً يشاكله واعتلى عليه .

هذا هو مثل الناس في بدوّهم وحضرهم . فأين رحمة الأب أو رحمة الأم من أرحم الراحمين؟ ولكن الشهوات وأنواع الغضب وأخلاق السوء وما أشبه ذلك أصبحت حجاباً كثيفاً بين الناس وبين الإحساس بالنعمة والرحمة .

الحجاب المضروب بين الناس وبين رحمات الله

رأيت من هذا البيان أن الناس جميعاً في رحمات لا تعدّ بآلاف الآلاف ولا حصر لها ، وهي مشاهدة ملموسة مسموعة مشمومة مذوقة ، قد غرق الناس فيها ، ولكنهم لا يحسون بها ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الفرقان : ٤٤] ، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[يس : ٩] . وهاأنا ذا أريتك السدّ ببصيرتك ، فهذا السدّ أنواع كثيرة جداً كسدّ الحرص والشره والحقد والحسد والجهل والغفلة .

يعيش الإنسان ويموت وهو لا يدري أن له جسماً ، وأن هذا الجسم نعمة ، ولا يعقل أن ذلك كله فضل من الله ومنّة . فمن عجب أن تحيط بنا سدود ولا نراها ، وتلك السدود تحجب عنا جمال هذه المخلوقات ، فالعيون مفتحة ولكن لا تبصر ، وذلك لتلك الحجب التي شرحناها . إنّما مثل الناس في الدنيا بالنسبة لما حولهم من النعم كمثل العمي والصمّ الذين أمامهم الصور الجميلة ، وحولهم النغمات الشجية البديعة ، والأولون لا يستلذون بالمبصرات ، والآخرون لا يشعرون بالنغمات ، فلا فرق بين حاسة لم تخلق وبين حاسة مخلوقة عليها غشاء حسي أو معنوي .

هذه المعاني مقتبسة من أول هذه السورة، أي: من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]. بيّن الله هناك أن الناس أعطوا معايش، وقليلاً منهم شاكرون، وبيّن مجمل تلك النعم بالخلق والتصوير، ثم أبان موانع الشكر كعدم الاعتراف بالنعمة أو جهلها أو عدم استعمالها فيما خلقت له، فذكر عصيان إبليس عن السجود واستكباره بأصله الناري الذي هو القوة الغضبية السارية في أكثر الناس، فهم أشبهوه من هذه الناحية، وحجب عنهم الإحساس بالنعمة، وانحصرت قواهم في الغلبة والحسد والشهوات والتنافس، فنسوا سائر النعم إلاَّ ما حبست عقولهم فيه من الترّهات.

ثم انظر كيف يقول إبليس مشيراً لما قررناه أنه أقسم أن يغوي بني آدم فلا يكون أكثرهم شاكرين. ألا تعجب معي هذا العجب، أن تكون الآية التي نحن بصدد الكلام عليها، قد ذكر في أول السورة معناها، وبيّن مغزاها. يقول الله هناك إنه مكن بني آدم في الأرض وقليل منهم شاكرون.

ثم أعقب ذلك بقصة خلق آدم وتصويره، ويتبع ذلك جميع النعم، ثم كيف قفى على ذلك بقصة إبليس الذي حلف أن يغوي أبناء آدم حتى لا يكون أكثرهم شاكرين، فردّ العجز على الصدر الذي هو نوع من أنواع البديع الذي يفرح به أطفال العلم في الأمم الإسلامية المتأخرة، وقد جهلوا الحكمة المخبوءة، ومنها ما ذكرناه أن الكبر والحسد والحقد والحرص والشره وأمثالها هي الحجب التي أسدلت على عقول الناس بإغواء الشيطان الذي حلف أن أكثرهم لا يكون شاكراً، وذلك أن الشكر لا يكون إلاَّ بالإحساس بالنعمة، ولا إحساس بها ما دام المرء مشغول الفؤاد بما يهوى من مال أو ولد أو صيت كاذب أو فتاة حسناء.

فكل هؤلاء متى فتنوا بما أحبوه فإنهم لا محالة ينسون جميع النعم، لأنه حيل بينهم وبينها بسدّ كثيف قويّ متين، فلا يكونون شاكرين.

من هم الشاكرون لله

اعلم أن الإنسان لا يشكر النعمة إلاَّ بأحد أمرين:

الأمر الأول: منع النعمة عنهم، كما ترى الفقير والمظلوم والجائع والظمآن وذا الشبق والذليل والمريض. فمتى اغتنى الفقير، وجبر كسر المظلوم، وأكل الجائع، وشرب الظمآن، وتزوّج ذو الشبق، وعزّ الذليل، وشفي المريض، أقول متى نال هؤلاء ما منع عنهم شكروا ربهم.

قد يعيش المرء عشرات السنين وقد أعطي مالاً وولداً، ولكنه لا يحمد الله على شيء منها، لأنها لم تنزع منه حتى يعرفها، ويرى الفقير بجانب منزله نال كسرة بعد جوعه، فيحمد ربه حمداً كثيراً، وذلك يسخر منه ويستهزئ.

واعلم أن هذا الشكر ضئيل، أشبه بشكر العبد الذليل الذي اعتاد سيده أن يضربه، فمتى سكت عنه حمد سيده على هذه النعمة، أي: نعمة العفو عنه. وإنَّما الشكر الحقيقي فيما يأتي من الأمر الثاني وهاهو ذا:

الأمر الثاني: دراسة هذه الدنيا ونظامها وقراءة علوم هذا العالم والإلمام بمجملها والبحث فيها، وذلك هو المسمى «علم ما وراء الطبيعة»، ولا تظن أن هذه الكلمة على حقيقتها، بل ما وراء

الطبيعة معناه العلم الذي يشمل الرياضيات والطبيعيات، أي: العلم الذي لا يختصّ بأحدهما، فالبحث في نظام الكائنات العام منه، وقراءة المقولات وتقسيم العلوم منه.

وهذا التفسير أشبه بهذا العلم لأن مباحثه عامة، فليس معنى ما وراء الطبيعة غير ذلك، ويدخل فيه علم الأرواح والبحث في وجود الله والرسل وما أشبه ذلك.

قلنا فيما تقدم: إن الإنسان يعيش عشرات السنين وهو في سجن شهواته وغضبه، فلا يرى جمالاً ولا نعمة ولا رحمة، وقد يتمنى الموت كما قالت مريم: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾[مريم: ٢٣]، فلما كلمها عيسى وهو طفل وأفهمها أنه رسول الله، سري عنها وعرفت أن هذه المصيبة والفضيحة والخزي لا دوام لها، وأن الشر الدنيوي يعقبه الخير الأخروي والسعادة الأبدية بالمنافع العامة للناس.

هكذا خلق الله في نوع الإنسان أناساً اصطفاهم واختارهم، فهم يدرسون هذا الوجود، ولهم يتجلى الوجود على ما هو عليه على قدر الطاقة البشرية ويدركون جماله، وهم وإن انتابتهم المصائب وحلت بهم النوائب كسائر الناس، فإن في بواطنهم بواعث السرور والجذل والفرح بالحكمة، التي هي جمال لا ينضب، وذخر لا ينفد، فيذهب عنهم الحزن في الدنيا، وكلما أصابهم غم أو همّ أشرق عليهم ذلك النور، فهم دائماً في حبور وسرور وإشراق ونور وجمال وبهاء. وما مثل هذه الطوائف إلاّ كمثل السمع والبصر في الإنسان، كلاهما مدرك لما يعد عنه. أما بقية الناس فإنهم أشبه بحاسة اللمس والذوق فهما لا يدركان غير الملامس. أما هذه الطائفة فإن بصائرها مفتوحة لجمال هذا العالم، فأدركت الرحمة في الهواء وفي الماء وفي النبات وفي السماء، ولا يحجبهم تراكم النعم عليهم، بل هم يخترقون تلك الحجب، ويهيمون على الحقائق ويقتلونها بحثاً وتنقيباً، حتى تظهر واضحة كالشمس في رابعة النهار. وكما سري عن مريم بما سمعت من صوت ولدها أنه رسول وأنه يراها، كذلك يذهب السوء عن هذه الطائفة الشاكرة بما يلهمون في قلوبهم من جمال الوجود وبهجته، وأن الذل والشر يعقبان عزاً وخيراً، ويرون الصبر نعمة عظمى، يشير لذلك قوله تعالى: ﴿ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ الخ. فهؤلاء المتقون المنفقون أموالهم هم الذين فتحت بصائرهم للنظر في هذا الوجود، وهم هم الشاكرون حقاً.

وهنا يرد هذا السؤال، فيقال: لم عذب الناس عند الموت بنزع الروح؟ أليس ذلك شقاء للصالح والطالح على سواء، بل الخوف من الموت شقاء ملازم. أقول: هذا السؤال لا يرد بعد ما بينا أن الناس في سجن من الجهالات والأخلاق، ولو أن الناس قرؤوا العلوم لأدركوا أن الموت لا ألم فيه البتة، بل هذه خرافة مثل قصص العجائز، وإنّما الألم كما قلنا راجع للحجب المسدولة على العقول، وهذه يعوزها التربية والتأديب الإلهي.

ولقد قال علماؤنا المتقدمون كالإمام الغزالي: إن الموت لا ألم فيه، وإنّما الألم الوارد في الأخبار راجع إلى التحسر على فراق الدنيا لقلة العلم، كما تقدم في قول إبليس: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾[الأعراف: ١٧]. ولأختم هذا المقام بما خبرته بنفسي، وقرأته في الكشف الحديث استئناساً للمقام، فأقول:

كان بوزارة المعارف أحد المستخدمين وكانت علاقتي به أنه تلميذي، فغاب عني شهوراً، ثم تصادف أن قابلته معاتباً، فقصّ عليّ قصص ما انتابه، إذ سقط على إفريز الطريق «الرصيف» المرصوف بالحجر، وهو يريد ركوب قطار الترام، فزلقت رجله فخرّ صريعاً، قال: ولم أعلم بنفسي إلاّ بعد أيام، وأخبره الطبيب أنه منذ أيام لم يذق طعاماً، وأن رأسه مربوط لجرح بسيط في جلدة الرأس، ثم بعد أسابيع شفي تماماً، فقصّ عليه الحقيقة، فقال: إنك قد كنت كالميت، ورأسك كان مشدوخاً، ولو أخبرتك لأضرّ ذلك بك. فقلت: ما الذي أحسست به حين وقعت على رأسك. فقال: لم أحس بألم البتة وإنّما أحسست بأني قد خف جسمي ثم لم أع بعد ذلك شيئاً. اهـ.

هذا ما عرفته بنفسي. فأما عذاب النفس بعد الموت فذلك ناشئ من نقص العقول والأخلاق، فهاك ما نصه الأطباء في أوروبا أيام طبع هذا التفسير، فقد جاء في بعض جرائدنا المصرية ما يأتي:

على عتبة الأبدية

بماذا يشعر الإنسان عند الاحتضار؟

نشر أحد الأطباء الإنجليز مقالة في إحدى المجلات العلمية أثار بها اهتمام الرأي العام، ودعا الأطباء إلى القيام بمباحث واسعة النطاق لمعرفة ما يشعر به الإنسان في دقائقه الأخيرة على هذه الأرض وذلك لتجريد الموت من كل ما يلقي الهلع في النفس، ولإثبات أن دخول المرء في دور الاحتضار لا يصحبه شيء من مسببات الفزع على الإطلاق. ومن رأي الطبيب المذكور أنه متى عرف المرء هذه الحقيقة لم يبق للخوف أثر في نفسه. إن العلم لا يعرف عن الموت حتى الآن إلاّ النزر اليسير. والأطباء وإن كتبوا المجلدات الضخمة عن الولادة وفنّ التوليد، فإن ما كتبوه عن الموت قليل تافه لا يشفي الغليل، ذلك لأن الموت لا يزال سراً مبهماً.

ترى بماذا يشعر الميت وهو في حشرجة الموت، يحاول أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وهل الموت أمر بسيط كالولادة أم هو مصحوب بالهلع مما يتمثل للمرء من ظلمة القبر ووحشة الأبدية. إن معظم الذين يعوّل على آرائهم مجمعون على أنه متى حضرت المرء الوفاة زال كل أثر للخوف.

وفي الواقع أن معظم الناس يموتون بالسهولة التي يستغرقون بها في سبات عميق، ولا يشعرون بشيء من القلق. وبعض الناس ينظرون إلى الموت وهم في ساعة الاحتضار كأنهم على سفر إلى عالم جديد. أما الذين يعانون الآلام المبرحة، فإنهم يرون في الموت إنقاذاً لهم من تلك الآلام، والمظنون أن قليلاً جداً من الناس ينزعجون أو يصابون بالهلع متى حضرتهم الوفاة.

قال الدكتور «فيليب اغان» مدير مستشفى «تشارنج كروس» بلندن: لقد رأيت المئات من الناس في ساعة احتضارهم، وقلما رأيت على أحدهم شيئاً من علامات الهلع، ولست أعتقد أن المرء يشعر بالخوف متى دخل في دور الاحتضار، ولعلّ أبلغ حادث خبرته بنفسي من هذا القبيل ما وقع لشاب في السابعة والعشرين من عمره، دخل المستشفى وكان على أهبة الزواج قبيل مرضه ببضعة أيام، ويظهر أنه كان قد عيّن في وظيفة خارج إنكلترا، ولكن مرضه الفجائي حال دون سفره، ونظراً إلى اشتداد وطأة المرض عليه لم يبق أمل في شفائه، فاضطررت أن أخبر خطيبته التي كانت تحبه ويحبها حباً يقرب من العبادة، وليس ذلك فقط، بل كان من الواجب عليّ أن أطلعه هو نفسه على

حقيقة حاله لكي يكون مستعداً للموت، وقد قمت بذلك الواجب المؤلم على ألطف وجه، فأخذ يصيح صيحات مؤلمة، قائلاً: كلا، لا أريد أن أموت، ويلاه، لا أريد أن أموت، وكان المشهد مؤثراً للغاية. وكان ذلك الشاب في اضطراب عظيم مدة يومين متواليين، ولكن في اليوم الثالث طرأ عليه تغيّر عظيم، إذ هدأ ثائره وانقطع عن الصراخ، ولما قابلته رأيت أعصابه هادئة، فقال لي بكل هدوء ورباطة جأش: إن أبي توفي لما كان عمري ثلاث سنوات، وتوفيت أمي منذ أربع سنوات، وكنت بعد وفاتها أتمنى الموت كثيراً، إلى أن تعرفت بخطيبتي، فزالت عني كآبتي، وعزمت أن أبدأ الحياة من جديد، وهاأنا ذا على أهبة الرحيل من هذا العالم، وقد اعتدت فكرة الموت فلم يبق للخوف أثر في نفسي، على أنني أجهل ما هو المكان الذي أنا ذاهب إليه، وهل يتاح لي أن أرى أمي وأبي هناك. قال الطبيب: وقبل وفاته بنحو ساعتين استدعى الممرضة وطلب منها أن تضيء الأنوار الكهربائية لأنه لا يبصر، فقالت له الممرضة: ولكن الوقت نهار، ونور الشمس يملأ الغرفة. فقال لها: إن الظلام حالك، ولست أبصر شيئاً. فلم يسع الممرضة إلاّ أن تجيبه إلى طلبه، وظلت الأنوار الكهربائية مضيئة في غرفته إلى ما قبل وفاته ببضع دقائق، فنادى الممرضة وقال لها: الآن يمكنك أن تطفئي الأنوار لأنني أبصر، ولأن أمامي منظراً ساطعاً جميلاً.

ومن الأمور التي تكاد تكون مؤكدة، أنه مهما يكن الموت مفزعاً لنا نحن الأحياء، فإنه يفقد كل ما فيه من أثر مفزع في ساعة الاحتضار.

ولقد ثبت أن الكثيرين يقولون في دقائق احتضارهم: إنهم يسمعون إيقاع القياثير وأصوات الموسيقى المطربة. ويقول غيرهم: إنهم يرون مناظر بديعة لم يروا مثلها في حياتهم. ومنهم من يبسطون أذرعهم وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة كأنهم يستقبلون أشباحاً تبدو لهم.

ومن رأي السر «اربوتنت لاين» وهو من مشاهير الجراحين الإنجليز: أن الخوف من الموت ينتفي بتاتاً في ساعة الاحتضار. وهذا رأي معظم الأطباء في الوقت الحاضر، فالموت لا يخرج من كونه حادثاً طبيعياً، ولا شك أن الكثيرين من الشيوخ الذين شبعوا من الحياة وعانوا أحزانها، لا يزعجهم الموت مطلقاً، بل قد يرحبون به من كل قلوبهم.

وقال السير «لاين» المشار إليه: إنه في معظم حوادث الوفاة التي شهدها، كان الموت أشبه بالاستغراق في سبات عميق، وهو غير مصحوب بما يلقي الهلع في النفس، وإذا كان العلم يسعى لتسهيل عملية الولادة، فلماذا لا يسعى لتسهيل عملية الموت، وتجريدها من عوامل الهلع والفزع. وفي الواقع إن الموت أسهل بكثير مما تصوره لنا المخيلة. فإن الكثيرين ممن كانوا على وشك الموت ونجوا بأعجوبة، يشهدون أنهم لم يشعروا بشيء من الهلع، وأن حاسة الخوف انتفت منهم عندما شعروا بدنوّ دقائقهم الأخيرة.

يروى عن المستر «باربيليون» من كبار مؤلفي الروايات أنه مرض مرضاً لم يكن يرجى له منه الشفاء، فلما علم بدنوّ أجله أظهر شجاعة غريبة، إذ قال: «إن الموت لا يخيفني على الإطلاق، لأن الحياة قد أصبحت عبئاً ثقيلاً، بل أنا أتمنى الموت بسرعة، لأرى ما وراء هذا الأفق، ومن هم الذين سأقابلهم في ذلك العالم. إنني أرى الموت كالاستغراق في سبات هادئ».

وكتب المستر «بريكس» الكاتب الشهير ما كان يشعر به في دقائقه الأخيرة، وهذا بعض ما كتبه: «إذا كان الموت حالة من حالات عدم الشعور كما أعتقد، فأحسن ما يستطيع المرء عمله متى حضرته الوفاة أن يقنع نفسه بأنه عما قليل سيستغرق في سبات هادئ لا تزعجه فيه الأحلام ولا تقلقه الأشباح، وإذا كان ثمة عالم آخر وراء هذا الأفق فما أسعدنا إذ سنلاقي جبابرة الأجيال الماضية، مثل أفلاطون وأرسطو وسقراط وشكسبير وغيرهم». اهـ.

وقد شهد جميع الذين كانوا يزورون هذا الكاتب في دقائقه الأخيرة أنه كان بشوشاً، يشير إلى قرب رفاته بشجاعة غريبة، حتى لقبه الناس بعد وفاته بالميت الشجاع.

ويروى عن المس «كافيل» الممرضة الإنجليزية التي حكم الألمان عليها بالإعدام في زمن الحرب أنها أظهرت شجاعة فائقة، كأن الموت حادث اعتيادي، ولما زارها الكاهن قبيل إعدامها بدقائق أكدت له أنها لا تخاف من الموت، لأنها رأت الكثيرين من الأبطال يموتون أمام عينيها في ميادين القتال، وقد دهش جميع الذين حضروا إعدامها من الشجاعة التي أظهرتها حتى آخر نفس من أنفاسها.

والخلاصة أن آراء معظم الكتاب والعلماء مجمعة على أنه عندما تحضر المرء الوفاة، يفقد الموت كل ما فيه من أثر الرهبة والهلع. اهـ.

هنا أقف أيها الذكي معك وقفة وأخاطبك بما وقر في نفسي. أقول لك: إن هذا القول الذي يذيعه أطباء أوروبا والذي قلته أنا، كلام إقناعي ليس يقينياً، ولكن هو الذي يوافق حكمة الحكيم ورحمته فهو يعطينا صورة من رحمته.

وأقول لك ولا أخشى لومة لائم: إن هذه الصفة هي التي أعتقدها في صانع هذا العالم، وإلاّ فبالله كيف نراه يسير على وتيرة واحدة في نظامه، نراه ألهم الناس فأعدّوا أطباء للولادة، وهناك القابلات لتسهيل خروج الولد من الرحم. هكذا نراه عمم ذلك في أصغر الحشرات. ألم تر إلى ما ستقرؤه في سورة «النمل»، فإنك ترى هناك فيما نقلنا عن كتب الفرنجة بطريق الترجمة أنهم شاهدوا النمل قد خصصت طائفة منها لنزع اللفائف عن أولادها الصغار. وذلك أن النمل تضع بيضها، والبيض يكون دوداً ثم يصير «فيلجة» أي: كرة صغيرة محوطة بخيوط حريرية تنسجها الدودة النملية على نفسها، كما يفعل دود القز، ثم بعد أيام تنبت لها أعضاء الحركة، فتستعدّ للخروج فترى النملات الكبيرات المعدّات لذلك يساعدن الصغار ويجاهدن حتى تفك الربط الحريرية. أليس هذا بعينه هو ما تفعله القابلات عندنا وأطباء الولادة؟.

أنا لا أشك أن الله تعالى جعل هناك عالماً روحياً لمقابلة الأرواح عند خروجهم من الحياة جرياً على عادته أن قانون الله في الحياة والموت لا يتغير، فهو يرحم المولود ويرحم الميت. فسبحانه من إله عظيم. وإياك أن يصدّك عن هذا مسألة المعاصي والكفر، فإن هذا يحتاج إلى تطويل ولكن يكفيك الساعة أن أقول لك فائدتين:

الفائدة الأولى: اعلم أن الإمام الغزالي يقول كما نقلناه عنه في كتاب الأرواح: إن العذاب أولاً يكون بسبب الشهوات، ثم بعد أمد يكون على الجهل، ولا شك أن الجهل يدخل فيه الكفر، ثم بعد ذلك يكون عذاب النار.

الفائدة الثانية: إننا نرى الله يخلق الصبيان، وقد سوّى بينهم في أن القابلات مستعدّات للجميع فلا تفرقة بين الأغنياء والفقراء من حيث العموم، ثم بعد ذلك يمتاز الأطفال في حياتهم على حسب درجات آبائهم وأمهم وهكذا.

والموتى جميعاً يخرجون من الدنيا فيختلفون بعد الموت بحسب أعمالهم وأخلاقهم، كما اختلف أبناء الأغنياء والفقراء، قال تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾[الأنعام: ١٣٢]. وإن كان الجميع قد ساعدتهم القابلات مع العلم بأن ابن الزانية تقابله القابلة وهي مشمئزة، هكذا الفجار يقابلهم العالم الروحي وهو معرض عنهم، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾، والحمد لله رب العالمين.

زيادة إيضاح في قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

أيضاً حكمة بالغة في جوهرة ناضرة

حدّثني أحد الصلحاء الأذكياء قائلاً ما يأتي: كثيراً ما يختلج في صدري قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ بعد قوله: ﴿ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ﴾، فكيف نعتقد أن الرحمة عامة اعتقاداً صادقاً، وأنت لو فتشت في القلوب لوجدتها مطبقة على التألم من هذه الدنيا التي حوت الحرب والمرض والطاعون وأنواع الحمى والجدري ونقص الأنفس والأموال والثمرات والبرد القارس القاتل.

فأين هذه الرحمة؟ وإني أتمنى أن أقف على هذه الرحمة الواسعة حتى أفرح بها. ويا ليت شعري، لماذا نزل هذا في القرآن، بل كيف يكلفنا الله بالمستحيل؟ ألم يرد في الحديث الصحيح أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن نؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره من الله؟ فهذا صريح في أن الله عنده خير وشر، فأين سعة رحمته إذن؟.

وترانا نقول في قنوت الصبح كل يوم: «فلك الحمد على ما قضيت ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت»، إذن نحن نحمد الله على القضاء عامة، أي: على الخير والشر، وكيف يكون الحمد على الشر ولا حمد إلاَّ على نعمة. أما النقمة فكيف نتصور الحمد عليها؟ يظهر لي أننا نعيش في جوّ من الجهالة، ونلوك ألفاظاً لا ندرك معناها. وعجبي للديانات كلها أنها في هذا المعنى متشابهات. وما مثل الناس في ذلك إلاَّ كمثل عبيد العصا يحمدون ساداتهم خوفاً من أذاهم لا حباً لهم.

الإجابة

فقلت له: اعلم أن هذا المقام بسطته في سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الآية: ٢٦]، ففيه هناك ما يكفي ذا اللب. وقد أبنت لك هناك أن ما أذكره فتح باباً للبحث، وأن اليقين إنَّما يأتي من طريق البحث والتنقيب وقراءة آراء الأمم وعدم التعصب لرأي خاص، ورجوع النفس إلى الله والذكر والفكر.

واعلم أن الله عزَّ وجلَّ ما ذكر هذا في كتابه، ولا على لسان رسوله، ولا في دعاء الصلاة، ولا في الفاتحة، إذ كرر الرحمة فيها أربع مرات، إلاَّ ليحفزنا إلى درس هذا الوجود، ويحثنا على دراسة هذه الكائنات التي نعيش فيها، فإن هذه الشبهة التي وردت عليك لم تخلق فيك عبثاً، وإنَّما خلقت لحكمة وهي حثك على الجدّ والمثابرة في البحث، حتى تدرك ببصيرتك سر الموت والحياة والمرض والأرزاء،

ومتى أدركت ذلك اطمأنت نفسك لهذا الوجود، وعرفت ما يدل على هذه الحكمة: ليس في الإمكان أبدع مما كان.

فقال ذلك الصالح الذكي: أنا لم أقرأ ما كتبته أنت في سورة «آل عمران»، ولم أدرس كتب الفلاسفة، ولم أنل حظاً عظيماً من الذكر، فهات لي لمحة تفتح لي باب النظر، وعجالة يكون فيها المبتدأ والخبر بحيث يفهم العامة والعلماء والخاصة والجهلاء، ولا يكون لها سابق ذكر في الكتاب، فقلت: إن جميع ما نقاسيه في هذا الوجود أشبه بما يقاسيه المريض من الطبيب، فكم من مريض بسم له الدهر بالطبيب، فسقاه المر ومنع عنه زيارة الأصدقاء، وحماه من اللذات والشهوات، ويتر منه بعض العظام والعضلات.

فهل ذلك لنكاية فيه، أم لاهتمام به، إنَّما الآلام مبدأ الرحمات وباب النجاة. إن طبيعتنا أرضية وأحوالنا حيوانية. فالتأديب بالتعليم والحوادث مرهفات لعزائمنا، مقويات لنفوسنا، حتى نرجع إلى عالمنا الأعلى، وما مثلنا في ذلك إلاَّ كمثل ماء البحر الملح، سلط الله عليه الشمس فجعلته بخاراً، فصار في الجو سحاباً، فنزل على الأرض مطراً، فجرى في مجاري مختلفات، فاجتمعت تلك المجاري فكوّنت نهراً، فجرى النهر إلى البحر ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فرجعت القطرات إلى أوطانها فرحات بأهلها.

هكذا هذه الأرواح جاءت لهذا العالم وذاقت حلوه ومرّه ثم رجعت إلى عالمها. وإن أردت ضرب أمثال للشر يكون هو نفسه خيراً، فهاك هذه الحوادث:

الحادثة الأولى: عملية جراحية أورثت الشفاء في السمع والنطق. ذلك أنه في أيامنا هذه كان رجل يسمى «أرنست باباج» مغرماً بالملاكمة والمباراة فيها، وبينما هو يلاكم مرة أصيب بلكمة في عنقه، فجعلته أصمّ أبكم، وبقي هكذا عامين، ومنذ أسابيع من كتابة هذه المقالة التي أكتبها الآن قبيل الفجر ليلة ٤ يناير سنة ١٩٢٧، دخلت شظية في إحدى أصابعه، فقصد طبيباً جراحاً لإخراجها، لأن إصبعه التهبت، فكانت العملية شديدة الصعوبة قاسية الألم، فلما أن أخرج الشظية شفي تمام الشفاء من المرضين معاً، فقابله أحد رفاقه فأراد أن يأخذه من ذراعه، فصرخ قائلاً: «دعني وحدي فإني بخير الآن». فهذه أعادت له حاسة السمع والنطق. انتهت.

أما ما نذوقه في الدنيا من الألم، لعله أشبه بآلام هذا المريض عند استخراج الشظية من إصبعه، وانفتاح البصيرة لمعرفة جمال هذه الدنيا الموصدة أبواب علومها أمامنا أشبه بما حصل له من شفاء سمعه ونطقه.

الحادثة الثانية: أن رجلاً أعمى أخرس من قرية في مقاطعة «نورثمبتون شير» قصد طبيباً، فقرر له عملية في عينيه وهو لا يثق برجوع حاسة البصر له، وبينما هو ينتظر الجراح وهو يحضر مشارطه، إذ سقط على الأرض وعند النهوض وجد نفسه قادراً على الكلام. انتهت.

الحادثة الثالثة: أن رجلاً أعمى جيء به إلى مستشفى في مدينة «برمنجهام» لإجراء عملية جراحية له في دمل بالمخ كان يهدد حياته، فنجحت العملية نجاحاً فوق ما يصفه الواصفون إذ شفي من الدمل وعاد إليه بصره.

الحادثة الرابعة: روت مجلة «اللانسبت» الطبية أن رجلاً في الثلاثين من عمره أجريت له عملية «الكاتاركت» في عينيه بمستشفى الرمد في مدينة «جلاسجو»، وكان ولد أكمه لم يشهد في الدنيا شيئاً، فنجحت العملية وعادت له حاسة البصر التي لم يعرفها قبل ذلك.

الحادثة الخامسة: مزعجات حسنت الخلق. في سنة ١٩١٤ كان رجل مجرم اسمه «سيزيكلي» في سجن الحكومة بولاية «بنسلفانيا»، فأصيب بإصابة قوية في رأسه، فعطبته عطباً شديداً، والجمجمة كانت إصابتها خطرة، فأسرع طبيب السجن وأسعفه بالعلاج، فأنقذ حياته، وهناك حصل ما يدهش الأبصار. إن «سيزيكلي» كان رجلاً متوحشاً قاسياً يدخل الرعب على نفوس رفقائه المسجونين، فما انتهت هذه العملية حتى تبدل خلقه وصار ذكياً نشطاً رحيماً مطيعاً فرحاً مساعداً للسجانين والمسجونين ولله في خلقه شؤون. اهـ.

الحادثة السادسة: وقع لصبي في الخامسة عشرة من العمر يسمى «جيسي بيرد» وله نزعة قوية في الإجرام، فأصيب يوماً بجرح في رأسه، فلما أجريت له عملية جراحية تبيّن أن في رأسه قطعة عظم ضاغطة على المخ، فلما رفعت هذه القطعة صار الصبي ذا خلق جميل، وهو فرح مسرور. اهـ.

الحادثة السابعة: حدث في بلادنا المصرية منذ ثلاثة أعوام أن قروياً في بلدة «طلخا» أصيب بفقد بصره، ولم ينفعه علاج، وباع فدانين من أرضه لنفقات العلاج بلا جدوى. واتفق يوماً أن جلس في بار «قهوة» في بلده، ولما فتح عامل القهوة «الجرسون» زجاجة الغازوزة لأحد الجالسين، طار سداد الزجاجة فأصاب أنف الرجل الأعمى المذكور، فسقط الدم من أنفه كما يحصل في الفصد، فعاد للرجل بصره في الحال. قال الشاعر:

من يعتصم بإله العرش يحفظه فهو الحكيم يداوي الداء بالداء

أليست هذه الحوادث تمر على الجهال مر النسيم على الحصباء والصرصر على الفضاء. أخلاق تبدلت وأسماع وأبصار شفيت بأعمال جراحية. لعل حياتنا كلها عملية جراحية تشفي نفوسنا من أمراض فيها لا ندريها، فإذا جهلنا نحن كما جهل أطباؤنا جميعاً في الأرض، أن مرض العين في الحادثة السابقة مثلاً يشفيه فصد في الموضع المعيّن من الأنف. وأن المجرمين في الحادثة الخامسة والسادسة يكفي لتحسين خلقهما عملية في رأسيهما، مع أن علم الطب قد تقدم في زماننا تقدماً عظيماً، وقطع دابر الأمراض العامة وأثر أثراً محسوساً حتى كثر نوع الإنسان على الأرض.

أقول: إذا جهل أطباؤنا ما ذكر في أجسام إنسانية حاضرة لدينا، فإن ذلك يدل دلالة قاطعة أن هذه الأجسام، وهذه العوالم مكتظة بالعلوم، والرحمات مملوءة حكمة ونوراً وأسراراً، وأن الله يحدث أمثال هذه النوادر ليقول لنا: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥]، فجدّوا وابحثوا فلن تصلوا إليّ حتى أطلعكم على حقائق رحماتي، وما أنتم اليوم إلاّ كسمك في البحر، والرحمة أشبه بالعوالم المائية والهوائية، فأنتم لا تعرفون من رحماتي إلاّ كما يعرف عالم السمك عن عالم الأرض والهواء من نبات وحيوان وطير، ولن يكون يقين إلاّ بالجدّ في التهذيب، ودراسة العلوم جميعها شرقية وغربية، فإذا قال المسلم: رضيت بالله رباً، وإذا قال: آمنت بالقدر خيره وشره من الله، فإن ذلك يسوقه إلى أن يتبع الإيمان بالعلم إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، ومتى درس النظام جاءه اليقين.

واليقين هو المقصود من هذا الوجود، وهو الذي أعطاه الله لإبراهيم الخليل عليه السلام كما تقدم في سورة «الأنعام»، إذ أراه الله ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين، وإذ أمر بتشريح الطيور فشرحها وقطعها ثم أحياها الله، وذلك إشارة لعلم الكيمياء الذي يدل على حسن النظام والترتيب، وقد تقدم هذا في سورة «البقرة» بإيضاح أوفى فراجعه إن شئت.

فإذا كان الخليل يطلب من الله اطمئنان القلب، فطمأنه باليقين بعلم الكيمياء في سورة «البقرة» وعلم الفلك في سورة «الأنعام»؛ فهذا أمر لي أنا وأنت أن ندرس هذه العلوم إذا قدرنا، لأن نبينا صلى الله عليه وسلم أمر أن يتبعه إذ قال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠] وأمر النبي أمر لأمته، وما ألطف قوله صلى الله عليه وسلم: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»، كأنه يدعونا نحن أن نقول ذلك، وبذلك نجدّ في العلوم، فرجعت هذه الآية إلى تقوية المدارك العلمية في البلاد الإسلامية.

إن عذاب الدنيا والآخرة مرجعه الجهل بنظام هذا الوجود، إن الله خلقنا للعلم والعمل، وكل ما نعانيه في الدنيا مفتاح للعلم، حتى إن مصائب المسلمين اليوم مفاتيح لرقيهم، ولولاها لصاروا أمثال هذا التفسير الذي صرّح بأمور قد كفر بأقل منها المسلمون. العلاّمة ابن رشد والغزالي وابن سينا والفارابي، راجع ذلك في سورة «الأنعام» تحت عنوان: «برزخ بين بحرين»، بل لولاها لم يكن هذا التفسير.

إن مثل ما أصيب به المسلمون اليوم من الضنك وإذلال الفرنجة لهم كمثل تلك العمليات الجراحية التي عملت في الحوادث السبعة الآنفة الذكر، فشفت أبصار المرضى، وأبرأت أصمهم من حيث لا يعلمون، إن الإنسان لا يزال معذباً على مقدار جهله، وكلما زاد علماً بهذا النظام العام أدرك الرحمة ففرح، إن جهنم دار خلقها الله لمن لا يعقلون.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[الملك: ١٠] وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾[الإسراء: ٩٧] الخ، ومن تتبع هذا التفسير أرجو أن يكون له فيه سداد من عوز، والحمد لله رب العالمين. اهـ.

فلما سمع ذلك، ذلك الصالح قال: هذا حسن، ولكن الأحسن من هذه النوادر أن أسمع منك أموراً في نفس الطبيعة المشاهدة حتى نرى بأنفسنا أن الرحمة في المصائب فعلاً، أما هذا الذي قلته فعلاً فإنّما يتجلى بالاستنتاج، فقلت له: سل ما بدا لك. فقال: ما الفوائد الناتجة من شدة البرد ومن تغطية الأرض بالثلج في الأقطار الباردة؟ فإذا عرفنا أن الحر في الأقطار الاستوائية يهيج الأرض بالنبات والروائح العطرية والأزهار البهيجة والجمال والغابات والنعم العظيمة، فأيّ فائدة في شدة البرد، وفي كثرة الثلج للأراضي الباردة المسكونة بالإنسان والحيوان؟ فقلت: أما شدة البرد فإنها تقتل الحشرات الفاتكة بالزرع، وذلك عام في بلادنا المصرية، والبلاد التي اشتد بردها، فمتى أقبل فصل الشتاء غابت تلك الحشرات التي كنت تراها في أرضنا، مثل: أبي دقيق والجراد وغيرها، فهذه فاتكات بزرعنا، فأهلكها الله ثم يخلق غيرها. وأيضاً البرودة تجعل في الأرض قابلية لبذر الحب بما تفعله في الطين من التفتت، أما الثلج في البلاد الثلجية فإنه يغطي الأرض ليحفظ البذور والنباتات الصغيرة من سطوة البرد، كما يحفظ الماء الذي تحته في الأنهار من أن يصير ثلجاً وإلاّ لمات السمك؛ فالثلج يحفظ نبات

البر وسمك البحر. قال: هذا والله عجب عجاب. فقلت: إذن الثلج نعمة على الحيوان والإنسان يحفظ البذر والسمك والنبات من البرد، والبرد نعمة فيقتل الحشرات ويصلح الأرض للزرع، فسبحان العظيم الخلاق.

فهنا إذن: (١) حشرات تخلق لتنظيف الجو وذلك بأكلها الرطوبات المضرة بنا. (٢) برد قاتل لتلك الحشرات. (٣) ثلج مانع لذلك البرد القاتل أن يفتك ببذرنا وزرعنا الصغير. (٤) ثم ضوء الشمس المزيل للثلج، فيخرج نباتاً وينمو زرعنا ونعيش آمنين.

جهل الناس هذا الجمال ففزعوا إلى الروايات وأبرزوها بهيئة مسارح تسرّ الناظرين، ولو أنهم رأوا هذا الجمال لبهرهم، هذه هي الحكمة، حشرة نافعة في امتصاص الرطوبة، فمتى أتمت واجبها ضرّ بها البرد، فمتى أتم واجبه منعه الثلج أن يضر الزرع الصغير، فمتى أتم واجبه برزت النفس. هذا هو الجمال وهذا هو العلم.

ومن هذا يفهم الناس معنى قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾، انظر كيف وسعت رحمته، انظر كيف كان ثلجه وبرده وحشراته كلها مهلكات، ولكنها لحكمة عامة، فلما سمع صاحبي ذلك قال: هذا هو الذي يشرح الصدر، ولكني أسألك سؤالاً أهم من هذا، إذا كان الله هكذا رؤوفاً رحيماً لماذا يميتنا؟ وهل هذا فعل الرحيم؟ فقلت: هذا هو الذي أحب أن أكلمك فيه.

اعلم أن الأطباء في زماننا الحاضر في أمريكا وأوروبا يجدون أن في طاقتهم أن يطيلوا الأعمار ويزعمون أن هذا ممكن وأنا أقول لك: إنه مستحيل ومستحيل أن تطول الأعمار كما يشتهون، نعم يعمر قوم على سبيل الندور والقلة، أما أن طول العمر يعم في المسكونة فذلك لا سبيل إليه، وذلك لأمرين:

الأمر الأول: أن الناس لو عاشوا ألف سنة أو خمسمائة سنة مثلاً وتناسلوا لأصبحت الأرض لا تسعهم، أي: لا تسع سكناهم وحدها، فلا يجدون مكاناً يجلسون فيه، فيبقى الابن وابنه إلى الجيل العاشر أو الثاني عشر، وهذا هو العذاب الأليم، وإذن يقتل الناس بعضهم بعضاً إن عاشوا ووجدوا قوتاً، ومن أين يكون قوتهم إذن؟.

الأمر الثاني: أن هذه المادة التي نعيش فيها لو أنها خصصت بنا نحن ولم نلد ولم نولد وعشنا أعماراً طوالاً لكان ذلك خطلاً وخطأ، وذلك لحصر المنفعة في عدد معلوم من المخلوقات.

فأما الموت والحياة والحمل والولادة فإن معناه تكثير الأحياء، فيعدّون بمئات الآلاف من الأجيال بدل جيل واحد، وأيضاً لو كنا جيلاً واحداً على الأرض أزلاً وأبداً، فما الذي نأكله؟أليست الحيوانات والنباتات؟ ولكنا فرضنا أن الأحياء لا تتجدد، فما الذي نأكله بعد انقراض النبات والحيوان؟ اللهم إلا إذا كان هناك نظامان: نظام لنا بالخلود وعدم الموت، ونظام للنبات والحيوان بالتجدد وهو خطل في النظام، فسبحان مدبر الكون ومبدعه.

هذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾، فلما سمع صاحبي ذلك، قال: كفى لقد أصبحت موقناً بسعة رحمة الله، وعرفت أن أهل الأرض في الشرق والغرب نائمون، وأحببت ما يحبه الله من حياتي الآن وموتي عند بلوغ الأجل، وأيقنت أن أكثر هذا الإنسان غافل ساه، ولو أنهم علموا ما دار بيننا لم يكره أحد الموت. إن الله رحيم. هذه هي النعمة وهذه هي الرحمة.

إن هذا هو العلم الذي تكون به سعادة النفوس وانشراح الصدور، بل هذا هو السر المصون والجوهر المكتون، والحمد لله رب العالمين. انتهى.

شهود المناظر العجيبة في محاسن الخليقة

أيها الذكي هاأنت شاهدت معي منظراً ساحراً تخرّ له العقلاء للأذقان سجداً، وقد شهدت هنا وفي مواضع كثيرة من هذا التفسير الذي جعله الله روضة من رياضه، فيه جنات من نخيل وأعناب وفواكه مما يشتهون، فهاأنت ذا رأيت تلك الصور الساحرة إنها صور تمثيلية أو صور متحركة «سينما». إن الطبيعة أمام العقل الجامد جامدة، وأمام العقول اللطيفة متحركة ساحرة باهرة جميلة المحيا.

فانظر رعاك الله هذه المناظر؛ فهنا طائفتان: شاهد ومشهود. ذلك أن الله عزَّ وجلَّ ألهم الناس أن يفتشوا في الأرض محالّ للتمثيل، تمثل فيها الروايات بالأشخاص في المسارح المشهورة، ومحالّ أخرى للصور المتحركة كما ذكرناه، والنظار من الناس يشهدون. إذن الناس قسمان: شاهد ومشهود، هكذا هنا في الحكمة، الناس فريقان: شهود، وهم علماء الأمم في اللغات، كالنحو والصرف والمعاني والإنشاء، وفي العلوم الرياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك، وفي الطبيعات كعلوم المواليد الثلاثية وكالكيمياء والطبيعة وفروعها. أما الشهداء لهذه المناظر العلمية، فهم الحكماء والصدّيقون أولئك الذين يخلقون في الأمم جيلاً بعد جيل، ويجيلون النظر في تلك العلوم، وينظرون إليها نظرة عامة كما ترى في القرآن.

فهؤلاء هم الشهداء أشبه بالنظارة في المسارح العامة ومشاهد الصور المتحركة، هؤلاء نظرهم عام، هم الذين يخلقون في الأرض ليرشدوا الأمم لتلك العلوم يهيئوهم للإصلاح؛ وهم هم الأبرار الذين ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥-٦]، وهم ﴿لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٦] وسترى تفسير ختام المسك والرحيق هناك في الجزء الأخير من هذا التفسير.

وستعلم أن ذلك يرجع إلى الحكمة والعلم واليقين، فهؤلاء شهداء على الأمم يجيئون هنا إلى الأرض وفطرهم مولعة بحب الاطلاع والإصلاح، وهؤلاء هم الأبرار الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ١٨-٢٠]، فهؤلاء كتابهم في عليين، لأن علومهم وأنظارهم عامة.

فأما أصحاب العلوم الخاصة كالفقهاء والنحاة الفلكيين والرياضيين، فإنهم مختصون بعمل في المشهد العام ومسارح التمثيل في الكون، والأبرار هم الشهداء عليهم، وهم الذين يعرفون كلاً بسيماهم وكتاب هؤلاء الأبرار يشهده المقربون من الملائكة عند الله تعالى، لأن المقربين نظرهم كلي فهم يلاحظون هؤلاء المصلحين ويشهدون أعمالهم ويلهمونهم الخير في الدنيا، ولن يشهد المقربون أصاغر الأمم الذين ليسوا مشرفين على العلوم العامة والنظام الكلي لأن كتاب أولئك الأصاغر ليس في عليين فليس كلياً، إن الأبرار والصديقين كتابهم في عليين وهم من جهة أخرى مشهودون يشهدهم المقربون، وهؤلاء هم الذين جاء فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]

فالناس مختلفون، ولكن هذه الطائفة من المفكرين هم الذين رحمهم ربك، وإنّما رحمهم لأن نظرهم عام، وبه فهموا الرحمة العامة التي في هذه الآية: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وهؤلاء الأبرار هم من الذين يشملهم قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

إني أرجو أن يكون هذا التفسير وأمثاله نواة صالحة لإنشاء فئة من المفكرين في الأمم الإسلامية يكون مشربهم على نمطه فيكونون هم الأبرار وهم الصديقون وهم الشهداء على الناس، وتشهد كتابهم الملائكة وهم الذين رحمهم ربك لأنهم يتحدون، وباتحادهم تتحد الأمم الإسلامية المسكينة التي اختلف قوّادها وأقطابها لجهالتهم الفاشية إلاّ قليلاً منهم، فهؤلاء الذين يقرؤون ما كتبناه سيجدون أنهم على مشرب واحد في سائر المذاهب الإسلامية فيوحدون الأمم الإسلامية جيلاً بعد جيل، والحمد لله رب العالمين. انتهى المبحث السابع.

المبحث الثامن

هذا المبحث هو المقصود من القصص المتقدمة، وهو إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم، فلقد ذكر في القصص المتقدمة معجزات الأنبياء، وأنها قوبلت بالإعراض. فأما رسولنا صلى الله عليه وسلم فإنه قال فيه: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾.

بدائع سورة الأعراف

اعلم أن هذه السورة تفيد أن الإيمان على قسمين: إيمان دائم يرفع إلى أعلى الدرجات، وإيمان ناقص لا يلبث أن يزول. والقسم الثاني: إيمان العامة ومن نحا نحوهم من الأمم الجاهلة، فإن الله عندهم لا يعرف إلاّ بما يخالف النواميس الطبيعية، والأنبياء والقديسين في نظرهم لا يعرفون إلاّ بما يخالف نواميس الطبيعة، ولذلك ترى العالم الإنساني من قديم الزمان وإلى هذا العصر يخضعون لكل من أدهشهم بأمر فوق طاقتهم، فلا نبي إلاّ حيث يخرق النواميس، ولا وليّ مقدساً إلاّ حيث تقلب له الأوضاع، فجاءت سورة «الأعراف» فنقضت هذه القضايا، وكذبت هذه الدعاوى، وأبعدت هذه الرزايا، وأعتقت الجنس البشري من التعويل على ما كان مخالفاً للنواميس، فقد ذكر كيف كفرت الأمم بعد الإيمان، وكيف صدق السحرة في الإيمان، وكفر بنو إسرائيل بعد ما رأوا الآيات بالعيان؛ فالمدار على الأنوار النفسية والعلوم العقلية والوقوف على الحقائق الكونية حتى تعرف الرحمة الإلهية ويمتاز الخبيث من الطيب، إذ العامة ومن نحا نحوهم يعيشون ويموتون وهم مخدوعون، إيمانهم تقليدي ودينهم لفظي، فلا يعرفون النواميس الطبيعية ولا العجائب الفلكية، ونفوسهم نائمة فلا يذكرون الله إلاّ إذا دهمتهم واقعة وصدعتهم قارعة وبطشت بهم باطشة، فلا يذكرون الله إلاّ قليلاً.

أما القسم الأول فهم الذين يرون الله عند كل حركة وسكون، ونور وظلام، وسهل وجبل، وشمس وقمر، وحجر وشجر، لأنهم يعرفون نظام الطبيعة وإتقان الخليقة وعجائب هذه الدنيا.

وهذا معنى وصف القرآن هنا بأنه النور، فالأنبياء عندهم يهدون الناس بطريق الحقائق، والعلماء والمصلحون هم الذين يرشدون الناس بعقولهم لا بإنامة أفكارهم بالمدهشات والغرائب، حتى تقف العقول عند ما وصل إليه الشيوخ، وكم من شيخ كان الاعتقاد فيه سبباً لوقوف عقل

تلاميذه، وكم دين كان الوقوف على ظواهره من أسباب الخلل في النظام والجهل في الأحكام، ثم تفرّق الأمة بعد ذلك شذر مذر والناس تائهون لا يعلمون ما يصنعون.

واعلم أن هذا الفريق في الأمة المحمدية اليوم كبير، قد تركوا عقولهم وأناموا بصائرهم، فهم بعد الصدر الأول عالة على الأمم، وسيكون في المستقبل منهم حكماء وعلماء دارسون لهذا الوجود، مؤمنون بما صنعته يد الله في كل موجود، موقنون إيقان الحكماء لا تقليد الجهلاء.

هذا ما نتوقعه ونرجو الله أن يحققه، هذا هو الذي سيكون في أمة الإسلام في مستقبل الزمان، وسيقل تقليد الشيوخ الجاهلين الذين يقولون: الله لا يعرف إلاّ بنظراتهم، وسيعرف المسلم أن الله لن يعرف حق معرفته على قدر الطاقة البشرية إلاّ بمعرفة جمال هذه العوالم العلوية والسفلية، و﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾[الروم: ٤]، ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج: ٤١].

ولما كان هذا هو شأن القرآن وهو الذي أوضحته في سورة الأعراف التي يشير اسمها إلى معرفة المعاني العالية والحكم والآراء الثاقبة، والعلوم العالية، والأنوار المشرقة، والشموس المتألقة، والأضواء البارقة والقوة الساحقة، أخذ يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعلن هذه الحقيقة على رؤوس الأشهاد ويقول: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ فإن الدين العام هو ما ناسب الفطرة، والفطرة تأنس بالنظام، فأما الخوارق النادرة فلا نظام فيها ولا ثبات، وقوله: «جميعاً» حال من «إليكم»، ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ صفة لله تعالى ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾، وإذا كان له ملك السماوات والأرض وهو المتصرف في الوجود وحده، والحياة والموت من صنعه، فإني رسوله الدالّ على النظر في نظامه العام، فلا أعوّل إلاّ على النظام الطبيعي والعجائب الفلكية والغرائب الحكمية، فهذا هو الذي أرسلت لأبينه، وهو أرحم الراحمين، وأنا أرسلت للناس رحمة. ولما كانت هذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ جعل رجاء الهداية مرتباً على الإيمان المذكور وعلى التقوى، فمن آمن به وهو غير تقيّ فليس مهتدياً.

المبحث التاسع

ولما فرغ من وصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستطراد رجع إلى قوم موسى فقال: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ ﴾ يعني من بني إسرائيل ﴿ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يهدون الناس بكلمة الحق ﴿ وَبِهِۦ ﴾ وبالحق ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ بين الناس في الحكم، وهم الثابتون على الإيمان، فكأنه سبحانه يقول: إنّا قد ذكرنا في هذه السورة مخازي بني إسرائيل وأنهم قوم خشنوا العقول والطباع، فقد عبدوا العجل ولهم مخاز كثيرة، وإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين تجتمع لهم الدرجات وتنزل عليهم البركات، فهم أرقى من أمة موسى، ولكن هذا لا يدل على أن قوم موسى جميعهم فاسقون، كلا، فإن من قوم موسى طائفة قامت بالحق وحكمت بالعدل ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ﴾ وصيرناهم قطعاً متميزاً بعضهم عن بعض ﴿ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ ﴾ مفعول ثان لـ «قطع»، أي: صير، وقوله: ﴿ أَسْبَاطًا ﴾ بدل منه ﴿ أُمَمًا ﴾ بدل بعد بدل، أي: جماعات وقبائل، والأسباط هم أولاد يعقوب ويعقوب هو إسرائيل وكانوا اثني عشر ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ ﴾ في التيه ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ ﴾

أي: فانفجرت ﴿ مِنْهُ ﴾ من الحجر ﴿ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ يعني لكل سبط عين ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ ﴾ كل سبط ﴿ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ ﴾ ليقيهم حر الشمس ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا ﴾ أي: وقلنا لهم: كلوا ﴿ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ واعلم أن هذا المقام تقدّم شرحه في «البقرة»، وقد وازنت هناك ما بين العصا التي ضرب بها موسى وبين عجائب الطبيعة التي أبرزها الله في الأرض التي بها تتفجر الأنهار، والمسلمون غافلون، فارجع إليه إن شئت. ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ أي: اذكر، والقرية: بيت المقدس ﴿ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وهذا المقام تقدم في سورة «البقرة» أيضاً فافهمه فيها. ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ كل هذا تقدم في «البقرة»، ذكر ثلاث حوادث: اثنتان خاصتان ببني إسرائيل، والثالثة عامة لنوع الإنسان.

أما الحادثتان الخاصتان ببني إسرائيل فأولاهما مسألة القرية التي كانت حاضرة البحر، وذلك أن اليهود الذين كانوا يسكنون أيلة؛ وهي العقبة؛ وهي بلدة قريبة من البحر، قد فعلوا أمراً مخالفاً للشريعة، فإنهم فعلوا مع الله في شريعته ما يفعل السارقون والنشالون، وكذبوا عليه تعالى بحيل لفقوها وفتاوى شرعية كتبوها، ذلك أن الله حرم عليهم كل عمل يوم السبت، فاحتالوا على العمل في ذلك اليوم بحيلة شيطانية كما يحتال صغار الفقهاء من المسلمين بالحيل الشرعية غروراً وجهالة. ذلك أن السمك في يوم السبت كان يظهر فوق وجه الماء، فتحاموا صيده ولم يمسكوه، ولكن إذا رأوه داخل مكان في جانب البحر جعلوا على مدخله سداً فلا يفلت منه السمك، حتى إذا كان اليوم الثاني انقضوا عليه فاصطادوه. فظاهر الأمر أنهم اصطادوا في غير يوم السبت، ولكن الحقيقة أن الصيد الحقيقي هو في يوم السبت، فأنزل الله هذه الآيات على رسوله صلى الله عليه وسلم ليوبخهم ويقرعهم ويظهر لهم مكنون العلم الذي خبؤوه في التوراة، وليفضحهم ويقول لهم: يا أيها الناس، أنتم قديماً وحديثاً عاصون مخالفون تاركون لأوامر الله فأنتم شرار الناس، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ ﴾ يا محمد ﴿ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ وهي أيلة، وهي قرية بين مدين والطور على شاطئ البحر الأحمر، وهذا معنى قوله: ﴿ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ الأحمر، أي: قريبة منه ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت، و«إذ» ظرف لـ «كانت» أي: وقت يتجاوزون الحد ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ ﴾ أي وقت تأتيهم حيتانهم ﴿ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ يوم تعظيمهم أمر السبت ظاهرة على وجه الماء، جمع شارع: حال من الحيتان ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ أي: ويوم لا يدخلون في السبت الخ ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك البلاء الشديد ﴿ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾. واختلف أهل القرية إذ ذاك فكانوا فرقاً ثلاثة: فقوم هم الخاطئون، وقوم نهوهم عن ذلك، وقوم سكتوا وقالوا للناهين: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ الخ، وهذا قوله تعالى عطفاً على «إذ يعدون» ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ ﴾ من صلحاء القرية الذين أيسوا من وعظهم بعد ما أكثروا لهم من الوعظ للفرقة التي لا تزال تعظ الفرقة المخطئة ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ علماً منهم أن الوعظ لا ينفع فيهم ﴿ قَالُوا ﴾ وعظناهم ﴿ مَعْذِرَةً ﴾ أي: وعظناهم للمعذرة ﴿ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي: ولطمعنا في أن يتقوا ﴿ فَلَمَّا نَسُوا ﴾ أي: أهل القرية ﴿ مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ ﴾ ما ذكرهم به الصالحون، عبّر عن ترك

العمل بالنسيان للمبالغة في تعريف ضلالهم ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ عن أخذ الحيتان يوم السبت ﴿ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ بالاعتداء ومخالفة أمر الله ﴿ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ ﴾ شديد، من: بؤس يبؤس: إذا اشتدّ ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ بسبب فسقهم.

عن الحسن قال: نجت فرقتان وهلكت فرقة، وهم الذين أخذوا الحيتان. يقال: إن الناهين لما أيسوا من اتعاظ المعتدين كرهوا مساكنتهم، فجعلوا بينهم وبينهم جداراً فيه باب مطروق.

ثم فصل ذلك العذاب البئيس، فقال: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ أي: فلما أبوا أن يرجعوا عن المعصية وتمرّدوا في العصيان ﴿ قُلْنَا لَهُمْ ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠] ﴿ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ أي: صاغرين مبعدين من كل خير. قال مجاهد: مسخت قلوبهم لا أبدانهم.

أقول: وسبب ذلك أن الإنسان قد امتاز عن الحيوان وعن أعلاه وهو القردة، بالفكر والعقل، وهؤلاء لما طرحوا أفكارهم ظهرياً وأرجعوا أمر التحريم والتحليل للألفاظ التي يتلاعبون بها، نامت غرائزهم وصارت عقولهم مطيعة التقليد للعلماء الضالين. والتقليد من شأنه أن يميت القوة العاقلة، وينزل الإنسان إلى دركات البهائم وأقربها إلى الإنسان القردة، فكأنه تعالى يقول: إن الذنوب والمعاصي هي التي سلبتهم عقولهم فرجعوا إلى البهائم وصفاتها من عدم التعقل ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وهذا التفسير هو المناسب لعصرنا الحاضر، ألا ترى أن المسلمين لما كثر فيهم الجهال من صغار الفقهاء وقالوا لهم: اعرفوا العلوم الفقهية، وقصروهم عليها، كيف أصبح كثير منهم كالقردة واستعبدهم أهل أوروبا. فيا عجباً كل العجب، ما لي أرى هذه القصة منطبقة تمام الانطباق على أمة الإسلام. نحن معاشر المسلمين إلاّ قليلاً منا فعلنا فعل اليهود. ألم يترك كثير من المسلمين العلوم والمعارف وهي مفروضة عليهم. ألم يترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا سيما من حكمهم أهل أوروبا. ألم يكن اقتصارهم في الطهارة والنجاسة على طهارة الثوب والبدن، وترك نجاستهما داعياً إلى عدم العناية بالطهارة من الكبرياء والحد والغل والحقد وما أشبه ذلك. إن اقتصارنا على ظواهر العبادات وطرحنا ظهرياً طهارة نفوسنا وأخلاقنا، دعا إلى تفريق كلمتنا وتأخر تجارتنا وسياستنا وزراعاتنا وصناعاتنا.

فنحن نظرنا إلى الظواهر كما نظر اليهود إلى ظاهر لفظ الصيد، ولم نعبأ بالباطن كما لم يعبؤوا هم بالحقائق، وأن المدار على حقيقة الصيد. فهذه الآية منطبقة علينا تمام الانطباق.

تذكرة للمؤلف أيام المجاورة بالجامع الأزهر

لقد كنت أيام المجاورة بالجامع الأزهر الشريف قبل أن أتعلم التفسير أقرأ هذه الآيات في ظلمات الليالي والنجوم ظاهرة، والأضواء باهرة، وآيات الله في الجو حافلة، والجمال باهر، والشوق للحكمة والعلم سافر، فأقول: يا ليت شعري، ما هي البلدة التي كانت حاضرة البحر، وما اسمها، وما اسم البحر؟ وكنت أتعجب من قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ ﴾ الخ، وكانت هذه الآراء تأخذ من قلبي كل مأخذ وأبيت مفكراً فيها بشوق وتوق لا مزيد عليهما. هكذا كنت إذا سمعت ذكر الأولين ومبانيهم أجد في النفس شوقاً كبيراً إلى معرفة ما بنوا وما تركوا للخلق، وكأن الله ألهم الأمم أن تبني مصانع ليتعجب

الخلق فيشتاقوا للمعرفة ولمجاراتهم فيما يصنعون، وأوحى إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأنزل عليهم شذرات من التاريخ للعظة وليكون تشويقاً إلى إحاطة الآخرين بما فعل الأولون. فهذا العالم قائم بناؤه على الأشواق والتذكير.

ذكرى للمسلمين بهذه القصة وبكاء ابن عباس رضي الله عنهما

روى عكرمة عن ابن عباس قال: أسمع الله يقول: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ فلا أدري ما فعلت الفرقة الساكتة، وجعل يبكي، قال عكرمة: فقلت له: جعلني الله فداءك ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وإن لم يقل الله: أنجيتهم، لم يقل: أهلكتهم، فأعجبه قولي ورضي به وأمر لي ببردين فكسانيهما، وقال: نجت الساكتة. اهـ.

أقول: فيا ليت شعري، لم بكى ابن عباس؟ إن ابن عباس بكى لما علم أن الله لا يغفر لمن سكت عن النهي عن المنكر، وغاية الأمر أن الأقوال التي قالوها دلت على أنهم قد عملوا آخر ما يقدرون عليه.

فيا عجباً كل العجب، علم ابن عباس ما سيكون من العقاب لهذه الأمة على سكوتها. سكتت الأمة الإسلامية عن نهي المجرمين منها، أجرم كثير من المسلمين، أجرموا بالجهل، أجرموا بالبهتان والكذب والبغض، أجرموا بترك الصناعات والعلوم والمعارف، أجرموا وأجرموا وأجرموا، فماذا حصل؟ أغار الفرنجة عليهم ثم استخدموهم كالحيوانات يجز صوفها ويشرب لبنها، وهذا مثل ما ذكره الله في قوله: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾ والقردة مطيعة للقائم بتدبير شأنها، فترى الرجل يأخذ القرد في الأسواق فيرقصه ويضرب له على الطبل، وهكذا وهو في جميع أموره تابع لأمر سيده.

هكذا الأمم الإسلامية لما ابتليت بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شاع الجهل وذاع الذل والصغار، لأنهم تركوا مواهبهم فأصبحوا للفرنجة مسخرين، وللطغاة خاضعين، وللظالمين صاغرين. وقد آن أوان مجدهم وبزغت شمس يوم عزهم، وسيكون لهذا القول وأمثاله من كتاب الإسلام أثر في القلوب الواعية، ووقع في النفوس العالية، وسيقوم في المسلمين طائفة تخرجهم من هذه الحال الفردية إلى حال الإنسانية، وقد ابتدأ الترك والأفغان والعجم والمصريون وغيرهم أن يوقظوا العقول وينبهوا النفوس، والله هو الولي الحميد.

مستقبل اليهود بعد ذنوب آبائهم

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: أعلم ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ «اللام» للقسم، أي: كتب الله على نفسه ليسلطنّ على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: من يوليهم، أي: يعذبهم أشد العذاب، فكانوا يؤدّون الجزية للمجوس، فلما جاء الإسلام ضربها عليهم، وقد سلط عليهم «بختنصر» و«سنجاريب» وملوك الروم، وهؤلاء هم الذين نفوهم من ديارهم بعد رفع المسيح بنحو سبعين سنة، والمراد من هذا العذاب، العذاب الدنيوي، ومعلوم أمر اليهود اليوم وقد قامت بإذلالهم دولة القياصرة في الروس قبل زوالها، وكذلك قام الألمان اليوم على بعض اليهود فقتلوهم، وهم أينما حلوا كانوا شديدي العصبية لأنفسهم. ثم ختم المقال سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن أقام على الفكر ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن آمن منهم.

ولما كان اليهود قد حكم عليهم أن يعذبوا من الدول إلى يوم القيامة لشدة عصيتهم، ذكر الله تفصيل أحوالهم، فقال تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ أي: وفرقناهم بحيث لا يكاد يخلو قطر منهم ولا يكون لهم شوكة ﴿ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾ الذين آمنوا ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ ناس منحطون، وهم الفسقة أي: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح، فمحل «دون ذلك» الرفع، وهو صفة للموصوف المحذوف الذي ذكرناه ﴿ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ بالنعم والنقم والخصب والجدب ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ينتهون فينيبون إلى الله ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ من بعد المذكورين ﴿ خَلْفٌ ﴾ وهم الذين كانوا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ التوراة ووقفوا على ما فيها من التحريم والتحليل والأمر والنهي، ولم يعملوا بها ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ هو حال من الضمير في «ورثوا»، والعرض: المتاع، أي: حطام هذا الشيء الأدنى، يريد الدنيا وما يتمتع به منها، وهو من الدنوّ بمعنى القرب، لأنه عاجل قريب، والمراد: ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام، وعلى تحريف الكلم، والتعبير بـ «الأدنى» يشعر بالتخسيس والتحقير ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ لا يؤاخذنا الله بما أخذنا، والفعل مسند إلى الأخذ، أو إلى الجار والمجرور وهو «لنا»، ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾ «الواو» للحال، أي: يرجون المغفرة وهم مصرّون عائدون إلى مثل فعلهم، غير تائبين ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أي: الميثاق المذكور في الكتاب ﴿ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ أي: أخذ عليهم الميثاق في كتابهم ألا يقولوا على الله إلا الصدق، وهو عطف بيان لميثاق الكتاب ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ وقرؤوا ما في الكتاب، وهو عطف على قوله: «ألم يؤخذ عليهم» لأنه تقرير، كأنه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ ﴾ من ذلك العرض الخسيس ﴿ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الرشا والمحارم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أنه كذلك ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ ﴾ يعتصمون ويتعلقون ﴿ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ خصها بالذكر لأنها عماد الدين، ولأن العبد فيها يناجي ربه، فهي صلة بينه وبين ربه، وإلاّ فالكتاب فيه كل عبادة وأمر ونهي ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ إنّا لا نضيع أجرهم. انتهى الكلام على إحدى الحادثتين الخاصتين باليهود وما فرّع عليها من الحكم والمواعظ وتحريم الرشوة، وأن التوبة الزائفة الكاذبة المصطنعة التي ينتحلها الكاذبون من جهلة المسلمين لا تفيد ولا تنفع، وكيف تنفع التوبة اللفظية والنفس طامحة إلى ذنوبها، غارقة في بحار شهواتها، عازمة على اقتحامها، مصممة على انتهاك حرماتها، ذلك شأن كثير من قضاة المسلمين وحكامهم وأرباب الجاه فيهم وبعض الفقهاء الغافلين النائمين.

الكلام على الحادثة الثانية الخاصة باليهود

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ﴾ أي: قلعناه ورفعناه فوقهم، وأصل النتق: الجذب ﴿ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ سقيفة، وهي كل ما أظلك ﴿ وَظَنُّوٓا۟ ﴾ وتيقنوا ﴿ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ ساقط عليهم، لأن الجبل لا يثبت في الجو، ولأنهم كانوا يوعدون به، وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها، فرفع الله الطور فوقهم، وقيل لهم: إن قبلتم ما فيها وإلاّ ليقعنّ عليكم، وقلنا لهم: ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم ﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدّ وحزم على تحمل مشاقه، وهو حال من «الواو»، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ بالعمل

به ولا تتركوه كالمنسيّ ﴿ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ ﴾ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق. وهذا كله تقدم في سورة «البقرة». انتهت الحادثة الثانية الخاصة ببني إسرائيل.

ذكر الحادثة الثالثة العامة لجميع نوع الإنسان

هاهنا فرغ سبحانه من القصص التي ذكرها في هذه السورة، وقد تبين فيها ما يعتري الأمم من الهلاك إذا عصت الناصحين، تحقيقاً لما جاء في أولها من هلاك القرى ليلاً أو نهاراً وأهلها يقرّون بأنهم ظالمون، فهاهو ذا هلاك القرى المتقدم، وأن كل أمة تقرّ عند الهلاك أنها كانت ظالمة، فهاهنا ذكر سبحانه الحجة العظيمة والآية الكبيرة التي تعمّ الأمم كلها.

ذلك أن الأمم جميعها قد نصبت لها الدلائل وقامت لها الحجج وظهرت لها بوارق الحق في آفاق السماء ومناكب الأرض وفي الأنفس التي أجملها في أوائل السورة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[الآية: ٥٤] الخ، فالعجائب الكامنة والبدائع الواضحة في هذه العوالم العلوية والسفلية هي العهود والمواثيق التي أخذها الله على الناس، أن يؤمنوا بالله، وأن يعدلوا في أحكامهم، ويصدقوا في أقوالهم، وأنت لو سرت في شرق الأرض وغربها لوجدت الأمم كلها مغرمة بالبحث في الحقائق، عاكفاً عظماؤها على درس هذا الوجود، لا فرق في ذلك بين أوروبا والشرق الأقصى والشرق الأدنى وأمريكا، وهذا الاندفاع في الاستطلاع هو الميثاق الذي أخذه عليهم، لأنهم ببحثهم يعرفون أن للعالم صانعاً.

ومصداق ذلك أنك ترى الأمة المصرية بين القرن السابع والعشرين قبل الميلاد والقرن الثاني عشر قبل الميلاد أيضاً قد بحثت في جميع الفنون والعلوم والنظام والحكمة وسائر وجوه الأعمال الإنسانية، وهكذا الصين في ذلك الوقت، فقد كانت الأخيرة تمارس الزراعة والفنون الصناعية، وكانت لها تجارة واسعة وسياسة اجتماعية وقوانين ومدارس عامة، ويعرفون الفلك والطب والموسيقى والنحت والنقش، هكذا قال وزير معارف الصين.

وترى أنه بعد ذلك في القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى القرن الثالث قبل الميلاد ظهر هناك حكماء يبحثون شرقاً وغرباً في نظام هذا العالم، فكما كان الفيلسوف الإغريقي «إميدوقليس» يقول: إن العناصر أربعة، كان نظيره في الصين «كي تسو» يقول: إن العناصر خمسة، وأدخل فيها الخشب والمعدن وأخرج الهواء، وبينما العلاّمة «سقراط» اليوناني يستعمل المحاورة مع التلاميذ لاستخراج الحقائق، كان في الصين الفيلسوف «لاوتسو» و«شوانج تسو» يعلمان الرياضة والطبيعيات والمنطق والسياسة والآداب، وكذلك «كونفوسيوس» الذي كان يعلم قواعد السلوك.

ثم انتشرت البوذية في الشرق الأقصى، أي: بلاد الصين في الوقت الذي ظهرت المسيحية في الشرق الأدنى وفي أوروبا، وهو القرن الأول للميلاد، ثم إنه بينما كانت الأمم الصينية في القرون الوسطى إلى القرن السابع عشر أشبه بأوروبا من حيث إن أتباع «كونفوسيوس» كانوا ذوي فلسفة أشبه بفلسفة أوروبا، إذ ذاك كانت أمة الإسلام هي المنبع الأصلي الذي أنقذ أوروبا من الجهالة، وانتشرت آراء ابن رشد من الأندلس إلى سائر أوروبا، فارتقت، وذلك في القرن السابع عشر والثامن عشر وما حولهما، فأما الصين فقد تنبهت إلى بعض العلوم الظاهرية كاللغات ونحوها إذ ذاك، فأما

الآن فالعالم الإنساني كله يريد أن يتجه إلى العلا سالكاً طريقاً معيناً في العلوم والمعارف، وهو نتيجة ما كان عند المصريين واليونان والرومان وأهل بيزنطية والعرب.

هذا هو التاريخ المجمل للديانات في الأرض وللفلسفة، وجميع هذا دالّ على أن الإنسان خلق مغرماً بالبحث والتنقيب والتفكير لا فرق بين الشرقي والغربي، والناس جميعاً يستمد بعضهم من بعض فهاهنا يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي: أخرج من أصلابهم نسلهم، فبعد أن كانوا في أصلاب الآباء خرجوا إلى الدنيا على ترتيبهم في الوجود ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ بما ركب فيهم من العقول التي قدمنا ذكر نتائجها في مصر وأوروبا والصين والإسلام، وأراهم عجائب خلقه وغرائب صنعه التي أجملناها في هذا المقام شرقاً وغرباً؛ فبهذا الإشهاد صاروا كأنهم قيل لهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ وكأنهم ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ وذلك بما أظهر لهم من الدلائل التي تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم بما ركب فيهم من العقل والفكر والفهم، فقالوا: بلى ﴿ شَهِدْنَآ ﴾ على أنفسنا أنك أنت ربنا، هذا مجاز لا حقيقة، ومثل هذا في كلام العرب مشهور.

ثم اعلم أن المفسرين فسروا الآية بوجه آخر لأنهم رووا أحاديث في هذا المعنى، منها ما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلاً وقال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين». وفي رواية أخرى: «أنه لما خلق آدم أخذ ميثاقه أنه ربه وكتب رزقه وأجله ومصائبه واستخرج ذريته كالذر وكتب أرزاقهم وآجالهم ومصائبهم».

وهذا القول قد توسع فيه المفسرون وقالوا: إنه يدل أن هذا الذر خرج من صلب آدم ثم خرج بعضه من بعض على الترتيب الذي رأيناه في الدنيا، ثم ركب فيه العقل والفهم وخوطب وأجاب، ثم رجع الذر من حيث أتى في صلب آدم، وكان ذلك إشارة إلى عالم آخر كنا فيه، والأحاديث لم تذكر إلاّ هذه الرموز التي بيّن فيها أن من كان هنالك شقياً فهو شقي هنا، وكذلك السعداء.

ولتعلم أن علم الأرواح يفيد أن الناس كانوا قبلاً في عالم غير هذا، وهم هنا على ما كانوا عليه هناك، وسيكون بعد الآن على ما هم عليه الآن، وهذا يشابه تلك الأحاديث من حيث الإجمال، ويخالفها من حيث التفصيل ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]. قال الله تعالى: فعلنا ذلك كراهة ﴿ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾، ﴿ أَوْ تَقُولُوٓا۟ ﴾ عطف على «أن تقولوا» ﴿ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ فاقتدينا بهم، وكيف يصح التقليد مع قيام البرهان ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ يعني آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي: مثل ذلك التفصيل البليغ ﴿ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ ليتدبرها العباد ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي: عن التقليد واتباع الباطل. انتهى القسم الثامن.

القسم التاسع

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ

عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ
فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ
ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ
بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ
بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ
يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ
﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ
قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى
طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا
لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ
إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ
وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ
إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا
صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا
فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ
لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ
أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ
فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ
أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ
﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا
يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟
وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ
﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ

لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

التفسير اللفظي

اعلم أن ما سبق في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام، وما مضى في سورة الأعراف التي نحن بصددها الآن، مملوء من الحكم والمواعظ لا سيما في هذه السورة التي جاء فيها ذكر آدم وإبليس، وما تبع قصتهما من أحكام اللباس، والتقوى، وأهل الجنة، وأهل النار، والأمر بالنظر في السماوات والأرض، وقصص الأنبياء وأممهم، وكيف أهلكوا بتقصيرهم وتكذيبهم لا سيما أقرب الأمم إلينا وهم اليهود.

فهذه السورة جاءت عظة واعتباراً بذكر خراب الأمم ودمار أهلها وإهلاكهم متى كذبوا بآيات الله وانصرفوا عنها، فلذلك أعقب ما ذكر بقوله: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ اقرأ عليهم يا محمد ﴿ نَبَأَ ﴾ خبر الحبر؛ وهو من أحبار بني إسرائيل سيأتي ذكره؛ أو أمية بن أبي الصلت؛ من شعراء الجاهلية؛ الذي آمن لسانه وكفر قلبه كما سيأتي تفصيل قصته، أو كل منافق من أهل الكتاب يعرف صفته صلى الله عليه وسلم ويجحده، أو كل من عرض عليه الهدى فلم يؤمن، فوصف الواحد من هؤلاء جميعاً بقوله: ﴿ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ أي: فخرج من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره، ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ فلحقه الشيطان وأدركه وصار قريناً له، ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ فصار من الضالين الكافرين، ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء ﴿ بِهَا ﴾ بتلك الآيات ﴿ وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ مال إلى الدنيا ورغب فيها، فإن الدنيا عبارة عما في الأرض من المدن والضياع والمتاع والمعادن والنبات الخ، ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ في إيثار الدنيا ولذاتها، ومقتضى المقابلة أن يقال: ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته، فأتى الله بما هو أبلغ في الحط فقال: ﴿ فَمَثَلُهُ ﴾ أي: فصفته التي هي مثل في الخسة والدناءة ﴿ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ كصفته في أخس أحواله، وهو ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ يقال: لهث الكلب يلهث: إذا أدلع لسانه من العطش وشدة الحر وعند التعب والإعياء، يقول الله: إنه يلهث دائماً سواء أحمل عليه بالزجر والطرد أو ترك ولم يتعرض له، بخلاف سائر الحيوانات، فلا يكون اللهث منها إلا إذا حركت، أما الكلب فإنه يلهث في الحالين.

فهذا مثل ضربه الله لمن آتاه الله حكمة فتركها وعدل عنها واتبع هواه، وترك آخرته وآثر دنياه بأخس الحيوانات؛ وهو الكلب؛ في أخس أحواله وهو اللهث، فكما أن الكلب يلهث على كل حال سواء أشددنا عليه وهجناه أم تركناه، هكذا من أوتي حكمة وعلماً ولكنه كفر، أو جعل العلم وسيلة لجمع حطام الدنيا، وابتزاز أموال الناس بالباطل، فإنه واقع في الجهالة والمنزلة الوضيعة سواء أوعظناه أم تركناه، فكأن هذه الحال الوضيعة أصبحت طبيعة لا تفارقه، فإن أعطيناه العلم أو لم نعطه فإنه لا

يترك حاله التي هو بها متلبس. وقد نرى العالم الذي أغناه الله عن التعرض لحطام الدنيا الخسيسة يميل إلى طلبها، فهو يقرؤها ويقررها ويبالغ في تقريرها، لا طلباً لمرضاة الله تعالى ولا ثوابه، ولكن طلباً لزيادة الرزق الذي هو مستغن عنه بالكفاف، فهو يدلع لسانه في تقرير العلوم لأجل الرزق، فكانت حاله كحال الكلب يلهث في الحالين. وهذا يتظاهر بالبلاغة ليحصل على ما ليس في حاجة إليه من المال، فكأنه يلهث في الحالين: حال البؤس وحال الرخاء، فأصبح العلم وسيلة لغرض خسيس، وأصبح العالم في هذه الحال مثله كمثل كلب ألبس ملابس الوزراء وأجلس مع الملك على سرير الملك؛ فلمح عظماً منبوذاً أو عرقاً ملقياً بعتبة الباب فأسرع إلى التقاطه ونبذ الوزارة والوزراء والملك والعظماء، وأخذ يهشم العظم هشماً ويقضمه قضماً، راجعاً إلى طبيعته مسرعاً إلى سليقته، فليس للملك عنده من قيمة، ولا يرضى إلا بطبيعة أبناء جنسه.

هذا تقرير المثل بطريق الإجمال، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني: أن المثل الذي ضربناه للذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها؛ مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، فعمّ هذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها. فوجه التمثيل أنهم جاءتهم الرسل ليهدوهم فلم يهتدوا وإن تركوا لم يهتدوا، فهم ضالون على كل حال، كالكلب يلهث على كل حال سواء أحملنا عليه أم تركناه.

موازنة بين ذكر الكلب في كلام العرب وذكره في هذه الآية

نقلاً من كتابي «مذكرات في أدبيات اللغة العربية»

شبه الإنسان الودود بالكلب في حكاية مروية عن بدوي استدعاه أمير فأكرمه، فمدحه بما رآه في الصحراء من الدلو والتيس والكلب، قال:

أنت كالدلو لا عدمناك دلواً ... من كثير العطا قليل الذنوب

أنت كالكلب في حفاظك للودّ ... وكالتيس في قراع الخطوب

وقال بعض الشعراء:

جزاني جزاه الله شرّ جزائه ... جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

وقال عمرو بن كلثوم:

وقد هرت كلاب الحيّ منّا ... وشذّ بنا قتادة من يلينا

يقول: كلاب الحيّ صوتت منا، وقطعنا شوك القوم الذين أمامنا، فلا قوة لهم على محاربتنا.

ويقول الشاعر:

لو كل كلب عوى ألقمته حجراً ... لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

هذا نوع ما يقوله العرب إذا ذكروا الكلب تمثيلاً، فوازن بين هذا وبين ما رأيت في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ﴾ الخ، وكيف كان التمثيل ناهجاً منهج الحكمة والعلم، وتعليم العلماء أن يترفعوا عن سفاسف هذه الدنيا، وأن يعرفوا قيمة النعمة العلمية، فهل خطر هذا لأعرابي في شعره؟.

إن العالم قد يحجب عن نعمة العلم الذي هو من رحمة الله الواسعة، فيتدلى إلى خسائس الكلاب، فبهذه الآية يعرف قدر نفسه، وهذه أسمى درجات البلاغة التي لا تخطر لمتعلم فضلاً عن بدوي في الصحراء. اهـ.

ثم قال تعالى: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾ القصة المذكورة على اليهود وغيرهم يا محمد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ تفكراً يؤدي بهم إلى الاتّعاظ، ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي: ساء هو: أي: المثل، وقوله: «مثلاً» تمييز، وقوله: «القوم» أي: مثل القوم، وقوله: ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ معطوف على قوله: «كذبوا» فهو داخل في حيّز الصلة أي: الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم.

ولما كان هذا المثل وصفاً لحال الضالين أعقبه بأن الضلال والهدى من عند الله، فالمهتدون والضالون بمشيئة الله اهتدوا؛ وبمشيئة الله ضلوا، وهذه الصفات القائمة بهم من كفر وإيمان، وهدى وضلال، وصلاح وطلاح، خلق لهم على حسب استعدادهم ومقتضى أحوالهم، والحكيم العدل من يضع الأمور في مواضحها، ويجعلها في مواطنها، ولا يحيد عن الحقائق، وهذا مقتضى التربية والنظام. وهذا قوله: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾، والناس على هذه الأرض مختلفو الطبائع والغرائز، ولكل صفات تخصّه وتميزه عمن سواه، فمن غلب عليهم الجحود والعصيان فهم كنبات الشوك والحنظل وكل ما يؤذي الناس ويألمون منه وأولئك هم أصحاب النار، ومن غلب عليه حب الطاعات والمعارف والعلوم فهم كالأشجار النافعة، كالنخل والموز وأولئك هم أهل الجنة.

الكلام على الأولين

وإلى الأولين أشار سبحانه بقوله: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾ خلقنا ﴿ لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ ﴾ وهم المعرضون عن تدبر آيات الله، فكفروا أو عصوا أمر الله ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ الحق ولا يتفكرون فيه ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ الرشد ﴿ وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ ﴾ الوعظ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ في عدم الفقه والنظر والاعتبار والاستماع للتفكر ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ ﴾ من الأنعام، لأن الأنعام لم يخلق فيها العقل فلا تكليف عليها، والإنسان عاقل مكلف، فإذا ترك النظر والتفكر تنزّل إلى درجة البهائم وانحطّ عن درجته، فهو إذن أضل من الأنعام التي تطلب منافعها وتهرب من مضارها وتقوم بالأعمال التي تطلبها غرائزها، وهو لم يقم بما يطلبه عقله ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ الكاملون في الغفلة، وكيف لا يكونون تامي الغفلة وقد شاركوا البهائم في القلوب والأبصار والأسماع ولم يمتازوا عنها بالبحث والتنقيب حتى يستنتجوا أن لها صانعاً حكيماً متصفاً بصفات الجلال والجمال التي تدل عليها الأسماء الحسنى، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ الصفات العليا: العلم والقدرة والسمع والبصر وغيرها، أو الأسماء التي هي أحسن الأسماء لأنها تدل على معان حسنة، والحسنى تأنيث الأحسن، وحسنها إنما يكون بمعانيها، ولا معنى للحسن في حق الله تعالى إلا ذكره بصفات الكمال ونعوت الجلال، وترجع إلى معنيين: عدم افتقاره لغيره، وافتقار غيره إليه، فمن تلك المعاني ما هي حسنة بحقائقها كالقدم والبقاء والقدرة والعلم والوحدة، ومنها ما هي حسنة بآثارها كالغفران والرحمة والشكر والحلم. وقوله: ﴿ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ أي: سموه بتلك الأسماء، أو ادعوه لقضاء حوائجكم، وللدعاء شروط: كأن يستحضر الداعي عظمة المدعوّ مع الإخلاص والتعظيم؛ ويعزم المسألة راجياً الإجابة، فذلك له تأثير عظيم، ثم قال تعالى: ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾

أي: يميلون عن الاستقامة، كما كان المشركون يقولون: واللات والعزى ومناة لأصنامهم اشتقاقاً من: الإله والعزيز والمنان، وفي هذا دليل أن أسماء الله توقيفية؛ فلا نقول: يا سخيّ أو يا عاقل أو يا طبيب؛ مع أنّا نقول: يا جواد ويا عالم ويا حكيم، وفي الحديث: روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة، والله وتر يحب الوتر»، وفي رواية أخرى: «من أحصاها».

وخير ما في تفسير هذا ما قاله بعضهم: من أطاقها وأحسن المراعاة لها والمحافظة على ما يقتضيه واجبها، وصدق بمعانيها، وعمل بمقتضاها، دخل الجنة. فالحفظ يراد به لازمه وهو المعنى، ثم التخلق، لأن حفظها شيء يسير، والإسلام دين جعل الجنة في مقابلة الأخلاق والعلوم والآداب والأعمال، فالتخلق بأسماء الله من القدس والرأفة والعلم الخ، يجعل العبد قريباً من ربه كما في الحديث: «تخلقوا بأخلاق الله»، وقال الحكماء: القصد من الفلسفة هو التخلق بأخلاق الله بقدر الطاقة البشرية.

وقد ورد في رواية الترمذي عدّ هذه الأسماء وهي: الله الذي لا إله إلا هو الخ، وهي معروفة. وقال الشيخ النووي: الحديث لا يدل على حصر أسماء الله في ذلك العدد. وقال الحافظ أبو بكر بن العربي المالكي عن بعضهم: إن لله ألف اسم، قال ابن العربي: وهذا قليل. وبالإجمال لا يجوز تسمية الله بما لم ينزل به سلطان، ولذلك قال فيمن يلحدون في أسمائه: ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ في الآخرة، تهديد لمن ألحد. وهذا نهاية الكلام في الأولين، وهم الذين ذكرنا أنهم كنبات الشوك والحنظل وهم أصحاب النار.

الكلام على الآخرين

وأشار إلى الآخرين وهم الفريق الذي هو كشجر النخل والموز ونحوهما وهم أهل الجنة بقوله: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ فهؤلاء في مقابلة الملحدين. واستدل العلماء بهذه الآية على صحة الإجماع، لأن المراد منه أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال من أمتي طائفة على الحق إلى أن يأتي أمر الله»، وروي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال: «هذه لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها، ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون»، وفي البخاري ومسلم عن معاوية قال وهو يخطب: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تزال أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك».

فانظر كيف جاء في الوحي ما يشهد به العقل، ألا ترى أن الله لمّا خلق الخلق ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠]، فإذا أوحى إلى النحل وإلى النمل وإلى العنكبوت، وألهمها أعمالها وسياساتها ونظامها، لا فرق بين ما كان في زمن الطوفان وما بين حيوان مستقبل الزمان.

هكذا جاء في هذه الآية والأحاديث أن في أمة اليهود السابقين على الإسلام هداة للمصلحة العامة، وهكذا أمتنا الإسلامية لا بد أن يظهر فيها هداة ينبغون جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، لأن الله هو القائم بتدبير خلقه، ومن أجل الهداية التي ألهمها لعلماء هذه الأمة في هذا الزمان ومستقبل الزمان والنظر في عجائب السماوات والأرض، واستيعاب جميع العلوم كما هو مقصود في كتابنا المقدس.

ثم أخذ سبحانه يبين كيف يعامل الفريق الأول؛ وهم المكذبون؛ فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم ﴾ سنستدنيهم إلى الهلاك قليلاً قليلاً، وأصل الاستدراج: الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة ﴿ مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ ما نريد بهم، وذلك أن تتواتر عليهم النعم فيظنوا أنها لطف من الله بهم، فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغيّ حتى تحق عليهم كلمة العذاب، ﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ ﴾ وأمهلهم عطف على «سنستدرجهم» ﴿ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ إن أخذي شديد، وسماه كيداً لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان، كالذي يحصل لمن يأكل من الطعام ما لذّ وطاب ويكثر الألوان فإن عاقبته المرض والضعف، وكمن أعطي أموالاً كثيرة فاستغرقت جميع أوقاته في الفكر والهم واللذات، فهذان يظنان أن الله قد قربهما منه، وهما يشاهدان الأنعام تستلذ بالمراعي فوق لذتهما وقد كثرت أقواتها في الأرض، وهذان لا يسعدان إلا بما يحفظ الصحة ويزكي النفس ويرفعها عن السفاسف.

ولمّا نسبوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجنون نزل: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مِّن جِنَّةٍۚ ﴾ من جنون، وروي أنه صلى الله عليه وسلم صعد على الصفا فدعاهم فخذاً فخذاً يحذرهم بأس الله فقال قائلهم: إن صاحبكم لمجنون بات يصوت إلى الصبح. يقول الله: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ ﴾ فيما بينهم في أمر محمد صلى الله عليه وسلم، ثم نفى عنه الجنون بقوله: ﴿ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ ﴾، ويصح أن يقال: أولم يتفكروا فيعلموا ما بصاحبهم من جنة، ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ موضح إنذاره بحيث لا يخفى على ناظر.

إن الناس عادة يصفون من خالفهم وعرف ما لم يعرفوا وأسمعهم ما لم يكونوا يسمعون بأوصاف منكرة على مقدار مخالفتهم في صفاتهم وأحوالهم، فلذلك وصف العرب النبي صلى الله عليه وسلم بالجنون، فقيل لهم: كلا ما به من جنون، فتفكروا في أمره وتدبروا في أحواله وانظروا في أقواله فما هو إلا نذير لكم، يبيّن عاقبة أموركم ويوقفكم على مستقبل أنفسكم، وإن شككتم في أمره ولم تؤمنوا بقوله فانظروا بأنفسكم وتفكروا بعقولكم، وتأملوا فيما ذرأ الله في ملكوت السماوات والأرض، والأشياء التي خلقها والأجناس التي نوعها والعجائب التي أبرزها، وكيف لا تتفكرون ولا تتدبرون والموت يناديكم، والأجيال تناجيكم، والدنيا تزجيكم. أرسلنا رسولاً منكم فكذبتم، وقلنا انظروا في ملكنا فأبيتم وتربصتم وغمتم، وقلنا ألا تخافون الفوات ولحوق الممات وضياع البلاد بالهلاك والآفات، فلم تعوا ما يقال، ولم تزيدوا إلا ضلالاً وطغياناً، فبأي حديث بعد هذا البيان تؤمنون، أم بأي وعظ تنتفعون، أم أي قول تعقلون، إن أنتم إلا قوم ضالون، ﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ ﴾ لأن استعداده في الضلال أبقاه، وهو في الطغيان مغمور، وفي عمه البصيرة ـ الذي هو أشد من البصر ـ مقبور، ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦]، وكيف يفلح من أحاطت به النذر من كل صوب فتعامى، جاءه نبي فلم يع ما يقول، وأعطي السمع والبصر والعقل فلم يتصرف بها في معقول ولا منقول، وقد غشته النذر من بين يديه ومن خلفه وهو مشغول، ثم لا يدري أقريب أجله أم بعيد، وإذا كان أمر الآجال مجهولاً، وأمر الساعة والقيامة العامة مبهماً لا معلوماً، فكيف يستقر له قرار، أو يكون له اصطبار، إن أمر الساعة مجهول، وليس يظهر أمرها في وقتها إلا الله، وإنها لعظيمة على أهل السماوات والأرض، ولا تأتي إلا بغتة، فقد أخفاها الله كما

أخفى الآجال فلم يعلمها الأنبياء والمرسلون، ومن ذا يملك لنفسه منهم نفعاً أو ضراً، أم من ذا الذي يعلم الغيب من الأنبياء وهم يصابون كما يصاب الناس بالآلام والفجائع، ولو أنهم علموا الغيب لاحترسوا لأنفسهم، ولتوقوا الشر الذي يقعون فيه ولم يمسسهم سوء يرتبكون فيه، فالأنبياء وسائر الناس سواء في أنهم يجهلون الغيب، وهم جميعاً مبتلون بالخير والشر، فجهل الساعة وجهل الآجال ليتم الامتحان، فكيف إذن يذر الناس التفكير في هذه العوالم المشاهدة، وفي ملكوت السماوات والأرض، إن الناس لهذا التفكير خلقوا، بل كل ما جاء في هذه السورة مقدمة لهذه الآيات، أي: قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الخ.

هذا ملخص قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾، وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ ﴾ أي: نظر الاستدلال في الملكوت؛ أي: الملك العظيم، وقوله: ﴿ وَأَنْ عَسَىٰٓ ﴾ «أن» مصدرية، والتقدير: أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض العظيم، وفي اقتراب آجالهم وتوقع حلولها، فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل الموت ونزول العذاب، وقوله: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ كأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب فما بالهم لا يبادرون للإيمان والأعمال الصالحة، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق؟ وأيّ حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به، وقوله: ﴿ فِي طُغْيَٰنِهِمْ ﴾ أي: كفرهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يترددون، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ هي من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا، وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق، ﴿ أَيَّانَ ﴾ متى؛ مشتق من «أيّ» على وزن «فعلان» منه، لأن معناه: أيّ وقت، ﴿ مُرْسَىٰهَا ﴾ إرساؤها؛ كالمدخل بمعنى الإدخال؛ أو وقت إرسائها أي: إثباتها، والمعنى: متى يرسيها الله، ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ لا يظهر أمرها في وقتها إلا هو، ﴿ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: إن أهل السماوات والأرض أهمّ كل واحد منهم شأن الساعة، ويتمنى أن يتجلى له علمها، ويشق عليه خفاؤها ويثقل عليه، أو ثقلت في السماوات والأرض لأن أهلها يخافون شدائدها وأهوالها، ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ عالم بها؛ فعيل؛ من: حفي عن الشيء: إذا سأل عنه، فإن من بالغ في السؤال عن الشيء استحكم علمه به، ﴿ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ جلب نفع ولا دفع ضر، لنفي ادّعاء علم الغيب، ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ من ذلك فيلهمني إياه ويوفقني له، ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ أي: ولو كنت أعلمه لخالفت حالي ما هي عليه وذلك باستكثار المنافع واجتناب المضارّ حتى لا يمسني سوء ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة.

جوهرة في تفسير قوله تعالى

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾

اعلم أن النظر في ملكوت السماوات والأرض إما واجب وجوباً عينياً ـ وذلك على كل قادر على النظر ـ وليس ذلك الواجب عينياً لأجل معرفة الله للإيمان به فقط، كلا، بل هو واجب لأمرين:

الأمر الأول: ازدياد المعرفة، كما قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤]. **الأمر الثاني**: الشكر لله تعالى، ومعلوم أن الشكر علم وعمل، والعلم يرجع للنظر في هذا العالم، فالشكر واجب بإجماع علماء الأصول، وهو في آيات كثيرة من القرآن، فهو واجب بالنص في القرآن، وبالإجماع. والنظر في النبات والحيوان وغيرها، والفلك والنجم، كل هذا واجب كما قررناه في أكثر مواضيع هذا التفسير.

وإما واجب وجوباً كفائياً، وذلك هو النظر لازدياد السعادة الدنيوية للأمم الإسلامية. إن الله عزّ وجلّ قال: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٦].

إن هذا الكون الذي نسكنه قد ملأه الله بالنعم وأباح لنا التزود منها، وأوجب على الأمة كلها أن تخصص منها جماعة لاستخراج منافعها، وذلك هو المسمى «فرض الكفاية» بإجماع العلماء أيضاً. فكما أجمعوا على الشكر أجمعوا على فرض الكفاية؛ كما شرحته في سورة «المائدة» عند ذكر الغراب؛ وفي «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: ٢٨٦]، وبينت هناك إجماع العلماء، وتوبيخ الإمام الغزالي وتقريعه لعلماء الإسلام لجهالتهم ونومهم وإنامتهم المسلمين في زمانه. فإذا كانت رحمة الله وسعت كل شيء، وإذا كان المسلمون كتبت لهم هذه الرحمة، وإذا كانت الصناعات كلها فرض كفاية؛ والصناعات التي بها ارتقاء الثروة من أهمها. فكيف رقى المسلمون صناعاتهم، يقول الله: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ ﴾[الأعراف: ١٥٦].

انظر كيف كتب الرحمة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يؤتون الزكاة وهم المأمورون بالنظر في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم. الله أكبر! المسلم يؤتي الزكاة، والمسلم ينظر في ملكوت السماوات والأرض لئلا يفجأه الموت وهو غافل، والمسلم هو الذي ينظر ليزداد علماً ويزداد شكراً لربه، والمسلمون فرض على جماعة منهم أن يرقوا المسلمين في الصناعات والعلوم، الله أكبر! هل قام المسلمون بهذا؟هل قبل المسلمون رحمة الله الواسعة؟هل أعدّوا العدّة للارتقاء كالأمم حولهم إن لم يفوقوهم؟كلا؛ والله لا هذا ولا ذاك؛ أصبحت كل الأمم علماء إلا المسلمين، كل الأمم تعلم جميع أفرادها رجالاً ونساءً إلا المسلمين، وإنما تعلموا جميعاً ليستخرجوا كنوز ربهم من أرضه. وبعبارة أخرى يطلبون رحمته من أرضه، أما المسلم فيقول: أنا أعطي الزكاة من المال الموجود، ولا أبحث عن غيره، وأترك رحمة الله تتسرب لغير المسلم.

كتب الله الرحمة لنا في الدنيا والآخرة فلم نتعرض لها في الدنيا؛ واكتفينا بالآخرة التي لم نعمل لها. سيقول الجاهل: أنا يجب عليّ أن أخرج الزكاة من المال الذي عندي، ولكن لا يجب عليّ أن أسعى لجمع المال، ولا لشيوع الصناعات في الإسلام. وهذا القول الذي هو كامن في قلوب صغار العلماء في الإسلام مردود مكذوب بأن ذلك فرض كفاية، وكيف نترك تلك العلوم وتلك الصناعات حتى أصبحنا أذلّ أمة في هذه الأرض التي نسكنها، أصبحنا غرباء في ديارنا لجهلنا، والفرنجة لعلمهم برحمة ربهم يستخرجونها من أرضنا، وذلك لجهلنا وكفرنا بنعمة ربنا وإن كنا مؤمنين به.

ومما يحزن المسلم أن يقف مكتوف اليدين عند إعلان هذا الخبر في الجرائد المصرية يوم السبت ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٣٤٥ الموافق ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٦ وهاهو:

التفنّن في اصطناع السكّر

وفق أحد علماء الكيمياء في المدّة الأخيرة إلى اصطناع السكر من «حثالة الخشب» إتماماً لنبوءة أحد العلماء الألمانيين الذي قال منذ بضع سنين ما يأتي: «سيأتي يوم يأكل فيه قراء الجرائد جرائدهم بعد قراءتها وتحويل أجزائها إلى طعام». وقد تحققت نبوءة العالم الآن، إذ ورد إشعار على المجمع الكيماوي البريطاني من الدكتور «أورماندس» يقول فيه: إنه ابتكر طريقة جديدة لأجل تحويله حثالة الخشب «النشارة» إلى سكر، وذلك بعد معالجتها بالحامض الكلوريك. ويقال: إن ذلك السكر يفيد جداً كسائر أصناف السكر للطعام، وقد جاء هذا الابتكار مخففاً لثورة التهديد التي كنا نتلقاها بأن معين الأطعمة لا بدّ أن ينضب في القريب العاجل، وقد ابتدع الكيميائيون المختصون بوزارة الزراعة الأمريكية وسيلة أخرى لاستخراج السكر من الذرة الصفراء. اهـ.

هذا هو الذي نشر في الجرائد اليوم، المسلم مأمور بالزكاة في المال إن وجد المال، ولكنه من جهة أخرى مأمور بالعلوم والصناعات؛ هذا بإجماع العلماء، وقد قال إمام الحرمين وكثير من العلماء: إن فرض الكفاية أفضل من فرض العين، لأن الإنسان بقيامه به قد خلص المسلمين من ذنوب تعمّهم، فمن قام بعمل مثل هذا بأن عمّم صناعة أو علماً فقد أعطى المسلمين آلاف آلاف أضعاف ما يعطي الرجل من الزكاة، الزكاة محدودة؛ والصناعات والعلوم لا حدّ لهما كما ترى في الاختراع المذكور في هذا المقام.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «على كل مسلم صدقة، قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق، قيل: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف، قيل: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يأمر بالمعروف أو الخير، قيل: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: يمسك عن الشرّ فإنها صدقة» أخرجه الشيخان. ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع عليه الشمس»، قال: «تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، قال: والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»، انتهى من كتاب تيسير الوصول لجامع الأصول.

هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جعل على المسلم صدقة كل يوم على أصغر أعضائه، فأكبرها أولى، وأشار إلى أن الأعمال جميعها صدقات سواء أكانت رفعاً للأذى أم جلباً للمنفعة العامة، فقوله صلى الله عليه وسلم: «يعمل ويتصدق»؛ إشارة إلى أن المسلم يخترف من رحمة الله ولا يقتصر على ما هو موجود.

إن أوروبا قطعت خطوات واسعة والمسلمون واقفون؛ بل ناكصون على أعقابهم، ونبينا صلى الله عليه وسلم ذكرهم بالعمل، والعلماء نصوا على ذلك، والله يقول: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾[التوبة: ١٠٥]، وهاأنا ذا قد نبهت وبينت وأفصحت وحسبنا الله ونعم الوكيل. وعلى كل عالم أن يبين للناس ما نزل إليهم، وما بيناه في كلام الله، وما عرفه من عقله أو من كلام العلماء، فهذا زمان يجب فيه الجهر بالحقيقة، فإن المسلمين في غفلة، وستنقشع الغشاوة عن أعينهم قريباً إن شاء الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ هي آدم ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا ﴾ أي: من جنسها لقوله تعالى: ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾[النحل: ٧٢]، ﴿ زَوْجَهَا ﴾ حواء ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ ليستأنس بها ويطمئن إليها اطمئنان الشيء إلى جنسه، ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾ جامعها ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ خف عليها ولم تلق منه ما تلقى الحوامل غالباً من الأذى ﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ فاستمرت به وقامت وقعدت ﴿ فَلَمَّآ أَثْقَلَت ﴾ صارت ذات ثقل إذ كبر الولد في بطنها ﴿ دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا ﴾ ولداً سوياً قد صلح بدنه ﴿ لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ لك على هذه النعمة المجددة ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ أي: جعل أولادهما لله شركاء فيما آتى أولادهما، فسموا عبد العزى وعبد مناف وعبد شمس ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ وقد دخل في ذلك أبناء قصي من قريش وهم أربعة: عبد مناف وعبد شمس وعبد قصي وعبد الدار، فهؤلاء قد جعلت أسماؤهم دالة على الشرك، وقوله: ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي: الأصنام ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ أي: لعبدتهم ﴿ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ ﴾ أي: الأصنام ﴿ إِلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي: إلى أن يهدوكم ﴿ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ أي: لا يجيبكم إلى مرادكم كما يجيبكم الله، ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾ عن دعائكم في أنه لا فلاح معهم ولا يجيبونكم، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ أي: مخلوقون مملوكون أمثالكم ﴿ فَٱدْعُوهُمْ ﴾ لجلب نفع أو دفع ضر ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ ﴾ فليجيبوا ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أنهم آلهة، ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ﴾؟ البطش: الأخذ الشديد في كل شيء ﴿ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾؟ فلم تعبدون ما هو دونكم، ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ واستعينوا بهم في عداوتي ﴿ ثُمَّ كِيدُونِ ﴾ أي: بالغوا فيما تقدرون عليه من مكر أنتم وشركاؤكم ﴿ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ فلا تمهلون فإني لا أبالي بكم لوثوقي بولاية الله وحفظه ﴿ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ﴾ أي: الذي يتولى حفظي وينصرني عليكم هو الله ﴿ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ القرآن، والمعنى: كما أيدني بإنزال القرآن عليّ، كذلك يتولى حفظي وينصرني ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ يتولاهم بنصره وحفظه، فلا تضرهم عداوة من عاداهم من المشركين وغيرهم ممن أرادهم بسوء أو كادهم بشر.

فإذا كانت هذه عادته في الصالحين من عباده فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ يشبهون الناظرين إليك لأنهم صوّروا بصورة من ينظر إلى من يواجهه وهم لا يبصرون المرئي، ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ أي: خذ ما عفا لك من أفعال الناس، وتسهل ولا تطلب ما يشقّ عليهم، والعفو: ضدّ الجهد وكل ما جاء بلا كلفة، أي: اقبل الميسور من أخلاق الناس ولا تستقص عليهم فيستقصوا عليك، فتتولد من ذلك العداوة والبغضاء ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ المعروف والجميل من الأفعال وكل خصلة يرتضيها العقل ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم واحلم عليهم، وفسرها جبريل عليه السلام بقوله: «أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك».

قال جعفر الصادق رضي الله عنه: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا صخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح». وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال».

قال زيد بن ثابت لمّا نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم: فكيف بالغضب يا رب؟ فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ ﴾ ينخسنك ﴿ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾ نخس ووسوسة وريب، والنخس: الغرز، شبه وسوسته للناس إغراء لهم على المعاصي، وإزعاجاً بنخس السائق ما يسوقه من أنواع العذاب ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ فامتنع بالله من وسوسته، واستجر به والجأ إليه في دفعه عنك ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ ﴾ يعني: لدعائك يسمع استعاذتك ﴿ عَلِيمٌ ﴾ يعلم ما فيه صلاح أمرك فيحملك عليه، أو سميع بأقوال من آذاك، عليم بأفعاله فيجازيه عليها مغنياً إياك عن الانتقام ومشايعة الشيطان ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ لمة منه؛ وهو اسم فاعل من: طاف، كأن اللمة والنخسة طافت بهم ودارت حولهم فلم تقدر أن تؤثر فيهم، وهذا تأكيد لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان وأن عادة المتقين إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان وإلمام بوسوسته ﴿ تَذَكَّرُواْ ﴾ ما أمر الله به ونهى عنه ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ فأبصروا السداد والصواب، ودفعوا وسوسته بسبب تذكرهم مواقع الخطأ ومكايد الشيطان فيتحرزون عنها ولا يتبعونه فيها، هذه حال الذين اتقوا.

ثم أعقبه بحال الذين لا يتقون؛ وهم المشركون والفساق وأتباع الهوى؛ فقال: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ ﴾ أي: وأما إخوان الشياطين من الذين لم يتقوا فإن الشياطين ﴿ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ﴾ أي: يطيلون لهم في الإغواء حتى يستمروا عليه، أو يزيدونهم في الضلالة، ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ لا يمسكون عن إغوائهم ولا يكفون عن الضلالة ولا يتركونها. قال الكلبي: لكل كافر أخ من الشياطين. وروى الإمام مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم» بالرفع؛ أي: فأسلم أنا من شره، والخطاب في الآية لعموم نوع الإنسان، أي: وإما ينزغنك أيها الإنسان الخ.

اعلم أيها الذكي أن هذا الحديث وهذه الآية من الأمور السمعية التي لم يعرفها الناس بالعقل، ولم ترد لهم إلا من السمع، فالشيطان لا يعلمه الناس إلا من سبيل الدين. هذا هو المعروف في سائر الديانات وفي دين الإسلام، ولكن قد كشف العلم اليوم هذه المعاني، وامتلأت به المحافل في أوروبا وألفت في مثل هذا الموضوع آلاف آلاف المجلدات في عالم الأرواح الموسوسة والأرواح الملهمة، والغرب بهذا قرير العين، أما المسلمون فهم لا يعلمون عن هذه الحركة إلا قليلاً، وقد أصبحوا يخاطبون الأرواح في آلاف المجالس، وقد أخبرتهم أن الأرواح الشريرة توسوس للأحياء بما كانت تفعله في الدنيا لأنها في برزخها تفرح بكل ما تشاهد ممّا يماثل أفعالها فتوسوس لمن على شاكلتها أن يفعل فعلها وهو شر، لأن هذا هو الذي يسرها، وقد تفعل ذلك انتقاماً من ذلك الشخص معاقبة له على ما ارتكب معها من الإثم في حياتها الدنيا والأرواح لا سلطان لها على النفوس الراقية والقلوب المخلصة والعقول الكبيرة المفكرة. هذا كلام الأرواح، وقد ألفت كتاباً في هذا الصدد سميته «كتاب الأرواح»

وقد أشرت إليه في هذا التفسير من قبل، وهذا من أعظم معجزات القرآن، وكيف يوافق الكشف والعلم الحديث ما جاء في القرآن الكريم ويكشف الغامض من عجائب هذه العوالم الغائبة عنا، وكيف تنطق الأرواح اليوم بنفس ما شرحه نبينا صلى الله عليه وسلم وما جاء في القرآن، فلتتعجب أيها العاقل.

ثم أخذ سبحانه يذكر بعض ما ينزغ به الشيطان، فأفاد أن الكفار كانوا يقترحون على النبي صلى الله عليه وسلم آيات؛ أي: معجزات باهرة كأن يزيل جبال مكة، وينزل عليهم كسفاً من السماء فإذا أبطأ ما طلبوه قالوا: هلا طلبتها من الله؟ فأمر أن يقول لهم: ﴿ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ هذا القرآن بصائر للقلوب، بها تبصر الحق أبلج، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ ﴾ ممّا اقترحوه ﴿ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾ هلا طلبتها من الله ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ لست بمقترح للآيات، إن الآيات لا تنزل إلا تخويفاً، وأنا إنّما أرسلت للتعليم والتبصير، فكيف أقترح ما لم يفد الأمم السابقة كما اتفق لبني إسرائيل الذين عبدوا العجل لأن إيمانهم مبني على مشاهدة المحسوسات والغرائب المحيرة للعقول؛ كقلب عصا موسى حية، ولو أنهم كانوا مستبصرين متعقلين ما كفروا بعد إيمانهم، ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَصَآئِرُ﴾ تبصركم وجوه الحق ﴿مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به، فكيف تعدلون عنه إلى تلك الخوارق التي لا تقوم بها قائمة الأمم، فإنّما أرسلت لأخرج الناس من عالم الخيال إلى عالم الحقائق والمعارف الحقة. فالقرآن سبب لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، أطلق عليه اسم البصائر، فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب.

ولمّا كان القرآن بصائر للناس أخذ يأمرهم بالالتفات إليه فقال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ﴾ عليكم أيها المؤمنون ﴿ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ ﴾ اصغوا له بأسماعكم لتفهموا معانيه وتتدبروا مواعظه وحكمه، ﴿ وَأَنصِتُواْ ﴾ عند قراءته، والإنصات: السكوت للاستماع؛ يقال: نصت وأنصت وانتصت، وهذا واجب على ما يأتي من محامل الآيات والأحاديث الشريفة:

١ ـ إما على العموم في أي وقت وفي أي موضع، في الصلاة أو في الخطبة أو غيرهما، فيجب على كل مسلم في ذلك كله الاستماع والإنصات للقرآن، وهذا قول الحسن وأهل الظاهر.

٢ ـ وإما في الصلاة وحدها، وجاء في الحديث: «أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكوت والاستماع لقراءة القرآن». وأيضاً: «كان بعضهم يسلم على بعض في الصلاة فمنعوا بهذه الآية». وأولهما مروي عن أبي هريرة، والثاني عن عبد الله بن مسعود.

٣ ـ وإما لترك الجهر بالقراءة خلف الإمام، فقد كانوا يقرؤون مع قراءته. وأيضاً يرفعون أصواتهم عند ذكر الجنة والنار. وهذا عن أبي هريرة للأول، وعن الكلبي للثاني.

٤ ـ وإما في الخطبة يوم الجمعة. وهو قول سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد.

٥ ـ وإما في قراءة القرآن وعند الخطبة. عند بعضهم.

واعلم أن هذه السورة مكية؛ ولم تشرع الخطبة إلا في المدينة، فما جاء في القول الرابع والخامس من حمل الآية على الخطبة ضعيف. وقد اتفقوا على وجوب الإنصات عند سماع الخطبة للحديث الذي رواه الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة: أنصت، فقد لغوت».

هل تجب القراءة خلف الإمام

١ ـ تجب القراءة على المأموم سواء أجهر الإمام بالقراءة أم أسرّ. عند عمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ والأوزاعي والشافعي.

٢ ـ لا يقرأ المأموم سواء أسرّ الإمام أم جهر. عند جابر وأصحاب الظاهر.

٣ ـ يقرأ فيما أسرّ الإمام فيه بالقراءة، ولا يقرأ فيما يجهر الإمام فيه. عند ابن عمر وعروة والقاسم والزهري ومالك وابن المبارك وأحمد وإسحاق.

٤ ـ لا يقرأ في الحالين. وهو لجابر وأصحاب الرأي.

هذا ملخص ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾، وأما قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فمعناه: لكي يرحمكم ربكم باتباعكم ما أمركم به، ولما كانت قراءة القرآن نتيجتها تهذيب الأخلاق والعلم ومعرفة الأحكام، وهذه كلها مقدمات لما هو أرقى منها وهو ارتقاء النفس وعروجها إلى عالمها وتخلصها من هذا العالم المظلم؛ أردفه بما هو أعلى فقال: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ ﴾ أي: استحضر في قلبك عظمة الله جلّ جلاله في الصلاة وفي قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك من سائر الأذكار، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، ويدخل فيه غيره من أمته لأنه عام لسائر المكلفين، وقوله: ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ أي: متضرعاً وخائفاً، والضراعة: الخضوع والاستكانة والذل للغير، وقوله: ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ يعني: ومتكلماً كلاماً دون الجهر، لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكر، وقوله: ﴿ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ أي: بأوقات الغدو والعشيات، لفضل هذين الوقتين، والغدو: جمع غدوة، والآصال: جمع أصل جمع أصيل: وهو ما بين صلاة العصر والمغرب.

واعلم أن هذين الوقتين تتجلى فيهما عظمة الله وحكمته وآياته الكبرى وعجائبه المدهشة، من إشراق الشمس وبهجة ضيائها ونورها وجمالها وجلابيبها السبعة، وهي الألوان المشتبكة المتداخلة المشرقة على المخلوقات الأرضية في الغدوات وهي الحال الأولى، ومن إقبال الظلام وإشراق الكواكب التي لا عداد لها على آفاق المسكونة وأضوائها المشتبكة في الجو، وذلك مما يوجب للمتأمل عظة وانشراح صدر ومعرفة بعظمة الخالق.

واعلم أن ما ذكرته لك لا يفطن له أكثر الناس، فترى الشمس مشرقة غاربة ذات بهجة في الحالين، وهما المشرقان والمغربان، بل إن كثيراً من المصلين وقت الصبح والعصر لا يفكرون في جمال الشمس في إشراقها ولا في غروبها، ولا يوجهون أنظارهم إلى ما يحيط بهم من جمال الله الذي كسا به هذه القبة الزرقاء، وغطى به وجه الغبراء، وبدّل حاليهما كل يوم وليلة، فلذلك أعقبه الله بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ عن ذكر الله، فتغشى العادة عليك لتكرار الشروق والغروب وأنت ساه لاه قد أفسد اعتيادهما واطرادهما عليك تفكيرك، ولتكن مفكراً ذاكراً متذكراً ـ بتقلب الظلام والضياء عليك ـ خالق الكائنات ومدبر الحركات التي اطردت في سائر الأزمان بتدبير الملأ الأعلى من الملائكة الذاكرين لربهم عسى أن تلحق بذلك العالم ـ بعد موتك ـ في جوار ربك، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ مكانة ومنزلة؛ وهم الملائكة ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ لا يتعظمون عنها ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُۥ ﴾

وينزهونه عما لا يليق به ﴿ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ ويخصونه بالعبادة والتذلل، ولا يشركون به غيره.
روى مسلم عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «عليك بكثرة السجود لله؛ فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحطّ عنك بها خطيئة».

لطائف القسم التاسع

اللطيفة الأولى

اعلم أن هذه السورة اشتملت على التحلية وعلى التخلية كما أوضحناه سابقاً، فالتخلية غلبت في قصص الأمم الضالة التي أماتها وأزالها من الوجود ما تخلقت به من الظلم والفتك وتطفيف المكيال والميزان وما أشبه ذلك. فأما التحلية فقد تجلت في مواطن شتى منها، وأهمها موطنان:

الموطن الأول: ما جاء في أوائلها من ذكر أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وقد فسرت هناك فارجع إليها إن شئت.

والموطن الثاني: ما جاء في القسم التاسع، فإنه بعد أن ذكر أنه ذرأ لجهنم كثيراً من الجن والإنس لا أحلام لهم ولا فكر وجعلهم كالأنعام، أخذ يذكر أن له أسماء حسنى، ولا جرم أن الأسماء ذوات مدلولات، ومدلولها صفاته سبحانه وتعالى من العلم والقدرة وغيرهما، وهذه الصفات لها آثار، وآثارها ما نشاهد من العالم الجميل الذي نعيش فيه، فلذلك أتبعها بعد آيات بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾، ثم قال: ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾؟ فكأن الأسماء لا يراد إلا معناها وآثارها، وهذا الإنسان جاء في هذه الأرض لدراسة الآثار حتى يعرف الصفات.

وهذه الآثار هي الكون بسائر مظاهره العجيبة وآياته الغريبة، ولذلك ذكر اقتراب الآجال في هذا المقام، وأتى بالاستفهام على سبيل التعجب فقال: ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾؟ وبأي سبيل يهتدون إذا لم تكن هذه السبيل رائدهم، وإذا لم يمارسوا العلم والحكمة والتغذي بالعلوم فما هي حياتهم، وما فضل وجودهم في الدنيا، وما قدر بقائهم فيها.

إن الآجال قاطعة، فليحذر الناس الفوات، وليدرسوا هذه الدنيا ونظمها وعجائبها وغرائبها، فإن هذه هي الوسيلة لارتقائهم والطريق لسعادتهم، وهي أجنحتهم التي بها يطيرون وقواهم التي بها يسيرون ومعارجهم التي عليها يعرجون.

وإن في ذكر الآجال واقترابها كما قدمنا لعبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين، وكيف لا يكون كذلك وأنت تعلم من هذا التفسير وما تقدم فيه أن العلوم كما تكون معارج الأفراد للارتقاء في الدنيا والآخرة؛ تكون معارج الأمم أيضاً، وأيهما حرمها حرم سعادة الحياة. والبرهان على ذلك ما نرى من انقطاع حيل المسلمين وضعفهم واستكانتهم للجهالة العمياء بهذه العوالم المحيطة بنا، كأنهم ما خلقوا في الوجود، وكأن أعينهم في غطاء، وأسماعهم في غشاء.

ومن المحزن أن يدّعي وعّاظهم وصغار العلماء فيهم أن الدين لا ينظر لهذه العلوم إلا شزراً، وذلك من مصائب الزمان والحرمان العام. ومن قرأ العلوم من شبانهم في أوروبا رجع كليل الطرف

وهو حسير، ودعا بالويل والثبور على الأديان ومروجيها، والعبادات ومتبعيها إلا أفاضل منهم وأهل جدّ وعقل راجح. فأولئك لهم قدم صدق، وهم كثير ـ والحمد لله ـ في الإسلام.

ولما أشرقت شمس العلوم في أوروبا، وأضاء في أنحاء الشرق شعاع منها، وأتت إلى مصر أنوارها أيام المغفور له محمد علي باشا وخلفائه، حسد الأوربيون المصريين أهل بلادي على نعمة العلوم وخافوا أن يرجع مجد العرب لسابق عهده، ويستردوا مجده الخالد وفخره التالد، كما كان في عصر النبوة.

انقضوا على مصر فاحتلوها وانتزعوا العلم منها انتزاعاً وأضاعوها. هكذا شأن الفرنجة في بلاد الإسلام قاطبة اليوم. وجعلوا التعليم في مدارسها صورة مجوفة، أو قبراً مبيضاً، أو بعراً مفضضاً. وقد درست أنا في مدارس البلاد نحو ٣٠ سنة وأنا أرى التلاميذ يجهلون كثيراً من هذا الوجود بعد أن كان آباؤهم أيام محمد علي باشا يدرسون كما تدرس أوروبا.

ولما أذاعوا في العالم أنهم ردوا إلى بلادنا استقلالها، وكان أغلب المتعلمين قد درسوا دراسة سطحية إنجليزية، كتبت مقالاً لمجلس النواب والشيوخ ولدولة وزير المعارف، وقد نشرته جريدة المقطم يوم الخميس ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٤ الموافق ٢٣ ذي القعدة سنة ١٣٤٢ تحت عنوان «مذكرة التعليم الثانوي بالمملكة المصرية» وستراه إن شاء الله في المجلد الخامس من هذا التفسير. انتهت اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾

لقد نظرنا نظرات في هذا التفسير فيما خلق الله من شيء، فلننظر نظرة الآن فيما خلق الله في هذا العالم، ومن أين جاءت الحياة إلى الأرض، غير ما ذكرناه فيما تقدم.

اعلم أيها الذكي أن العلماء في هذا العصر اضطربت آراؤهم في أصل الكائنات الحية، ومتى خلقت؟ وهل يخلق الحي من غير حي؟ وقد قدروا أنها كانت قديمة العهد جداً، قبل الآن بمائة مليون سنة تقريباً، وأنت تعلم أيها القارئ مما تقدم كيف كانت الأرض دائرة حول الشمس، ولها أخوات يسرن معها حولها، وبينهن مسافات معلومة مرسومة فيما تقدم أيضاً. والشمس جاذبة لهذه السيارات. وهذه الأرض والسيارات مركبة من معادن وصخور ومواد ملتهبة كالتي تتركب منها الشمس، والشمس تزن سبعمائة مرة مجموع الكواكب التي تدور حولها، وهي مقدار وزن الأرض ٣٢٤ ألف مرة. وهنالك في السماء عوالم تسمى «السدم» جمع «سديم» أشبه بسحاب غير ظاهر التكوين، وله مركز أشد وضوحاً مما حوله. فهذه السدم تملأ فراغاً وتصنع فيه حركات دورية، وهي لم تزل في حال التكوين. فهذا يفيد أن الشمس وما حولها قد كانت على هذه الحال قديماً. وقد وجدوا من هذه السدم ٦٠ ألفاً. وقد وجدوا حركات ذلك السديم وتكونه شيئاً فشيئاً، وهو دائر حول المركز أشبه بحال سائل في الإناء؛ كزيت مثلاً أدرناه فإنه ينقسم إلى دوائر وحلقات تدور حول المركز كما تدور السيارات حول الشمس.

ثم إننا إذا نزلنا جوف الأرض ارتفعت الحرارة درجة بميزان «سنتغراد» كلما نزلنا نحو ٣٠ متراً وفي عمق مائة كيلو متر تبلغ الحرارة ثلاثة آلاف درجة، وهي تحول أغلب المواد إلى نار ملتهبة. ونصف

قطر الأرض يبلغ ستة آلاف كيلو متر. وعليه يكون الملتهب في باطنها عظيماً جداً كما تقدم. وهنا يبتدئ الكلام على أصل الحياة.

١ ـ الحي يتكون من غير الحي، كما تتولد الفيران وثعابين السمك من الطين، ودود الجبن منه. وهذا قول العامة وبعض القدماء.

٢ ـ الحي لا يتولد من الجماد ودود الجبن، إنما هو مخلوق في الدور الأول ليكون ذباباً، فهو من نوع الحشرات، فقد باض الذباب بيضه ثم صار دوداً ثم يصير ذباباً. وقد بين العلامة «ريدي» و«سومردام» والراهب الإيطالي «سبلانزاني» في القرن السابع عشر فساد تكوّن الفيران والسمك من الطين والدود خلافاً لقول القدماء.

٣ ـ إن بعض الحيوانات ذات الخلية الواحدة تتولد في السوائل مثل منقوع الأوراق.

٤ ـ نفى هذا القول وأنكره العلامة «شلس» و«شفان» و«ملن ادوارس».

٥ ـ المكروبات وهي الحيوانات الدقيقة جداً التي لا ترى تتكوّن من المواد غير الحية.

٦ ـ ونفى هذا القول العلامة «باستور» و«كوخ» بتجاريب لا محل لذكرها.

وبهذا ثبت أن الحي لا يتولد إلا من حي. فمن أين جاءت الحياة؟

١ ـ كانت الحياة قبل الآن والأرض ملتهبة وعدم إمكان التولد الذاتي الآن لا يمنع وجوده قديماً. وهذا رأي العلامة «ارنست هيكل».

٢ ـ أفسد هذا الرأي أن العلماء الباحثين حاولوا بكل الطرق التجريبية أن يحدثوا حياة، فلم يفلحوا، فهل حال البحار الأولى إلا حالة من الحالات التي نوعها العلماء بالتجارب.

٣ ـ الحياة لم تأت الآن ولم تأت قديماً على هذه الأرض، بل أتت على شكل حيوانات دنيئة وصلت إلى الأرض محمولة على قطع صغيرة أو كبيرة من كواكب أخرى في وقت أن كان الوسط مناسباً. وهو قول «رشتر».

٤ ـ قال «هلمهتز» و«تمسن» و«ارينوس» رأياً قريباً مما تقدم: إن الأنواع الدنيئة كبذور الحيوانات الدنيا تنفصل باستمرار من الكواكب، وإن ضوء تلك الكواكب وضوء الشمس هو الذي يطرد تلك الجراثيم ويبعدها في الفضاء، وهي محرومة من الماء ومن الهواء وواقعة تحت برد قارس «٢٢٠ درجة تحت الصفر». وهذه المقذوفات تصل في كل لحظة إلى الأرض وغيرها، ونحن لا نراها. هذه الآراء في أصل الحياة وفيما خلق الله من شيء تريك صورة ما وصل إليه علم العلماء وحكم الحكماء وفهم العقلاء في هذا الكون. ولعلك تقول: وما فائدة هذه المباحث وما أغراضها؟

أقول: إن هذه المباحث هي التي أمر الله بها لنقف على حقائق الأشياء؛ فإن هذه المباحث قد أنارت لنا السبل فعلمنا أن الحي لا يتولد إلا من الحي، ورأينا كيف خضعت العقول وقهرت النفوس ووقفت الآراء وعجزت عن أصل الكائنات وسر المخلوقات. وهذا يفيدنا أن هناك حياة أرقى ومقاماً أجلى وعلماً أعلى، وبه نفهم قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾[الكهف: ٥١]، وكلما ازددنا فكراً زدنا هدى وبصيرة وعلماً، فنعلم أن الحياة من عالم أرقى من عالمنا ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر: ٢١].

اللطيفة الثالثة: في قوله:

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَنٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾

لقد ذكرنا في هذا التفسير فيما تقدم مقالات كثيرة في الحياة بعد الموت، فلأذكر لك الآن عجائب من العلم الحديث لتقف على علم العلماء وحكمة الحكماء، فاعلم أيدك الله:

١ ــ أن عالماً يسمى «لوفنهوك» شاهد سنة ١٧٠١ أن حيواناً يبلغ طوله مليمتراً، وهو يعيش على الطحلب وعلى السقوف وفي مجاري الأمطار المنزلية، لما جففه وأصبح تراباً بقي خمسة أشهر لا أثر للحياة فيه، ثم لما غمره بالماء رجع إلى الحياة مرة أخرى وأخذ يسعى ويتغذى.

٢ ــ وفي سنة ١٧٤٣ شاهد العلامة «بندهام» وغيره نفس هذا الأمر؛ ذلك أن الناس يشاهدون بعض حب القمح مصاباً بمرض فيكون ضعيفاً متغير اللون، فلما بحث العلماء هذا الحب وجدوا فيه عجباً عجاباً مثل العلامة «بندهام» المذكور، وتفصيل ذلك أن هناك حيوانات صغيرة جداً تعيش في سنابل القمح وتبيض فيها وتفقس ويخرج من بيضها علقات تسبح حتى تدخل تلك الحبات، ويكون في كل حبة من تلك الحبات من عشرة آلاف إلى عشرين ألف حيوان، فإذا حصد القمح وجف الحب جف هذا الحيوان فيه، فإذا أصابه الماء حييت تلك الحيوانات ثانياً وبعثت من مرقدها وطلبت لها نباتاً من القمح تعيش فيه، ولا تزال هكذا حتى إذا ظهر السنبل سمنت تلك الحيوانات وفعلت ما فعله آباؤها من قبل.

٣ ــ ولقد اختلف العلماء لما رأوا هذه العجائب وقالوا: أدائمة هذه الحياة أم هي منقطعة وأعقبها بعث، تحيروا وشكوا ورجعوا إلى التجارب.

٤ ــ ففي سنة ١٧٧٦ جرب العالم الراهب الإيطالي «سبلنزاني» في حيوانات تعيش في الماء تجارب كثيرة؛ فإنه جففها فانعدمت معالم الحياة فيها انعداماً تاماً، وجعلها على هيئة تراب مدة ثلاث سنوات، وعرضها للبرد الشديد والأشعة المحرقة، وبعد ذلك ندّاها بالماء فرجعت لها الحياة.

٥ ــ وأيضاً جرب العالم المذكور حبة القمح التي تحتوي على أكثر من عشرة آلاف حيوان كما قدمنا فجففها كما تقدم ١٦ مرة، وبعد كل تجفيف ندّاها بالماء فرجعت لها الحياة.

٦ ــ وقام العلامة «دوبير» من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٤٢ فوضع بعض تلك الحيوانات المتقدمة في وعاء فرغ من الهواء تفريغاً تاماً مدة أيام، ثم عرضها إلى درجة ١٠٠ أو إلى درجة ١١٠ سنتغراد مدة دقيقتين، ولما نداها بالماء رجعت إلى الحياة.

٧ ــ ومثله العلامة «جفري» سنة ١٨٥٩.

٨ ــ وحذا حذوه العلامة «دافين» جفف دود القمح فصار على شكل تراب أبيض اللون مكون من خيوط بيضاء دقيقة جداً خالية من كل مرونة، وبعد أشهر نداها بالماء فحييت وسبحت، مع أن الدودة وهي حية لا تتحمل بعض هذا بل تموت، وجفف بعض الحيوانات وحفظها عشر سنوات، ولما نداها حييت، مع أن حياتها العادية لا تزيد عن بعض أسابيع.

٩ ــ وعلقات القمح المتقدمة لا تعيش إلا عشرة أشهر، فلما جففت عاشت أربع سنوات، ثم حييت لما نزل عليها الماء، بل جففها «دافين» عشر مرات ثم رجعت للحياة كل مرة.

١٠ ـ والعلامة «بيكر» ندّى علق القمح بالماء بعد ما جف ٢٨ سنة، وهذا من المدهشات.

من هنا جزم «دافين» و«دوبير» بعد هذه الأبحاث التي استمرت إلى سنة ١٨٦٠ أن الحياة انقطعت في هذه الحيوانات انقطاعاً تاماً، ولكن العلامة «بوستي» قال: الحياة مستمرة. هناك عينت الجمعية الحيوية الباريسية لجنة مكونة من خمسة علماء تحت رئاسة «بروكا» المشرح الشهير، فوضعت هذه اللجنة بعض الدواب العجلية مجففة في الفراغ الجاف؛ أعني الذي لا بخار فيه؛ مدة ٢٨ يوماً متتابعة، ثم بعد ذلك عرضت تلك الحيوانات إلى حرارة مائة درجة مدة نصف ساعة، وبعد ذلك كله رجعت تلك الدويبات إلى الحياة بعد التندية.

فتعجب أيها الذكي كيف أظهر العلم الحديث أن البعث للأحياء حاصل فعلاً، وأن حبة القمح فيها آلاف من المخلوقات، وأن تلك المخلوقات تموت ثم تحيا متى نزل عليها الماء، وكأن حبة القمح التي نراها ضعيفة منحرفة أرضنا التي نعيش عليها، وكأن الحيوانات التي فيها هي أنفسنا، وأن جفافها ورميها في الفراغ وتعرضها للحرارة تارة والبرودة أخرى وجعلها دقيقاً أشبه بما يحصل لأرضنا من التفريق والأحوال المختلفة، أو أن حياة تلك العلقات الكامنة فيها بعد هذه الأحوال العظيمة أشبه بحياتنا بعد موتنا وتعرض أجسامنا إلى أحوال مضنية.

فيا ليت شعري كيف وصل العلم الحديث إلى أن البعث يحصل في هذه الدنيا، وكيف تكذّب الجمعية الحيوية في باريس من ينكر حياة تلك الحيوانات بعد موتها الذي شاهدوه، وكيف يوافق هذا مئات الآيات القرآنية، ألم تر كيف يقول الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾[ق: ٩-١١]. فانظر كيف جعل خروجنا بعد الموت كحياة الأرض بالنبات بنزول الماء، ولا جرم أن حبة القمح المذكورة إذا نزل عليها الماء بعث الحيوان منها بعد موته. فتعجب كيف كان ظاهر القرآن يفيد أن حياتنا بعد الموت مشبهة بالنبات، فكشف العلم الحديث أن في باطن هذا حياة الحيوان في القمح بعد موته. إن هذا لشيء عجاب.

فليعجب المسلمون كيف أصبح العلم الحديث يفسر القرآن تفسيراً لفظياً بعد أن كان ذلك أمراً تقريبياً بالتشابه، ومن هذا فليفهم العقلاء والحكماء معنى قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾[الإسراء: ٨٥] روح الحيوان وروح الإنسان وروح كل حي على وجه الأرض ﴿ قُلِ ﴾ يا محمد لهم ﴿ ٱلرُّوحُ ﴾ ليس من الأمور التي يمكنكم معرفتها لأنها ليست من المادة التي أمامكم، فليست تخلق من الطين ولا الهواء ولا الماء، ولا هي التي تحصل في حال خاصة من أحوال المادة عند تنوعها كما فعل الكيماويون الذين عجزوا عن توليدها في المادة، فانقطع علم الخلائق عنها حتى أرجعتموها أيها الناس إلى عالم غير عالمكم الأرضي وقلتم: لعلها تأتي من كواكب أخرى، وكأنكم قلتم إنها ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ لانقطاع علمها عنكم، فها أنتم أولاء عجزتم عن علمها، وحرتم في أمرها، وهاهي ذه علومكم عجزت عن معرفتها وحولتها إلى عالم الضياء، ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ بأمر الروح ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥] من ظواهر كالحياة والحس والحركة والاختيار والإرادة والحواس الخمس، أما ما عدا ذلك من أصل منشئها وخلقها ومن أين أقبلت فقد أقررتم بالعجز عنها.

وهذه من المعجزات الكبرى لخاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، إذ استبان انقطاع العلماء في هذا العالم عن استقصاء خبرها ومعرفة حقيقتها والوقوف على أسرارها بمثل هذه المعارف المبنية على المشاهدة والتجربة، فليرتق المسلمون وبمثلها فليتعلم المجتهدون. وبهذا فليفهم قوله تعالى أيضا: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾[الحجر: ٢٩]، وقوله: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾[السجدة: ٩]، فانظر كيف تسب الروح إلى نفسه إيذاناً بأنها ليست من العالم الأرضي، وإنما هي من عوالم فوق المادة، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[النور: ٤٦].

جوهرة مضيئة في ملخص هذه السورة

إن هذه السورة مكملة لسورة «الأنعام»، مفصلة لما جاء في آخرها من أن الإيمان الذي لا يثمر ثمرة ما كالكفر عند الهلاك بغتة؛ فلا ينفع الناس توبتهم عند غرغرتهم وعند النوازل المفاجئة كما تقدم شرحه. هذا مما في آخر «الأنعام»، فسورة «الأعراف» ابتدئ فيها أولاً بالحروف ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ وقد قدمنا أن هذه الحروف الأربعة مذكرة بملخص السورة، مذكرة بالتوبيخ في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾[الآية: ٢٢] أي: التوبيخ على اتباع الهوى الذي اتبعه الإنسان، وعلى عدم اتباع نصح الناصحين الأمناء، وسماع نصح الناصحين الغاشين الأغبياء، وقد أشار لذلك هود عليه السلام بقوله: ﴿ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[الآية: ٦٨] أي: بخلاف إبليس فهو غير أمين، ثم أتبع ذلك بالأمر بترك الحرج لما في السورة من النوازل على الأمم، وأمتنا مذكرة بذلك معرضة له، وأتبعه بزواجر أعقبها بأنه جعل لنا معايش في الأرض، وأن شكرنا قليل، وأتبع ذلك قصة آدم وإبليس، وختمها بقول إبليس: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾[الآية: ١٧] فهي تبيان للآية قبلها. فإذا كان الناس لا يشكرون النعم فسببه أنهم لا يسمعون نصح الناصحين ويتبعون خطوات نصح الغاشين المعنون عنهم بأكبرهم إبليس الذي تكبر فلم يسجد؛ فنزل عن مرتبته، وأراد أن يجر آدم إليها فأغواه فسقط في الذنب، فإبليس ضلّ بالكبرياء؛ وهي القوة الغضبية، وعصى آدم بالقوة الشهوية. ثم توالت القصص بعدها، فقوم عاد بطشوا جبارين وهذه هي القوة الغضبية كإبليس، وقوم صالح عقروا الناقة لأجل الشهوة البهيمية لأنها كانت تقاسمهم بعض رزقهم؛ وهي شهوة البطن، وقوم لوط شهوة الفرج، وقوم شعيب في المكيال والميزان؛ وهي شهوة البطن، وهذه شهوة آدم وحواء، وقصة موسى أعمّ مما قبلها، ثم انتهى بقصة ﴿ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾[الآية: ١٧٥] وهي تلخص ما مضى كله، فإن محصلها أن الإنسان يعطى علماً فيغترّ به؛ فيجره العلم والقربى لله إلى استعمالها في معصيته فينزل عن مرتبته، وهذا بعينه ما حصل لإبليس نزل عن مرتبته الشريفة إلى منزلة وضيعة فصار معلماً للشر، فهذا الذي يسمى «بلعام بن باعوراء» صار ملقناً للشر، وأصبح كبعض الدول الأوروبية الآن تستعمل علماً في دس الدسائس والحيل السياسية، إذ أرسل النساء المومسات إلى جيش موسى حتى يضل القوم فينهزموا في الحرب.

فهذا بعينه ما يفعله أهل الغرب في الشرق، إذ منهم طوائف ينتشرون في أقطار الإسلام يفسدون نساء الأكابر والفضلاء، ويذيعون الفحش ويغرون الشباب بالفسوق، كل ذلك ليوقعوهم في الفاحشة حتى لا يفتحوا أعينهم لأعمالهم. هكذا شأن الفرنجة في بلاد الإسلام كافة، وهذه عينها مسألة إبليس الذي لما سقط أخذ يغوي الناس ويغرهم ليكونوا مثله عصاة.

فانظر كيف رأيت قصة الذي انسلخ من الإيمان، رجعت إلى أول السورة من إغواء إبليس الذي غوى بعد أن كان فاضلاً، وجر غيره إلى الجهالة، وأن الذي يعطى الخير والنعمة إذا لم يحترس ولم يفهم بعقله يقال له: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ الخ، فتشابه إبليس وبلعام بن باعوراء في الكرامة أولاً والضلال آخراً، وأنهما ينصبان الأشراك لإغواء الناس.

وهذا فيه بيان أن الذي يعطى علماً أو نعمة فإنه أيضاً على خطر إذا لم يحترس، وهذا يفيدك أن سورة «الأنفال» و«التوبة» بعد هذه السورة فيهما الغنائم والغزوات وفتوح البلدان، وأن هذا الفتوح خير كما كان علم بلعام خيراً، وكما كان علم إبليس خيراً أيضاً، ويخاف أن يكون خير المسلمين في فتوح البلدان يعقبه شر بالتخاذل وحب الرياسة، فيذلوا بعد عزهم كما ذلّ بلعام وذلّ إبليس.

ولقد تم ذلك كله، فإن المسلمين بعد أن فتحوا البلدان ووصلوا إلى قرب باريس لم يبق بينهم وبينها إلا مسيرة ثلاثة أيام وقفوا ثم تخاذلوا، وهكذا رجعوا القهقرى في أخلاقهم واتبعوا شهواتهم.

وقام النزاع في الشرق أيضاً بين الأمويين والعباسيين انتهى بفشل الأمة الإسلامية، ووقعنا نحن اليوم في أسوأ الأحوال.

ألست ترى أن إبليس الذي تكبر بدرجته الرفيعة، وبلعام الذي نال حظوة عند ربه باسم الله الأعظم، قد انحطا عن سماء عظمتهما بكبر الأول وشهوة الثاني، فصار كل منهما يغوي الناس، وهكذا دولنا الإسلامية فتحوا البلدان لنصر الدين كما كان أولاً إبليس وبلعام صالحين، ثم تخاذلت الأمم الإسلامية واتبعوا الشهوات فذلوا للأمم الغربية كما سقط إبليس وبلعام.

أليس هذا هو قوله صلى الله عليه وسلم في حديث البخاري: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا وزخرفها»، أو ما في معناه: «إذ قال رجل: يا رسول الله، أويأتي الشر من الخير؟ فسكت صلى الله عليه وسلم حتى تصبب عرقاً وهو يوحى إليه، ثم أجابه بما يفيد أن خيرات الدنيا أشبه بالمطر، والناس يتلقون هذا الخير كما تنتفع الحيوانات بالعشب والكلأ، فمنها ما يأكل النافع ومنها ما يأكل الضار، فتمرض وتموت» فاقرأه في البخاري فإن فحواه ما ذكرته لك.

فعلى هذا يكون فتح البلدان وترادف الخيرات على المسلمين أعقبه السقوط في مهاوي الشره والعصيان واتباع القوى الغضبية والشهوية، فصار الناس في آخر الزمان تلاميذ إبليس وتلاميذ بلعام بن باعوراء، وغير خافٍ عليك أن ذكر سورة «الأنفال» و«التوبة» بعد هذه السورة قد ظهر سره فافهم.

وملخص هذا كله أنه يقصد نصحنا نحن، فأما إبليس وغيره فتلك أمثال لنا ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣]، فهاهنا تجلت القوة الشهوية والقوة الغضبية في الأمم الإسلامية، وانحطت عن الأمم، كما أنذر الله بهذه السورة، واتصفت بما اتصف به قوم عاد من البطش، وما اتصف به قوم شعيب من تطفيف المكيال، ومن اتباع الشهوات البهيمية كما جاء في قوم لوط.

فهذه السورة إنذار للمسلمين الذين قد وقعوا في جميع ما ذكر فيها، وإني مؤمّل أن هذا التفسير سيكون من المذكرات والمنبهات لهذه الأمم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وختمها بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾[الآية: ٢٠٦] الخ، أي: بخلاف إبليس الذي تكبر فلم

يطع الله، فالملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله، ولا يفعلون ما فعل إبليس من الكبرياء والامتناع عن السجود لآدم، الذي هو عدم امتثال لأمر الله، فالملائكة لا يستكبرون وله يسجدون، بخلاف إبليس وتلاميذه من جميع الأمم التي ضلت بالبطش في الأرض أو بالقوة الشهوية، وكان حقّ هذه الأمم كلها أن يطيعوا ربهم كالملائكة، ولا يعصون كإبليس ومن على شاكلته، وذلك بعد أن أمر صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة بالله من الشيطان المذكور في أول السورة، وبيان أن الذين اتقوا يتذكرون متى مسهم طائف من الشيطان، لئلا يغرّهم نصحه كما غرّ آدم وحواء في أول السورة، وكما غرّ بلعام وأمثاله من جميع الأمم السابقة؛ وبعد أن أمر هو أيضاً أن يذكر ربه بالغداة والعشيّ ولا يكون غافلاً، فرجع آخر السورة إلى أولها، وردّ عجزها على صدرها، وبان كمالها وجمالها. والحمد لله رب العالمين.

عقد منظم من جواهر هذه السورة

في الكلام على أن العذاب باتباع الشهوات وترك القوة العقلية أكثره بالهلاك في الدنيا قبل عذاب الآخرة

لقد اطلعت أيها الذكي على ملخص هذه السورة، وأنها تمثل القوى العقلية كلها؛ فالشهوات البهيمية والقوى الغضبية يكبحهما ويضبطهما العقل والحكمة التي تتبع بهذا القرآن.

وهاأنا ذا في هذا العقد أبيّن لك أمراً عجباً، ذلك أن عقاب الأمم يبتدئ بالعذاب في الدنيا. ألا تنظر إلى قوم شعيب كيف أخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين؟ ولماذا أخذتهم؟ أخذتهم لأنهم طففوا المكيال والميزان. وحينئذ يقال: وما ضرر تطفيف المكيال والميزان؟ فنقول: نعم، إن القوم إذا فعلوا ذلك أصبحوا مغرمين بأعمال الشر وتمادوا فيه، ويستبيح زيد مال عمرو، ويأخذ القوي مال الضعيف، فتضعف الأمة فتموت، وإذن يكون هلاك الأمة حتماً لازماً.

ولما وصلت إلى هذا المقام جاءني أحد العلماء واطلع على هذا المقال، فقال: أوضح هذا المقام وأيّ مناسبة بين المكيال والميزان وبين خراب الأمم؟ فقلت له: قد بينت وأوضحت. فقال: لو أن زيداً اشترى من عمرو قنطاراً تمراً أو عنباً أو تيناً أو أردباً قمحاً وعند الوزن أو الكيل زاد في وزنه وكيله رطلاً أو قدحاً، فماذا حصل؟ حصل أن مال عمرو انتقل منه جزء يسير إلى مال زيد خلسة بدون مقابل، فهل هذا يوجب أن تبتلعهم الأرض؟ فقلت له: إن الأمة إذا رسخت فيها هذه الأخلاق أصبحت فيها ملكة، فيأخذ الناس المال بالحيلة تارة وبالتعصب تارة أخرى، بالسرقة والإكراه ثالثة وهكذا.

ولا جرم أن هذا الخلق يقبض الأيدي عن الكسب، فتموت الأمة وتذل ويلحقها الدمار والبوار وهذا عذابه يعجل في الدنيا أولاً فالآخرة، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[طه: ١٢٧]. قال: وما مغزاه لهذه الأمة الإسلامية اليوم؟ قلت: إن الأمة الإسلامية اليوم قد فعلت أكثر ألف كرة مما فعلت تلك الأمم، ولذلك استحقت من الله أن يرسل لها المدافع، فتأخذها الرجفة كما جاء في أول السورة: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾[الآية: ٤]، فهاهي ذه الأمم الإسلامية اليوم نائمة جاهلة مسترسلة منتظرة في كل حين أن يأتي لها العذاب من الأمم القوية النابهة المفكرة، ليلاً أو نهاراً كما في أول السورة. قال: وماذا فعلت الأمم الإسلامية؟ قلت: لم تعمل بما جاء في هذه السورة، يقول الله: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[الآية: ١٠] والشكر

مستحيل إلاَّ بمعرفة النعمة، والمسلمون لم يقرؤوا نعم الله التي على هذه الأرض فكيف يشكرونها؟ فقال: هذا كلام غامض فأوضحه. فقلت:

مثل أمة الإسلام اليوم مع الله تعالى

إنَّما مثل أمة الإسلام اليوم مع ربها كمثل عبيد الملك، أقطعهم حدائق وجنات فيها نخيل وأعناب ورمان وتين وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون. قال: ثم ماذا؟ قلت: وأرسل لهم رسولاً من عنده ومعه منشور فيه: «هذه حدائقي لكم وهي ملككم، ومن أخذ من حديقة جاره قطف عنب أو عذقاً من تمر أو قبضة من تين، فإني آخذ منه حديقته وأعطيها لغيره وربما أهلكته». فلما قرؤوا هذا المنشور اتبعوه مدة ثم بعد ذلك أخذوا يلعبون ويرتعون ويتركون حدائقهم، ولا ينزلون إليها الماء ولا يسقونها، ويكتفون بماء المطر، فقيل لهم: لماذا تفعلون ذلك؟ فيقولون: إن الله حرم علينا أن نأخذ مال غيرنا، ولم يحرم علينا أن نترك زرعنا ولا أن نمنع عنه الماء. فقيل لهم: لقد أخطأتم، إن من يأخذ من مال غيره معاقب مع وفرة المال عنده وعند غيره، فيكون من باب أولى إذا تركا معه تنمية المال.

فإذا كان الله يعاقب قوماً عندهم مال على أن يأخذ أحدهم من الآخر رطلاً بطريق التطفيف، فأولى ثم أولى إذا كان كل منهما لا مال عنده إلاَّ قليلاً، وقد تركا حديقتهما فلم ينزلا لها الماء، فإن الخسران هنا أعمّ وأتمّ، والعذاب يكون أعظم وأعظم لأنهم ضيعوا قناطير وقناطير. فقال: وهل فعل المسلمون ذلك؟ قلت: نعم. قال: ولم ذلك؟ قلت: لأنهم ملكوا أرض الله فلسطين وسوريا ومصر والعراق والهند والصين والسودان وبقية شمال أفريقيا، وفي تلك البقاع أنواع المعادن والغابات والأرض الخصبة والمياه الجارية والكهرباء المخزونة والمغناطيس الكامن في المعادن بالاستعداد والفحم المخزون للناس والبترول.

وهناك من النعم ما لا يحصى، ترك هذا كله المسلمون وناموا، فسألتك بالله أيها الفاضل: قل لي: هل خلق الله هذه المخازن لنفسه؟ قال: لا. قلت: إذن لمن هي؟ قال: لعباده. قلت: هؤلاء هم المسلمون عباده، وقد سلمهم مفاتيح أرضه وقال لهم: من ظلم منكم عذّبته في الدنيا والآخرة، فرأيناهم جميعاً تركوا عقولهم ومواهبهم وأرضهم وناموا، فقل لي بربك أيهما أشد خسارة وضراً؟ رطل عنب وقدح برّ في التطفيف المذكور في قصة شعيب، أم آلاف آلاف من النعم العظيمة من الفاكهة والحب وغيرها ومن الفحم في الأرض؟ قال: بل الأمر هنا أعظم، لأن رطل العنب أو قدح البرّ خرج من زيد إلى عمرو، والناس عندهم مال، أما هنا فمعناه أن الآلاف وآلاف الآلاف قد خسرها الناس.

قلت: حينئذ يكون مغزى هذه السورة أن المسلمين إذا تركوا نعم الله التي في الأرض تعاقبهم الأمم وتأخذ منهم أرضهم أو تهلكهم وتبيدهم.

قال: وهل هذا يوافق آراء علماء الإسلام؟ قلت: عجباً، أليس هذا كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[الإسراء: ٢٣] فالولد نهي أن يقول لوالديه: «أفّ». قال العلماء: إن الضرب يكون محرماً من باب أولى، فهنا يقال: فإذا كان رطل عنب أخذه رجل من آخر في الإسلام ظلماً، يوجب ذلك بتكراره وشيوعه عذاب الأمة في الدنيا، فمن باب أولى إذا قعدوا جميعاً عن زرع أرضهم فالخسران هنا أشدّ.

يا سبحان الله، كل هذه القصص القرآنية رتب فيها خراب الأمم على تقصيرهم في حفظ نظامهم، إذن القرآن يأمرنا بنظام الأمة.

ومن عجب أن يكون أكثر العذاب المذكور في القرآن دنيوياً ويتبعه الأخروي، والوعّاظ في الإسلام لا يوضحون هذا، بل هم لا يعلمون.

قال: فهل نصّ العلماء على ما تقول؟ قلت: قد أوضحت في هذا التفسير في غير موضع أن فروض الكفايات متى تركها المسلمون أثموا، وفروض الكفايات لنظام الأمة وما تحتاجه في معاشها. فما قلته الآن داخل في ضمن هذا الموضوع وقد أوضحته في سورة «المائدة» عند مسألة الغراب وابن آدم، فارجع إليه إن شئت.

فقال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والحمد لله رب العالمين.

انتهى تفسير سورة «الأعراف».

تمّ بحمد الله وحسن توفيقه

الجزء الرابع من «الجواهر في تفسير القرآن الكريم»

ويليه الجزء الخامس

وأوله

تفسير سورة «الأنفال»



فهرست الجزء الرابع من تفسير الجواهر